﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾

- وإذا الصُّحفُ نُشِرتْ
- أدهم شرقاوي / قَسّ بن ساعدة
- دار كلمات للنشر والتوزيع
- الطبعة الأولى ٢٠١٨

دولة الكويت / محافظة العاصمة

تلفون : ٠٠٩٦٥٩٩١١٩٩٣٤

تويتر : @Dar_kalemat

إنستجرام : Dar_kalemat

Dar_Kalemat@hotmail.com

للتواصل مع المؤلف :

تويتر : @adhamsharkawi

إنستجرام : Bin.saeeda

﴿وإذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾

نصوص

أدهم شرقاوي

« قسّ بن ساعدة »

٢٠١٨

الإهداء

إلى الذين راوَدَهُم العزيزُ عن أقلامِهم

فقالوا : «معاذ الله»

لأنهم يعلمُون أنّ أقبح الزِّنى زنى القلم!

عن الذين لا يراهُم أحد!

كـان سُـقـراط يتـمـشَّى مع غلوكُـون شـقـيقُ أفـلاطون . . روى غلوكُون لسقـراط قصَّة راع من مملكة ليـديا وجـدَ ذات مـرَّةٍ خـاتمًا ، وضعَه في إصبعه ، وسرعانً ما انتبه إلى أن أحداً لا يراه ، فذلك الخاتم السِّحريّ يجعله غير مرئي في أعين الآخرين .

تفلسفَ سُقراط وغلوكون مطولًا حول التفرعات الأخلاقية لهذه القصة ، ولكن أيًا من الاثنين لم يتساءل عن السبب في أنّ النساء والعبيد ليسوا مرئيين في اليونان ، بالرغم من أنهم لا يستخدمون خواتم سحرية!

مات سُقراط وغلوكون ، ودار الزمانُ ألفين وخمسمائة سنة تقريبًا ، تقدَّم العِلمُ ، واتسعت المعرفة ، دُحضت الأساطيرُ ، تبين أن لا خواتم سحرية ، أما الشيء الوحيد الذي لم يتغير ، فهو أنه بقي بعض الناس لا يراهم أحد!

وهذه كلمات عن الذين لا يراهم أحد!

عن ربات البيـوت اللائي لا تُدرجهنّ وزارة العمل بين العاملين ، ولا وزارة الدفاع بين الجنود ، رغم أنه إن كان أحد يعمل في هذا العالم فهنّ ، وإن كان أحد يُقاتل بشراسة لأجل قضية شريفة فهنّ أيضًا!

عن العمال البسطاء الذين إن غابوا لم يُفتقدوا وإن حضرُوا لا يُأبه لهم ، العتالين في المرافئ ، صبيان الميكانيكيين ، العجوز التي

تفترشُ الطريق تبيع بضاعة مزجاة كي لا تمد يدها للناس ، الآباء الذين يفلقون صخر الحياة بحثًا عن رغيف وكتاب ، سائقي سيارات الأجرة ، كانسي الطرقات ، سائقي سيارات الإسعاف الذين يسابقون الموت ليصلوا بالمريض وبه رمق من حياة فلا يراهم أحد ، لأن الجميع سمّروا أعينهم تجاه الطبيب ، هؤلاء هم طعم العالم ونكهته ، هؤلاء البشر مع مرتبة الشرف!

عن اللواتي تأخر زواجهن ، يمتن ألف مرة شوقًا لطفل وحبيب ، حالت بينهن وبين أمانيهن عادات بالية نعلقها على مشجب النصيب ، وكلنا نظن أنهن بخير ، تبًا لنا ، إنهن لسنَ بخير!

عن الشباب المكبلين بأصفاد المهور الغالية ، والوظائف المفقودة ، المحاصرين بعالم يراودهم عن أنفسهم كل يوم ، هذا العالم الحقير بإعلامه الهابط ، وسياسييه اللصوص ، وفنه المثير للغرائز ، ولكنهم ما زالوا على الطريق ، يمشون إلى المساجد وفي أعماقهم ألف حرب تدور ، ويراقبون الله رغم أن الحرام يسير ، والدنيا تصرخ فيهم صراخ زلخة ليوسف : هيتَ لكَ!

عن الكثيرين ممن لم أذكرهم في هذا المقال ، لأنني لم أرهم أنا أيضًا ، لا تبتئسوا ، يكفي أن الله يرى!

الوطن

٥- ١١ - ٢٠١٧

مولانا الديك!

يُحكى أنّ ديكاً كان يُؤذّنُ للفجر كلّ يوم ، فقال له صاحبه : أيها الدّيك لا تُؤذن وإلا ذبحتُك!

قال مولانا الدّيكُ في نفسه : الضروراتُ تبيح المحظورات ، ومن السياسة الشّرعيّة أن أتنازل قليلاً حتى أحافظ على نفسي ، وعلى كلّ حال هناك ديوك غيري سوف ترفعُ الأذان!

وبعد أسبوع جاء صاحبُ الدّيك وقال له : لا يكفي أن لا تُؤذن ، إن لم «تُقاقي» كالدجاج ، ذبحتُك!

فعاد الدّيكُ وقال في نفسه : الضرورات تبيحُ المحظورات ، ومن السياسة الشرعيّة أن أنحني قليلاً حتى تمرّ العاصفة ، ولا بأس ببعض «المقاقاة»!

وبالفعل بدأ مولانا الدّيكُ «يُقاقي»!

وبعد أسبوع جاء صاحبُ الدّيك وقال له : الآن إما أن تبيض كالدجاج أو ذبحتُك!

عندها بكى الدّيكُ وقال : يا ليتني متُّ وأنا أُؤذّنُ ولا عشتُ وأنا أحاولُ أن أبيض!

التنازل يبدأ بخطوة ، ثم بعد ذلك يستحيل الرجوع! عليك أن تكمل الطريق مطأطئاً رأسك ، لأنك انحنيتَ حيث كان يجب أن تنتصب كالجبل وتغرس قدميك في التّراب! وكلما عظُمتْ مسؤولياتك كان وقوفك واجباً ، وثباتك فريضة! وما يُقبل من العوام لا يُقبل من العلماء والمفكرين والأدباء ، لأنهم قُدوات ، والناس

ينظرون إليهم بعين الإجلال ، والعلماء في الرّخاء سواء ، لا يفضُل أحدهم الآخر إلا بمقدار ما يحفظ ويستنبط ويجتهد ، فإذا جاءت المِحَنُ تباينوا!

لم يُرد المأمون من أحمد بن حنبل سوى أن يكفّ عن الأذان ، أي يقول بخلق القرآن ، كما مذهب المعتزلة ، والكفُّ عن الأذان له في كل عصر صورة ووجه! ولكن الإمام كان يعرفُ أنه متى كفّ عن الأذان ، فلا بُد أن تأتي الخطوة التالية التي سيُطلب منه أن «يُقاقي»! أو لعلّ المأمون لن يكتفي بهذا ، بل سيطلب منه أن يحاول أن يبيض! وكان يعرفُ أنه لا يُمثّل نفسه ، وأنّ ديناً كاملاً ، وخَلقاً كثيراً في رقبته ، وأن في هذه المواقف لا يأخذ العالم بالرّخصة ولا يعمل بالتّقية! فقرر أن يصدح بالأذان وليفعل المأمون ما يرى ، وهكذا اقتادوه إلى الساحة العامة في بغداد وجلدوه ، ولم يكفّ عن الأذان ، حتى قيل فيه : أبوبكر يوم الرّدة وأحمد يوم الفتنة!

في أيام الطقس الجميل لا يحتاج الناس معطفاً ، ولكن إذا ما تداعت العواصف هرعوا إلى معاطفهم ، والعلماء معاطف الناس! ومسؤوليتهم أن يُدثّروهم ولا يتركوهم عرضةً للارتجاف مهما كلّف الأمر! فيا أيها العلماء الأجلاء : نحن نعرف أحكام الوضوء والصلاة والحيض والنفاس ، وليس هذا ما نريد منكم وإن كان الفقه من أجلّ العلوم ، إنما نريد أن نحتمي بكم ، ألا نرتجف لأن أحدكم قرر أن يكفّ عن الأذان لينجو بنفسه ، وعلّق الأمل على ديك آخر! يا أيها الفضلاء ، يقول لكم عمر المختار الذي وقف في وجه إيطاليا كلها من المهد حتى حبل المشنقة : إياك أن تنحني مهما كان الأمر ضروريا ، فربما لا تؤاتيك اللحظة لترفع رأسك مجدداً!

الوطن ١٩- ١١ – ٢٠١٧

لا تقطعوا أجنحتهم دعوهم يحلقون!

يقولُ خبراء التربية : إذا كان لديك أطفال وبيتك على الدوام مرتب ومنمق ونظيف ، وكل شيء في مكانه تمامًا فأنتَ أبٌ سيئ أو أم سيئة ، لأن البيت المرتب على الدوام في وجود أطفال يعني أن حرمانًا وجبروتًا وسلطة قوية تمارس على الأطفال ، والبيت المرتب على الدوام يعني أن طفولة تُسرق ، وخيالاً يُسجن ، وروحًا تُداس بالأقدام!

لستُ ضدَّ أن يكون في البيت نظام وقانون ، أي تجمع بشري صغيراً كان أو كبيراً لا يحكمه نظام وقانون وعُرف مصيره الخراب ، ولكن الأنظمة والقوانين إنما كانت لتنظيم حياتنا وليس لسرقتها! ولكن ما أنا ضده تمامًا أن يعتقد الأبوان وخصوصًا الأم لأنها معنية بترتيب بيتها أكثر من الأب ، ولأنها أرهف إحساسًا وغريزتها تجاه التنسيق أعمق من غريزته ، إن أثاث البيت يجب أن يكون كآلهة قريش في الجاهلية تنحني له الرقاب وتقدّم له القرابين! الأثاث في البيت إنما نشتريه لنستخدمه لا لنقدسه ، ونحن إنما يجب أن نكون بين بين لا إفراط ولا تفريط .

حاجة الطفل إلى اللعب ، كحاجة الشاعر إلى قصيدة ، وحاجة الشجرة إلى الماء ، وحاجة العاشق إلى وجه حبيبته! فهو ليس تمضية وقت بقدر ما هو تعبير عن الذات واكتشاف للعالم ، عندما كانت ابنتي صغيرة وتنزل بها حمى البحر المتوسط لم نكن نعرف قبل التشخيص من الأعراض إلا ارتفاع الحرارة ، ولكني

سمعتها تحضن لعبتها وتقول لها : يا حبيبتي أنت عندما تمرضين يؤلمك بطنك ، وتشعرين أنك ستتقيئين ولا تستطيعين ، وتشعرين بالبرد وتريدين من يحضنك! وحضنت لعبتها!

أولادنا أهم من الكراسي والطاولات والمزهريات واللوحات والسجاد ، ثم ماذا يعني أن يتسخ البيت ، وتتناثر أقلام التلوين ، وتتكوم الأوراق ، بدل أن نحرمهم لنعقد معهم اتفاقًا أن عليهم أن ينظفوا وراءهم!

الأوراق المتناثرة والورق الممزق يعني أنهم يعيشون طفولتهم ، وأنكِ أمّ عظيمة تتركينهم يكبرون بسلام

سل الغسيل يعني أنك لست دكتاتورية وإنما أم رائعة تحوطهم بالرعاية والاهتمام .

البيوت التي ليس فيها أولاد قبور على هيئة بيوت ، يتمنى الذين حُرموا الأولاد لو كان عندهم ولد يقلب البيت رأسًا على عقب! وتتمنى الزوجة التي ليس عندها ولد لو كان عندها ولد يكسر كل ساعة صحنا ، ويلوث ملابسه كل دقيقة!

علِّمُوهم على النظام ، وربُّوهم على الترتيب ، ولكن لا تقطعُوا أجنحتهم ، دعُوهم يُحلقون!

الوطن

٢٩- ١٠ - ٢٠١٧

عُقدة الإفتاء!

سُئِلَ الشعبيُّ عن مسألة ، فقال : لا أعلم!

فقيل له : أما تستحي أن تقول لا أعلمُ ، وأنتَ فقيه العراق؟!

فقال : إن الملائكة لم تستحِ حين قالتْ : «سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا»!

الشعبي هو عامر بن شراحيل الكوفيّ ، من أئمة التابعين ، فقيه ومحدِّث ، وُلد في خلافة عمر بن الخطاب ، وولاه عمر بن عبد العزيز القضاء ، قال عنه الذهبيّ في سير أعلام النبلاء : كان إمامًا حافظًا فقيهًا ثبتًا متقنًا!

وقال عنه ابن حجر : ثقة مشهود وفقيه فاضل

وقال عنه ابن سيرين : قدمتُ الكوفة وللشعبي يومئذ حلقة عظيمة والصحابة يومئذ كثير!

ورغم هذا لا يجد الشعبي حرجًا أن يقول : لا أعلم

أما نحن فنعاني من عقدة الإفتاء ، في كلٍّ منا مفت صغير ، تجدون الواحد منا لا يعرف في أمور الفقه أكثر من الوضوء ولا يتورع أن يعطيك فتوى جازمة لم يتفق عليها الفقهاء!

تجدون الذي لا يعرف حروف الإخفاء من حروف الإظهار يُفتي في الأسهم وأسواق المال وعقود التجارة والمرابحات!

وتجدون الذي لا يعرف معنى متفق عليه ، يلفُ رجلًا على رجل كأنه أبو حنيفة ويقول : هذا حديث ضعيف! لا لشيء سوى أن الحديث يتعارض مع الفتوى التي سبق وأتحفنا بها!

وتجدون الذي إذا سمعتموه يقرأ القرآن فيرفع وينصب ويجزم على هواه فتحسبونه أحد أصحاب القراءات السبع يفتي في المواريث ومصارف الزكاة!

كنتُ مرة عند الحلاق انتظر دوري في عداد المنتظرين ، والجلسة عند الحلاق عادة ما تكون حلقة علم يناقش فيها فقهاء «النص كم» أمور الفقه المستجدة ، وكان يومها الموضوع المطروح للمدارسة الربا الذي تعطيه البنوك ، وعندما تشعبت آراء الجهابذة ، كان لا بد لأحد أن يحسم الموضوع ، عندها تدخل أبو ماهر حبر الأمة وقال : خُذ ما يعطيك إياه البنك ولكن لا تأكله ، اشترِ به بنزينًا للسيارة ، واملأ منه قارورة الغاز ، وادفع ثمن المنظفات والشامبو ومعجون الأسنان ، فإنما قال الله : «ولا تأكلوا الربا» وأنا أفعل هذا!

حسنًا قُضي الأمر الذي فيه نستفتي ، إن حبر الأمة يفعل هذا!

أما عن مجالس النساء فحدث ولا حرج ، في كل مجلس تجد عائشة وحفصة وأسماء! جدتي وحدها لو جمعتُ فتاويها في كتاب لفاقت مجلداته عدد مجلدات فتح الباري على شرح صحيح البخاري!

لماذا إذا مرضنا نذهب من طبيب إلى طبيب ، وإذا تعطلت سيارتنا ذهبنا من ميكانيكي إلى آخر ، وإذا أردنا أن نبني بيتًا سألنا عن أمهر مهندس ، وإذا تعلق الأمر بالدين فكل واحد فينا فقيه مجتهد ، ومرجح بين النصوص لا يُشقُّ له غبار!

صعد عالمٌ المنبر ، فسئل عن مسألة ، فقال : لا أعلم

فقال له رجل من الحضور : هذه المنابر يرتقيها من يعلم

فقال له : لقد ارتقيتُ على قدر علمي ولو ارتقيتُ على قدر جهلي لبلغتُ السماء!

وجاء رجل من العراق إلى المدينة يسأل الإمام مالك عن قضايا فقهية ، فأجاب الإمام عن بعضها وسكت عن بعضها

فقال له : ما أقول لأهل العراق يا مالك؟

فقال له قل لهم إن مالكًا لا يعلم!

ومن طريف ما قرأت ، أن أحد حكماء الجاهلية كان مقصد الناس في كل أمرٍ أشكل عليهم ، فقصده ذات يوم ثلاثة إخوة وقالوا له : إن أبانا مات وتركنا نحن الثلاثة ، وآخر في البيت له عضو تأنيث وعضو تذكير ، ونحن لا نعلم أيرثُ إرث الذكور أم الإناث؟

فلمّا لم يعرف الحكيم جوابًا أبقاهم عنده حتى يرى حكمًا ، فمكثوا عنده شهرًا يطعمهم ويسقيهم ، حتى ضاقت جاريته بهم ذرعًا ، وقالت للحكيم : إما أن تفتيهم أو تردهم إلى أهلهم فما أراك إلا قد حبستهم!

فقال : لقد جاؤوني بشائك المسألة!

فقالت له : فما خبرهم ، لعلي أجد لكَ حلًا!

فضحك ضحكة الساخر ، ولكنه لم يجد بُدًّا أن يخبرها!

فقالت له : الأمر بسيط ، احكم فيه من مباله! فإن بال واقفًا يرث إرث الرجال ، وإن بال قاعدًا يرث إرث النساء!

فأعجبه رأيها وقضى به!

الشاهد في القصة أن الحكيم كان من أهل الجاهلية ، لا يرجو جنة ولا يخاف نارًا ، ومع هذا تورع أن يُفتي بما لا يعلم! فما بالنا نحن نتجرأ على الفتوى ، فنفتي بما نعلم وما لا نعلم؟!

الوطن ١٤– ٥ – ٢٠١٧

عندما طفتُ العالم!

لمن لا يعرفني ، أنا رحّالة كابن بطوطة ، أهوى السّفر ولا أكاد أستقرُّ في بلد!

زرتُ بلاداً لم يسمعْ عنها السّندباد!

واجتزتُ بحاراً لم يتبللْ علي بابا بقطرةٍ من مائها!

أكلتُ طعاماً شهيّاً دسماً في بلادٍ نائيةٍ لم تخطر على بال أشعب!

رأيتُ نساءً جميلات لم يرهنَّ عمرُ بن أبي ربيعة يوم كان يحسبُ أنّ الجميلات هُنّ فقط هندٌ ودعد!

بلغتُ حدوداً لم تبلغها غيمة الرّشيد التي كان يقول لها : أمطري حيث شئت فسيعودُ إليّ خراجك!

دخلتُ مكتباتٍ لا يعرفُ المأمونُ شيئاً عنها ليمنح وزن الكتاب ذهباً!

تمددتُ على شواطئ بحارها بلون السّماء ، وقفَ على جهتها المقابلة عقبة بن نافع معتقداً أنه ليس وراء البحر بلاداً أخرى!

رأيتُ أمراضاً لم يسمعْ عنها ابن سينا ولا أبقراط!

والتقيتُ شعراء عددهم أكثر بمئات المرات من الذين ضمّهم مجلس سيف الدّولة يوم قذف المتنبي بدواة الحبر!

أُحبُّ أن أرى الأنهار تجري نحو مصرعها في البحر ، ويسحرني خريرُ الماء ، موسيقى عذبة تعزفها القطراتُ بأصابع الفتنةِ على

قيثارةِ الأرض! أما الشّلالاتُ فتلك فتنة أخرى ، لم أسمعْ بشلالٍ ساحرٍ إلا زرته!

زرتُ شلالات فيكتوريا في نهر زامبيزي على الحدود بين زامبيا وزيمبابوي! هناك لا شيء إلا الماء ، صوتاً وطعماً ولوناً ورائحة! لا تُصدّقوا أولئك الذين قالوا ليس للماء طعمٌ ولا لونٌ ولا رائحة ، هناك ستعرف أنّ ما قالوه هُراء!

زرتُ شلال آنجل في فنزويلا ، آية من آيات الخالق ، يقع في غابة استوائيّة نائيةٍ ليس من السّهل أن يبلغها البشر ليشوهوها ، هناك الماء له رائحة التّوابل ، ونقاء الزّجاج!

زرتُ شلال إجواز على الحدودِ بين البرازيل والأرجنتين ، ذاك شلال لا تشعر وأنت تنظر إليه أنه يهوي رغماً عنه ، تحسبه يقفز بإرادته ، كمن يمارس هواية مفضلة ولكنه لا يكفُّ عن ممارستها أبد الدّهر!

أما عن شلال جولفوس في آيسلندا فلا أعرفُ ما أقول ، كيف يصفُ الإنسان شلالين أحدهما يصبُّ في الآخر ، أي لغةٍ تسعه ليفعل هذا ، وأي كلمات؟! هناك تعرف أنّ كلّ ما تكبدته منٍ وعثاء الطريق للوصول إلى هنا لم يكن شيئاً!

أُحبُّ القهوة كثيراً ، وإليها أشدُّ الرّحال ، وأضربُ أكباد الإبل ، ما سمعتُ يوماً بمكان تُدار فيه القهوة إلا أتيته ، لا بحثاً عن الطعم فقط ، ولكن عن الرّائحة أيضاً ، رائحة القهوة أحد عطوري المفضلة التي لا تجاريها كل عطور باريس ولو وضعوا فرنسا كلها في زجاجة عطر!

في نجدٍ شربتُ قهوةً عربيّة ، تخيّل أن يجتمع البُنُّ والزّعفران والهيل في فنجانٍ واحد! هذا ناهيك عن طعم التّاريخ ، هناك الفناجين فيها شيء من حزن الخنساء وهي ترثي صخراً ، صدقوني

يمكن أن يشعر المرء بحزن القهوة! وعلى وجه الفنجان ترى قس بن ساعدة يخطب العرب في سوق عكاظ بحضرة نبيّهم الذي لم يصبح نبيّاً بعد!

شربتُ قهوةً تركيّة في اسطنبول ، فيها طعم الفتوحات ، ورائحة محمد الفاتح على أبواب القسطنطينية ، قهوة لها طعم عزّة ، تذكرك بالسلطان عبد الحميد وهو يقول : إنّ عمل المبضع في جسدي أهون عليّ من اقتطاع بيت المقدس من دولتي!

وقال لي ايميري النادل حين قدمها لي : القهوة تُشربُ على مهل!

وفي روما شربتُ الاسبرسو ، قهوة فاتنة ، سميكة وكثيفة ، لا تشوبها شائبة ، كأنّ أفلاطون أعدّها في مدينته الفاضلة ، وكأنّ سقراط ناوله البنّ ، وأرسطو حضّر له الفناجين! للإسبريسو رغوة ذهبيّة ، وإضافة السُّكر إليها جريمة ، فإياك أن ترتكبها!

وفي باريس شربتُ قهوة لاتيه على أصولها ، كانت شهيّةً جداً ، ترددتُ بادئ الأمر أن أشربها ، فلم استسغ فكرة أن يجتمع الحليب والقهوة في فنجان ، ولكن ماركوس اللاتيني شجّعني ، فشربتها ، فأخبرني عن وصفتها السرّية ، وقال لي : اكتُبْ عندك : لاتيه تساوي ٦٠ ملل اسبرسو ، و٣٠٠ ملل من الحليب المبخر ، و٢ ملل من الحليب المخفوق ، وإياك أن تزيد!

أحبُّ الشواطئ كثيراً ، أحسبُها قطعةً من الجنّة على الأرض ، لا هي يابسة ولا هي بحر! هكذا هي بينٌ بينَ بيْنَيْن! أُيممُ وجهي شطرها دوماً!

زرتُ شاطئ وايت هافن في أستراليا ، كان جميلاً حدّ الذّهول ، أنقى شاطئ رمليّ في العالم ، والبشر ليسوا بالغيه إلا

بشقّ الأنفس! إذا أخذتَ كمشة رمل منه غرّموك خمسين ألف دولار! ولكني أخذتُ ولم يضبطني أحد!

أمّا عن شاطئ بونالي في هاواي فحدّث ولا حرج! هل رأيتم شاطئاً أسود؟! هكذا هو . . . رمله حالك كأنّ الليل يختبئ فيه إذا جاءته جحافل الضوء تقودها شمسُ الصّباح! وقد صار هكذا نتيجة تلاقي الحمم البركانيّة الملتهبة مع مياه المحيط الباردة!

وزرتُ شاطىء نوجوي في زنجبار، هناك حيث ينزلق الرّمل تحت قدميك بنعومة، فتشعر أنّ ثمّة من يُدلّك لك قدميك!

وزرتُ شاطىء نافاجيو في اليونان، تقول الأساطير أنّ القراصنة يدفنون كنوزهم هناك ثمّ يضلّون الطريق إليها، فذهبتُ وحفرتُ، ولكني مثلهم ضللتُ الطريق! ولكن من يحفل بضياع كنز حينما يكون على مقربة من البحر بعيداً عن النّاس!

أُحبُّ المكتباتِ كثيراً، شيئان لا يمكنني أن أتصوّر الأرض بدونهما، المكتبات والمساجد، وما تبقّى كماليّات!

تغريني الكتب، وهي عندي أكثر فتنة من النّساء، لدرجة أني لا أستطيع أن أقول لا لمكتبة قالت لي هيتَ لكَ!

زرتُ مكتبة آدمونت آيبي في النّمسا، تخيّلوا معي مكتبة أعلى جبال الألب، هناك حيث مرّ هنيبعل في إحدى أجرأ المجازفات في التاريخ! في المكتبة ما يقارب مئتي ألف كتاب! هذا مكان تودُّ لو أغلقوه عليكَ وانصرفوا!

زرتُ مكتبة جورج بيودي في ميريلاند في الأمم المتحدة، الرّهيب في المكتبة أنها تحوي الأصول النادرة لأوائل الكتب المطبوعة على وجه الأرض، إنها فتنة رائحة الحبر الأولى وقد عتّقها الزّمن، إن الحبر إذا تعتّق فاق النّبيذ فتكاً!

أُحبُّ الطّعام الشهيّ ، وأتتبعه من مكان إلى مكان كما كان العربُ يرتحلون من مكان إلى مكانٍ بحثاً عن الكلأ والماء! الطّعام ثقافة وحضارة وليس مجرّدٍ وجبة نقتّاتها! قل لي ماذا تطهو أقُلْ لك من أنتَ!

التّوابل في الهند هويّة بلد وليست منكّهات!

والمدفون في جزيرة العرب أكثر من لحم وأرزّ!

البيتزا في إيطاليا ليست نوعاً زائداً على المعجّنات!

والكنافة في نابلس ليست مجرّد حلوى!

زرتُ مطعم «el celler de can roca» في إسبانيا ، هناك طعم المحار مذهل ، ولا أعتقد أن مكاناً آخر على وجه الأرض يمكنه أن يقدمه بهذه الطريقة ، هذا المطعم لكأنما هو قطعة من أعماق المحيط!

زرتُ مطعم «osteria francescana» في إيطاليا ، هناك الباستا التي يطهوها ماسيمو بوترا تخبرك عن إيطاليا أكثر مما تفعل أزياء ميلانو ، وأكثر مما يفعل فريق السّيدة العجوز!

زرتُ مطعم «narisana» في اليابان ، وأكلتُ السّوشي على أصولها ، في اليابان أي شيءٍ لا يخطر لك على بال يمكن أن يصبح وجبة ، هؤلاء القوم يأكلون أي شيء ، ويعبدون أيّ شيء! ولكنهم في العلم والعلوم والأخلاق لا يرضون بأيّ شيء!

أُحبُّ الأماكن التّاريخيّة كثيراً ، أراها أكثر من مجرّد حجارة ، وأوافق المجنون قوله يوم قال :

أمــــرُّ على الدّيار ديار ليلى
أُقــبّل ذا الجــدار وذا الجــدارا
ومــا حُبُّ الدّيار شغفنَ قلبي
ولكن حُبُّ من سكن الدّيارا

زرتُ سور الصّين الذي بدأ بناءه تريكو تشانغو ليحمي الصّين من أعدائها ، تخيّل كيف يمكنك ألا ترى بناءً يمكن رؤيته عن سطح القمر ، هناك حين تتمشى على ظهر السّور تشعر أنّك تمشي على التّاريخ ، ثم ينتهي السّور عند مكسر الموج على الشاطئ!

زرتُ الكولوسيوم في روما ، مرتع النشاطات الفكريّة والثّقافيّة لخمسمئة عام تترى! هناك يجتمعُ الفكر والجنون على صعيدٍ واحد! بناه فلافيو فسبازيان ، وأحرقه نيرون!

زرتُ تاج محلّ ، هناك تعرف كيف يمكن للحُبّ أن يكون أقوى من الموت! تموت تاج محلّ الأميرة الفاتنة ، فيمضي زوجها شاه جيهان ستة عشرة عاماً يبني لها قبراً ، حتى خرج تحفةً معماريّة تجمعُ عمارة الفرس وعمارة العثمانيين على صعيدٍ واحد!

أتمنى أنكم استمتعتم بالرّحلة التي أخذتكم بها معي حول العالم ، بقي أن أخبركم أني لا أُسافر ، وأني أحمل وثيقة بالكاد يمكن تسميتها جواز سفر! ترفضها أغلب السّفارات ، وتتوجسُ منها معظم المطارات ، ولكني قررتُ رغماً عن هذا الكوكب وحكوماته أن أسافر ، فقرأتُ ، كثيراً قرأتُ ، لأني اكتشفتُ أنّ الكتب جوازات سفر الفقراء والمضطهدين والمطرودين الذين تركلهم السّفارات وتطردهم المطارات!

مدوّنات الجزيرة

١٩ / ٣ / ٢٠١٧

الكَيْد: تُهمةُ الرّجالِ للنِّساء!

قال رجلٌ لنسوة : إنكنّ صاحباتُ يوسف!
فقلنَ له : فمنْ أَلقاه في الجُبِّ؟!
فقال : ومن ألقاه في السِّجن؟!
كلّما مررتُ بسورة يوسف تساءلتُ :
أيُّ الكَيْدينِ كان أشد وطأة على يوسف ، كيد الرّجال أم كيد النّساء؟!
ألقَت النسوةُ يوسف في السّجن من فرط الحب ، وألقاه الرّجال في الجُبِّ من فرط الحقد!
الكيد إذاً ليسَ حِرفة نسائيّة كما يظنُّ الرّجال ، والحديثُ عن الكيد على أنّه شأنٌ أنثويّ تهمة ألصقها الرِّجال بالنساء ، نتيجة فهم ذكوريّ للنَّص القرآني ﴿إنّ كيدكنّ عظيم﴾!
الآية وإن كانتْ تُثبت وبشكل قاطع وجود الكيد في النّساء ، فإنّ ﴿ولا تقصُصْ رؤياكَ على إخوتك فيكيدوا لكَ كيداً﴾ تُثبتُ بما لا يدع مجالاً للشكِّ أن للرجال حظاً وافراً من الكيد أيضاً!
وإذا كان كيدُ النّساءِ ممهوراً بالصِّفة «عظيم» ، فإنَّ كيد الرّجال ممهورٌ بالمفعول المطلق «كيداً» ، ومن فوائد المفعول المطلق كما يقول النُّحاة هو نفيُ المجاز!
خلقَ الله المرأة أرقّ من الرّجل في المشاعر ، وأضعف منه في البِنية الجسديّة ، ووضع الكيد فيها سلاحاً تُداري فيه رقّتها ، وتعوِّضُ به فارق القوة بينها وبين الرّجل ، وكل من يحمل سلاحاً

ليس بالضرورة أن يستخدمه ، فالرجل الذي يحمل مسدساً لن يطلق النار على كل من يلقاه!

الكيدُ ليس اختياراً أُنثوياً تُذمُّ عليه النساء ، ليس مستحضر تجميل يضعنه بملء رغبتهنّ ، هو فطرة الله التي فطر عليها الناس ، والله لا يُذمُّ بشيء من خلقه ، لأنه سبحانه لا يخلق إلا لحكمة ، ويبقى خلقه حكمة ولو عجزنا عن إدراكها!

الكيدُ مرتبط بحسن التدبير بشكل عام ، وليس مرتبطاً بالشر بشكل خاص ، فالقادرة على الكيد عليكَ ، قادرة على الكيد لك!

هي سيفٌ بيدكَ أنتَ تختار إما أن تحارب به أو تغرسه في صدركَ!

خديجة امرأة فلمَ لمْ نسمع عن كيدها ، أليسَ لأنها وجدتْ رجلاً حوّل طاقة التدبير فيها له لا عليه!

الحيّة ملمسها ناعم ، ولكن جرّب أن تؤذيها ، ستُظهر لكَ سُماً سيُنسيكَ نعومتها ، والنساء كذلك! والأمثال بعموم اللفظ لا بخصوص السبب!

عندما تشعر المرأة أنها أثاث في البيت ، عندما تُهان بدل أن تُكرم ، وتُضربُ بدل أن تُحضن ، ستكيد وهي معذورة إذ تفعل! نحن نستخرج أجمل ما في النّساء ، ونحن نُطلق أسوأ ما فيهنّ ، فتخيروا ما أنتم فاعلون!

الوطن

١ /٢/ ٢٠١٥

أسماءُ هذه الأيّام!

روى ابنُ الجوزيّ في أخبارِ الحمقى والمغفّلينَ قال :

كان عجلُ بن لجيم من حمقى العربِ المشهورين ، وحدثَ أنه كان في قوم تذاكروا أسماءَ أحصنتهم ، ثم قالوا له : ما اسمُ حصانكَ؟ فقال : ليس له اسم . فلمّا ألحّوا عليه بالسؤال ، قام إلى حصانه وفقأ عينه ، وقال لهم : سمّيتُه الأعور!

وقد ذكَرَ ابنُ الجوزيّ لعجل بن لجيم حماقات كثيرة تكادُ تكون حماقة فقأ عينِ حصانه أقلّها حمقاً! فلعلّ الرّجلَ أرادَ أن يُسجّلَ موقفَ احتجاجٍ حاد وكأنّه يسأل : لماذا يجب أن يكون للحصان اسم؟!

على أيّة حال لسنا اليومَ على موعدٍ مع أسماءِ الأحصنةِ وإنّما مع أسماءِ النّاس! ومما لا ينتطحُ فيه عنزان أنّ من حقِّ الولدَ على أبويه أن يُسمّياه اسماً حسناً ، وقد جاءَ رجلٌ إلى عمرَ بن الخطّابِ يشكو إليه عقوق ابنه ، فاستدعى عمرُ الابن ، ولما مثل بين يديه سأله : لماذا عققتَ أباكَ أما علمتَ أنّ له عليكَ حقوقاً؟! فقال الابن : قد علمتُ يا أمير المؤمنين ، ولكن أليسَ لي حقوق على أبي؟! فقال له عمر : بلى ، حقكَ عليه أن يختار لكَ أُمّاً لا تُعيّر بها ، واسماً حسناً ، وأن يؤدّبكَ ويفقهكَ! فقال الابن : أما أبي فقد اختار لي أمّاً أمة فأنا أُعيّرُ بها ، وقد أسماني جُعلاً والجُعل حشرة تجمع براز الحيوانات وتحملها إلى جحرها ، وقد أرسلني إلى المراعي

منذ صغري فلا أحفظ قرآناً ولا أفقه حديثاً! فقال عمرُ للأب : لقد عققته قبل أن يعقّكَ!

وبالعودة إلى الأسماء ، اعتاد النّاسُ أن يخترعوا صلةً بين كلّ اسم يطلقونه على أولادهم وبين القرآن الكريم! معتقدين أنّ مجرّد ورودٍ الاسم في القرآن محطّ بركة! ناسين أنّ العبرة في الاسم تتأتى من السياق القرآنيّ الذي ورد فيه الاسم ، وليس في مجرد الورود! فقد ورد اسم فرعون صراحةً في القرآن ، وورد ذكرُ النمرود وأبرهة ضمناً ، ولا يقول عاقل باستحباب إطلاق هذه الأسماء على الأولاد لأنها وردت في القرآن ، فاسم الشّخصيّة الوضيعة لا يرفع من شأنها ورودها في نصٍّ شريف!

أمّا إذا لم يكن الاسم قد ورد في القرآن مباشرة أو اشتقاقاً ، فقد دأبَ النّاسُ على اختراعِ معنى ديني له! يمكن للأب أن يسمي ابنه أو ابنته اسماً يراه حسناً دون محاولة إقناعنا أنّ له معنى دينياً ، صرنا نسمع عن أسماء دارجة فنسأل عن معناها ، فيجيبكَ الأبُ بزهو : الإبرة التي يُحاك بها ستار الكعبة! بقي أن تسأل عن معنى اسم فيخبرك الأهل أنّ معناه السياج حول صخرة الصفا! أو البلاطة الثالثة في المروة! أو دولاب عربة المقعدين والمسنين في المسعى! ومن يعش طويلاً ير من هذا كثيراً ، وسيسأل عن معنى اسم جديد على مسمعه ، فيخبره الأهل أنّه اسم الكيس الذي يوضع فيه القمح الذي يُنثر لحمام الحرم!

الوطن

١٢- ٣- ٢٠١٦

الخِلافاتُ الزَّوجيّة!

سألتْهُما الصُّحفيّةُ باهتمامٍ : كيفَ استمرّ زواجُكما لستين عاماً؟!

فقالت الزّوجةُ : نحن من جيلٍ إذا انكسرَ فيه شيءٌ نصلحه ولا نرميه!

الخِلافاتُ الزّوجيّة شيءٌ طبيعيّ في حياة أيّ زوجين ، تفرضه همومُ الحياة اليوميّة ، وصعوباتها ، ومتطلباتها ، ولا علاقة لها بمنسوب الحُبّ بين الزوجين!

الماءُ الرَّاكدُ يأسن! ولا أبالغُ إذ أقولُ أنَّ الخلافات الزّوجيّة كالملحِ في الطعام ، قليله هو الذي يهبَه مذاقه ، ولكنّ كثيره يفسده ، ويحوله من وجبة صحيّة إلى سُم!

المرأةُ مخلوقٌ مغاير للرّجل ليس في بنائها الجسميّ فقط ، بل في تركيبها النّفسيّ ، ولتفادي تفاقم الخلافات ينبغي أن يفهم الرّجل طبيعة المرأة ، وتفهم المرأة طبيعة الرّجل .

الرّجلُ طفلٌ كبير ، بالحنان والمُداراة تجعله المرأةُ خاتَمَها ، وبالعناد تجعله جلادَها!

بالاهتمام تتحول الأسود من كائنات مفترسة إلى لاعبي سيرك ، وبقطعة سُكّر يتبعُ الدُّبُ مدربه ، روّضيه باهتمامك ، كوني له قطعة سُّكر يصبحُ شرابكِ العذب!

لا شيء اسمه الكرامة في الحياة الزّوجيّة ، درهمُ تنازلٍ خير من قنطار عِناد!

روِّضِيه ، كوني أمته يكن عبدكِ ، كوني سيدته يكن جلادكِ!

أنوثتك أغلى ما فيكِ فلا تتنازلي عنها ، هذا العالم لا يحتاج مزيداً من الرِّجال ، يكفيه رجاله ، يكفيه مهندسوه وأطباؤه ومحاربوه وساسته ، ولكنه يحتاج الأنثى في داخلك ، أطلقيها لتُسعديه وتسعدي به!

خلقَ الله حواء من ضلع آدم ، فإذا كانتْ حواء جزءاً من آدم ، فإنّ آدمُ هو حوّاء كلها!

المرأة مُهيئة منذ البداية لتجعلك عالمها فلا تفسد علها فطرتها!

كثرة الشكوى طبيعة في المرأة ، وحين تشكو هي في الغالب لا تريد حلولاً بقدر ما تريدك أن تستمع إليها ، الزّوج الجيد هو مستمع جيّد!

وإنْ كانتْ بالاهتمام والحنان يمكنها ترويضكَ ، فبالاهتمام والحنان يمكنك تملكها!

عندما يقع الخلاف بادر ، أنتَ هنا لا تتنازل عن رجولتك بقدر ما تمارسها!

حين تخبركَ أنها متعبة

أخبرها أن هذا ما يجعلها كبيرة بعينك فالذين يقومون بأدوارهم يتعبون!

عندما تخبرك أنها لا ترغب أن تسمعَ صوتاً

خذها إلى صدرك ، حديث أصابعك على شعرها هي اللغة الوحيدة التي تحتاج!

عندما يُغيّر الزمن ملامحها

طمئنها ، الزمن عدوّ النساء! أخبرها أنها ليست أقلّ جمالاً بل أكبر قيمة!

هدية دون مناسبة ، عناق مفاجئ ، غزل في غير أوانه ، مديح بحضرة الآخرين ، جاذبية تشدُّ المرأة وتجعلها تدور في فلكك ، والجاذبية هي سر الكون الصغير الذي يُبقي هذا الكون مترابطاً!

الوطن

٨ / ٢/ ٢٠١٥

عيد العُشّاق!

المكان : روما

الزمان : ٢٠٧ م

القسيسُ فالنتينو يقعُ بحبِّ ابنةِ الإمبراطورِ كلاوديُوس ويزنِي بها لأنَّ إيمَانه الكنسيّ يُحرّمُ عليه الزّواج! فما كَان من كلاوديوس إلا أن أعدمه!

فإن كان من بطلٍ لهذه القصّة فهو الإمبراطورُ لا فالنتينو ولكنّ البشريّة تُلبسُ ثوبَ البطولة لمن شاءتْ وتنزعه عمّن شاءتْ!

إنْ كان القومُ اتخذوا من يومِ إعدام فالنتينو عيداً للعُشَّاق فهذا شأنهم ، وشأنهم أيضاً أن يخلطوا بين الحُبِّ والشّهوة! ولكن ما شأننا نحنُ الذين نستوردُ كلّ شيءٍ من الإبرةِ إلى الصّاروخِ أن نستوردَ العُشّاقَ أيضاً؟!

فهل أتاكَ حديثُ عُشَّاقِ العرب؟!

هل أتاكَ حديثُ عمر بن أبي ربيعة يوم نامَ على فراشِ الموتِ وأخذَ يدعو الله أن يغفرَ له ، فقيلَ له : أبعدَ كلّ ما كانَ منكَ؟! فأمسكَ إزارَه وقال : واللهِ ما فككتُه على حرام!

هل أتاكَ حديثُ عنترة إذ تُمسكُ عبلةُ بتلابيبِ قلبِه وذاكرتِه في خِضَمِّ المعركةِ فيقولُ لها :

ولقد ذكرتُك والرِّماحُ نواهلٌ منّي
وبيضُ الهندِ تقطرُ من دمي

هل أتاكَ حديثُ امرىءِ القيسِ يزيدُ فاطمة حُبّاً فتزيدُه دلالاً فينشدها :

أغــــرّكِ مني أن حـــبّك قـــاتلي
وأنّك مــهـمـا تَأمـري القلبَ يفـعلِ

هل أتاكَ حديثُ جَميلِ يعشقُ بثينةَ ردحاً من الزّمنِ ، ويأبى دون زواج أن يلمسَ شعرةً من رأسها :

لاً والذي تســـجـــدُ الجـــبــاه له
مـــا ليَ دونَ ثوبهـــا خـــبـــرُ

هل أتاكَ حديثُ بشّار بن بُرد ، يموتُ عشقاً ويقولُ لحبيبته :

لـو كنتُ أعلمُ أنّ الحبَّ يقـــتلني
لأعـددتُ لي قـبلَ أنْ ألقـاكِ أكـفـانا

هل أتاكَ حـديثُ قـيس بن الملوّحِ يوم عـرفـةَ ، إذ جـاءَ النّاسُ بذنوبهم إلى الله ، وجاءَه تائباً إلا من هوى ليلى :

تبتُ إليكَ يا رحـــمنُ من كلّ ذنب
أمـــا عن هوى ليلى فـــإنّي لا أتوبُ

والقائمةُ أطولُ من أن تُسردْ ، والشِّعرُ أطولُ من أن يُروى ، ولكلّ شيءٍ ختام ، وخيرُ الختام ما كان مسْكاً!

فَهل أتـاكَ حـديـثُ سيّـدِ العُشّاقِ ، ظلّ يذكرُ خديجة بعد موتها

فتغارُ عائشة وتقولُ : أما زلتَ تذكرها وقد أبدلكَ الله خيراً منها!

فيقولُ لها : واللهِ ما أبدلني الله خيراً من خديجة!

هل أتاكَ حديثه إذ يرى في آخر أيامه نسوةً قد بلغنَ من الكبرِ عتياً

فيخلعُ رداءه ليجلسنَ عليه ، ويقولُ لمن حوله : هؤلاءِ صويحباتُ خديجة!

نحن اخترعنا الحُبّ ، عشنا له ومتنا فيه قبل أن يُباع في المكتباتِ بطاقاتٍ حمراء!

الوطن

١٤ /٢/ ٢٠١٥

شُكراً يوسف!

١ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن بعض الناس يكرهوننا لمزايانا وليس لعيوبنا ، فقد كرهوك لأنك جميل وطيّب ولا تشبههم ، والناس لا يريدون من يذكرهم بنقصهم!

٢ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن الطعنة تأتي أحيانًا من حيث لا نحتسب ، وأنكَ حين سلمتَ من الذئب لم تسلم من إخوتك!

٣ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن لا أقصص على الجميع كلَّ خيرٍ وهبني الله إياه ، لأن البعض عيونهم ضيقة ، وقلوبهم أضيق ، ينظرون إلى ما في أيدي الآخرين أكثر مما ينظرون إلى ما في أيديهم!

٤ . شُكراً يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن المجرمين يلبسون أحيانًا ثيابَ الناصحين ، فقد قال إبليسُ لأبيكَ آدم «هل أدلك على شجرة الخلد» ، وقال إخوتك لأبيكَ يعقوب «إنا له لناصحون» «وإنا له لحافظون»!

٥ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن بعض الشر أهون من بعض ، وأن الناس كما يتفاوتون في صلاحهم يتفاوتون في شرهم ، وقد أنجاك أقل إخوتك شرًا إذ قال : ﴿لا تقتلوا يوسف﴾!

٦ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن لا أبوح بمخاوفي كي لا يحاربني الناس بها ، فلأن أباك قال : ﴿أخاف أن يأكله الذئب﴾ قال له إخوتك إنّ الذئب قد أكلك .

٧ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أنه لا يوجد جريمة كاملة ، وأن المجرم تُوقع به تفاصيل صغيرة فاته أن ينتبه لها ، فقد نسي إخوتك أن يمزقوا قميصك ، فأي ذئب هذا الذي يفترس صبيًا ويبقى قميصه سالمًا!

٨ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن الخير والشر ليس في الأشياء ، وإنما في طريقة استخدامنا لها! فقميصكَ كان مرةً أداة كذب ، وكان مرةً دليل براءة ، وكان مرة دواءً!

٩ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن هذه الدنيا لا خير فيها ، بئس دار تُباع وتُشترى فيها أنتَ بدراهم معدودة!

١٠ . شُكراً يوسف ، من قصتك تعلمتُ أنّ المدارس والجامعات والكتب ليست إلا أسبابًا ، وأنّ المعلم الحقّ هو الله ﴿لنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ ﴿آتيناه حكمًا وعلمًا﴾ وأن الله يهب العلم على قدر التقوى ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ وأن المسألة لم تكن يومًا مسألة عقول بل مسألة قلوب!

١١ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن الكريم لا يغدر ، وأن الحر لا يقابل الإحسان بالإساءة ، وأن النبيل لا يبصق في بئر شرب منه ، فما أجملك وأنتَ تقول : ﴿معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي﴾ .

١٢ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن الأمانة الحقيقية لا تكون إلا مع قدرة على الخيانة ، وأن العفة الحقيقة لا تكون إلا مع قدرة على الزنا ، وقد كنت قادرًا ولكن مثلك لا يخون ولا يزني .

١٣ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن المعصوم من عصمه الله ، وأن المفتون من تركه الله لشهواته ، وأن من كان مع الله

في يسره كان الله معه في شدّته!

١٤ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن العالم كله لا يمكنه أن يجبرني على فعل ما لا أريد أن أفعل ، فتوقفتُ عن التعلل بالظروف والأوضاع! كانتْ زُليخة سيدتك ، أغلقتْ عليكَ الأبواب ، راودتك ، اجتمع فيها الجمال والسلطة والرغبة ولكنك قاومت لأنكَ لا تريد!

١٥ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن الله إذا أراد أن يُظهر أمرًا ، لا يستطيع كل الناس ستره ، وعندما خاف الجميع أن يشهدوا لكَ ، أنطق الله رضيعًا لينصفك .

١٦ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أنّ في السجن مظاليم كُثر ، وأن الناس قد يدخلون السجن عقابًا على عدم ارتكابهم الذنب ، وأن الظلم قديم في الناس .

١٧ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن حلاوة الإيمان تغلب مرارة الحياة ، وأن حلاوة إيمانك أنستكَ مرارة السجن ، وأنك لو خنتَ -ومعاذ الله أن تفعل- لصار القصر على اتساعه ضيقًا عليك .

١٨ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن في كل مكان متسع للدعوة ، مملوكًا في القصر تدعو إلى الله ، سجينًا في السجن تدعو إلى الله ، عزيزًا على كرسي الملك تدعو إلى الله .

١٩ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن المعدن الأصيل لا تُغيره الأماكن ، في السجن قيل لك ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ وعلى كرسي الملك طلبوا منك العفو لأنهم رأوك من المحسنين!

٢٠ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن الحسد وراء كل شر ، فهو أول ذنب عُصي الله به في السماء ، وما رفض إبليس

السـجـود لآدم إلا حـسـدًا ، وهو أول ذنب عُـصي الله به في الأرض فما قتل قابيل أخاه إلا حسدًا ، وما أُلقيتَ في الجب إلا حسدًا .

٢١ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أنّ الفساد يكون غالبًا من سوء الإدارة لا من قلة الموارد ، وأنك حين نجوتَ بأهل مصر من القحط لم تأتِ لهم بموارد جديدة ، وإنما بعقلية إدارية جديدة للموارد القديمة .

٢٢ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن الدنيا حرب مستعرة بين الحق والباطل لا تهدأ إلى قيام الساعة ، الجنود فقط هم الذين يتغيرون ، صراعك مع زليخة هو صراع العفة والشهوة في كل عصر ، وصراعك مع إخوتك هو صراع الحب والبغض في كل عصر .

٢٣ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن أُخطط وأدبر ، وأنه لا يصل الناس إلى حاجاتهم إلا بالتخطيط والتدبير ، القحط كان له خطة وتدبير ، وإبقاء أخيك عندك كان له خطة وتدبير!

٢٤ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن الله دومًا يختار سلاحًا للمعركة لا يخطر على بال أحد ، كان قادرًا أن يُرسل ملائكة ليحطم جدران السجن ويُخرجك ، ولكنه أرسل إلى الفرعون حُلُمًا!

٢٥ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن المناصب تكليف لا تشريف ، وما طلبتَ خزائن الأرض لتملكها وإنما لتوزعها ، ولو علمتَ أقدر منك على هذا ما طلبتها!

٢٦ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن للحب رائحة لا يعرفها إلا المحبون ، لذلك وجدَ أبوك ريحك قبل أن يصله قميصكَ!

٢٧ . شُكرًا يوسف ، من قـصـتك تعلمتُ أن العـدل بين الأبناء مطلب ، وأن الآباء يوغرون صدور أولادهم على بعضهم دون أن يشعروا ، وقد قدّر الله أن يفضّلك أبوك على إخوتك ، ليعلمنا أن نحـذر حين نحب ولدًا أكـثـر من الآخر ، أن نبقي هذا في قلوبنا ولا نحوله إلى سلوك .

٢٨ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن لا أشكو بثي وحـزني إلا إلى الله ، فالناس إما محب وإما مبغض ، والمحب سيحزن لأجلي ، والمبغض سيشمت بي ، وكلاهما لا يملك من أمر حزني شيئًا ، فلماذا لا أشكو بثي إلى من بيده الأمر كله؟!

٢٩ . شُكرًا يوسف ، من قصتك تعلمتُ أن أتجاهل لإبقاء ود ، وأن أتصرف كأني لم أفهم لإبقاء علاقة ، وقد أسررتها في نفسكَ وكنتَ قـادرًا على أن لا تفعل ، ولكن النبيل يتجاهل ، وقد قالت العرب ، سيد قومه المتغابي .

٣٠ . شُكرًا يوسف ، من قـصـتك تعلمتُ أن النبـيل يعـفـو عند المقـدرة ، وأن الصفح أدب ، وأن المسامح لا يكسـر من جاءه معتذرًا ، فرغم أنهم تآمروا لقتلك ، قلتَ : ﴿نزع الشيطان بيني وبين إخـوتي﴾ ، من فـرط النبل لم تنسب لهم السـوء الذي صدر منهم .

مدوّنات الجزيرة

٢٦ / ٢ / ٢٠١٧

وُلِدَ الهُدى فالكائناتُ ضِياءُ!

أعرفُ أنّ النّبوّة الأخيرة لم تكن تليقُ إلا بكَ . . وأنّ إخوتكَ الأنبياء إذ سبقوكَ مجيئاً فقد سبقتهم مقاماً! جئتَ أخيراً لتكونَ أوَّلاً . . . فالرّسالاتُ لا بُدّ لها من مسكِ ختام ، وحين يُراد بالمسكِ أن يكون بشراً ، فمن عساه يكون غيرك!

فالسلام عليك أجمل الناس ، وأطيب الناس ، وأرقّ الناس ، وأحنّ الناس ، وسيّد الناس!

السلام على آمنة بنت وهب صبيحة الثاني عشر من ربيع الأول تُهدي هذا الكوكب الغارق في الظلمة مصباحه الذي سينيره ، لا من بصرى إلى الشام كما رأتْ في منامها ، وإنما من المشرق إلى المغرب كما نرى نحن يقظةً!

السلام على عبد المطلب الذي انبرى ليربي اليتيم الذي سيربي لاحقاً آباء هذا الكوكب وأمهاته!

السلام على حليمة السّعدية أخذتكَ كي لا ترجعَ خالية الوفاض ، أيّ مال تُصيبه مرضعةٌ من يتيم ، فاكتشفتْ لاحقاً أنها كانت الأكثر ثراءً بك! حلّت البركة في ديار بني سعد يوم حللتَ ، هكذا أنتَ يتبعُكَ الخيرُ كما يتبعُ النّملُ حبّات السُّكر ، يا سُكّر هذا الكون!

السّلام على أبي طالبٍ على فقره يحوطكَ ويرعاكَ ويكفُلكَ ، وعلى صغر سنّك لا تقبلُ أنّ تكون عالة ، فتعمل بالرّعي لتعينه ، مُذ كنتَ طفلاً وأنتَ سيّد الرّجال!

السّلام على خديجة كهفكَ وقبيلتكَ ، وجيشكَ المُدجج بالحُبّ يوم عزَّ الجُنود! تأخُذكَ إلى صدرها من هول الوحي ، تمسحُ على رأسكَ بيدها ، وتقول لك بقلبها على هيئة كلمات : لن يخزيكَ الله! كانتْ تعرفُ أي الرّجال أنتَ ، وكنتَ تعرفُ أي النساء هي ، لهذا لم يكن عجباً أن تذبحَ شاةً بعد وفاتها بعشرين سنة ، ثم تقول : أعطوا منها صويحبات خديجة! أيُّ الأوفياء أنتَ ، أيُّ الأوفياء؟!

السلام على ورقة بن نوفل ، حَبْرٌ يُحلقُ في غير سربه ، إنجيل من غير مسٍّ ، وتوراة من غير تحريف! قلبٌ على ملّة أبيك إبراهيم ، وعقلٌ كان يعرفُ أن مبعثكَ قد حان ، ولما وقعَ عليكَ ، قصَّ عليك نبوءةً لن يشهدها : سيخرجكَ قومُكَ! فتسأله بدهشة : أمُخرجِيَّ هُم؟! فيزيلُ عنك دهشتكَ : ما جاء أحدٌ بمثل ما جئتَ به إلا عُودي! وأخرجوك فعلا! ولكن من مشقة الدعوة إلى عِزّ الدّولة! فالسّلام على أبي بكر ، صديق العمر ، ورفيق الدرب ، وشريك الغار في ثاني اثنين الله ثالثهما!

السلام على آل بيتك المخلوقين من طُهر ، وعلى أزواجك المطهرات من قذى ، وأصحابك المختارين عن اصطفاء!

السلام على الأوس والخزرج سيفكَ وعكازكَ

السلام على بدر وأُحد والخندق وحُنين وخيبر ، ومواقع أُخر أخبرتنا فيها أن هذا الدين لم ينتشر بالسيف ، ولكنه دون سيف يتطاولُ عليه النّاس!

السلام على الحديبية ، الصُّلحُ الذي أنجبَ نصراً وفتحاً ، اليومُ تُذلُّ العُزّى ، وتُكسرُ هُبل ، ويرقى بلالٌ سطحَ الكعبة ، يخبرُ الكون كله أن الله أكبر!

السـلام عليكَ يوم خُـيِّـرتَ بين الخُلد في الدنيـا ولقـيـا ربك ، فاخترتَ قائلاً : بل الرّفيق الأعلى!

السّـلام عليكَ حـيًّـا فـينا لا تموتُ أبداً ، نُحـبّـكَ ، ونحبُّ من يُحبّك ، والموعد الحوض كما أخبرتنا ، وإنّا لنُصدّقكَ!

الوطن

٣٠- ١١ - ٢٠١٧

فاقِدُ الشَّيءِ يُعطيه!

عندما لم تكُنْ المطبعة قد وُجدتْ بعد، شكّل الامبراطور شارلمان فرق «كَتَبَة ونُسّاخ» وأقام في مدينة آخن أفضل مكتبة في ذلك العصر، شارلمان الذي ساعد الكثير على القراءة، لم يكن يعرف القراءة، ومات أميًا في بدايات العام ٨١٤م.

أخبرُونا أن فاقد الشيء لا يعطيه! وهذا قد يصح في مواضع كثيرة في هذه الحياة، ولكنه ليس قانونًا لا تنفضُّ عُراه كدوران الأرض حول الشِّمس، وتمدد المعادن بالحرارة، وهجرة أسماك السلمون من البحار المالحة إلى البحيرات العذبة سباحة عكس التيار لوضع البيوض!

فاقد الشيء أحيانًا يعطيه بسخاء لأنه ذاق لوعة الحرمان منه! بعض الناس يبلغون من النبل درجة أنهم لا يريدون أن يذوقَ الآخرون ما ذاقوه هم، والشخص الذي يعطي ما لا يجد أكرم ألف مرة من الشخص الذي يعطي ما يجد!

ليس عجيبًا أن يسعى مثقف لمحو الأمية، العجب أن يسعى لهذا أُميّ لا يريد للآخرين أن يلتاعوا بما التاع هو به!

ليس عجبًا أن يضع غنيٌّ صدقة في يد فقير، العجب أن يضع فقير صدقة في يد فقير مثله، لأنه ذاق مُرّ الحاجة ويريد أن يخفف مرارتها عن غيره!

ليس عجبًا أن نرى الأب الذي عاش في كنف أبيه معززًا مكرمًا، يكرم أولاده ويتحمل مسؤوليته، العجب أن نرى الأب

الذي تخلى عنه أبوه طفلًا يلعب دور الأب النبيل الذي لم يعرفه!

ليس عجبًا أن نرى قويًا يساند ضعيفًا ، العجب أن يساند الضعيف ضعيفًا مثله ، رغم ما ذاق من ألم تخلي الآخرين عنه!

قيمتنا الحقيقية في الحياة ليس بقدر ما نأخذ منها وإنما بقدر ما نعطي فيها ، قيمة الشمس بالنسبة إلينا ليست في ضخامتها ، وإنما في الضوء والدفء الذي تمنحنا إياه!

بعض الناس مرضى ، ينتقمون من آخرين عن طريق آخرين! تجد أحدهم يحرم الناس مما حُرم منه عمدًا ، أحد هؤلاء المرضى كان يُحبّ أمه حدّ الجنون ، وكان يُعامل زوجته كما يُعامل العبيد ، وتبين أن السبب في هذا أنه ينتقم لأمه من أبيه الذي كان يُعاملها بذات الطريقة التي يُعامل هو بها زوجته الآن!

بالمقابل قد تجدون شخصًا عاش نفس الظروف ، ولكنه يُعامل زوجته بالحسنى لأنه يعرف مدى العذاب الذي ذاقته أمه ، وهذا هو النبل الحقيقي!

المظلوم أكثر الناس حساسية ضد الظلم ، والمحروم أكثر الناس معرفة بفداحة الحرمان ، ومع هذا ما زلنا نرى المظلوم يظلِم ، والمحروم يَحرِم ، تعالوا نكن نبلاء ، ونثبت أن فاقد الشيء يعطيه!

الوطن

٢٨- ١١ - ٢٠١٧

إنّهم الآباء!

منذ ثلاثة أشهر تزوجتْ أختي ، وفي طريق عودتنا من حفل زفافها إلى البيت ، قال أبي بدموع على هيئة كلمات : زواج البنت مختلف عن زواج الولد ، عندما يتزوج ابنك تشعر أنك ازددتَ ، أما عندما تتزوج ابنتك فإنك تشعر أن قطعة قد نقصت منك!

ما زالت تلك الكلمات ترنّ في أذني ، وكلما نسيتها جاء حدث ما ليذكرني بها ، منذ أيام فقط رأيتُ صورة خاتم منقوش عليه : «أنا أحببتكِ أولًا» ، ولا أذيع سراً إذ أقول أني تسحرني الخواتم التي يُنقش عليها كلام باللغة العربية ، وأشعر بحشرية غريبة لأعرف سبب اختيار تلك الجملة ، والقصة التي وراءها! المهم أن الخاتم المنقوش عليه : أنا أحببتك أولًا ، أهداه أب لابنته يوم خطوبتها!

أعادني هذا الخاتم إلى كلمات أبي التي ترنّ في أذني وأنا أنظر إلى بناتي في انتظار اليوم الذي سيقطعن فيه لحمي!

ثم ما كدتُ أخرج من قصة خاتم الخطوبة حتى قرأتُ البارحة خبرًا ينضوي تحت لواء ما نحن فيه!

«جاريث جالهان» أميركي من فرجينيا ، يبلغ من العمر أربعة وأربعين عامًا ، أو هي كل ما استطاع بلوغه من عمر! اعتاد «جاريث» كل يوم أن يكتب كلمات مُحفزة لابنته على مناديل يضعها في علبة طعامها عند ذهابها إلى مدرستها الثانوية ، شَعرَ «جاريث» أنه ليس على ما يرام ، فذهب إلى المستشفى ، وأخبره

الأطبـاء أنه مـصـاب بالسـرطان في مـراحله الأخـيـرة ، وأن أيامـه مـعـدودة! فكـتب ثمـانمائة رسـالة تكـفي ابنتـه حـتى تخـرجـهـا من الثـانوية ، وأوصى زوجتـه أن تضع كل يوم رسـالة لابنتـه كـمـا كـان يفعل ، وبالفعل مات «جاريث» وبقيت رسائله لابنته!

عاطفة الأمهات تجاه أولادهن تغنّى بها الشعراء ، وكتب عنها الأدباء ، وهـم مـحـقـون فـالدنيـا أم! هكذا قـال الأوائل ونحن على آثارهم ، فمـاذا عن الآباء؟ هذا الحب المستعر في قلوبهم ولا تلتفت إليـه الأقـلام لأن الأب رجل ، والرجـال أصلب من النسـاء وأكـتم لعواطفهم ، ولكن الذي لا يرى من الحُبّ إلا ما يطاله الإعلان فهو أعمى! إن حبّ الأب لابنتـه خـصـوصًا لخصـه أعظم أب في تاريخ البشرية منذ ألفٍ وأربعمائة سنة ، يوم اعتلى المنبر وقال : «إن ابنتي بضعة مني ، يريبني ما رابها ، ويؤذيني ما آذاها»

وليس ببعيد عما نحن فيه ، كان الزوج الذي اعتاد أن يسيء لزوجته ، يداعب ابنته الصغيرة ، فقالت له زوجته : ماذا لو أهانها زوجها غدًا؟

فقال : سأقتله!

فقالت له : أنا أيضًا ابنة رجل يُحبني

فاتقوا الله في قلوب الآباء!

الوطن

٢٣- ١١ - ٢٠١٧

كانوا قوماً يتسوّلون!

وقفَ شاعرٌ مُعْوَجٌّ الفم أمامَ أحدِ الولاة ليمدَحَه ، ولكنَّ الوالي لم يُعطه شيئاً

وإنَّما سَأله : ما بالُ فمكَ مُعْوَجّاً؟

فقالَ الشّاعرُ : من كثرةِ الثّناء على النّاسِ بالباطل!

اشتغلَ العربُ منذ القِدَم بالتِّجارة ، وكانتْ قوافلهُم تمخرُ عباب الرِّمالِ صيفاً نحو الشّام ، وتُبحرُ برّاً بسُفنِ الصَّحراء شتاءً نحو اليمن ، كانوا يبيعُون ما لديهِم ويشترُون ما ينقصُهم ، إلا أنّ أشهرَ أسواقهم كان سوق عكاظ وكانوا يبيعون فيه الكلام!

كان الشِّعرُ بالإضافة لقيمته التَّعبيرية والجماليّة وسيلةَ الإعلام الوحيدة وقتذاك ، وكان الوَلاةُ يَحتاجون للدِّعاية والشُّعراءُ يحتاجونَ للمال ، فنشأتْ أقبحُ ظاهرةٍ عرفها الشِّعرُ العربيّ ، ألا وهي ظاهرة التَّكسب ، التَّسول بالشِّعر!

صحيحٌ أن التّكسبَ ، التّسولَ لا يُنقصُ من قيمةِ الشعر ولكنه يُنقصُ من قيمة الشَّاعر!

فقصائدُ المَديح مدفوع الأجرِ كانتْ رهيبةً بمستواها الفنيِّ وإن غاب عنها عنصر الصِّدق! ولأهميةِ الصدق في الشعر يذكرُ الجاحظُ في «البيان والتبيين» أنَّ أعرابياً سُئل : ما بالُ المراثي أجودُ أشعارِكم؟ فقال : لأننا نقولها وأكبادُنا تحترق!

كان النابغةُ الذبيانيّ يحكمُ في عكاظ بين الشعراءِ ، وعندما قضَى بأنَّ الخنساءَ أشعر العرب وانفضَّ السوقُ ، ذهب ليبيعَ النعمان قصيدة!

وكانَ الثالوثُ الأمويّ الجميل «جرير والأخطل والفرزدق» ، بالإضافة لشعرهم الرائع في النقائضِ يتكسَّبون ، يتسوّلون بقصائدهم من بلاطٍ إلى بلاَط!

وكانَ أبو نواس يبيعُ الرشيدَ شعراً ، فهي الوسيلة الوحيدة لتأمين مالٍ طائل يخوّله دخول الحانة «لتمسّه سرّاء» فيثمل ويتغزل بالغلمان!

وكان المتنبي سيدُ الشعر العربيّ متكسباً متسولاً كبيراً ، فالأحبة الذين تقف البيداء دونهم هو سيفُ الدولة الذي اشترى بسخاءِ قصائده ، ولكن المتنبي باعه لأجل ولاية يُصيبها ، ولأجل ولايةٍ يُصبحُ «قواصدُ كافورٍ توارِكُ غيره . . من أَرادَ البحرَ استقلَّ السواقيا» ، ولأنَّ البحر حنثً بوعدِ ولايةٍ كان قد وعدَه إياها يصبحُ «العبيدُ أنجاسٌ مناكيدُ» و«تنامُ نواطيرُ مصرَ عن ثعالبها» ، ويسرح ويمرحُ «الخِصيةُ السودُ»!

إن كان التكسبُ صفقة بين الولاة والشعراء ، فإن الرابح من هذه الصفقة كان الولاةُ وليسَ الشعراء ، فقد ربح الشعراءُ الحاضر وقتذاك ، ولكن الولاة تخلدوا فربحوا المستقبل ، التاريخ ، وسيفُ الدولةِ وكافور لو عاشا ألف مرة أخرى لم نكن لنسمع بهم لولا المتنبي!

إن كان المتسولون بشعرهم كُثر فالذين لم يبيعوا قصائدهم كثر أيضاً ، فالخنساءُ مدحت صخراً ودفعت أعصابها ودموعها ، والصعاليكُ لم تكن تعنيهم القبيلةُ كلها فضلاً أن يعنيهم سيّدها ، وابنُ أبي ربيعة الذي عرفناه متهتكاً بشعرِه ، أرسل إليه عبدُ الملكِ بن مروان ليمدحه ، فقالَ له : عمرُ لا يمدحُ إلا النِّساء!

الوطن ٢١ /٢ / ٢٠١٥

قانونُ السُّقوط: من نوكيا إلى الأندلس!

في المؤتمرِ الصّحفيّ الذي تمّ فيه الإعلانُ عن بيع نوكيا إلى مايكروسوفت، ختم الرّئيسُ التّنفيذيّ لنوكيا ستيف بلمر كلمته قائلاً: نحنُ لم نفعل أيّ شيءٍ خاطئ، لكن بطريقة ما خسرنا! ثمّ بكى بلمر وبكى معه فريق إدارته!

لم يكن إيلوب أوّل من بكى مجداً ضائعاً، وبالتّأكيد لن يكون الأخير! فقبل ما يزيدُ على خمسمائة سنة بقليل، وقف عبد الله الصّغير باكياً ضياع الأندلس، فقالتْ له أمُّه: ابكِ كالنّساءِ ملكاً لم تحافظ عليه كالرّجال!

البكاءُ إذاً هو المشهدُ الأخيرُ في مسرحيّة السقوط ثمّ تنسدل السّتارة عن مجدٍ تليد، ويعتلي خشبة الحياة ممثل آخر ليقوم بدور البطولة!

السّقوط ليس حدثاً اعتباطياً، ولا ظاهرة عشوائيّة، على العكس تماماً هو ظاهرة محكومة بقانون دقيق، وحدث تسبقه خطوات منظّمة، فإذا أردتَ أن لا تسقط إليكَ مواد القانون:

١. لا تعشْ على أمجاد الماضي! نوكيا والأندلس كانا صاحبا تاريخ مشرق، ولكن التّاريخ المشرق لا يشفعُ للحاضر المزري! تربّعتْ نوكيا على عرش الهواتف النقالة لسنوات، وتربّع الأندلس على عرش الحضارة الإنسانيّة لقرون لأنهما اهتما بالحاضر، دوماً من يهتم بالحاضر يترك خلفه تاريخاً عريقاً، أما

من يهتم بالتاريخ فقط فلا يخسر الحاضر وإنما يخسر المستقبل أيضاً!

٢ . لا يكفي أن لا تفعل شيئاً خاطئاً كي لا تسقط ، أحياناً يكون السقوط بسبب أنّك لم تفعل الصواب لا بسبب أنك فعلتَ الخطأ! بحسب إيلوب لم تفعل نوكيا شيئاً خاطئاً ، ولكن السيد بلمر فاته أن أكبر خطأ يفعله الإنسان هو أن لا يفعل الصواب! حتى عبد الله الصغير كان يعتقد أنّه لم يفعل شيئاً خاطئاً ولكنه أيضاً لم يفعل الصواب ، كان عليه أن يحكم بهمة عبد الرحمن الداخل!

٣ . لا يكفي أن تركض لتكسبَ السباق وإنما عليكَ أن تركض أسرع من الآخرين! هذه إحدى بديهيات الحياة ، إننا نعيش في سباق كبير ، دولاً وشركات ومؤسسات ، لتتخلف لا يعني أنك لا تخترع ولا تتطور ولا تتكيف مع المتغيرات ، يكفي أن يخترع الآخرون ويتطوروا ويتكيفوا أكفأ منك ليتجاوزوك! في الحياة لا نتسابق مع أنفسنا وإنما مع الآخرين! نوكيا والأندلس لم يخسرا السباق لأنهما توقفا عن الركض ، ببساطة لقد ركض الآخرون أسرع منهم!

٤ . الحياة كمباراة الملاكمة يحكمها قانون واحد : إما أن تُسدد اللكمات أو تتلقاها! لا يمكن لأحد أن يدافع طيلة المباراة ، وحتى إن دافع ولم يسقط بالضربة القاضية فسيسقط بمجموع النقاط! حتى الدفاع بهذه الطريقة غباء ، في الحياة كما في الملاكمة وكرة القدم : خير وسيلة للدفاع هي الهجوم! ونوكيا والأندلس انشغلا بالدفاع فهاجمهم الآخرون بلا هوادة!

٥ . إما أن تُشغل الآخرين بأنفسهم أو سيشتغلون بك!

الدول التي تفقد عنصر المفاجأة حتماً ستتفاجأ!

والشركات التي تفقد عنصر السبق ستُسبق ، لتحمي حدودك القديمة عليكَ أن تسيطر على حدود جديدة!

ولتضمن أسواقك القديمة في جيبك عليك أن تبحث عن أسواق جديدة!

نوكيا والأندلس كانا انطوائيين ، وعندما تركا الآخرين وشأنهم لم يتركهم الآخرون وشأنهم!

الأمر أشبه بمنطقة صيد الأسود ، إما أن يدافع الأسد عن منطقته ببسالة ويسعى لتوسيعها أو يخسرها!

الوطن

٢٦ -٣ -٢٠١٦

إنّي أُعْرِبُ عن قلقي!

هناك دراسةٌ تقول : إنَّ تسعينَ بالمائةِ من الناسِ غيرُ راضينَ عن وظائِفهم!

وبالمناسَبة إنَّ مصطلح «هناكَ دراسةٌ تقولُ» ما هو إلا تعبير لإعطاءِ كذبةٍ ما طابعاً علمياً!

بغَض النَّظر عن مدى صحّة هذه الدّراسة إحصائيّاً إلا أنَّها صحيحةٌ عمليّاً!

وإنّي أكادُ أعمّمُ أن لا أحدَ راضٍ عن وظيفته ، رغم أنّ آينشتاين يقول : «كل تعميم خاطئ بما في ذلك هذا التعميم»!

فعدمُ الرّضا هو غريزةٌ بشريّة ، ولا أبالغُ إذ أقول إننا مدينون بهذه الغريزة لما وصلنا إليه ، فالرِّضا أحياناً مقتلة!

ولو رضينا بالخيولِ ما اخترعنا السّيارات

ولو رضينا بالحمامِ الزّاجلِ ما اخترعنا الإنترنت

ولو رضينا بالعددِ القليلِ الذي تقتله السّيوف ما اخترعنا المَدافع!

وأنا كغيري من البشرِ مُتبرّم وغيرُ راضٍ عن وظيفتي وأطمحُ لوظيفة أخرى ، وقد تأملتُ في الوظائفِ حولي فلم أجدْ أجمل من أن أكونَ أميناً عاماً للأمم المتحدة!

إنها وظيفةٌ مرمُوقة ، بمرتّبٍ ضخم ، ولا تتطلبُ مجهوداً كبيراً ، فمهما كانت القضايا المطروحة أمامي شائكة يكفي أن أُعربَ عن قلقي تجاهها!

سأشاهدُ أطفال غزّة يُستخرجون قِطعاً من تحتِ الأنقاضِ ، وسأخرج لأُعربَ عن قلقي من الاستخدام المُفرط للقوة من قبل إسرائيل ، رغم أنّي أعرفُ أنّ قلقي وحذاء نتانياهو واحد! وسأشاهدُ أطفال الغوطة يُبادون بالأسلحة الكيماوية ، وسأخرجُ لأُعربَ عن قلقي ، فمن حق هؤلاء الأطفال أن يموتوا بطريقةٍ إنسانيّة! فالمُهِمُّ في هذا العالم ليسَ الجريمة وإنما الأداة!

وقد أكون مشغولاً لدرجة أني لا أجدُ وقتاً لأُعربَ عن قلقي ، فسأُرسلُ لكم الناطق الرّسمي باسمي ليقول لكم : إن سيادةَ الأمينِ العام يُعْرِبُ عن قلقه!

ما أَجملَ أن يكون المرء بان كي مون! حتى أنني قررتُ أن أكون «بانكيمونياً» في البيتِ أيضاً! وعندما أعودُ إلى البيتِ لأرتاحَ بعد يوم شاق من الإعراب عن قلقي ، سأدخلُ لآخذ قيلولة ، وستُوقظني زوجتي لتخبرني أن قارورة الغاز فارغة ، فسأنهض لأُعربَ عن قلقي ثم أتابع قيلولتي ، وإذا تراجعتْ علامات أولادي في المدرسة ، فسأدعوهم لجلسة طارئةٍ في ساعة متأخرة من الليل ، وسأُعرِبُ لهم عن قلقي ، وبإمكانهم بعدها أن يُتابعوا تراجعهم ، فحلُّ المَشاكل ، أو منع تفاقمها على الأقل ليس من مهام وظيفتي ، إنّ مهامي تتلخصُ في أن أُعربَ عن قلقي!

المهمِ من هذا كلّه ، أتمنى أن يُعجبكم هذا المقال وإلا سأضطر أن أُعربَ عن قلقي!

الوطن

٢٨ / ٢/ ٢٠١٥

كفى «عَبَطاً» يرحمكم الله!

المكان : روما

الزمان : ١٦٣٢ م

جاليلو جاليلي يمثلُ أمام محكمة التّفتيش بعد أن اتهمَته الكنيسةُ بالهرطقةِ لأنَّه قال إن الأرضَ كُرويَّة وتدورُ حولَ الشَّمسِ!

كانتْ هذه إحدى الحوادثِ الكثيرةِ التي أدّتْ لأن يفقدَ الأوروبِّيون ثقتهُم بالدينِ ، فالكنيسةُ كانتْ قد تبنّتْ مجموعة خُرافات على أنها تعليماتٍ إلهيّة ، فلمَّا بزغ نورُ العلمِ ، وكذّبَ بالأدلةِ الدَّامغةِ هذه الخرافات ، اقتنعوا بأنهم لنْ يتقدموا إلا إذا أعطوا اهتماما حقيقيا بالعلم!

منذ أيام خرج شيخٌ يحملُ كوب ماء فارغا ليثبتَ به أنَّ الأرضَ مسطحة ولا تدور حول الشمس!

أنا لا أريدُ أن أسألَ سماحته كيفَ يتعاقبُ الليلُ والنهارُ بناءً على نظرية «الكوب» العبقرية! ولا كيف تنشأ الفصولُ ، ولا كيف يفسّرُ الخسوفَ والكسوف ، ليسَ خشية أن يجيبني مستدلاً بصحن منسف! ولكن لأنّ هذه قضيّة علمية ليستْ من شأن فضيلته! إنَّها شأنُ العُلماء الذين يحسبون الكسوفَ الذي سيحدثُ بعد سنواتٍ بالدقيقةِ والثانية ولو كانوا كفاراً!

وهذا ليسَ انتقاصاً من الشيخ ، فإذا أشكلَ عليَّ أمرٌ في الفقهِ لن أسألَ عنه وكالة ناسا ، وإنَّما سأعودُ إليه معترفاً بفضلِه وعلمه ،

ولكني أُذكّر السادة الدعاة أنّ الله أنزلَ على نبينا كتاباً يقولُ فيه «فاسألُوا أهلَ الذِّكر إنْ كنتُم لا تعلمونَ» وأهلُ الذِّكر في قضيةِ دورانِ الأرضِ هم العلماءُ لا الدعاة!

عندما جاءَ الزَّبرَقانُ بن بدرٍ إلى عُمرَ شاكياً هجاءَ الحُطيئة يومَ قالَ فيه :

دَعِ المَكارمَ لا ترحلْ لبُغيتها
واقعدْ فإنَّكَ أنتَ الطاعمُ الكَاسِي

أرادَ عمرُ أنْ يتثبَّتَ إنْ كان البيتُ يحملُ هجاءً فقال : آتوني بحسّان! ولم يطلبْ مُعاذاً بن جبل وهو أعلمُ النَّاسِ بالحلالِ والحرام ، ولا أبا عبيدة وهو أمينُ الأمة ، ولا ابنَ عباسٍ وهو ترجمان القرآنَ! لأنَّها قضية شعرٍ وأهلُ الذِّكرِ فيها هم الشعراءُ! فقال حسَّانُ : لم يهْجُه فقط بل ذَرَقَ/بال عليه! فسَجنَ عمرُ الحطيئةَ!

ويقولُ ابن تيميةَ في منهاج السُّنة : «ربيعة مُقدَّمٌ على البُخاري في الفقه ، والبُخاري مُقدم على ربيعة في الحديث ، وأبو نواسٍ علم في اللغة خلو من غيره!»

فإذا كانتْ القضية لُغويّة إذن تركنا البخاريَّ وحديثه ، وربيعة وفقهه ، وأخذنا من أبي نواس على ما هو عليه!

الناسُ إذا فقدوا ثقتهم بطبيبٍ قصدُوا غيره ولم يفقدوا ثقتَهُم بالطِبِّ! ولكنَّهم يأخذُون الدِّينَ بجريرةِ أهله! فمرَّةً تخرجُون علينا بأكلِ لحوم الجنِّ ، ومرة بفتوى إرضاعِ الكبير! ومرة بالأرضِ مسطحة! أتريدون أن يُكذّبَ الله ورسوله؟!

كفى عبطاً يرحمكم الله!

الوطن

٧/ ٣/ ٢٠١٥

«دِحْيَة» باقٍ ويتمدّد!

يُحكى أنّ رجلاً يُدعى «دِحْيَة» كان إذا جلسَ بين الرّجالِ فكأنه العِلمُ إذ يأخذُ شكلاً بشَرياً! لا تسأله عن شيء إلا أجابك عرف أمْ لَمْ يعرِفْ! فضاق به جُلّاسُه ذرعاً، واتفقوا يوماً أن يُباغتُوه بسؤالٍ ليكشفوا عوار جهله، فتركوه مرّة مسترسلاً في كلامه وسأله أحدُهم: ما اسمُ الذئبِ الذي أكلَ يوسف؟!

فأجابَ بسرعة: اسمُه «جِمجائيل»!

فقالوا له: ولكنّ الذئبَ لم يأكلْ يوسف!

فقال: إذاً هذا هو اسمُ الذئبِ الذي لم يأكلْ يوسف!

الرّجالُ على هيئة «دِحْيَة» لم يخلُ منهم زمانٌ قط! وإن كانوا في الأزمان الغابرةِ يُعدُّون على الأصابع فهذا زمن «الدِّحيات»! فلكل عائلة «دحيتها»، ولكل حارة وشركة ومؤسسة ومدرسة «دحيتها»! لقد انتشروا بيننا كالنار في الهشيم، وتمددوا كالطفح الجلدي!

إذا كانَ الحديثُ عن الشِّعر تحسبُ أنَّ الفراهيدي قد أخذ عنه..

وإذا كانَ الحديثُ عن الطبِّ تخال أنّ جالينوس تلميذه وابنَ سينا صبيُّه الذي يحملُ قوارير عقاقيره..

إذا كان الحديثُ في النَّحو تحسبه سيبويه قد بُعث من قبرِه..

وإذا كان الحديث في الفقه تحسبه أبا حنيفة إذ يمدُّ رجليه..

إذا كان الحديثُ في التاريخ فكأنه أملى على الطبريّ كتابه..

وإذا كـان الحـديث في علم الاجـتـمـاع فكأنّ ابن خلدون يحـملُ دواته . . وإذا كان الحديث في التفسير فابن كثير بعض مما لديه . . وإذا كان الحديثُ في النقد فالنابغة الذبياني وقد بسطوا له مجلسا في عكاظ يقضي بين الشعراء . . إذا كان الحديثُ في علم النفس ففرويد أحد مرضاه . . وإذا كان الحديثُ في الحروب المستعرة في هذا الكوكب فكأنه ابن الوليد إذ يرسمُ خطة انسحاب متقنة من مؤتة ويُغيِّر تشكيل الجيش في اليرموك . . وإذا كان الحديثُ عن جاذبيةِ الرِّجال على النِّساء فابن ربيعة إذ تيّم الصغرى!

كما أنّ لكل منكم «دِحْيَته» فلي «دِحيتي» . . و«دِحيتي» هذا «غوغل» يمشي على قدمين!

إذا تحدّثنا عن إنتاجِ روسيا من النّفط أشعرُ أنّه من يُعبِّئ البراميل هناك!

وإذا تحدثنا عن إنتاج البرازيل من القهوة أشعرُ أنهم لا يقطفون حبّة بُنٍّ إلا بعد الرجوع إليه!

وإذا تحدّثنا عن مشاكل الزّواج فهو الأبرع في حلّها رغم أنّه أعزب!

ولا أذكر مرّة أننا تحدثنا في موضوع يجهله ، وأكادُ أقسمُ أني لو سألته عن عدد حبّات الرّمال في الرّبع الخالي لأعطاني الرّقم دون أن يرِفّ له جفن!

إذا ابتليتَ بـ«دِحية» فلا تحاول مناقشته في معلومة خاطئة أدلى بها! لأنه سيأتي بعشرِ معلومات خاطئة أخرى ليثبتَ لك أن معلومته الأولى الخاطئة كانت صحيحةً! فخُذْ عنه واحترمْ نفسَك!

الوطن

١٤ / ٣ / ٢٠١٥

الجحشنلوجيا!

دعا نوحُ الحيوانات مرّةً فركبت السّفينة ، وقضى تسعمئة وخمسين سنةً يدعو النّاسَ إلى الله فاختاروا الغرق! القضيّة باختصار : غريزة سليمة أفضل من عقل مريض .

الإنسانُ يُحرّكه العقل والحيوانات تُحرّكها الغرائز ، ومنذ بدءِ الخليقةِ إلى اليومِ حافظت الحيواناتُ على غرائزها سليمة ، وحتى الذين يُدافعون عَن المثليّةِ الجنسيّةِ على أنها غريزةٌ طبيعيّة ، لم يستطيعوا أن يثبتوا حالة شذوذ واحدة عند الحيوانات! فمذ وُجدت الحيواناتُ على الأرضِ والثيرانُ تميلُ إلى الأبقار ، والجِمالُ تميلُ إلى النّوق ، والأسودُ تميل إلى اللبؤات ، والخِرافُ تميلُ إلى النّعاج ، والحميرُ تميلُ إلى الإتان . . . أمّا البشرُ فعندما تمرضُ عقولُهم تفسدُ غرائزُهم فيفعلون ما تأنفُ الحيواناتُ أن تفعله!

الأرضُ زاخرةٌ بالعُلوم ، فالسيكولوجيا هو علم النّفس ، والأيكولوجيا هو علم البيئة

والأيدلوجيا هو علم الأفكار ،والبيولوجيا هو علم الأحياء ، والباثولوجيا هو علم الأمراض ، والميتورولوجيا هو علم الأرصاد ، والراديولوجيا هو علم الأشعة ، والجيولوجيا هو علم الأرض ، والسيسيولوجيا هو علم الاجتماع ، أمّا «الجحشنلوجيا» فهو علم تحوّل الإنسان إلى جحش!

وهذه الشهادة لا يتمّ الحصول عليها من الجامعات وإنما هي اجتهاد شخصيّ من الإنسان! وهي غير مقتصرة على فئة محددة

في المجتمع ، فقد يشترك فيها رئيسُ الجمهورية مع عامل النّظافة ، ودكتور الجامعة مع النّجار ، والطبيبُ مع الحدّاد ، والمهندسُ مع البقّال ، والمفتي مع الملحد! فلا تغرّنك الثّياب الأنيقة ، ولا يرقّ قلبك للثياب الرّثة! ولا تفتنك الشّهادات الجامعيّة ، ولا تشفق على الأُميّة ، يستطيعُ أي إنسان ممارسة «الجحشنلوجيا» في مجاله!

عندما يُضربُ الأبُ ، وتُهانُ الأمُّ ، فهي الجحشنلوجيا!

عندما يبيعُ الأبُ ابنته لمن يدفعُ مهراً أكثر فهي الجحشنلوجيا!

عندما يأكلُ الأخُ حقّ أخواته في الميراث فهي الجحشنلوجيا!

عندما تُحوّلُ المرأةُ من زوجة إلى جارية ، ومن رفيقة درب إلى وعاء إنجاب ، ومن إنسان إلى أثاث فهي الجحشنلوجيا!

عندما يقفُ المفتي مع الحاكم ضدّ الله فهي الجحشنلوجيا!

عندما يُؤكل الرّبا باسم الفائدة ، ويُشربُ الخمرُ باسم المشروبات الرّوحية ، ويُخلع الحجابُ باسم الحضارة ، فهي الجحشنلوجيا!

عندما يكتبُ الدكتور المشرفُ للطالب رسالة الماجستير أو أطروحة الدكتوراه لأجل حفنة دولارات فهي الجحشنلوجيا!

عندما تطعنُ فتاةً في قلبها بلا ذنب ارتكبته سوى أنها توسمت فيك خيراً ووثقت بك فهي الجحشنلوجيا!

عندما يصفُ الطبيبُ دواءً لمريض فقط لأن شركة الأدوية تعطيه مقابلاً على هذا فهي الجحشنلوجيا!

عندما يبيعُ المهندسُ ذمّته للمقاول فهي الجحشنلوجيا!

عندما تُزوّر الحقائق ، ويُصبح الإعلام عبداً للسُّلطة فهي الجحشنلوجيا!

عندما تُبادُ الشعوبُ على الهواء مباشرة دون أن يرفّ للدول

المتحضّرة جفن فهي الجحشنلوجيا!

عندما يهجمُ الفصيلُ المسلمُ على الفصيل المسلم وكلاهما يصرخُ : الله أكبر ، فهي الجحشنلوجيا!

عندما يُغيّر البقّال تاريخ المواد الغذائيّة على السّلع فهي الجحشنلوجيا!

عندما لا نحصل على وظيفة إلا بالواسطة ، وسرير في المستشفى إلا بالواسطة ، فالدولة تمارس الجحشنلوجيا!

عندما يتخرّجُ الأولادُ من الجامعات بدرجات التقدير وهم لا يحفظون المعوّذات فهي الجحشنلوجيا!

عندما يعرفُ الجيل عن ميسي أكثر مما يعرفون عن عمر بن الخطاب

وعن شاكيرا أكثر مما يعرفون عن خديجة بنت خويلد

وعن المتأهلين للمرحلة النهائية من أرب آيدول أكثر مما يعرفون عن شهداء غزوة مؤتة فهي الجحشنلوجيا!

مدوّنات الجزيرة

٥ / ٢ / ٢٠١٧

موظفة مكتبة البصرة!

في بلاد حمورابي . . . حيث يُقال إن أول حرف خطته البشرية كان هناك ، تم الاعتداء على الحرف ممن يُفترض أن يحميه ، فلا وطن بلا حرف! أما هذا الاعتداء الصلف فحصل في العام ٢٠٠٣م .

حيث قررت القوات العسكرية العراقية نصب مضادات للطائرات فوق سطح مكتبة البصرة ، فطلبتْ «عالية محمد» موظفة المكتبة أن تُنقل الوثائق والمخطوطات الثمينة إلى بيتها خشية أن تُصاب المكتبة بالدمار ، ولكن طلبها رُفض ، فلم تقف مكتوفة الأيدي ، بل كانت تتسلل إلى المكتبة ليلًا وتقوم بتهريب الكتب والوثائق ، وبالفعل تعرضت المكتبة للدمار ، ولكن «عالية» كانت قد أنقذت ما يقارب ثلاثين ألف كتاب ووثيقة ومخطوطة! وعندما علمت الكاتبة الإنجليزية «جنيت وينتر» بقصتها كتبت عنها كتاباً للأطفال ليتعلموا منها الشجاعة والوطنية ، والكتاب الآن موجود في أغلب مكتبات أوروبا العامة بعنوان : «موظفة مكتبة البصرة»!

هذا البلد الطاعن في الحرف والحرب ، ارتأى أمراء الحروب فيه أن يغتالوا حروفه! ولكن «عالية محمد» حاربت بصمت دفاعًا عن حروفه ، حمت تاريخه كما كان من المفترض أن تفعل وزارة الآثار ولكنها لم تفعل ، وكما كان من المفترض أن تفعل وزارة الثقافة ولكنها لم تفعل ، امرأة واحدة كانت أعظم من وزارتين وجيش ، وأكثر وطنية من ساسة الوطن الفاسدين جميعهم! وعندما كتبت

«جنيت ونتر» عنها في بريطانيا ، لم يقل أحد لعالية محمد في العراق شكرًا!

الوطنية الحقيقية هي أن يشعر الإنسان أن هذا الوطن ملكه ، ويتصرف على هذا الأساس مهما حاول الساسة أن يهمشوه ، ويقنعوه أنه مجرد نزيل في فندق يملكوه هم!

الوطنية الحقيقية ليست في الخطب الرنانة ، والادعاءات الفارغة ، ولكنها في تلك الممارسات الصغيرة التي تعترضنا كل يوم وتضع حبنا للوطن على المحك!

الأوساخ التي نلقيها على الأرض طعنة في خاصرة الوطن .

المعاملات المكوّمة على مكتبك بانتظار توقيع لا يأخذ منك ثانيتين طعنة في خاصرة الوطن .

المراحيض العامة التي لا تشبه مراحيض بيوتنا طعنة في خاصرة الوطن .

لا تتحدث عن الوطنية وأنت تحضر إلى عملك متأخرًا وتنصرف باكرًا .

الدفاع عن الوطن ليس مهمة الجنود فقط ، كل واحد منا جندي في مجاله .

ليست إسرائيل هي التي تخرب المقاعد في الحدائق العامة ، ولا هي التي تتلف الطاولات في المدارس والجامعات ، ولا هي التي تأخذ كيس القمامة من المطبخ فتلقيه عن الشرفة إلى وسط الشارع ، نحن من نفعل هذا ، ونحن لو تعلم في كثير من تصرفاتنا أشرس على أوطاننا من كل أعدائنا!

الوطن

٢١- ١١ - ٢٠١٧

الليلةُ الأخِيرةُ في مكّة!

كان الوقتُ قد حان للانتقال بالدَّعوة إلى مرحلة الدَّولة! فقد مضى ثلاثة عشر عامًا على نزول الوحي ، نضجُوا خلالها بما يكفي لحمل رسالة السماء إلى شتى أصقاع الأرض!

بلالٌ كان قد مرَّغَ كبرياء أمية بن خلف في تراب مكة! وحمزةُ صفع أبا جهلٍ عند الكعبة وقال له : رُدَّها عليّ إن استطعت! وجعفرُ أذلّ العُزى عندَ النجاشي في الحبشة! وسَعدٌ أخبر أمه أن الله أغلى منها! وسُميّة كان آخر عهدها بالدنيا أن بصقَتْ في وجه أبي جهل! وعُمر أخبر قريشًا كلها أنه مهاجر فإن كان فيها رجلاً فليتبعه!

وها هي ساعة الصِّفر قد حانتْ وعلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرج ، فلن تقوم للدَّولة قائمة حتى يصل إلى يثرب ، لهذا جمعتْ قريش من كلِّ قبيلة رجلًا ليضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين القبائل! وهنا حان دور الفارس المغوار علي بن أبي طالب لينام في فراشه . . . أما هو فقد مضى إلى بيت أبي بكر وقال له : هلمّ بنا! عندها فقط عرف أبو بكر لماذا كلما قال له : ائذن لي بالهجرة . . . قال له : انتظر لعلّ الله يجعل لك رفيقًا! كان لا يطيق دروب الحياة دونه لذلك خبأه له بانتظر ، وهكذا سار الركب في رحلة كُتب لها أن تُغيّر كوكب الأرض إلى الأبد!

ولكنّ كُتب السِّيرة لا تذكر لنا شيئًا من تلك التفاصيل الموغلة في الخصوصية ، لم تقل لنا شيئًا عما شعر به وهو يغادر بيتًا فيه رائحة خديجة ، تلك المرأة التي جاءها خائفًا قبل ثلاثة عشر عامًا

عندما نزل عليه الوحي فضمته إلى صدرها فواسته أكثر مما قد يفعل كل كلام أهل الأرض لو قيل له! خديجة التي يوم ماتت صار العام كله عام الحزن ، ولأن الأرض كلها كانت لا تكفي لتكون له عزاءً ، استدعاه ربه إلى السماء ليعزيه بها! لا أحد يعرف بما شعر تلك الليلة ولكن من المؤكد أنه كان يريد أن يضمها قبل أن يخرج ولكنه لم يجدها! رجل مثله كان لا شك يؤلمه فقد امرأة مثلها!

لم تقل لنا كتب السيرة كيف ودّع بناته ، ولا أحد يعرف ما قال لزينب التي داست على قلبها لأجل دينها فتركت زوجها وهي تحبه . . . ولا كيف ضمّ إلى صدره رقية وأم كلثوم اللتين طُلقتا لأن أباهما نبي!

أما فاطمة تلك التي كانت قطعة من قلبه فلا يوجد كتاب واحد يحكي ما شعر به أب وهو يترك قطعة قلبه ويمضي!

كنا نريد أن نعرف كل هذا ، ولكنا حُرمنا منه ، هذه الأشياء الموغلة في الخصوصية والوجع ، إني لأقسم أن عقوق قريش به كان أقلّ وطأة من ترك بيت فيه رائحة خديجة وصوتها! وإنهم وإن فشلوا بطعنه بالسيف في جسده فقد طعنوه في قلبه يوم ترك فاطمة خلفه ومضى . . الوجع الحقيقي الذي تقول كتب السيرة أنه توجعه ليكون لنا دين ، لم يكن شيئًا مقارنة بالوجع الذي لم يكتب عنه أحد! .

الوطن

٢٢- ١٠ - ٢٠١٧

﴿وإذا الموؤودة سُئلت﴾!

عندما أراد حافظ إبراهيم السفر إلى اليونان، حاول صديقه مصطفى صادق الرافعي أن يُثنيه، وقال له: ألا تخشى أن تموت هناك، فتموت يونانيًا؟

فقال له حافظ: أوَتراني لم أمتْ بعد في مِصر؟! إن الذي بقيَ هيّن!

يقولون في مثلنا ذائع الصيت: «إكرام الميت دفنه» ولكن لسبب لا يعرفه أحد لم يقل المثل شيئًا عن وأد الأحياء!

والوأد ليس بالضرورة أن يكون على طريقة الجاهليين، حفرة صغيرة لبنت صغيرة ليس لها ذنب ولا جريرة يهيل أبوها عليها التراب ويمضي دون أن يرف له جفن لأن العادات تُصبح أحيانًا إلهًا معبودًا من دون الله! وأد الأحياء هو عندما تُهيل التراب على كرامتهم وأحلامهم ومشاعرهم وحقوقهم!

وإن من الوأد أن ترى في ولد لك موهبة فلا تنميها فيه!

ومن الوأد أن تُشعر ابنتك أنها «غلطة» ولكنك تُربيها من باب أنه لا حلَّ آخر، ولو كنت في الجاهلية لأهلتَ عليها التراب!

ومن الوأد أن يريد ابنك اختصاصًا جامعيًا وتجبره أنتَ على آخر!

ومن الوأد أن ترغب ابنتك بزوج وتحملها أنتَ على آخر!

ومن الوأد أن تعمل زوجتك ليل نهار، سبعة أيام في الأسبوع، بلا عطل ولا إجازات، ثم تُشعرها أنها جارية اشتريتها بمالك من

سوق النخاسة لا على أنها حبيبة قلب ورفيقة عمر!

ومن الوأد أن تصرف عائلة دم قلبها لتعليم ابن ثم يطوف على الشركات والإدارات وليس له وظيفة في بلادٍ تقول له : «اذهب أنتَ وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون»!

ومن الوأد أن يكون أحدنا مجبرًا على ابتلاع رأيه في كل ما يدور حوله ، وإلا فمصيره السجن لأن أحدهم قرر استنساخ تجربة فرعون العظيمة في الحكم : «ما أريكم إلا ما أرى»!

ومن الوأد أن تكون مجبرًا كل يوم أن تثبت لحفنة حثالة يوزعون صكوك الوطنية وتهم الخيانة أنك تحبّ وطنك أكثر منهم ، وأن القطعان لا تبني أوطانًا وأنّ المجد أحيانًا لمن قال : لا!

ومن الوأد أن لا تملك حتى قلبك ، على الحكومة أن تملي عليك من تُحب ومن تكره!

ومن الوأد أن لا تملك حتى قلمك ، إذا أحبوا شخصًا عليك أن تنظم فيه قصيدة غزل ، وإذا كرهوا شخصًا في الليل عليك في الصباح أن تهجوه!

ومن الوأد أن لا تملك حتى عقلك ، لا تُتعب نفسك هم يفكرون عنك!

بالله عليكم ارحمونا ، يكفينا أننا سنموت يومًا فلا تدفنونا أحياء!

الوطن

٢٤- ١٠ - ٢٠١٧

أيها النّاس : حلُّوا عنّا!

أحياناً نُصابُ بعقم الكتابة ، فيصبحُ القلم عاجزاً عن الكلام عجزَ عجوزٍ في الثمانين عن إنجاب طفل! ثمّ فجأةً تخطرُ لنا فكرة ، فنشعر في تلك اللحظة بما شعر به أرخميدس عندما صرخ قائلاً : وجدتها ، وهو مستلقٍ في البانيو!

وبما شعر به نيوتن حين وقعتْ التّفاحة على مقربة منه ، فسأل نفسه : لماذا يسقط التفاح بدل أن يطير؟! من الجيّد أنّ أحد قاطني هذا الكوكب قرر أخيراً أن يُفكّر بعقله بدل أن يُفكّر بمعدته! ومن المخزي أننا استغرقنا كلّ هذا الوقت لنعرف لماذا يسقط التّفاح بدل أن يطير!

كان تفكيرُ أرخميدس مُنصبّاً على مشكلته الشّخصيّة ، فقد كلّفه الإمبراطور هيرون معرفة إن كان تاجه الجديد من الذّهب الخالص أم أنّ الصّائغ قد خدعه ، فعندما يُركّز النّاس على شؤونهم الخاصة ويدعون النّاس وشأنهم يُبدعون!

ونيوتن على ما يبدو لم يكن مهتماً بما تناوله جيرانه على الغداء ، ولا من أين حصل أخوه على ثمن عربته الجديدة التي تجرّها الخيول ، فعندما نتوقف عن النّظر لما في أيدي الآخرين يصبحُ لدينا وقت للتفكير بما في أيدينا!

أحياناً لا نريدُ من الآخرين سوى أن يدعوننا وشأننا ، ولكنهم لا يسمحون لنا بمثل هذا الترف! هناك أشخاص لا يأتيهم النوم إلا إذا تفقّدوا صور الآخرين الشّخصيّة وحالاتهم في الواتسآب ، كأنّ

أحدهم عمر بن الخطاب لا يقر له جفن حتى يطمئنّ على رعيّته! وليته يريد أن يطمئن بقدر ما يريد أن يخرج «سيغموند فرويد» الكامن فيه ويحللك تحليلاً نفسياً معتوهاً!

عندما نضع جملةً عن الحُبّ فهذا لا يعني أننا في حالة هيام!

وعندما نضع جملةً عن الغدر فهذا لا يعني أننا قد تلقينا طعنة للتو!

وعندما نضع جملةً عن قيام الليل فهذا لا يعني أننا أمضينا الليلة على سجادة الصلاة!

وعندما نضع جملةً عن صلاة الجماعة فهذا لا يعني أننا نحملُ مفاتيح المسجد!

يحدثُ أن يقرأ الإنسان جملةً فتعجبه فيقتبسها ، الأمرُ لا يعدو كونه استعذابُ كلام لا أكثر! ثمّ إنّ الكلام حمّال أوجه ، وجملة كـ«داوها بالتي كانًت هي الداءُ» أعمق من رغبة في الذّهاب إلى حانة لاحتساء الخمر كما كان يفعل أبو نوّاس!

والنّاسُ لا يكتفون بمحاسبتك على ما تنشر ، وإنما يحاسبونك على ما لا تنشر أيضاً! اطمئنوا فنحن بخيرٍ لا شغل الله لكم بالاً!

عندما لا نُصوّر طعامنا في الفيسبوك فهذا لا يعني أننا لا نأكل!

وعندما لا نُصوّر زوجاتنا ونحن نعانقهنّ فهذا لا يعني أننا لا نعانقهنّ!

وعندما لا نُصوّر أنفسنا ونحن نسجد فهذا لا يعني أننا لا نصلي!

وعندما لا نُصوّر بطاقات علامات أولادنا فهذا لا يعني أنهم راسبون!

وعندما لا نُصوّر أنفسنا على أسِرّة المستشفيات فهذا لا يعني أننا لا نمرض!

وعندما لا نُصوّر أنفسنا في الرّحلات والنّزهات فهذا لا يعني أننا أقفلنا بيوتنا على أنفسنا وابتلعنا المفاتيح!

وعندما لا نُصوّر اجتماعاتنا العائلية فهذا لا يعني أننا عائلة شتت الله شملها!

وعندما لا نُصوّر أنفسنا ونحن نُقبّل أيدي أمهاتنا فهذا لا يعني أننا عاقون!

وعندما لا نُصوّر الكتب التي نقرأها فهذا لا يعني أننا جهلة لا نقرأ!

حتى عندما لا نخبركم أننا خرجنا للتو من الحمّام فهذا لا يعني أننا عفنون ولا نستحم!

كلّ ما في الأمر أننا نرى أن عيش اللحظات أجمل من توثيقها ، وأنّ حياتنا لنا لا لكم ، فحلّوا عنّا!

مدوّنات الجزيرة

٢٩ / ١ / ٢٠١٧

شكراً فرعون!

١- شُكراً فِرعون ، منكَ تعلمتُ أنّ قدر الله نافذٌ لا محالة ، ذبحتَ آلاف الأطفال كي لا يأتي موسى ، وعندما جاء ربيته في بيتكَ!

٢- شُكراً فِرعون ، منكَ تعلمتُ أنّ القلوب بيد الله لا بيد النّاس ، فعندما حرمتَ موسى من قلب أمّه رقق الله عليه قلبَ زوجتكَ! أردتَ أن تحرمه أمّه فأعطاه الله فوق أمه أماً أخرى!

٣- شُكراً فرعون ، منكَ تعلمتُ أنّه ليس بإمكان أحد أن يُفسد أحداً ، ففي القصر الذي كنت تقولُ فيه : ﴿أنا ربكمً الأعلى﴾ كانت آسيا في الغرفة المجاورة تقول : سبحان ربي الأعلى!

٤- شُكراً فرعون ، منكَ تعلمتُ أنّ البيوت أسرار ، وأنّ بإمكان امرأةٍ وزوجها أن يعيشا تحت سقف واحدٍ ويكونا غريبين ، فالذي يجمع بين الزّوجين ذات القلب لا ذاتَ السقف!

٥- شُكراً فِرعون ، منكَ تعلمتُ أنّ جيشاً بحاله يعجز عن رد مؤمن عن إيمانه ، فلا السحرة أرهبهم جيشك ، ولا الماشطة أخافها زيتك!

٦- شُكراً فِرعون ، منكَ تعلمتُ أنّ الدم لا يصير ماءً ، وأن أختاً صغيرة أعادت أخاها إلى أمه حين قالت ﴿هل أدلّكم﴾؟! وأنّ أخاً كان نبيلاً إلى الحد الذي لم يتحرج فيه أن يعترف أن أخاه أفصحُ منه لساناً!

٧- شُكراً فِرعون ، منكَ تعلمتُ أنّ العبيد يصنعون جلاديهم

بأيديهم! وأنّه لم يكن بإمكانك أن تمتطيَ ظهور قومك لولا أنهم أناخوا وأركبوك!

٨- شُكراً فِرعون ، منكَ تعلمتُ أنّ الله إذا أراد أن ينصر عبداً نصره بعصا لم تكن صالحة من قبل إلا ليتكئ عليها ، ويهش بها على غنمه ، وأنّه إذا أراد أن يهزم عبداً هزمه وهو في عقر جيشه!

٩- شُكراً فِرعون ، منكَ تعلمتُ أنّ كلّ ما في الأرض أسباب تجري على النّاس ولا تجري على الله! وأنّ النهر الذي من المفترض أن يُغرق الأطفال صار ساعي بريد وحمل إليك طرداً فيه طفل كنت تبحثُ عنه! وأنّ البحر الذي لا يُعبر إلا بالسفن عبره القوم مشياً على الأقدام بعد أن صار طريقاً يبساً!

١٠- شُكراً فِرعون ، منكَ تعلمتُ أنّ كلّ ما في الأرض جند من جنود الله ، وأنّه سبحانه هو من يختار سلاح المعركة ، وأنّكَ حين جئتَ بجيشكَ كان قادراً على أن يأتي لكَ بجيش مثله ، ولكنك أهون على الله من هذا ، فقتلكَ بالماء الذي جعلَ منه كلّ شيء حيّ!

الوطن

٩- ٤- ٢٠١٦

انقرضوا يرحمكم الله!

نقَل ابنُ الجوزيّ في كتابه «أخبارُ الحمقى والمغفلين» عن أبي العيناء أنه قال : دخلَ العطويُّ الشاعرُ على رجلٍ بالبصرةِ وهو في النزعِ الأخيرِ ، فقال له : يا فلان قل لا إله إلا الله ، وإن شئتَ فقل لا إلَهاً إلا الله ، والأولى أحبُّ إلى سيبويه ، وعليها مذهبُ نحاة أهل البصرة!

قولُ العطويِّ صحيحٌ لا شك ، ولكنَّ ابن الجوزيّ صنَّف الحادثةَ في أخبار الحمقى لأنَّ العرب تقول : لكلِّ مقامٍ مقال ، والقولُ الصحيحُ في غير موضعه حمق ، ولا أحمق مًن رجلٍ يعرضُ على رجلٍ في النزعِ الأخيرِ أقوالَ النُّحاةِ في عمل لا النافية للجنس!

ومن ضُروب الحُمق عند العربِ «التّقعر» في الكلام ، والتّقعر هو الإتيان بغريبِ الألفاظ ، وسوقه أَمام من لا يعرفُه ، حتى ليبدو كأنه من لغة أخرى ، أو من كلام الجان! كما فعلَ أبو علقمة النحويّ عندماً نزلَ به مرض ، فذهب إلى الطبيبِ وقال له : أمتعَ الله بكَ ، إني أكلتُ من لحومِ هذه الجوازل ، فطسئتُ طسأةً فأصابني وجعُ الوابلةِ إلى ذاتِ العنق ، فلم يزلْ يربو وينمُو حتى خالط الحلبَ والشراشيف ، فهل عندكَ دواء؟!

فقال الطبيب : خُذ حرقفاً وسلقفاً فزهدقه وزقزقه واغسله سافراً بماء روث واشربه!

فقال له أبوعلقمة : لم أفهم منكَ شيئاً

فقال له الطبيب : قاتل الله أقلنا إفهاماً لصاحبه!

والتقعرُ في الكلام ، واستعراضُ العضلاتِ اللغويّة عند العرب من قلةِ الأدب ، كما ذكرَ الحسين بن السّميدع الإنطاكيّ ، أن والي انطاكيا كان له كاتب فصيح أحمق ، وطلب الوالي من كاتبه أن يكتب إلى أمير حلب بخبر غرق سفينتين له ، لأنّ إنطاكية كانت تابعة وقتذاك إداريّا إلى حلب ، فكتب يقول :

أما بعد ، فاعلم أيها الأمير أن شلنديتين ، أي مركبين ، قد صفقا في البحر من شدة أمواجه ، أي غرقا ، فهلكَ من فيهما ، أي تلفوا ، أدامك الله ، أي أبقاك ، والسلام .

فكتب إليه أمير حلب يقول : ورد كتابك ، أي وصل ، وفهمناه ، أي قرأناه ، أدِّب كاتبكَ ، أي اصفعه ، واستبدل به ، أي اعزله ، فإنه مائق ، أي أحمق ، والسلام ، أي انقضى الكتاب!

وقد كنتُ حتى قبل أيام أعتقدُ أنّ المتقعرين قد انقرضوا ، ولكني تفاجأتُ أن لهم بقية! فَقد كتب أحدهم إعلاناً عارضاً فيه بيع سيارته فقال : إليكم عباد الله أزجي بضاعتي ، على أنني بالكاد أرضى فراقها ، يلومونني في بيعها لا أبا لهم ، فقلت : صروف الدهر كيف دفاعها!

ألا وإنَّ الزمنَ غلاب ، والوقت ذو انقلاب ، ولولا الظروف وخشية الحتوف ، ما فكرتُ ولا غامرتُ ، ولا أعلنتُ ولا شاركتُ ، واعلموا أن اللكزس من خير ما يُركب ، اللهم ارزقني أسطولاً من اللكازس ، والسيارة صنع ٢٠٠٧!

ولم يشفِ غليلي في تقعره إلا ثلاثة ردود ساخرة جاءت بعد كلامه ، قال له الأول : يا أخا العرب هل فُتحت الماكينة أم ما زالت بكراً ، وهل عقدَ عليها أحدٌ قبلك ، أم أنكَ الأول والأخير لها يا أبا حلزة!

وقال له الثاني : هل تقايضني إياها بألفي صاع أرز وألف صاع من تمر نجد؟

وقال له الثالث : كم قطعت دابتكم من فرسخ ، وهل سلكتَ بها الفيافي والقفار ، أم داخل الدار بين الأهل والأصحاب؟ وهل تبيعها بمائة صاع بر ، ومائة أخرى شعير تعلف بها دوابك ، فإن وافقت فالملتقى سوق عكاظ أو عتبة دار الأرقم والسلام!

إن لم يكن من التقعر في الكلام إلا أنه يضعنا في مواقف «بايخة» لكفى ، ولكنه أيضاً مخالف للفطرة السوية ، فتضيع به الفكرة لصالح اللغة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : «نحن معاشر الأنبياء أُمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم»! واللغة جزء من العقل ، وكل كلام ينقسم إلى قسمين : فكرة وأسلوب ، والأسلوب هو حامل الفكرة ، فإذا انقطع حبل الكلام بين القائل والسامع ضاعت الفكرة .

هذا ما استقام لي بيانه ، أي كتابته ، وأعانني الله على تبيانه ، أي تبليغكم به ، فأرجو أن تعوه ، أي تفهموه ، ولا يذهب أدراج الرياح ، أي هباءً ، وإن الكلام قد تم ، أي اكتمل ، والسلام ، أي نلتقي في السبت القادم!

الوطن

١٦- ٤- ٢٠١٦

أيها الكتاب : تواضعوا!

يقول الرائع رسول حمزاتوف في روايته داغستان بلدي :
وإنه لأمر مفهوم ؛ بعضهم يُحب التفاح ، وبعضهم يُحب الجوز . . التفاح يُنزع عنه قشره عند أكله ، أما الجوز فيجب أن يُكسر . . وهكذا الكتب كل منها يحتاج إلى مقاربة خاصة ، الجوزة تحتاج إلى كسارة ولا يجوز معالجتها بالسكين ، والتفاحة الطرية العطرة لا يجوز معالجتها بكسارة ، وكل إنسان حين يقرأ كتاباً ، يرى فيه عيوبه هو ، وماذا في الأمر؟! يُقال إنه حتى ابنة المُلا نفسها لا تخلو من العيوب ، أما كتابي هذا فحدِّث عنه ولا حرج!

من يقرأ داغستان بلدي يعرف إلى أي حد هو متواضع رسول حمزاتوف ، وبرأيي . . فإن صحَّ ما يُقال إن لكل أديب كتاباً ما يتفوق فيه على نفسه ، ويستحيل عليه تكراره ، فإن داغستان بلدي هي التي تفوَّق فيها حمزاتوف على نفسه ، وحين يُصرُّ حمزاتوف على أنه شاعر ، أرى حمزاتوف الشاعر لا شيء مقارنة بحمزاتوف الروائي ، ربما لأن الشعر المترجم يفقد شيئًا من روحه ، وربما لأن الرواية أصابتني بالذهول فعلاً!

المهم أنه لا يخفى على شريف علمكم أن كثيرًا من الكُتّاب يعانون من مرض العنجهية ، وترونهم ينظرون إلى كتبهم بعين القداسة ، ولولا الحياء لوضع أحدهم على غلاف كتابه فاتحة سورة البقرة : «ذلك الكتاب لا ريب فيه» وكأنه وحي نزل به جبريل لا كتابة بشرية لها وعليها ، وأنَّ الناس في الكتابة كالناس في الفتوى

«كلٌّ يؤخذ منه ويرد إلا صاحب هذا القبر» كما قال الإمام مالك وهو يشير إلى قبر النبي ، صلى الله عليه وسلم .

أفهم تماماً أن الإنسان ينتشي بما ينتج ، الأبوان يفاخران بابنهما المتفوق ، والمزارع يزدهي بمحصوله الوافر ، والمهندس يُسرّ ببناية أنشأها حجرًا حجرًا ، والطبيب يفخر إذا أنقذ مصابًا من براثن الموت ، حتى عامل النظافة يحقٌّ له أن يبتهج إذا أزال أوساخنا عن الطريق! ولكن الابتهاج شيء والتكبر شيء آخر!

بعضُ الكُتّاب لو قلتَ له : لو وضعت هذه الكلمة بدل تلك لاحتدَّ كأنك شتمت أمه! وبعض الشعراء لو انتقدت صورة شعرية له في بيت ما لانتفخت أوداجه ، وركبه شيطان المتنبي ، وكاد أن يقول لك : أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي!

الأمر أيسر من ذلك أيها القوم! نحن نملك النص الأدبي ، ولكننا لا نملك أذواق الناس لنحملهم على الإعجاب بما نكتب! من حقّ الناس ألا يعجبهم بعض أو كل ما نكتب ، فنحن في نهاية المطاف نحمل قلمًا لا سوطًا ، فتواضعوا يرحمكم الله!

الوطن

٢٦- ١٠ - ٢٠١٧

أنتَ ما تريد!

يقول باولو كويلو في روايته الشهيرة الخيميائي :
عندما تريد شيئًا بشدّة فإن العالم كله يتآمر معك لتحقيقه!
وددتُ لو أن الرائع باولو قال : عندما تريد شيئًا بشدة وتسعى إليه فإن العالم كله يتآمر معك لتحقيقه ، فالرغبة في شيء ما لا تكفي للحصول عليه ، لا بُدَّ أن يُشمر المرءُ ويجد ، لهذا أجد أفضل وأحكم من قول كويلو هذا قول أحمد شوقي :

وما نيل المطالب بالتمني
ولكن تُؤخذ الدنيا غلابا!

وليس بعيدًا عن أحمد شوقي في الجغرافيا وإنما في التاريخ ، فقد كان كافور الأخشيدي وصاحبه عبدين في سوق النخاسة ، ينتظر كل منهما سيدًا ليدفع ثمنه ويصير إليه ، وبينما هما كذلك إذ دار بينهما حوار ، وأخذ كل واحد منهما يسأل الآخر عن أمنيته ، فأما صاحب كافور فقال له : أتمنى أن أُباع إلى طباخ لآكل ما أشاء وقتما أشاء ، وأما كافور فقال له : أما أنا فأتمنى أن أملك مصر كلها!
وبعد أيام بيع صاحبه إلى طبّاخ ، وبيع كافور لأحد قادة جيش مصر ، فما زال كافور يجد ويجتهد حتى أعجب به سيده ، فأدناه منه ، فلما مات السيد حلّ كافور مقامه ، وما زال يثبت جدارته حتى صار قائدًا على جنود مصر جميعًا ، ثم فتكَ بالحاكم وتولى مكانه!
ودارت الأيام ، ومرّ كافور على صاحبه القديم ، فإذا هو عند

الطباخ كما تمنى ، يأكل ويشرب ، وليس له من الدنيا إلا لقمته ، فقال كافور لمن كان معه :

لقد قعدت بهذا همته فكان كما ترون ، وطارت بي همتي فصرتُ كما ترون ، ولو جمعتني وإياه همة واحدة ، لجمعنا مصير واحد!

يبدو أن كافور كان يؤمن بالمقولة الشهيرة : الغاية تبرر الوسيلة! وسواءً اتفقنا معه أو اختلفنا فهذا هو شأن السياسة والسياسيين في كل عصر ، قلما تُدار السياسة بنبل ، لأنها قلما ترتبط بالمبادئ وإنما بالمصالح ، والشخص الذي لا يرى إلا مصلحته على استعداد أن يحرق مدينة ليشعل سيجارة .

وبغض النظر عن الطريقة التي وصل بها كافور ، والتي أنا ضدها بالطبع لأني أؤمن أن نبل الوسائل من نبل الغايات ، إلا أنه وصل أخيرًا ، وأنه قبل أن يصل سلك طريقًا وعرًا وشاقًا لتحقيق حلمه!

يقول الفرنجة : هدف بلا خطة هو مجرد أمنية!

وأقول أنا : أنتَ ما تريد ، وصورتك هي كما ترى نفسك ، ومركزك بقدر همتك ، وقد ذكرتُ لك قصة عبدين ، عاش أحدهما لبطنه ، وعاش الآخر لحلمه ، ثم بعد الآن ، أنتَ وما ترى!

الوطن

٥- ١٠ - ٢٠١٧

لا يشكونك أحد إلى الله!

غضبَ أحدُ الولاة رجلًا من العقلاء ضيعةً له ، فأتى إلى أبي جعفر المنصور شاكيًا . . .

وقال له : يا أمير المؤمنين أأذكرُ حاجتي أم أضرب لكَ قبلها مثلًا؟

فقال له أبو جعفر : بل اضربْ قبلها مثلًا!

فقال : إن الطفل الصغير إذا نابه أمر فزع إلى أمه ظنًا منه أن لا ناصر له غيرها ، فإذا ترعرع واشتد كان فزعه إلى أبيه ، لعلمه أنه أقوى ، فإذا بلغ وصار رجلًا فزع إلى الوالي لعلمه أنه أقوى من أبيه ، فإن لم ينصفه فزع إلى السلطان لعلمه أنه أقوى من الوالي ، وقد نزلت بي نازلة وليس أحد أقوى منكَ إلا الله ، فإن أنصفتني كان بها ، وإن لم تفعل رفعتُ أمري إلى الله!

فقال المنصور : بل ننصفك!

فكتب إلى الوالي كتابين : الأول يأمر فيه بردِّ الضيعة والثاني فيه عزل الوالي!

أخبَرُونا أن القانون لا يحمي المغفلين!

هذا قانون الأرض ، وبروتوكولات المحاكم ، ودين القضاة ، أما السماء فلها قانون آخر يقول أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب ، وأن الله يستجيب دعاء الكافر المظلوم على المسلم الظالم ، لا حبًا بالكافر ولا بغضًا بالمسلم ، ولكن حبًا للعدل وبغضًا للظلم!

يمكنك أن ترشي قضاة الأرض ، وتشتري ذمم الشهود ، وتزوّر

العقود ، لكن هذا ليس نهاية المطاف ، المطاف نهايته في صحيح مسلم : «من اقتطع حقّ امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة»! فقال له رجل : وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله ، فقال : وإن كان قضيبًا من أراك»!

يمكن للمحكمة أن تقتنع بحجتك ، فيقضي القاضي لكَ ، فأنتَ فصيح ومتنفذ وخصمك بسيط مسكين ، ولكن هذا ليس نهاية المطاف أيضًا ، المطاف نهايته في صحيح البخاري : «إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأقضي له على نحو ما أسمع ، فمن اقتطعتُ له شيئًا من حقّ أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من نار»!

ثم ليس بالضرورة أن يكون هناك محاكم ، لتضيع في أروقتها الحياة ، ثمة حقوق تضيع في أروقة الحياة ، يجهلها قضاة الأرض ، ويعلمها قاضي السماء ، فإياك أن تكون خصمًا لشخص ليس له إلا الله يشكوك إليه!

لا يغرنّك أنك مدير متنفذ وهو موظف مسكين ، لربما نمتَ ذات ليلة ، فقام هو فتوضأ ، وصلى ركعتين ، ثم رفع يديه وقال : اللهم إني مغلوب فانتصر ، فينتقل ملف القضية من الأرض إلى السماء ، فيقول لها الله : وعزتي وجلالي لأنصرنّك ولو بعد حين!

لا يغرنك أنها زوجة مقطوعة من شجرة فتظلمها لربما كانت خير من ملء الأرض من أمثالك فرفعت يديها ودعت عليك!

لا يغرنك أنك أمسكت يد أبيك وهو في سكرات الموت ووقعت بها على عقود بيعٍ وشراء فحرمتَ إخوتك من حقهم في الميراث ، فإن كل لحم نبتَ من حرام فالنار أولى به!

لا يغرنك أن حماتكِ عجوز متهالكة في بيتك فتذيقيها

الأمرين ، غدًا تصبحين حماة وسيرد إليك الصاع صاعين!

لا يغرنك أنه جارك المسكين فريسة سهلة لتسلبه متر أرض ، لا يوجد أقوى من مسكين ليس له إلا الله .

الوطن

٢٨- ٩ - ٢٠١٧

دللوا أنفسكم!

خسر لاعبُ التنس «غيروليتس» ستة عشر مرة متتالية أمام «جيمي كونر» ، وبعد ذلك فاز عليه ، وصرّح بعد المباراة قائلاً : يجب أن تعلموا أنه لا يمكن هزيمتي سبعة عشر مرة متتالية!

بعيداً عن طرافة الخبر ، يعجبني الأشخاص الذين يتعاطون مع الحياة بعقلية «غيروليتس» ، هؤلاء الذين يُصفّقون لأنفسهم عندما لا يجدون من يُصفّق لهم ، ويربتون على أكتافهم عندما لا يجدون من يفعل ذلك لهم ، الذين يرون أي إنجاز يحققونه عملاً عظيماً مهما كان بسيطاً! ستة عشر هزيمة متتالية لم تُثنِه أن يقف أمام الصحافة ليدلي بتصريحه الطريف هذا ، وما أدراني لعلّ جيمي كونر قد وبّخ نفسه تلك الليلة متناسياً انتصاراته السابقة! فجميعنا نملك نفس العين ولا نملك نفس النظرة! والأمور غالباً تأخذ حيزها في حياتنا تبعاً لزاوية الرؤية التي نقرر أن ننظر إليها منها!

لستُ أعيب على أصحاب الهمم العالية الذين لا يرضيهم الفوز إلا إذا كان ساحقاً ، والنجاح إلا إذا كان باهراً ، على العكس تماماً أتفهم أن هذا طبع البعض ، وأعترف أنّ هؤلاء هم الذين غيروا العالم على مرّ التاريخ ، ولكني بالمقابل أقول : لماذا على الإنسان أن يعيش بهاجس أن يبدو مثالياً دوماً ، لماذا علينا أن نتناسى طبيعتنا البشرية فنحمّلها فوق ما تستطيع ، إن الحياة معقدة بما يكفي لتكون عقاباً لنا ، فلماذا نعقدها أكثر؟ ليس من الحكمة أن نأخذ الحياة على محمل الجدّ دوما!

دللوا أنفسكم ولا تنتظروا هذا من أحد ، إن السعادة في الغالب تنبع من داخلنا لا من الأشياء المحيطة بنا!

إذا قرأتَ كتابا اشترِ لنفسك هدية فقد قمتَ بعمل عظيم وإن لم يعرف الناس به!

إذا نجحتَ بمادة صعبة ، صافح نفسكَ وقل : عظيم يا أنا! كما فعل أرخميدس يوم قفز من البانيو قائلاً : وجدتها!

إذا وقفتِ أمام المرآة ، قولي لنفسك : كم أنا جميلة! لماذا على الآخرين أن يخبرونا بالأشياء الجميلة فينا؟!

إذا نجح أولادكِ هنئيهم ، وقبل هذا هنّئي نفسكِ ، وقولي : أنا أم عظيمة وهذه ثماري أينعت ، والنجاح قطافها!

نحن عظماء وإن كنا بسطاء!

الشخص الذي لا يُقدّر نفسه لن يجد من يقدره ، قدّروا أنفسكم ، كل واحد منّا نسخة فريدة وإن كان يعيش بين ستة مليارات إنسان غيره ، دللوا أنفسكم فأنتم تستحقون!

الوطن

١٩- ٩ - ٢٠١٧

كفى صناعة للعبيد!

عندما أراد الصّينيون القدماء أن يعيشوا بأمان ، بنُوا سورَ الصّين العظيم ، واعتقدُوا أنه لا يمكن لأيّ عدو أن يتسلقّه نظراً لارتفاعه الشّاهق ، ولكن المفاجأة كانتْ أنه خلال المائة سنة الأولى بعد بناء السّور ، تعرضت الصّين للغزو ثلاثَ مرّات ، وفي هذه الغزوات الثلاث لم تكن الجيوشُ الغازية بحاجة إلى تسلّق السُّور الشّاهق ، أو اختراق حجارته المنيعة ، وإنما كانوا يدخلون من الأبواب بعد أن يدفعوا رشوةً للحُرّاس!

القضية باختصار : قبل بناء الجدران علينا أن نبني الإنسان!

بالطّبع ليس لديّ شيءٌ ضدّ فنون العَمارة ، تشدُّني المباني الأنيقة ، وتذهلني الأبراجُ الشّاهقة! وليس لديّ شيء ضدّ أن تسعى دولة ما بشتى الطرق لتصد أي عدوان على أراضيها ، أحترمُ الأم التي لا تركع! ولكن ما أنا ضدّه هو أن نهتم بالحجر على حساب البشر! وأن نتطاول بالبنيان وننحدر بالإنسان!

القلاع الحصينة لا تسقط إلا من الداخل ، وأفضل طريقة لحفظ الأوطان وتحصينها هو بناء الإنسان وتحريره ، لأنه لا يُدافع عن الأوطان إلا الأحرار ، أما الجائع فلا يُدافع إلا عن خبزه!

ما فائدة أن نتطاول في البنيان ، وعلى مقربة من البرج سجن ، يدور في أروقته ما يدور في المسالخ!

ما فائدة وزراء السّعادة ، والترفيه ، والفرفشة ، والتكييف إذا

كان حراماً أن يكون للمواطن رأي غير رأي الحكومة ، وعاطفة غير عاطفتها!

ما فائدة المساجد الكبيرة ما دامت المنابر للتسبيح بحمد ولي الأمر أكثر من التسبيح بحمد خالق ولي الأمر!

والله ِ،لستُ ضدّ الأبراج والبنايات ، ولا ضدّ المساجد والمنابر ، ولا ضد الترفيه والسعادة والفرفشة والتكييف ، أنا فقط ضدّ صناعة الجياع ، لأن الجائع ليس له ولاء إلا للرغيف!

الوطن

٢١- ٩ - ٢٠١٧

عُذراً بابا نويل!

السّيد سانتا كلوز تحيّة وبعد :

كنتُ صغيراً عندما سمعتُ بكَ أوّل مرّة ، أخبروني أنّكَ تدخلُ البيوتَ من مداخنها حاملاً كيس ألعاب ، فتمنيتُ من كلّ قلبي أن ألتقيكَ ، وبالفعل انتظرتكَ تلك الليلة أن تهبط عليّ رغم أنّ بيتنا ليس فيه شيمينيه ولا مدخنة! حتى أني لم أنتبه أن سطح البيت لا يتّسع لتركن عليه عربتكَ وأيائلكَ!

المهم أنكَ لم تأتِ ، فاعتقدتُ أنّ ما منعكَ هذه الأسباب اللوجستيّة التي لا تتوفر لدينا!

فأخبرتُ المعلمة التي حدّثتنا عنكَ كيف قضيتُ ليلتي محدّقاً إلى السّقف

فقالت لي : سانتا لا يهبطُ إلا من المداخن!

ولأني كنتُ طويل لسان منذ نعومة أظافري قلتُ لها : البيوت التي فيها مداخن لا يحتاج أطفالها مزيداً من الألعاب!

فنظرتْ إليّ بدهشة ثم قالت : اكتبْ لسانتا رسالة وضعها في جوربك وأخبره عن هذه الملاحظة!

فقررتُ أن أكتب إليكَ فعلاً ، ولكني لم أجد جورباً ليس فيه ثقب لديّ فعدلتُ عن الكتابة إليك!

في ليلة الجوارب المثقوبة تلك ، طلبتُ من أمي أن تشتري لي هديّة ، هي أيضاً قدّيسة ، ولكنها قدّيسة حقيقية وليست مثلك ، تصلي كثيراً ، وتقرأ القرآن ، وتدخل البيوت من أبوابها!

فقالت لي : سأشتري لك لعبة بعد أسبوع

فسألتها : ولِمَ بعد أسبوع؟

فقالت : لأننا لا نتشبّه بالآخرين

سألتها : من هم الآخرون ، الذين في بيوتهم مداخن

فقالت : لا ، الآخرون هم الذين يؤمنون أن سانتا موجود ، وينزل من المداخن

فسألتها : وماذا عن العربة والأيائل؟

فابتسمتْ ، وحدّثتني عن جبريل يأتي إلى مكة ، ويأخذ محمداً صلى الله عليه وسلم على البراق إلى بيت المقدس

وحدّثتني عن المعراج ، وعن آدم عليه السّلام في السّماء الأولى ، وعن إبراهيم عليه السّلام في السّماء السّابعة ، وعن موسى عليه السّلام يُساهم لتكون الصلوات خمساً بدل خمسين لأننا لا نطيق! ومن يومها آمنتُ بالبراق وكفرتُ بأيائلك!

كبرنا بما يكفي يا سانتا ، وتوقفنا عن النّظر إلى السّقف ، لأنّ الشيء الجميل الوحيد الذي سينزل من أعلى هو عيسى عليه السلام! لن ينزل من المدخنة وإنما من السماء ، ولن ينزل في بيوتنا وإنما عند المنارة البيضاء في دمشق ، وأنه لن يحمل يومها كيس ألعاب وإنما رمحاً ليقتل به الدّجال ، فوقتها لن يكون هناك وقت للعب!

كبرنا بما يكفي يا سانتا لنعرف أنّ المسيح عليه السلام لنا وليس لكم ، وإلا لنزل في الفاتيكان أو في سانت بطرسبرغ! كبرنا بما يكفي لنعرف أن أيائلكم لا تطير ، الشيء الوحيد الذي نراه في سمائنا هو طائرات الأف ١٦ والسوخوي التي جعلت أطفال حلب يطيرون

كبرنا بما يكفي لنعرف أنّ الروم هم الروم ولو صار عندهم اتحاد أوروبيّ

وأنّ الفُرس هم الفُرس ولو كفّوا عن عبادة النار!

كبرنا بما يكفي لنعرف أنكم كذّابون ، لأنّ طفل بيت لحم لا يرضيه أن يُقتل أطفال غزّة!

لا تأتِ إلينا يا بابا نويل فمعبر رفحٍ مغلق ، وبيوتنا ليس فيها مداخن ، وداريا لم يبقَ فيها بيوتٌ أصلاً ، والأطفال في خيم اللجوء على الحدود السورية التركية لا يحتاجون ألعاباً وإنما بطانيات كي لا يقتلهم البرد فقد مات عُمر

وفّر عليك عناء رحلتك ، ولا تُتعب أيائلك ، فلن ننتظرك ، سنُحدّث أولادنا عن جبريل والبراق ، وعن عيسى ابن مريم حاملاً رمحه لأن القديسين الحقيقيين لا يُوزّعون الألعاب على الأطفال ، وإنما يُحاربون الدّجالين ليعيش الأطفال بسلام .

مدوّنات الجزيرة

٢٥ / ١٢ / ٢٠١٦

إنّها مُجرّد لُعبة

تسَابقَت الخيلُ في الحلبةِ ففازَ حِصانٌ من بينِها ، فجعلَ شابٌ من الحُضورِ يُكثرُ الفرحَ ، ويُكَبّرُ ، ويُصفّقُ . . فقال له رجل إلى جانبه : هل الحِصانُ لكَ يا فتى؟

فقال : لا ، ولكنّ اللجامَ لي!

لا شيءَ أشبه بصَاحبِ اللجام اليومَ من جماهيرِ كُرةِ القدمِ المُتعصِّبينَ لفرقِهم . .

مع فارق ضئيلٍ أنَّ الذي فرحَ بفوزِ الحِصان كانَ له في الأمرِ لجَام ، أما هُم فليسَ لهم في الأمرِ ناقةٌ ولا جَملٌ ولا حتى «حِذْوَة»!

كُرة القدمِ لُعبةٌ جميلةٌ لا شكّ ، ولها جُمهورٌ عريضٌ في شتى أصْقاعِ الأرضِ ، ولو كانَ بإمكان «الفيفا» أن تُقيمَ دولة سُكانها الشَّغوفينَ بكرةِ القدمِ لاحتاجتْ مساحة يابسة بحجم آسيا لتتسعَ لهم ، ولكانَ «جُوزيفَ تسِي بلاتر» أشهر وليّ أمر على هذه الأرض!

للأسَف صارتْ كُرة القدمِ اليومَ أكثرَ من لُعبةً . .

تماماً ، كما صار النفطُ أكثَرَ من وقود

وكما صارَ القمحُ أكثرَ من مادَّة أوّليّة لصناعة الخُبز

وكما صارَ الماءُ أكثرَ من سائلٍ للشُّربِ والريِّ

وكما صارَ الذَّهبُ أكثرَ من معدنٍ للزِّينة . .

إحدى عجائبِ البشرِ أنهم يستَطيعُون تحويلَ كلّ شيءٍ إلى سلاح ، وأداة ضغط ، ووسيلة تركيع .

لستُ «قذّافيّاً» لأقولَ إنَّ لُعبة كرةِ القدَمِ مُجرَّد قطعة جلدٍ

يركضُ وراءَها اثنان وعشرونَ لاعباً ، وأنَ من حقٍّ كل لاعبٍ أن يكونَ لديه جلدَته يركضُ وراءَها ، كما يحلو له دونَ أن ينازعه فيها أحد ، ولستُ «خارجيّاً» إلى الحدِّ الذي أقولُ فيه أن تشجيعَ «ريال مدريد» يُعتبر موالاةً للكافرين! وأن الفرحَ بفوز «برشلونة» يقدحُ في الولاءِ والبراء ، على العَكس تماماً أنا أحدُ عُشّاق هذه اللعبة ، ولكنْ يزعجني أن تُصبحَ أكثرَ من لُعبة .

أُقيمتْ مباراةُ «ريال مدريد» و«برشلونة» في سَاعةٍ متأخرةٍ من الليل ، وبعدَ كل هدَف عليكَ أنْ تسمعَ صُراخ المُشجعينَ في بيوتِ الجِيران وكأنّك جالسٌ تُشاهد المباراة في «الكامب نو» في عقرِ دار «الكتالونيين» ، وبعد انتهاءِ المُباراة هناكَ مسيرةٌ سيّارة تجوبُ الشّوارعَ وكأنَّ الأندلس فُتحتْ من جَديد ، أو أنّه قد وُلد للأقصى صَلاحُ دِينٍ جديد ، وثمَّة من يعودُ إلى منزله بعد خسارة فريقه كأنَّه عائدٌ من دفنِ والده ، فيصفعُ ولداً ، ويؤنِّبُ بنتاً ، ويهددُ بالطلاق زوجةً .

كانَ داودُ عليه السّلام يُحبُّ الخيل كثيراً ، وللمرءِ أن يُحبّ سِباق الهجن ، أو «الفورميلا وان» ، فالنّاسُ فيما يعشقونَ مذاهبُ ، ولكنْ علينا أن نتذكَّرَ أن الهوايات للمُتعة والتَّرويح عن النَّفسِ ، لا لجلبِ مزيدٍ من المشَاكل ففي الحياة منها ما يكفي ويزيد!

الوطن

٢٨ / ٣ /٢٠١٥

الطّريقُ اليسير لتُصبح من المشَاهير!

روى ابنُ الجوزيّ :

بينما الحُجّاجُ يطُوفون بالكعبةِ ويغرفُون الماءَ من بئرِ زمزمٍ ، إذ قامَ أعرابيٌّ فحسَرَ عن ثوبه ، ثمّ بالَ في البئرِ والنّاسُ ينظُرون!

فما كانَ منهم إلا أن انهَالُوا عليه بالضَّربِ حتى كادَ أن يموت ، فخلّصه حُرّاسُ الحَرَمِ منهم وجاؤوا به إلى أمير مكّة فقال له : قبّحَكَ الله ، لِمَ فعلتَ هذا؟!

فقال : حتى يعرفني النّاسُ فيقولون هذا الذي بال في بئر زمزم!

يبدُو أنّ بعضَ الأشياءِ لا تتغيّرُ على ظهر هذا الكوكب!

ما زال النّاسُ يستميتونَ في سبيلِ الشُّهرة ، ويبدو أنّ الدِّين لطالما كان المطيّة الأسهل!

إذا كان المرءُ من أهلِ الدّين فأمامه للشّهرة طريقان لا ثالث لهما :

الأول طريق أبي حنيفة ومالك والشّافعيّ وأحمد وكلّ هذه المنارات التي لا يتسع المقام لعدّها ، هربوا من الشهرة والأضواء فتبعتهم مُنقادة وهؤلاء لم يخلُ منهم زمان قط .

والطّريقُ الثاني طريقُ الفتاوى الشّاذة ، يجد أحدُهم نفسه فجأةً في كلّية الشّريعة ، ثم بعد أربع سنواتٍ يجدُ عمامةً فوق رأسه ، فيضيقُ عليه جِلده ويريد أن يتوسّع!

ولأنه أعجز من أن يكون منارة يُنقّب غريب الأحاديث وموضوعها ولربما أعمل مخّه الأعوج في الحديثِ الصحيح!

كما قال أحدهم لو كان الغناءُ حراماً لما سمّى النبيّ ابنته أمّ كلثوم! ثم تنهال الفضائياتُ وتتسلطُ الأضواء إعجاباً بروعة القياس وحُسن الاستدلال!

أما إن لم يكن له في الدّين ناقة ولا جمل، سلكَ طريق أعرابيّ زمزم!

وبما أن الإلحاد والليبراليّة صارتا موضة مؤخّراً فمن كان مستواه الثقافيّ عالياً «ألحد»!

وإن كان من الذين يفُكّون الحرف ويعرفون بعض المصطلحات «تلبْرَر»!

وهؤلاء لهم في هذا الكوكب بواكي كثُر، جرّب أن يتعرّض لهم أحد حتّى تثور «هيومن رايتس وتش»!

النّخيلُ يحتاجُ سنوات ليُثمر ولكنّه نهاية المطاف يتفتّقُ عن حبّات عذبة المذاق، وهكذا بعضُ النّاسِ لديهِم صبرُ النَّخيل!

أمّا الأعشابُ الضّارة فتهيجُ وتنتشر وتموت بينما النّخلة ما زالتْ طفلة، وبعضُ البشر كالأعشاب الضّارة يُغريهم سرعة الانتشار وتفتنهم الأضواء!

السّعي للشّهرة بأي ثمن شهوة مُستعرة، وأنانيّة غاية في القبح، أحدُهم على استعداد أن يُفسد دين الملايين لأجل مقابلة تليفزيونيّة! وآخر لا يتورّعُ أن يحرق وطنه ليُشعل سيجارته! هؤلاء يعرفهم النّاسُ بُرهةً ثم سريعاً تُطوى صحُفهم، ذاك أنّ الأشياء الجميلة تُعمّر والأشياء القبيحة يذهب أهلها ويبقى عارها!

الوطن

٤ / ٤/ ٢٠١٥

شَريعةُ الغَاب!

لَمّا تَمَّ للإسكندرِ المَقدونيّ فتح البِلاد أمرَ بالقبضِ على لصٍّ من لُصوصِ البحر

ولَمَّا جِيء به بينَ يديه سأله : بأيِّ حقٍّ تسرقُ مالَ الغير؟!

فقالَ له : أنا أسرقُ بسفينة صغيرة فيسمُونني لِصّاً

وأنتَ تسرقُ بأسطول كبيرٍ فيسمُونَكَ فاتحاً!

تمجيدُ الأقوياءِ هو دأبُ هذا الكوكبِ منذ آلافِ السّنين ، ويبدو أنّه سيبقى دأبه فيما تبقّى ، ما دُمنا نُمجّدُ القوة على حساب الحقّ فسنبقى عبيداً مهما ادّعينا الحضارة! فالحضارةُ ليستْ في ارتفاع الأبنية ، ولا في تطوّر وسائل الاتصال والمُواصلات ، ولا في عدد المصَانع وطفرة الانتاج ، هذه مدنيّة!

أما الحضارة فلها شأن آخر مقياسُه القيمُ والمبادئ ، وما ترضاه لغيركَ لا ما ترضاه لنفسك هو معيارُ تحضّرك! فالذي يُحلّق بطائرته صباحاً ليقتل أطفال الغير ثم يذهب مساءً إلى مطعم فاخر برفقة أولاده ليأكل بالشّوكةِ والسِّكين ليس متحضراً بقدر ما هو وحشٌ مُتمدِّن!

هذا العَالمُ غابة على وجهِ الحقيقةِ لا المجاز ، فليسَ الشّجرُ والمفترسُون والطرائد هي التي تجعل بقعة ما من الأرضِ غابة ، وإنما الشّريعة التي يتحاكم فيها هؤلاء! القويّ يأكل الضّعيف لأنّه قوي فقط ، ونحن كذلك ، مع فارق جوهريّ أنَّ الحيوانات تقتلُ لتعيش أما البشرُ فيقتلونَ للحصُول على رفاهيّةٍ أكبر!

في هذه الغـابةِ يمكنُ لجـيـوشكَ أن تنتـشـرَ في كلّ أصـقـاعِ الأرض ، وتحتلَّ دُولاً وتنهبَ خيـرات شعوب ، وبشحطةِ قلم تطيح برئيسٍ مُنتـخب ، وبشـحطة قلم أيضـاً تُثبّت دكـتـاتوراً مكانه ، ثم تحصلُ على جائزةِ نوبل للسَّلام! جائزةُ نوبل التي اخترعها «ألفرد» تكفيراً عن اختراعه للديناميت يبدو أنّها صارت من نصيبِ من يستخدمُ الديناميتَ أكثر! ما دام لـديك جيوشٌ جرارة وتسكنُ في البيتِ الأبيض يمكنكَ أن تحصلَ على لقب ملكة جمال العالمِ لو أردت!

في هذا الغـابةِ يُمكنُ لدبابةٍ إسـرائيليّـة أن تدهسَ طفـلاً ثم تستدعي أباه إلى المَحكمة لتسأله ماذا يفعل ابنه أمام الدبابة ، وليسَ له الحق أن يسألَ ماذا تفعل الدبابةُ فوقَ ابني!

تنفقُ فقمةٌ في القطبِ فيتداعى العالمُ لدراسةِ الأسباب!

ويتبعثرُ مئاتُ الأطفالِ بالبراميل المُتفجّرةِ فيقلَقُ سيادةُ الأمينِ العَام ، ويدعُو لقـمةٍ على التَّراخي! يُعدّون فيـها مشروع قرار إدانة ، أيْ مجرّد كـلام مكتـوبٍ قيـمتُـه الفعليّة أرخصُ من الورقِ والحبرِ المكتوبِ فيه ، ولَكن روسيًا تستخدمُ حق النقض الفيتو فتقيم على أميـركا الحُجَّة كـما أقامتـها هي عليـها حين تعلّق الأمر بغزّة ذاتَ مجزرة!

يمكنُ لما يقربُ مئتي دولة أن تجتمعَ وتتفقَ على أمرٍ ما ثم تُقرر دولةٌ قوية أن تستخدمَ حقَّ النقضِ الفيتو ، والفيتو هو تعبيرٌ أنيق لـ : «طُز بكم جميعاً أيها السادة عودوا إلى بلدانكم هذا الأمر لن يتم» .

الوطن

١١ / ٤ / ٢٠١٥

الأدبُ سَيّدُ التّاريخ!

وفدت ابنةُ هَرَم بن سنان على عُمر فسألها :

ما الذي أعطى َأبوكِ زُهيراً حتى قال فيه مديحاً ما زالتْ تحفظه العرب؟

فقالتْ : نسينا ما أعطينا زُهيراً!

فقال عُمر : ولكن ما أعطاكُم زهيرُ لا يُنسى!

وهرم بن سَنان هو سيّدُ غطفان الذي أوقّف حربَ «داحس والغبراء» التي دارتْ رحاها أربعينَ عاماً بين عبس وذُبيان ، فدَفعَ الدِّيات وعقدَ الصُّلحَ ، فمدحه زُهيرُ بن أبي سُلمى ، وأجزلَ هرمُ له العطاء!

كانَ عُمرُ يعرفُ أن للأدبِ سطوةً على التّاريخ ، فما أملاهُ الأدبُ على التاريخ تخلّد إلا قليلاً! فلم يكن هرمٌ بن سنان هو الشّهمُ الوحيد الذيَ عقدَ صُلحاً بين مُتحاربين ، ولكنّ الشّهامات اندثرتْ إذ لم يوثّقها الأدب!

لم تكُنْ لَيلى العامريّة أجمل بناتِ القبيلةِ ، ولا أكثرهُنَ سَحراً وفِتنةً ، ولكنّ النّجديّ الجميل قيس بن الملوّح سجّلها في التّاريخ كذلك ، فبَقيتْ واندثرت الجميلات!

ولم تكُنْ لُبنى أجمل بناتِ خُزاعة ، ولكنّ قيساً بن ذُريح قال فيها بما حدّثه قلبُه عنها ، فتخلّدَتْ دوناً عن بقيّة الخُزاعيّات!

ولمْ تكُن فاطمة أجمل بناتِ عُنيزة ، ولكنّ الملكَ الضليل حين اقتحمَ الخِدرَ اقتحمه بقلبه لا بسيفه ، وحين أنشدها :

أغـــرّكِ مني أنّ حـــبك قـــاتلي
وأنّكِ مـهـمـا تَأمـري القلبَ يفـعلِ

لمِ يكن إلا حديثَ قلب ، فاندثرتْ بقيّـة الأحـاديث ، وبقيَ حديثُ فاطمة لأنّ حديثَ القلبِ صار شعراً!

ولمْ تستـأثِرْ وحيـدُ بعـذوبة الصّوتِ دوناً عن كلّ المُغنّيـات ، ولكنّ ابن الروميّ كان يسمعها بقلبه لا بأَذنيه! والأُذنُ تعشقُ قبل القلبِ أحيـاناً ، فـاندثرتْ حناجرُ كثيرة ، وبقيتْ وحيدُ لأنّ ابن الرّوميّ خبّأها في صندوق قصيدة!

ولمْ يكُنْ توبة بن الحُميّر أبرعُ شبابِ القبيلةِ عِشقاً ، ولكنّ ليلى الأخيليّة قرّرتْ أنّه كذلك ، فقالتْ فيه قصيدَة فعاشَ كثيراً رغمَ أنّه ماتَ باكراً ولمْ يتزوّجا!

ولمْ يكُنْ صخراً هو القتيل الوحيد الذي تُفجعُ فيه أختـه ، ولكنّ أخت صخرٍ كانتْ الخنساء! فكتبته على صفحات التّاريخ بأحرف من دمعٍ حفظتها العربُ عن ظهرِ قلب ، ولما وفدتْ على النّبيّ مُسلمةً قالً لها : هيه يا خُنيس ، أنشدينيٍ من حديثِ صخر!

ولمْ يكُنْ سيفُ الدّولة بين الحكّام استثناءً ، ولكنّ المتنبي كانَ بين الشّعراء استثناءً فخلّده! وهكذا تخلّد كافور مدحاً وهجاءً!

ولمْ تكُن بلقيسُ إلا امرأة احترقتْ بنارِ الحربِ كنساءٍ كُثر ، ولكنّ نزار الذي عجزَ أن يدفع عنها الموتَ أهداها الحَياةَ فيٍ شكل قصيدة!

ولمْ تكُنْ أمّ سعدٍ إلا واحدة من بين شقيّات كُثر انهكهُنّ الفقر ، ولكنّها دوناً عن المعذّبات وقعت في حياة غسّان فماتتْ الفقيرات وصارتْ أمّ سعدٍ رواية!

الوطن ١٨ / ٤ / ٢٠١٥

الطبُّ والأخلاق!

أخرج ابن جرير الطبريّ في تاريخه عن وفاة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه ، أنه كان برفقة الحارث بن كلدة طبيبُ العرب الأشهر ، وأنهما أكلا طعاماً أعدّه يهودي ، ولما فرغا من طعامهما ، شعر الحارث بشيء ، فقال لأبي بكر : والذي بعث صاحبك بالحقَّ ما أظننا إلا أكلنا سُمَّ عام!

وبعد عام بالتمام والكمال توفي أبو بكر والحارث في نفس اليوم!

لم أضرب هذه القصة لأستدل بها أن الأطباء قديماً كانوا أمهر ، مع أن هذا احتمال لا أنفيه! وإن وُجد قديماً طبيب يفوق آلاف الأطباء اليوم ، فلا مجال للإنكار أن الطب اليوم تطور بشكل مذهل شأنه شأن العلوم جميعاً ، والتي هي معرفة إنسانية طورتها البشرية على مدى تاريخها الطويل ، والأطباء قديماً ليسوا جميعهم الحارث بن كلدة ، كان منهم جزّارون كبعض أطبائنا اليوم ، فقد كان في بغداد طبيب اسمه نعمان قلما ينجو مريض من تحت يديه ، حتى قال فيه الشاعر :

أقول لنعمان وقد ساق طبُّه
نفوساً نفيسات إلى باطن الأرضِ
أبا منذرٍ أفنيتَ فاستبق بعضَنا
حنانيكَ بعضُ الشرِّ أهون من بعضِ

وإنما ضربتُ هذه القصة لأن الحديث اليوم عن الأطباء ، وهي

فاتحة حديث ليس إلا ، وليس الحديث عن الأخطاء الطبية مع أن هذا موضوع شيّق ، وإنما عن أخلاق الأطباء ، فهناك تصرفات غير مقبولة ، لها علاقة بأخلاقيات المهنة ، وهي أشنع من الأخطاء الطبية التي ليست إلا حوادث!

لا أريد طبيباً بمهارة الحارث يخبرني بسُمّ يبقى سارياً في جسدي عاماً كاملاً فأموت بعده عند تاريخ يحدده لي فلا يخطئ ، وإنما أريد طبيباً لا يصف لي علاجاً دون أن يطلب مني فحوصات مخبرية بدل أن يجرب عليّ أدويته واحداً تلو آخر ، وعندما يطلب مني إجراء فحوصات أريد أن تكون تلك الفحوصات مرتبطة بحالتي لا مرتبطة بالمختبر الذي يتقاضى منه نسبة على الفحوصات التي يطلبها!

وأريد أيضاً إذا وصف لي دواءً أن يكون متعلقاً بحالتي لا متعلقاً بشركة الأدوية التي تعطيه نسبة إذا وصف أدوية تنتجها أو تستوردها!

أريد إذا قصدتُ طبيباً ووصف لي علاجاً فلم يكتب الله لي الشفاء فأقصد غيره ألا يقول لي الطبيب الجديد : من الحمار الذي وصف لكَ هذه الأدوية؟!

لأن هذا ما سيقوله عنه الطبيب الثالث الذي سأذهب إليه بعده ، أريد أن يعالجني بأدب إن عرف لي علاجاً وإلا فليكتب لي وصفة ويتلقى عائداً نظيرها دون أن يخبرني أن زميله في المهنة حمار ، لأن هذا شيء أعرفه وإلا ما تركت الأول وأتيتُ إليه ، فتأدبوا لأن هذا خطأ أخلاقي ، فالانتقاص من الآخرين لا يرفعكَ ، خصوصاً إذا كنت وكثير من الآخرين بنفس الكفاءة أو قلة الضمير!

وليت الأمور وقفت عند الوصفات الخاطئة ، وقع صديق لي

من شرفة منزل ، فنزع الطبيب له طحاله ، ثم تبين أنه كان بالإمكان الإبقاء عليه ، وعندما تمت مراجعة الطبيب علّق قائلاً : الطحال أساساً ليس عضواً حيوياً وبإمكان الإنسان أن يعيش دونه!

ذكرني هذا الطبيب بالميكانيكي الذي كلما أصلحت سيارتي أبقى مجموعة من البراغي عنده ، وإذا سألته أخبرني أنها ليست ضرورية وبإمكان السيارة أن تعمل بدونها ، يريد الطبيب إقناعي أن الله خلق الطحال في جسم الإنسان كنوع من الديكور لتزيين البطن ، كما يريد الميكانيكي إقناعي أن شركة هوندا عندها براغي كثيرة وأرادت أن تتخلص منها فدستها في سيارتي فقام مشكوراً بتخليصي من هذا التبذير في البراغي!

الطب رسالة قبل أن يكون مهنة ، ولا يمكن لرسالة أن تُؤدى دون أخلاق ، فإذا كان من حق الطبيب أن يسعى إلى الثراء مثلنا جميعاً ، فليس من حقه أن يجمع ثروته من أوجاعنا ، الدواء الذي يُصرف وهو ليس مناسباً لوضع المريض ما هو إلا سُمّ ، والمال الذي يتقاضاه الطبيب لقاء هذا السمّ سحت وحرام ، والفحوصات التي لا نحتاجها وإنما يحتاج هو عائدها سحت وحرام أيضاً ، والاعتراف بالخطأ فضيلة ، وإن كان الله قد خلق أعضاءً فينا يمكن أن نعيش دونها لا يعني أن من حق الطبيب أن يقلع عيني لأن لي عيناً أخرى يمكنني أن أتدبر أمري بها ، الأعضاء يا سادة لا تنتزع إلا إذا كان بقاؤها يشكل خطراً على حياة الإنسان لا إذا لم نكن نعرف علاجها .

الوطن

٣٠- ٤- ٢٠١٦

كذبٌ ضمنَ الضّوابطِ الشّرعيّة!

قلتُ في مقالٍ سابقٍ - سدّدَ الله قلمي وأدامني لأن أقول! - : إنّ مصطلح «هناك دراسة تقول» هي الطريقةُ الأمثل لإعطاء كذبةٍ ما طَابعاً علميّاً! وأنا اليوم أكثر اقتناعاً أنّ أغلب الخرافات التي نؤمنُ بها جاءتنا وهي تلبسُ زيّ العلم!

وأغلبُ الدراسات التي قرأتها - وهذه الجملة محاولة مني لإقناعكم أنّي أقرأ! -إنما قرأتها صدفة ، فلا تستهويني قراءة الدّراسات العلمية- وهذه محاولة أخرى لإقناعكم أن هناك أشياء أخرى أهوى قراءتها! - المهم ، أنّي لم أُفكّر يوماً أنّ أُعلّق على دراسة بدا لي أنّها لا تمتُّ إلى الواقع بِصِلة ، فإصلاح معتقدات العالم العلمية لا يدخل ضمن همومي! ولكن بعض الدّراسات العلمية ، عفواً الكذبيّة ، مستفزة إلى درجة يُجالد المرءُ نفسه أمامها كي يلتزم الصمتَ حيالها ، وأكثرها استفزازاً برأيي - ورأيي صائب دوماً كما هو رأي كل إنسان في رأيه! - هي تلك الدّراسات التي تحاول إقناع النّاس بفعل سُنّة نبويّة شريفة عن طريق اختلاق دراسة علميّة تثبت أنّ لهذه السُّنّة الشّريفة أثراً صحيّاً!

وصلتني دراسة علميّة تبدأ بـِ : الله أكبر ، أخيراً عرف العلمُ لماذا أمر النّبيُّ أن نأكل حبّات التمر بأعداد مفردة! وتحت هذا العنوان البرّاق دراسة لعالم أميركيّ لا أحد يعرف اسمه! وقد توصّل هذا الباحث المجهول إلى أنّ أكل حبّات التمر بأعداد مفردة من شأنه أن يُحوّل السُّكّريّات في التمر إلى كاربوهيدرات تُكسب

الجسم الطاقة! والويلُ والثبور لمن يأكل حبّات التمر بأعداد مزدوجة ، لأن السُّكريّات الموجودة في التمر ستتحول إلى سُكّر وبوتاسيوم وتؤدي مع الزمن إلى تلف الكِلى!

واضح أنّ النّية من وراء هذه الدراسة العلمية التي تبعد عن العلم بعد الأرض عن الشمس نيّة حسنة ، وهي ترغيب النّاس بالسُّنة النبوية ، ولكن استخدام الكذب للترغيب بالسّنة أمر قبيح ، لأنّ من قواعد الشريعة الإسلاميّة أن النّية الحسنة لا تُصلح العمل السيئ ، في حين أن العمل الصالح يفسد بالنية الخبيثة!

هناك دراسة علميّة أخرى قام بها باحث أميركيّ مجهول كالعادة ، تفيد أن إطلاق اللحية يزيد من إنتاج هرمون التيستستيرون في جسم الرجل مما يؤدي إلى زيادة طاقته الجنسيّة! طبعاً هذه المعلومة لا تعدو كونها خرافة والذي قام بها يعرف عن العلم كما تعرف فيفي عبده عن رجال السّند في صحيح البخاريّ! ولكنه بنى دراسته عملاً بالحقيقة القائلة : إذا أردتَ أن تُقنع النّاس بأمر ما فأخبرهم أنّ له مردودا طيّبا على أدائهم الجنسيّ! والطّريف في الأمر أن هذه الدّراسة مجهولة الدّارس وهذا من لوازم هذه الدراسات! أنها ليست مجهولة المصدر! فهي تذكر أنّها أُجريت في مدينة نيويورك! ونيويورك للمفارقة هي مقر شركة فيزر التي تصنع لهذا الكوكب حبوب الفياغرا ، والتي يشتريها العالم الإسلامي أكثر من غيره من المجتمعات!

لا أفهم لماذا يريد البعض أن يجعل لكل عبادة فائدة طبيّة وكأنّه لا يكفي أن نقوم بالعبادة لأنها عبادة بل نحتاج إلى سبب محفّز لنقوم بها! حتى الصيام الذي لا شك بأثره الطّيب على الجسم ذكر الله الحكمة من فرضه على النّاس فقال «لعلكم

تتقون» ، فلم يذكر الله تعالى فائدته للمعدة والجسم مع أنّ هذا يحصل ، ولكن يريد الله أن نقوم بالعبادات لأنها عبادات لا للأعراض الجانبيّة الجيدة التي تتحقق من خلالها ، فكيف إذا كانت مختلقة!

شخصيّاً أن آكل حبّات التمر مفردة لأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بهذا أحبّ إليّ من أكلها مفردة لأُحافظ على كليتيّ ، وأن أسجد لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم أخبرني أن العبد أقرب ما يكون إلى الله وهو ساجد أحبّ إليّ من أن أسجد وأنا أُفكّر بالشحنات الكهربائية الزائدة التي يتخلص منها جسمي عبر جبيني لأنّ هذه معلومة غير صحيحة أيضاً! دعونا نؤدي العبادات لأنها عبادات فقط ، لا شيء أجمل من هذا ، ودعونا لا نكذب لنقنع الناس بالدين ، لأنّ الصادق الأمين لا يرضى أن تنتشر سنته بالكذب!

الوطن

١٤- ٥- ٢٠١٦

صِراعُ الأجيال!

«هذا الجيلُ مُدلل ولا يصلحُ لشيء!»

هذه الجملة ليست لأحد كبار السنّ في زماننا ، وإنما وُجدتْ مكتوبة بالهيروغلوفيّة على جدار معبدٍ فرعونيّ!

يظهرُ لي من مقولة هذا الشايب الفرعونيّ الذي كان على بعد خطوة من الزهايمر ، أنّ صراع الأجيال ليس أمراً مستحدثاً ، فمنذ فجر التاريخ والجيل الأكبر يعتقد أنّ الجيل الأصغر مدلل ولا يصلح لشيء ، ويعتقد الجيل الأصغر أن الجيل الأكبر لا يصلح إلا لتوجيه النقد ، عموماً أعتقد أن اعتقاد الجيلين ببعضهما صحيح!

كلُّ جيل يعتقد أنّه أذكى من الجيل الذي سبقه ، ومن الجيل الذي تلاه

فالجيل الذي أضاع فلسطين ينتقد الجيل الذي أضاع الأندلس!

ونحن الجيل الذي أضاع بغداد ودمشق وصنعاء ننتقد الجيل الذي أضاع فلسطين!

والجيل الذي سيأتي بعدنا ، ولا أعرف بالمناسبة ما العواصم التي سيكون قد ضيّعها وقتذاك ، سينتقدنا نحن لأننا أضعنا بغداد ودمشق وصنعاء!

لا يمكن أن يسلم جيل من جيل ، لأنّ كل جيل يتّخذُ من نفسه مقياس ريختر للجودة ، فما وافقه كان جيّداً وما خالفه كان سيئاً!

جدّتي أطال الله عمرها تعتقدُ أن معجون الأسنان أنفعُ للحروق من مرهم ميبو ، وترى أنّ أي علاج آخر دلال زائد لم يكن على زمنهم! ولو أنّ أطباء العالم اجتمعوا عندً باب بيتها وقالوا لها : اتقي الله يا حجة! ما رفّ لها جفن! بل ستزيدهم من الشّعر بيتاً ، وستخبرهم أنّ القهوة أنفع لفدوغ الرأس من كل أدويتهم! وحدث مرّة أن أخبرتها أنّ الطبّ يقول أنّ القهوة التي كانت تحشو بها الفدوغ في رأسي عندما كنتُ أعود من الحارة والدم يسيل على وجهي يسبب الالتهابات للجروح ولا «يقطع الدم» كما كانت تخبرنا وهي تُشخّص حالتي! فقالت لي : «حكي فاضي»! ثمّ أنها أقامت عليّ الحُجّة عندما سألتني : وهل التهبَ رأسك؟! فعلاً رأسي لم يلتهب مع أن كمية القهوة الذي حشتها في فدوغ رأسي مجتمعة تكاد تعادل محصول يوم كامل في مزارع القهوة في البرازيل! ولكن لأ ني أنتمي إلى هذا الجيل أُصدّق الأطباء وأُكذّبُ جدّتي!

لاحظوا أنّي وأنا أحاولُ أن أكون موضوعيّاً وأناقش الأمر بنزاهة ، لم أستطع أن أكون موضوعيّاً ولا نزيهاً! فقد اصطففتُ مع جيلي ضدّ الجيل القديم بطريقة لا شعوريّة ، على ما يبدو أنّ الإنسان لا يمكنه أن يكون موضوعياً في موضوع يخصّه!

وما زاد في الطنبور نغمة ، وهذا مصطلح موازٍ لقولهم : وما زاد الطين بِلّة! أنّي وجدتني لا أتحامل على الجيل القديم الذي سبقني فقط وإنما على الجيل الجديد الذي لحقني! فمنذُ يومين طرتُ فرحاً بمقولة تجلد جيل هذه الأيام! تقول هذه المقولة : من المفارقات أنه منذ خمسة عشر عاماً كانت السبورة لوح والطالب ذكيّ ، أما اليوم فالسبورة ذكيّة والطالب لوح! كدتُ أُصفّقُ لهذه المقولة مع أني أعرفُ أنّ عدد الألواح التي درّستُها في المدرسة ليس أكثر من عدد

الألواح التي درستُ معها في نفس الصفّ، ولكنّه صراع الأجيال! الجيل القديم يرى أنّ الجيل الذي لحقه مدلل، والجيل الجديد يرى أن الجيل الذي سبقه «دقة قديمة»! مع أننا لو تأملنا حال الأجيال بعين العقل لا عين العاطفة لوجدنا أن في كل جيل أشياء جيّدة وأشياء سيّئة بغض النّظر عن الزمن الذي ينتمي إليه، وعلى سيرة الزمن على الجيل القديم أن يعرف أن الزمن يمضي ويجب أن يتغيّر معه النّاس وإلا انقرضوا! وعلى الجيل الجديد أن يعرف أنّ في الجيل القديم مشاعر وأخلاقيّات ومروءة لا توازيها كل ناطحات السّحاب!

الوطن

٢١- ٥- ٢٠١٦

السّنافرُ في رمضان

قيل لأعرابيّ : رمضان قادم على الأبواب
فقال : والله لأبددنه بالأسفار!

هذا هو سنفور «معترض» ، رمضان عنده شرٌّ غائبٍ يُنتظر ، وشر ضيف يحل! من الآن قرع طبول التذمر ، يندب جوع رمضان قبل أن يكابده ، وعطشه قبل أن يجربه ، خبر اقتراب رمضان عليه كخبر السبع العجاف على أهل مصر إذ أوَّلها يوسف لأخناتون! مفهوم الصيام عنده جوع معدة وعطش حنجرة وقد أزفت المجاعة واقترب الجفاف! وعندما يصوم يحسب الأيام لانتهاء رمضان كما تحسب الحامل ما تبقى لها من أيام شهرها الأخير لتستريح ، وكما يحسب العتّال ما تبقى من خطوات ليلقي عن كتفه هذا الكيس الثقيل الذي ينوء تحته ، لهذا ثقوا أن الناس وإن تساووا في الجوع والعطش فليسوا في الأجر سواء ، الأجر ليس دوماً على قدر المشقة وإنما على قدر النية!

النوع الثاني من السنافر هو سنفور «غضبان» ، وهو سنفور يعتقد أنه الوحيد الصائم على وجه الأرض ، وأن كل المخلوقات عليها أن تكون «فشّة خلق» أو كيس ملاكمة يفرغ فيها غضبه ، يعتقد أن المرء يترك أخلاقه إذا ترك طعامه ، ولا يعرف أن الهدف من الصيام تحصيل التقوى بنص الآية «لعلكم تتقون» ، وأن رمضان «كورس مكثف» من الصبر لا «كورس مكثف» من الريجيم!

والنوع الثالث هو سنفور «أكول» ، يقضي أهله ساعات في

المطبخ يكابدون حر الفرن ورائحة الطعام ، وإذا حضرت مائدة الإفطار قال : «هذا فقط»؟!

يعتقد أن النساء اللائي أعددن «هذا فقط» جاريات لا يستحققن بعض الشكر أو بعض الصمت! ثم يبدأ بالانتقام من نهار رمضان ، وما هي إلا ساعة حتى ينتفخ بطنه كحية الأناكوندا التي تبتلع كبشاً ضخماً بفرائه وقرونه ، ويستلقي بانتظار أن تفرغ الجاريات من تنظيف ضحايا غزوة الإفطار ، ليأتين له بالتحلية ، هذا إذا انتظر!

النوع الرابع هو سنفور «نائم» ، ينام بعد الفجر بقليل ، ويستيقظ قبل المغرب بقليل ، فرمضان شهر السبات ، وليس الشهر الذي خاض فيه الأوائل القادسية وعين جالوت كي يبقى لنا رمضان! وهذا عند جمهور الفقهاء صائم مذموم ، إلا أن جدتي لها اجتهاد في الأمر تُخالف فيه الجمهور ، كأغلب اجتهاداتها أدامها الله! فتراه من أعلى الناس أجراً إذ أن أحد فتاويها الخالدة «نوم الظالم عبادة»!

النوع الخامس هو سنفور «لاهي» ، من مسلسل إلى مسلسل ، ومن برنامج إلى برنامج ، صفّد الله له شياطين الجن ، فعزّ عليه فراقهم فذهب إلى إخوتهم من الإنس .

خلاصة الأمر:

الغضب قد يحدث ، وقد قالت العرب ثلاثة يُعذرون بغضبهم : الصائم والمريض والمسافر ، ولكن على الإنسان أن يتذكر أن النفس فرس جامحة ، وأن العاقل من يلجم فرسه ، والفارس من يركب حصانه لا من يركبه حصانه .

والأكل الطيب حلال ، ولا يحتاج لفتوى ، ولكنه وسيلة

للتقوي على الطاعة لا غاية في ذاته ، وجميل جداً أن تلقى الزوجة والأم كلمة شكر ، وأن تُعان على الشهر ، فلها عبادات وشهر يجب أن تقوم بحقه ، فكفى تطلباً وتذمراً ، والنوم والراحة في نهار رمضان لا شيء فيها من قبلي ومن بعدي ، ولكن الذي فيه شيء هو أن تقوم بحق الصيام وتُسقط حق الصلاة ، لأن السنافر النائمة تدرك الظهر والعصر قبل المغرب بدقائق!

والترويح عن النفس حلال ، وإن القلوب لتمل ، وساعة فساعة ، ولكن ما أجمل أن نقول لهذه القنوات : لن تسرقوا منا رمضان!

الوطن

٤- ٦- ٢٠١٦

الدُّرَرُ البهَيّة في فضحِ الحياة الزّوجيّة!

قرأتُ مرّةً عن مسابقة ترفيهيّة أُقيمتْ لاختيار أقبح زوجة! وبما أنّ هناك مسابقة فلا بدّ من فائزة نهايةَ المطاف! وكان على الفائزة أن تُلقي خِطابَ النّصر! فصعدتْ إلى المنصّة بثباتٍ وقالتْ : أُهدي هذا الفوز لزوجي الذي شجّعني على الاشتراك بهذه المسابقة ، وقال لي : أنا على ثقة أنّ اللقب لن يُفلتَ منكِ!

من النّادر أن يحصل الزّوج على زوجةٍ تتمتّعُ بروح رياضيّة عالية إذا تعلّق الأمرُ بالحديث عن مستوى جمالها المتدهوِر! ولكن بالطّبعِ لا يمكننا أن نحسد هذا المسكين على روح زوجته الرّياضية العاليّة ، ولا يمكن بطبيعة الحال أن نُهنّئه بفوز زوجته السّاحق! في حالة كهذه لا يسعنا إلا أن ندعو له أن تكون هذه الزّوجة كفّارة له ، لا عقوبة عُجّلت له في الدّنيا . .

الحديثُ عن الأزواج والزّوجات حديثٌ ماتع ، ولكنه بالمقابل معقّد وشائك ، والسببُ أنّه لا يوجد وصفة محددة لزواج ناجح ، أحياناً نرى زيجات استمرتْ عقوداً ، لو تأمّلنا بها ما وجدنا فيها شيئاً من مقوّماتِ الاستمرار ، بالمقابل نرى زيجات فشلتْ ، لو تأملنا فيها وجدنا أنها كانت تملكُ كلّ مقوّمات النجاح! والسببُ في هذا برأيي أنّ البشر ليسوا مُركّباتٍ كيميائيّة إذا خلطناها مع بعض يمكن التّنبؤ بنتائجها!

نحن أكثر تعقيداً ، وأغربُ أطواراً ، والبيوت أسرار!

وإن كان لا يمكن الخلوص إلى قاعدة يمكن تعميمها على

الزّواج ، إلا أنّه بالإمكان الحديث عن أشياء تكاد تكون مشتركة بين غالبية الأزواج وغالبية الزّوجات ، ومن باب الفضاوة ، قررتُ أن أكتب عن هذه الأشياء ، مستخلصها مما رأيتُ وقرأتُ وسمعتُ وعشتُ ، سائلاً الله أن يُسدد قلبي وقلمي ، وأن يُعيذني من التّداعيات . .

١ . تاريخ الزّواج عند الزّوج هو مجرّد يوم عابر ، أمّا عند الزّوجة فهو أشبه بعيد الاستقلال عند الدّولة لا يجب أن يمرّ دون مراسيم ، ربما السبب في هذا أنّ الزوج يحاول أن ينسى دوماً أنّه متزوّج بينما تحاولُ الزّوجة أن تذكّره دوماً بهذا!

٢ . الزّوج يُحضرُ الهدايا ولكنه لا ينزعج كثيراً إذا لم يتلقاها .
أما الزّوجة فنادراً ما تُحضر الهدايا وتنزعجُ كثيراً إذا لم تتلقاها!

٣ . التّسوق عند الزّوج عقوبة ، وعند الزّوجة متعة!
لهذا يذهبُ الزّوج إلى السوق كمن يذهبُ للقصاص ، بينما تذهبُ الزّوجة كمن يذهبُ في نُزهة! وربما السبب في هذا أن الأزواج لا يشترون عادة إلا ما يحتاجون ، أما الشّراء عند الزّوجات فهو حاجة بحدّ ذاته .

٤ . تُفضّل الزّوجة البقاء في البيت عادةً ، وتُحبُّ أن تخرج من وقتٍ لآخر ، بينما يُفضّلُ الزّوج أن يبقى خارج البيت ، ويحبُّ أن يبقى فيه من وقت لآخر!

٥ . الزّوج أكثر نكداً من الزّوجة ولكنه يستسلم بسرعة ، أما الزّوجة فأطول نفساً!

٦ . إذا قال الزّوج أُفكّرُ أن أفعل هذا الأمر ، فهذا يعني أنّه قرر ألاّ يفعله!
أما الزّوجة إذا قالت أُفكّر أن أفعل هذا الأمر ، فهذا يعني أنها

فكّرتْ وخططتْ ودبّرتْ وتبحثُ الآن عن مصدر للتمويل!

٧ . الزّوجة تنزعجُ جداً عندما لا يقوم الزّوج بإصلاح الأشياء التالفة في البيت ، بينما ينزعجُ الزّوج من تذكيره كل شهرين بالأشياء التي يجب أن يقوم بإصلاحها!

٨ . يعتقدُ معظم الأزواج أنّ الأزواج الآخرين حصلوا على زوجاتٍ أفضل ، أمّا الزّوجات فعلى يقين من هذا!

٩ . يريدُ الزّوج أن تبقى زوجته كما عرفها أوّل الأمر ، جميلة وجذابة وتهتم بنفسها وبه ، بينما تحاولُ الزّوجة تغيير الزّوج ، فالتي وافقت عليه لأنه مؤدب يسمع كلام أمه ، ومحترمٍ يُحبّ أخواته ، تصبحُ أكبر مشاكلها معه ، أنه ما زال مؤدباً يسمع كلام أمه ، ومحترماً يُحبّ أخواته!

١٠ . الزّوج يعتذرُ مباشرة إذا أخطأ ، أما الزّوجة فعندما تقرر أن تعتذر فإنها تربط الأشياء ببعضها بطريقة جهنّمية لتبرر للزّوج لماذا أخطأتْ ، وطريقة جهنّمية تعني أنها تجعله يعتذر منها لأنها أخطأت!

هذا ما كان مني ، مزجتُ الجدّ بالهزل ، محاولاً قدر الإمكان أن أكون حيادياً ، خاتماً بقول أحمد توفيق : النّجاح في الزّواج لا يحتاج أن تتزوّج الشّخص الصحيح ، بقدر ما يحتاج أن تكون أنت الشّخص الصحيح!

مدوّنات الجزيرة

٢٧ / ١١ / ٢٠١٦

المُتحيونون من البشر!

في العاشر من ديسمبر عام ١٩٤٨ شهد كوكب الأرض حدثاً عظيماً وهو الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان . . . قبل هذا بألف وأربعمائة سنة كان سيّد النّاس يُعلّم البشرية حقوق الحيوان! فيخبرنا أن امرأةً دخلت النّار في هرّة حبستها ، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض! ويخبرنا أنّ بغياً من بغايا بني إسرائيل دخلت الجنّة بكلبٍ سقته شربة ماء! وكان خليفته في المدينة المنوّرة يخشى أن تتعثرَ دابة عند شاطئ الفرات في العراق ، فيسأله الله عنها : لِمَ لمْ تصلح لها الطريق يا عمر؟!

البارحة انتهتْ أيام التشريق ، وفرغ المسلمون من أضاحيهم عملاً بشرع ربّهم واقتداءً بسُنّة نبيّهم ، وبينما كنا منشغلين بعبادتنا . . . مسلم يطوف بالبيت ، وآخر يسعى بين الصفا والمروة ، وثالث يضحي ، ورابع يصل رحمه ، إذ خرج علينا المتحيونون من النّاس يخبروننا أن الأضحية همجية ورجعية! ما ذنب هذه الخراف ليذبحها المسلمون؟! كأن الناس في أوروبا المتحضرة يزرعون اللحم ولا يذبحون الخراف ، وكأن قطعة اللحم في شطيرة الهمبرغر في أميركا الإنسانية قد تم قطفها عن الشجر! وكأن الخراف والأبقار قد خُلقت لتنام معنا في غرف نومنا ، لا لنأكلها! تشعر وأنت تقرأ دفاعهم عن الخراف أن دفاعهم من باب صلة الرحم كأن أحدهم يدافع عن إخوته! لا عن حيوان يربيه الناس على اختلاف أديانهم وأعراقهم ومللهم وثقافاتهم لينتفعوا بلبنه وصوفه ولحمه!

أحد هؤلاء المتحيونين الذين يلبسون ثياب الشفقة والتحضر ، كان قبل أشهر يدافع عن براميل بشار الأسد التي تحيل أجساد الأطفال إلى أشلاء! ومتحيون آخر يسألنا مستهجناً : ما شأنكم وشأن مسلمي ميانمار ، ولماذا تحشرون أنوفكم في كلّ قضية في هذا الكوكب؟! قتل الأطفال خلاف سياسي ، وحرق الروهينغا أحياء مسألة داخلية ، أما أضاحي المسلمين فتخلف ورجعية! ما هذا العهر الثقافيّ يا سادة؟!

هؤلاء المرضى لو قطفَ مسلم ثمرة لقالوا : مسلم لص يسرق الشجرة! ولو حصدَ سنبلة قمح لقالوا : مسلم متوحش يستخدم منجلاً! إن القضية ليست قضية خراف تُذبح ، فهؤلاء المتحيونون يأكلون الشاورما والكنتاكي والهمبرغر والبروستد والمفطح والمدفون! ولكنه عداء صلف للإسلام والمسلمين ، فبأي منطق غير منطق العهر الثقافي يعارض متحيون ذبح خروف ويؤيد مجزرة رابعة!

الوطن

٥- ٩ - ٢٠١٧

عندما ينهارُ الأقوياء..!

من طقوسي في القراءة أني لا أقرأ كتاباً قبل أن أقرأ عن حياة صاحبه ، ذلك أني أؤمن أنّ هذا يتيح لي فهماً أعمق للكتاب ، فنحن نهاية المطاف صنيعة ظروفنا ، ومن النادر ، إن لم يكن من المستحيل أن لا تترك حياتنا الشّخصية بصمتها على أفكارنا ونظرتنا إلى الحياة!

انتهيتُ البارحة من قراءة رواية «الشيخ والبحر» لإرنست همينغواي ، ورغم أني أتحاشى قدر الإمكان قراءة كتاب مترجم ، لإيماني أن العمل الأدبيّ يفقدُ شيئاً من جماليته عند ترجمته لغير لغته الأم ، إلا أنّ الرواية كانت رائعة حقاً ، ولكني لستُ بصدد الحديث عن الرواية ، وإنما عن الرّاوي!

شارك إرنست همينغواي في الحربين العالميتين الأولى والثانية ، ونجا منهما! كذلك نجا من السرطان ، والملاريا ، والسكري ، وفقر الدم ، وكسر في الجمجمة والعمود الفقري ، ونزيف في الكلى والكبد ، وتحطم الطائرة مرتين ، وفي الحادية والستين من عمره انتحر!

تساءلتُ في نفسي : ما الذي يدفعُ محارباً جَلْداً أن يستسلم نهاية المطاف؟!

أعتقدُ أننا أحياناً ننهار لأ ننا كنّا أقوياء أكثر من اللازم!

حدث كثيراً أن دفن أحد حبيباً له ، فكان طوال الجنازة يعضّ على كبريائه كأن الفقد ليس فقده ، وكأن الميت لا يعنيه ، ثمّ إذا

عاد إلى بيته ، وأغلق عليه بابه ، وانفرد بنفسه ، انفجر باكياً كأنه الجنازة كلها!

حدث كثيراً أن فرقت الدنيا حبيبين ، ومضى كلٌّ في طريقه كالأعرج يتكئ على عكاز كبريائه ، وأن مواقف كثيرة راودته ليلقي عكازه تلك فأبى ، وقرر متابعة الطريق ، ثم في لحظة شوق ما ينهار كأنه عشاق الأرض كلهم!

حدث كثيراً أن ذاقت امرأة الويل من زوجها ، ولكنها قررت أن تحتمل وتصبر حتى الرمق الأخير ، ثم في لحظة ما ينفد مخزون القوة! ونتساءل نحن : ما الذي حدث لها؟! ، لقد رأت أكثر من هذا فاحتملت ، فلماذا الآن؟! والسبب أن هناك قشة قصمت ظهر البعير!

لا تنخدعوا بالمظاهر ، ليس كل الأقوياء أقوياء حقاً! هناك قشرة صلبة نُغلف فيها أنفسنا لنحمي هشاشتنا من الداخل ، ويحدث في لحظة ما أن تنكسر تلك القشرة! يحدث أن يشرب أحدنا أنهاراً من القهر ، ثم في لحظة ما يعجز أن يشرب من القهر بقدر فنجان قهوة! والسبب أن هناك قدرة على التحمل ، وأنّ القويّ من الطبيعيّ أن ينهار!

الوطن

٧- ٩ - ٢٠١٧

اتركوا الأمية وحاربوا الجهل!

يقول ماثيو ماكونهي : الشهادة ورقة تثبت أنك متعلم ، ولكنها لا تُثبت أنك تفهم!

والشيءُ بالشيء يُذكر . . . أحيت البشرية البارحة «اليوم العالمي للقضاء على الأميّة» ، وعلى الرغم أني أعاني حساسية مفرطة تجاه كثير من الأيام التي اتفقت البشرية على إحيائها ، إلا أن هذا اليوم تحديداً أراه من الأيام المجيدة ، ولا أتصور أن كائناً بشرياً سوياً قد يزعجه أن يتقن جميع قاطني هذا الكوكب القراءة والكتابة! ولكن لا بدّ من نقطة نظام في المسألة ، ومن وضع بعض النقاط على الحروف فيما يخصّ هذا اليوم!

درجَ كثير من النّاس على الخلط بين مفهوم الأمية ومفهوم الجهل فاعتبروهما شيئاً واحداً ، وهذا خلط شنيع! فالأميّ هو الإنسان الذي لا يعرف القراءة والكتابة ، أما الجاهل فهو الإنسان الذي يحمل بعض الجينات الحمورية وإن كان يحمل شهادة جامعية! ومن هذا المنطلق يمكن للمرء أن يكون أمياً دون أن يكون جاهلاً ، ويمكن أن يكون أمياً وجاهلاً ، ويمكن أن يكون متعلماً وجاهلاً ، ويمكن أن يكون متعلماً مستنيراً!

وإني إذ أرفع القبعة احتراماً لمن فكّر في القضاء على الأمية ، إلا أني ما زلتُ أنتظر ذلك الجريء الذي سيقرر يوماً ما القضاء على الجهل! ولو تأملنا في مشاكل هذا الكوكب ، فلا نحتاج إلى كثير عناء لندرك أنها في غالبيتها العظمى من صنيعة الجهلة المتعلمين

لا من صنيعة الأميين المساكين! وبينما كان الأميون منهمكون في زراعة القمح لنأكل ، وشق الطرق لنمشي ، وصناعة الملابس لقاء أجور زهيدة لنواري سوءاتنا ، وجمع نفاياتنا لنبدو أجمل ، كان حملة الشهادات العليا يصنعون القنابل النووية ، والصواريخ الباليستية ، والألغام الأرضية ، وإنشاء صندوق النقد الدولي لشراء الدول الفقيرة ، وإرساء النظم الاقتصادية لتبرير حتمية استعمارها!

نريد القضاء على آفة الأمية ، لأنّ الأمي معرض لأن يكون جاهلاً أكثر من غيره ، ولكن في المقابل علينا أن لا ننسى أن بعض الأطباء ، والمهندسين ، والمدرسين ، والاقتصاديين ، والمفتين ، والوزراء ، ومديري الشركات ، ورؤساء البلاد ، حمير مع مرتبة الشرف ، وإن وضع أحدهم حرف الدال قبل اسمه! فالشهادة التي يحملها كائن بشري ما ، ويعلقها على جدار بيته أو مكتبه للتباهي تعنيه وحده ، ما يعنينا نحن أن نعرف : هل جعلت منه تلك الشهادة إنساناً أم لا؟!

الوطن

١٠- ٩ - ٢٠١٧

سفّاحو نوبل للسّلام!

يقول برنارد شو : إني لأغفرُ لألفرد نوبل اختراعه الديناميت ، ولكن لا أغفرُ له اختراعه جائزة نوبل!

لا يخفى على أحد فيما أعتقد ، أن جوائز نوبل تخضع في كثير من الأحيان لمعايير مطاطة ، ولعلّ أصدقها جوائز نوبل في العلوم والطبّ ، وأكذبها جوائز نوبل في السّلام والأدب! فهذه تحديداً يجب أن تتوافق مع هوى البيت الأبيض في واشنطن ، وهوى الكنيست الإسرائيلي في تلّ أبيب! أو على الأقل لا تتعارض معه! ولو أن كاتباً عربياً كتب رواية عن محرقة اليهود على يد هتلر فسيكون مرشحاً بقوة للجائزة ، أما مجرد التشكيك بأعداد الضحايا المبالغ فيه ، فعاقبته كعاقبة روجيه غارودي تهمة معاداة السامية! ولا يحاججني أحد بنجيب محفوظ فقد حصل على نوبل لأنه كان من دعاة التطبيع مع إسرائيل .

وعن جائزة نوبل للسلام فحدّث ولا حرج! مناحيم بيغن قائد عصابات الأراغون التي ارتكبت عشرات المجازر ، أشهرها دير ياسين التي تحدث عنها بيغن بفخر في كتابه «التمرد ، قصة الأراغون» ، ورغم هذا حاز على جائزة نوبل للسلام! اسحاق رابين قائد عصابات الهاجاناه التي ارتكبت الفظائع ليس بحسب ما قال الناجون ، ولكن بحسب ما قال المؤرخ اليهودي إيلان بابي في كتابه «التطهير العرقي في فلسطين» ، ورغم هذا حاز على جائزة نوبل للسلام! شمعون بيريز مؤسس مفاعل ديمونا ، وسفاح غزة وقانا نال

هو الآخر جائزة نوبل للسلام! باراك أوباما الذي كانت تحتل جيوشه بلاداً ، وتقيم قواعد عسكرية عنوة حتى في عقر أوروبا ، وعاث فسادا في أرجاء الأرض ، نال هو الآخر جائزة نوبل للسلام!

قائمة السفاحين لا تنتهي هنا ، ما زال هناك سفاحة أيضا ، رئيسة وزراء بورما ، وقائدة الإبادة ضد مسلمي الروهينغا حاصلة هي الأخرى على جائزة نوبل للسلام! وجائزة سخاروف الأوروبية لحرية الفكر والمعتقد! وميدالية الكونغرس لخدمة البشرية!

لو أن أحداً دهسَ قطة عمداً ، ثم أوقف بعد ذلك ألف حرب في هذا العالم ، ما شفع له هذا جريمته النكراء تلك ، ولاستحال أن يحصل على نوبل للسلام ، ولكن دماء المسلمين رخيصة ، فنحن لا بواكي لنا ، وقتلنا ليس من خوارم جائزة نوبل للسلام!

الوطن

١٢- ٩ - ٢٠١٧

دِراسَاتٌ علميّة!

هناك دراسةٌ علميّةٌ تعزو ارتفاع معدّل الأعمار عند شعب الإسكيمو إلى «حُجرة دماغيّة» أسماها العلماء «حُجرة الحياة الطويلة» استطاعتْ أجسامُهم أن تطوّرها على مدى آلاف السنين مستفيدة من الطاقة الكامنة في الثلج! وهناك دراسةٌ علميّةٌ أخرى تُرجع سبب انخفاض معدّل الأعمار في البرازيل مقارنة بجيرانهم من سكّان أميركا الجنوبيّة، إلى غاز سام على المدى الطويل تبثّه حبّات البُنّ فترة نضوجها!

نستنتجُ من الدّراستين أثر الوعاء الجغرافيّ على حياة الإنسان! وأنّ ليس كل ما نراه سيئاً هو سيئ فعلا، وليس كل ما نراه جيّداً هو جيّد فعلاً! فالثلجُ الذي نراه لعنة القطب كان له أثر إيجابيّ في إطالة أعمار شعب الإسكيمو! في حين أن القهوة التي نراها هِبة البرازيل، وثروتها القوميّة تسببتْ في تقصير أعمارهم!

في الحقيقة هذه «الدراسات العلميّة» قمتُ أنا بتأليفها، وقد لزمني ذلك مقدار ما يحتاج أحدكم لارتشاف فنجان قهوة!

كل ما أعرفه عن القطب الشمالي أنّه منطقة نائية أعلى هذا الكوكب تكسوه الثلوج على مدار العام، وأن شعباً يقطنه يسمونهم الإسكيمو! ولا أعرف شيئاً عن معدّل أعمارهم، أما الحجرة الدماغيّة التي أسميتها حجرة الحياة الطويلة فقد اقتبستها من دراسة مفترض أنها علمية، تقول إن دماغ الإنسان مقسّم إلى حجرات، وأن عدد حجراته أكثر من عدد حجرات كل البيوت التي

دخلتها منذ ولادتي إلى يومي هذا! فلم أجد بأساً بزيادة حجرة جديدة لن تكون موجودة إلا على الورق كالبيوت التي تمنحها وزارات الإسكان للشباب!

ولا أعرفُ شيئاً عن معدّل الأعمار في أميركا الجنوبيّة التي خلُصتْ دراستي أنها أعلى مما هي في البرازيل! كل ما أعرفه عن البرازيل أنها تقع فعلاً في أميركا الجنوبيّة ، وتنتج كميّة كبيرة من القهوة يساهم «كافيينها» في إطالة فترة استيقاظ النّاس مما يمكنهم من إفساد حياة بعضهم لفترة أطول!

الهدفُ من دراساتي العلميّة العظيمة التي قد تخوّلني الحصول على جائزة نوبل هو أن أخبركم أن مصطلح «دراسة علميّة» هو أسهل طريقة لتمرير كذبة ما عبر إلباسها قميصاً علمياً ، وأنّ دراسات علميّة طبيّة سبق وأن صدّقتم محتواها قد ألّفها شخص معرفته بالطب كمعرفتي الوثيقة بشعب الإسكيمو!

خلاصة القول :

إن كنت ستصدّق كل ما تقرأ فلا تقرأ! لأنّ الجهل البسيط أرحم من الجهل المركّب ، والفرق بين الجهل البسيط والجهل المركّب حسب دراسة علميّة أيضاً! أن الجهل البسيط هو عدم معرفتنا بالشيء ، أما الجهل المركّب فهو معرفة معلومات خاطئة عنه!

الوطن

٢٧ / ٦ / ٢٠١٥

الجَفافُ العاَطِفيّ

اعـتـدنا ونحنُ نقـرأ «واللّقـمـة يضعُـهـا الرّجلُ في فم امـرأته صـدقة» أن نُركّز على لفظةِ اللّقـمـة ونُهمل يضعـهـا في فم امرأته! السِّر إذاً ليس في اللقمة بل في طريقة تقديمها!

ولقـد حـرص الإسـلامُ أن يجـعل كلّ شـأنٍ من شؤون الحـيـاة طقساً من الحبّ، فاجتماع رجل وزوجته على مائدةٍ ليس اجتماع خروف ونعجة أمام معلفٍ يعُبُّ كل واحـد منهـمـا ما يملأ بطنه ثم ينفضّ الجمعُ! هذه الحركـة اللطيـفة تحوّلنا من كـائنات مُقـتـاتة إلى كـائناتٍ مُحبّة، وتُحـوّل الطعام من غذاء للمعدة إلى غـذاءٍ للقلب والرّوح!

جوع المعدة أمره يسير، يسدّه رغيفٌ، ويُسكته صحن أرزّ مهما تأخّر، أما جوع المشاعر والأحاسيس فقاتِلٌ إن لم يُقدّم في وقته! وأكـثـر أنواع البـخل إيذاءً ليس ذاك الذي يتـعلّق بالمال وإنّمـا ذاك الذي يتعلّق بالاهتمام!

الفـقرُ الحـقيـقيّ ليس في الجَيْبِ وإنّمـا في القلب! ونحن في الغالب نتقبّل فكرة فقر من حولنا ونتعايش مع قلة إمكاناتهم لأننا نعرفُ أنّ هذا رزق ليس لهم في قلّتـه يد، ولكن الذي لا نتعـايشُ معه هو فقرُ الأحاسيس! وقلّة ذات القلب! هذه الأشياءُ الصّغيرة التي لا تُكلّف درهماً ولا ديناراً، أشياء بالمجان هي التي تجعل الحياة رغم قسوتها جنّة!

هديّة بسيطة دون مناسبة
عناقٌ في غير موعده
كلمة أحبك في زحمة سير
وردة من بائع متجوّل
ثناء أمام الآخرين
تشجيع ولد ، ومديح بنت ، تفعل في القلوب أكثر مما نعتقد!

عندما نُغدِقُ الحُبّ على من حولنا نُحصّنهم جيداً من الوقوع في أفخاخِ اللطف العابر الذي يُقدّمه الآخرون! صحيح أن اللطف ليس مرضاً يجب أن نُحصّن من حولنا ضدّه ولكن الخواء العاطفيّ مقتلة! إننا نعيشُ جفافاً عاطفياً يجعل منا جميعاً فرائس سهلة أمام أولئك الذي يجيدون الاصطياد في الماء العكر! وحتى إن حسُنت نوايا الآخرين يبقى الجفافُ العاطفيّ سيّد التأويلات يُفسّر كل كلمةٍ عابرة على أنّها رسالة حب!

صارت البنتُ تسمعُ صباح الخير كأنّها : أنا أحبكِ
وتسمعُ كيف حالكِ على أنها : لقد اشتقت إليكِ
وتسمعُ كم عمركِ على أنّها : أنتِ في سنّ مناسبٍ للزواج أيّتها الجميلة .

ونحن نتحمّل مسؤولية كلّ هذا!

إنّ أقسى ما نواجهه اليوم ليسَ البطالة في الأعمال وإنّما البطالة في الأحاسيس!

وليس ارتفاع أسعار الطعام في المطاعم ولكن انخفاض سعر الحب على موائدنا!

وليس ندرة الأَسِرّة في المستشفيات بل برودة أسِرّة غرف نومنا!

وليس ندرة الورد بل ندرة الذين يقدّمونه!

وليس ندرة الأرصفة قرب البحر بل ندرة الأزواج الذين يمشون هناك كحبيبين!

النّاسُ يجِفّون من قلّة الاهتمام كما يجفُّ الزّرع من قلّة الماء! فاسقوا زرعكم ولا تحوجوه لماء الآخرين!

الوطن

١ / ٨ / ٢٠١٥

البيوتُ أَسْرَار!

الإخوة «الفيس بوكيّون» والأخوات «الفيس بوكيّات» تحيّة طيّبة وبعد :

قالوا قديماً : البيوتُ أسرارٌ ، ولكن على ما يبدو أنَّ الكلام القديم كالثّيابِ القديمة «موضة» هو الآخر ، نكفُّ عن استخدامه حتى ولو بدَا أنيقاً!

كانت البيوتُ صناديقَ مغلقة ، ما للبيتِ للبيت وما للناس للناسِ ، واليوم صارت البيوتُ مشاعاً وكلّ ما فيها للنّاس! جولةٌ مسائيّة في مواقع التّواصلِ الاجتماعيّ تجعلكَ تُدركُ أنّها مواقعُ الفضائحِ الاجتماعَيّ ، فكلمةُ تَوَاصَلَ في اللغة مزيدةٌ من حرفين ، والمزيدُ مَن حرفين– من زاويةٍ دلاليّة– يفيدُ المشاركة ، كـ«تَرَاسَلَ وتَقَاتَلَ» ، أفعالٌ يلزمها بالضرورةِ طرفان ، فكما لا يمكنُ للإنسانِ أن يتراسلَ أو يتقاتلَ مع نفسه ، هكذا كلمة تواصل لا بدّ لها من طَرفٍ ثانٍ معنيّ ومهتمٍّ بما يوصله له الطرف الأول .

أنا لا أعرفُ حتى اللحظة ما المرادُ إيصاله من شخصٍ أوّل ما يستيقظ يكتب «لقد استيقظتُ»!

الحمدُ للهِ أنّكَ أخبرتنا بهذا ، لقد كان العالمُ كله واقفاً على أعصابه ، خشية ألا تستيقظ ، ولقد صارَ بإمكان هذا الكوكب أن يكملَ يومه بعد أن اطمأن على استيقاظك المبارك!

وبعد الاطمئنان على «اللايكات» و «الكومنتات» يكتب لنا : «عن إذنكم شاور تايم»!

سيّد العالم دخل ليستحمّ! بإمكانكم أن تنجزوا ما يمكنكم من أعمالكم ريثما يخرج جلالته من الحمّام ، ويصوّر لنا فنجان قهوته مرفقاً بكتاب أغلب الظن أنّه لن يفتحه! فمن المستحيل أن تجتمع الثقافة والتفاهة في صعيد واحدٍ! عموماً لا تنسوا «اللايك» وإلا سيغضب ولن يصوّر لنا طعام الغداء!

من طرائفِ الأشياءِ أنّ كائنةً فيس بوكيّة كتبتْ مرّةً : «رأيتُ الموتَ بعينيّ»!

وبعد أن هبّت الكائنات الافتراضيّة مُباركةً لها نجاتها المحتوم من الموت ، تبيّن أن الموتَ الذي رأته بعينيها ليس إلا انكسار أظفارها وهي تفتحُ قنينة البيبسي!

رحمَ اللهُ أمَّ مرشود! منذ خمسين عاماً ذهبتْ لتحتطبَ يومَ لم يكن في البيوت أفران غاز ، وكانت في آخر أيام حملها ، وهناك أرجأها المخاضُ إلى ظلّ زيتونة ، فساعدها النسوةُ اللائي كُنّ معها ، فوضعت ابنها ، ثمّ لفّته بقطعةِ قماش ، وعادتْ سيراً على الأقدام ، ابنها بيدها ، وحزمة الحطبِ على رأسها ، فكفى مياعة!

هناكَ بيوتٌ من قوانينها ألا تمتدّ يدٌ إلى الطّعامِ قبل التقاط صورةٍ للفيس بوك ، وهناكَ حلوى تُصنع لتُصوّر في انستغرام فقط ، وهناكَ ثياب تُشترى لـ «اللايكات» في مواقع التواصل ، وهناك خلافاتٌ زوجيّة تُناقشُ على الملأ ، فماذا بقي للبيوت؟!

الإنسانُ كائنٌ اجتماعيّ بطبعه ، وقد قال الخليلُ بن أحمد الفراهيديّ : ما سُميَ الإنسان إنساناً إلا لأنّه يأنسُ بغيره!

ولكن هذا لا يعني أن الأُنس لا يتحققُ إلا حين نتخلى عن خصوصيتنا!

نُعزّي أهلَ الفقيدِ بفقيدهم ، ونُهنّئ أهلَ العرسِ بعريسهم ،

نعودُ مريضاً ، ونزورُ صديقاً ، نحترمُ جاراً ، ونُجلُّ عجوزاً ، ونوقّرُ عالماً ، نناقشُ فكراً ، ونطرحُ رأياً ، هذا هو الأُنسُ بالنّاس ، وهذا ما يُشبعُ غريزة الاجتماعِ المدفونة فينا ، لا في أن تكون البيوت مشاعات!

الوطن

٢٢ / ٨ / ٢٠١٥

اُتفُلْ بوجْهِي إذا نجَحْتَ!

أخذَ الأساتذةُ الجامعيّون أماكنهم في مقاعد الطّائرة، وربطوا أحزمتهم استعداداً للإقلاع، وإذا بصوتِ قائدِ الطَّائرة يقول: أيّها السّادة هذه الطائرة من صنع تلاميذكم! فما كان من الأساتذة إلا أن فكّوا أحزمتهم وولوا هاربين، إلا أستاذا واحدا بقيَ في مكانه هادئاً وقال لزملائه: «ارجعوا إلى أماكنكم واتفلوا بوجهي إذا طارت»!

واضحٌ أنّ القصّةَ دعابةٌ ليس إلا، ولكن «اُتفلْ بوجهي إذا نجحتَ» ثقافةٌ مجتمعيّة متجذّرة فينا للأسف، وفي هذا الباب قال أحمد زويل بعد أن حاز على جائزة نوبل للكيمياء: «الغرب ليسوا أفضل منا ولكنهم يساعدون الفاشل حتى ينجح ونحن نحارب الناجح حتى يفشل»!

منذ أيام في حفل تخرّج الطلاب في الجامعةِ الأردنيّة بعمّان، صعد طالب إلى المنصّة واستلم شهادة تخرّجه، ثم سار نحو أستاذه وتفل في وجهه، ثم تبيّن بعد ذلك أن الأستاذ كان قد قال لتلميذه: «اُتفل بوجهي إذا نجحتَ»!

برأيي أن الأستاذ يستحقّها ولكن هذا انتقام فظ! فما هكذا تُؤكل الكتفُ، ولا هكذا تُوردُ الإبلُ يا سعد! لو كنتُ مكانه لأخذتُ «المايكرفون» وقلتُ: أهدي هذا النجاح للمعلم الذي قال لي اُتفل بوجهي إذا نجحتَ!

«إلى مدرّس اللغةِ العربيّة الذي قذفَ دفتر التعبير في وجهي وقال لي: ستموت قبلَ أن تكتبَ جملةً مفيدة».

هذه الكلمات هي إهداء أوّل كتابٍ أصدرته ، كنتُ أتمنى أن أهدي كتابي الأول لأمي أو أبي ، ولكن حيناً حين يؤذيك أحدهم حتى العظم تفكّر أن تنتقم! نعم في الأمر انتقام مهما بدت الطّريقة حضاريّة! وإن أرقى انتقام أن تُهدي نجاحك لأولئك الذين تنبّؤوا بفشلك!

مرّ أعرابيٌ مشهود له بالفراسة بحيّ من أحياء مكّة فشاهد صِبيةً يلعبون ، وكان بينهم معاوية بن أبي سُفيان ، وكان يُؤلّب جماعة على أخرى ، ثم يُصلح بين الجماعتين ، فقال الأعرابيّ : هذا الصّبيّ ليَسودنّ قومه! فسمعَتْه هندُ بنت عُتبة أم معاوية ، وقالت له : ثكلته إن لم يسدهم ويسد غيرهم!

هذا الحثّ هو الذي صنع من الصّبيّ خليفة ، يكفي أن تزرع في ذهن شخص أنّه ناجح لينجح ، ويكفي كلمة لتقضي عليه!

صحيح أنّ النّاس يولدون متفاوتين في الطاقات والقدرات ، ولكن لا شك أن في كل إنسان طاقة وقدرة ، وفرق كبير بين أن نساعد متدني القدرات لتحقيق أكبر نجاح تسمح به قدراته وبين أن ندمره بكلام نقوله دون أن نلتفت لأثره في النّفس ، لأن التحطيم النفسيّ أشدً وطأة من التعذيب الجسدي ، ويشهدُ الله أن مجموع ما أكلته من ضرب من أساتذتي مجتمعين يفوق ما يأكله لص أحذية بباب مسجد ، فأنا من جيل كان الأهل يأتون بنا إلى المدرّس ويقولون له : اللحم لك والعظم لنا! وكان الأساتذة لا يفرّطون بحظهم من اللحم! المهم أني نسيتُ ذاك الضرب كلّه الآن ، بل إني مدين له ، ولكني لم أنسَ حتى اليوم كلمة!

الوطن

٢٩ / ٨ / ٢٠١٥

السّادة في وَكَالة نَاسَا:
لا تفضحُونا!

السَّادة في وَكَالة ناسا ، تحيّة طيّبة وبعد :

بلغني أنّه منذُ أيّام قد اكتشَفتُم كوكباً شبيهاً بالأرض لديه كلّ الإمكانَاتِ ليكونَ عليه حياة!

سامحوني إذ لم أتفاعل مع هذا الخبر بطريقةٍ تتناسبُ مع جهدكم المبذول ، والأموالِ الطّائلةِ المصروفة في سبيلِ هذا الاكتشاف العظيم وذلك لسببين :

الأوّلُ أنّ هذه هي المرّة المائة التي تكتشفون فيها كوكباً شبيهاً بالأرض مما أفقدكم عنصر المفاجأة ، وأزال عنّي عنصر الدّهشة! والثاني أنّي غير مقتنع بوجود حياةٍ على ظهر هذا الكوكب المكتظ بالكائناتِ الحيّة لأقتنعَ أن على توائمه الميتة من الكواكبِ حياة!

لن أكسرَ مجاذيفكم وأقول لكم لا تُتعبوا أنفسكم فإنكم لن تجدوا ، ولكن إن حدث ووجدتم فأرجو منكم أن تبقُوا بعيدين عن تلك الكواكب ولا تفضحونا معهم ، فكوكبنا الذي يدور على حلّ شعره حول الشمس مُخز تماماً ، ولا أعتقد أن كوكباً فيه حياة أو حياء قد يرغب أن يتعرّف عليه!

ما الذي ستُحدّثونَ عنه الكواكب الأخرى؟

عن متحف اللوفر ، عن برج ايفل ، عن شلالات نياغرا ، عن أهرامات مصر ، عن برج بيزا ، عن سور الصين العظيم ، عن تاج

محل ، عن قصر الحمراء ، عن جزيرة سان أندريس في كولومبيا ، عن شلالات فكتوريا في زيمبابوي ، عن قاعة بريسبين في أستراليا ، عن كوه رونغ في كمبوديا ، عن غابات الأمازون ، عن قلعة شفرين في ألمانيا ، عن فوجي ياما في اليابان ، عن سانت بطرسبرغ في روسيا ، هذه حجارة ، وأخشاب ، وماء ، فماذا عن الإنسان؟!

ماذا عن «أيان كردي» ابن العامين جثة هامدة على شواطئ تركيا ، هرب به أهلُه من الموت إلى الموت ، ومن ضيق الوطن إلى ضيق المنفى ، ومن حيتان اليابسة إلى حيتان الماء! أنتم لا تعلمون أن البحر الذي تلعنونه لأنه فتك بالطفل الصغير أرحم مليون مرة من بشار الأسد ، البحر أعاد أيان جثة كاملة ، فهل تعلمون أن أطفالاً في دوما بعثرتهم البراميل المتفجرة فلم يبقَ منهم شيء ليوضع في قبر! أيان وجد من يوثّق موته ، فهل تعلمون أن أطفال الغوطة ضُربوا بغاز السارين ولم يجدوا من يوثّق موتهم ، فخرجوا من الدنيا دون صخب الكاميرات وهذا أبسط حقوق المُبادين؟!

ماذا عن غزّة ، السّجن الكبير الذي لا يبحث في هذه الأرض عن أكثر مما تجوبون الفضاء الفسيح بحثاً عنه ، مجرّد حياة!

ماذا عن مجلس الأمن الذي نزع الأمن ، ماذا عن حق النقض الفيتو وخمس دول تتحكم برقبة هذا الكوكب ، ماذا عن الأمم المتحدة التي لا تتحدُ إلا لتدارك الخطر المحدق بالفقمات نتيجة ذوبان الثلوج في القطب ، ماذا عن صندوق الربا الدولي المستخدم لتركيع الدول ، ماذا عن سيد الكريملين يلعب الشطرنج مع سيد البيت الأبيض ببيادق بشريّة ويحتسيان دم أطفالنا!

ماذا عن حفلة الشّواء البشريّ التي أقامها السيسي في رابعة وتلذذ العالم المتحضّر برائحتها!

ماذا عن الأنبار التي يشرب دمها كسرى قم في سبيل إحياء مجد فارس!

ماذا عن ميانمار محرقة الروهينغا الذين لا ذنب لهم سوى أنهم مسلمون في كوكب يتشدّق بشرعة حقوق الإنسان وحرّية المعتقد!

الوطن

٥ / ٩ / ٢٠١٥

عن بطلاتِ العالم الحقيقيّات

عن اللواتي لا يكتبُ عنهنّ أحد . .

عن المستيقظات فجراً ، المُصلّياتِ فرضاً ، التّالياتِ ذكراً ، المُعدّات فُطوراً ، المُجَهِّزات تلميذاً ، المُلبسات مريولاً ، المُسرِّحات شَعَراً ، المُراجِعات برنامجاً ، الجَالياتِ صحوناً ، المُوضّباتِ فراشاً ، الحانياتِ ظهوراً ، الكانساتِ أرضاً ، الماسحاتِ غبراً ، المُرتّبات بيتاً ، الطّابخات غداءً ، المُنتظراتِ أولاداً ، المُطعِمات حشداً ، المُنظّفات قُدوراً ، المُذاكرات دروساً ، الحالاّتِ فروضاً ، المصححات إملاءً ، المُسمّعاتِ استظهاراً ، المُحفّظاتِ قرآناً ، المُعدّاتِ للنوم أولاداً ، المُفرفشاتِ بعد ذلكَ أزواجاً!

أنتنّ بطلاتُ العالم الحقيقيات وإن صادروا بطولتكنّ ، فهذا العالم لا يُقدّر إلا من يُصدرُ ضجيجاً! تجمعُ نملةٌ مؤونة سنة فلا يدري عنها أحد

وتستلقي ضفدعة على شاطئ المستنقع تحت الشمس
فتُصدرُ نقيقاً كأنها مديرة كوكب الأرض!
أنتنّ نمل البيوت الذي يعمل بصمت ولا يدري به أحد
وما تبقّى ضفادع تُصدرُ نقيقاً فيمجّدونها!

عن الخبيراتِ الاقتصاديّاتِ اللواتي يتكيّفنَ رغم عجز الموازنة بينما تغرق أوطان كبيرة بالدّين! . . عن الممرضاتِ اللواتي يقسنَ حرارة ولدٍ مريض بميزان شفتين يطبعنه قبلةً على جبينه ،

فيُشخّصنَ المرض ، ويعطين العلاج ، فنشفى ، ويموتُ عشرات الآلاف بالأخطاء الطبيّة!

عن المُدرّساتِ الخصوصيات مجاناً! . . عن السّمكرياتِ توفيراً! . . عن المرهقاتِ الآوياتِ لفراشهنّ ليلاً يسمعنَ صوتَ عظامهنّ تحتهنّ فلا يشتكين! . . عن اللواتي لا يطبخنَ لإنستغرام ، ولا يشترينَ الثياب للفيسبوك! . . عن الصّابراتِ على وجع الظّهر لأنّ كشفيّة الطبيب أولى بها فاتورة الكهرباء في أوطان رغم النّفط لا تشبع! . . عن خشناتِ الأيدي لأنّ ثمن المُرطّبات والكريمات أولى به أقساط مدارس الأولاد في أوطان تخلّتْ وعلى المرء أن يتدبّر فيها نفسه!

عن بطلاتِ العالم الحقيقيات!

عن سلال الغسيل الممتلئة لأنكنّ لا ترضينَ إلا أن يلبس أولادكنّ ثياباً نظيفة! عن المجلى الممتلئ عن آخره بالصحون لأنكنّ تأبينَ إلا أن تُطعمنَ أولادكنّ طعاماً شهياً! . . عن الألعاب المتناثرة هنا وهناك لأنكنّ ترفضنَ أن تسلبنَ أولادكنّ طفولتهم! . . عن الصوتِ المبحوحِ والأعصاب التالفة لأنكنّ لا ترضينَ إلا أن يكون أولادكنّ الأفضل!

عن بطلاتِ العالم الحقيقيات!

عن اللواتي لا يُسافرنَ للإجازات! . . عن اللواتي ينسينَ أعياد ميلادهنّ! . . عن اللواتي لا يُطالعنَ مجلات الأزياء! . . عن اللواتي لا يعرفنَ الطريق إلى صالونات التجميل وورش الحدادة النسائيّة! . . عن الملائكة ، الملائكة حقاً ، الملائكة فعلاً!

أعرفُ أن مقالاً لن يشفي وجعاً في الظهر ، ولن يمحو بحةً في الصوت ، ولن يزيل خشونةً في يدين ، وأعرفُ أن أكثركنّ ليس

عندهنّ وقتٌ ليقرأن ، وأنّ بعضكنّ لا يدرين عني ولا عن مدونات الجزيرة فقد شغلكنّ ما هو أهمّ منا! ولكني قررتُ أن أكتب عنكنّ ، عرفاً بفضلكنّ ، وتذكيراً بجهدكنّ وصبركنّ وجهادكنّ ، أنتنّ بطلاتُ العالم الحقيقيات فلا تنهزمن ، أنتنّ الجيش الوحيدُ الممنوع عليه أن يُهزم ليستمرّ العالم!

مدوّنات الجزيرة

٦ / ١١ / ٢٠١٦

إنّهم يسْرِقُوننا!

روى الأصفهانيّ في «الأغاني» ، والأصفهانيّ بالمناسبة منافسٌ شرسٌ للأصمعيّ في اختلاق القصص ، ولكنّ الأوائل إذا رووا تنادينا : السّماع ، السّماع! فاسمعوا منّي عنه ، قال :

يُحكى أنّ تاجراً من الكُوفة ، قَدِمَ المدينة المُنوّرة بخُمُر ، فباعها كلّها إلا السوداء بقِيَتْ بضاعةً كاسدةً في وجهه! وكانَ الكوفيّ صديقاً لـ«الدراميّ» الشّاعر الذي اشتهر بشعر الغزل ، ولكنّه ما لبث أن تنسّك وأقلع عن قول الشّعر في النّساء! فشكا الكُوفيّ للدراميّ ما صارت إليه تجارته ، فقال له : لا تقلق ، فسأبيعها لك ، ثم أنشد قائلاً :

قُلْ للمليحةِ في الخِمارِ الأسودِ
ماذا فعلَتِ بناسك مُتعبّدِ
قد كان شمّر للثيابِ صلاته
حتى وقفتِ له بباب المسجدِ
رُدّي عليه صيامه وصلاته
لا تفتنيه بحقّ دين مُحمّدِ

فانتشرت الأبياتُ بين النّاس انتشارَ النّار في الهشيم ، وأقبلت النّسوةُ على الخُمر السّود . . وهكذا وُلدتْ أوّل دعاية تجاريّة في التّاريخ!

تُقبلُ النّساء على مستحضرات «غارنييه» اعتقاداً منهُنّ أنّ كل واحدة ستصبح «هند صبري» ، ويدفعُ الرجالُ المال على يقينهم أنّه

لا تُصلحُ «غارنييه» ما أفسد الدّهرُ! ولكنّهم يريدون السِتر لا أكثر!

مشكلة النّساء أنّهنّ ضعيفات أمام دعايات مستحضرات التجميل ضَعف الرجال أمام الحسناوات اللواتي يعرضنها! التّجملُ مطلوب ، ولكن أُريدكنّ أن تعرفن أن غارنييه لم تجعل من هند صبري جميلة ، فلا تتوقع إحداكُنّ أن تستيقظ ذات صباح ولا تعرف نفسها ، ثمّة جمال هبةً الله هبّة للنّاس ، ولم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، وشقّ الأنفس هنا أموال طائلة ، وعشرات عمليّات التجميل ، فأرى أن تسترحن ، وتوفرن أموال أزواجكن ، ودعوهم يتفرّجون على هند صبري «ببلاش» ولتذهب غارنييه إلى الجحيم!

مُذ فتحتُ عينيّ على التلفاز وأنا أرى مستحضرات التنظيف تقضي على ٩٩ ٪ من الجراثيم ، لدرجة أنني لم أعد أُفكّر بالجراثيم ضحايا هذه الإبادة الجماعيّة ، وإنما أريد أن أتشرف بلقاء هذه الجرثومة التي لم يستطع أن يقضي عليها أحد! أريدُ أن أصافح بطلة العالم الصغيرة ، وآخذ معها «سيلفي» وأضعها في الفيس بوك! عموماً لستُ أدري سبب هذه الحملة الشعواء على الجراثيم ، فقد تبيّن لي أنّها مخلوقات طيّبة يمكن التعايش معها . . قرأتُ مؤخراً دراسة علميّة تقول إن الجراثيم على الهاتف النقّال أكثر منها في المراحيض العّامة! لستُ أدري ما إذا كانت هذه الدراسة خطوة استباقيّة من شركة تنوي أن تنتج مستحضرات تنظيف للهواتف ، فقبل بيعنا منتجهم التجاريّ عليهم أن يقنعونا أولاً أن كل واحدٍ منا يحمل في يده مرحاضا! صدّقوني عندما أخبركم أن الدعايات فنّ ، بل علم قائم بذاته يلعب بعقلية المستهلك ويقنعه بشراء منتجات لا يحتاجها!

الثّياب التي يجعلها «برسيل» أكثر بياضاً هي بيضاء فعلاً ، وأنظف من ثيابنا بعد أن نغسلها ، والمسحوق الآخر الذي يأتون به ليتحداه برسيل ويحجبونه من باب السِتر على المساحيق الأخرى وعدم التشهير بها ، ويتغلّب عليه برسيلَ دوماً ، يضعون عليه بقعة حقيقية كتلك التي تكون على ثياب أولادنا البيضاء ونحصل بعد غسلها ببرسيل على ذات النتيجة المذلّة التي حصل عليها المسحوق الخاسر!

والأشخاصُ الذين يعرضون دعايات معجون الأسنان ، دفعوا مبالغ طائلة لقاء «الهوليود سمايل» الذي قاموا به ، ولكنّهم سيعوّضونه من جيوبنا بعد أن يتقاضوا مبلغاً محترماً من الشركة بعد إقناعنا أن الحل يكمن في «الآب ديت» الجديد لمنتجهم لأنه يحتوي على فلورايد أكثر!

إنّهم يسرقوننا ، ويستعينون بالمشاهير علينا ، يريدون أن يقنعونا أن ميسي يسجل الأهداف لأنه يشرب بيبسي ، رغم أن كميّة السّكر الموجودة في العبوة ، مع تكلفة العبوة الفارغة ، بالإضافة لسعر الماء إذا كان نظيفاً ، مع الملونات والأصباغ الكيميائية ، تجعل تكلفة الأشياء أعلى من سعر بيعها ، ولكننا نستمر بشرب هذه الجحيم!

يريدون أن يقنعونا أن كريستيانو رونالدو تحبّه الفتيات لأنه يحلق لحيته بجيليت سانسور ، لا لأنّه وسيم ، ويلعب في الناديّ الملكيّ ، ولديه سلاح فتّاك وهو أنّه ثريّ جداً!

يريدون أن يقنعونا أن شاكيرا تصنع شوربة كنور ، فنشتريها رغم علمنا أنّ شاكيرا لا تعرف أن تسلق بيضة!

كما حاولوا أن يقنعونا من قبل أن بيرت بلاس سبب نعومة

شعر سيرجيو راموس ، فلماذا لا يرينا بيرت بلاس عضلاته في شعر ديديه دروغبا!

من أكثر الدّعايات استفزازاً لي تلك التي تقول : أُنتُخِبَ هذا المنتج من قبل المستهلك كمنتج العام! أنا ككل مواطني هذا العالم العربيّ ودوله مستهلك جيّد! ولم يحدث مرّة أن دعاني أحد لأ نتخب ، إنّهم يُنصبّون المنتجات ويبايعونها ونحن نبايع كما نبايع كل المنتجات التي لا يد لنا في تنصيبها! كثيراً ما حلمتُ أن أمارس حقّي الديمقراطي ، كنتُ سأدلي بصوتي لأ ندومي ، لا لأ ني أحبّه ، على العكس تماماً ، ولكنّه يكاد يكون المنتج الوحيد الذي ما زالت البركة مطروحة فيه فلم يخسر شيئاً من وزنه ، كما أن سعره ثابت!

أرجو من أيّ مواطن عربيّ إذا علم بأي انتخابات ديمقراطيّة بين المنتجات أن يخبرني لأ حضر وأدلي بصوتي ، أو صوتوا عني لأ ندومي ، حفاظاً على التقاليد العربيّة ، وعدم التّشبه بالكفّار!

الوطن

١٧ / ١٠ / ٢٠١٥

لماذا أيّها اليابان؟!

الضربةُ التي تصيبُني ولا تقتُلني تجعلني أقوى!

لا أعرفُ صاحب هذه المقولة ، وكان من اليسير عليّ أن أستفتيَ فيها شيخنا «غوغل» ، فيعطيني اسمه ، فآتيكم باسمه ، وأوهمكم أنيّ مثقّف! ولكنّي آثرتُ أن لا أفعل ، لا لأنهم قديماً قالوا : من كان الكتاب شيخه فقد ضلّ! لأنهم كانوا يرون أنّ العلم لا يكون إلا بالتلقي من أفواه العلماء ، فماذا عساهم يقولون بمن كان «غوغل» شيخه؟! ولا لأن الاسم علمٌ لا ينفعُ وجهلٌ لا يضرّ! وإنّما لأني على يقين أنّ الجهل سيصبح في قادم الأيام أكثر قيمة من المعرفة!

وبالعودة إلى المقولة التي لا أعرفُ قائلها ، فهي صحيحة تماماً ، وخير مثال عليها اليابان ، هذا البلد الذي ضُرب بقنبلتين ذرّيتين ليركع فإذا به اليوم أقوى بلد في العالم ، أقوى بلدٍ في عقله لا في عضلاته!

المهم أنّ هذا البلد الذي أُشبهه بدماغ البشريّة ، بصدد اختراع خوذة إلكترونية ، يعتمرها الإنسان ، فيصبح بالإمكان قراءة الأفكار التي تدور في رأسه!

تخيّلوا كم ستصبحُ الحياة مقيتة لو أفلح اليابانيون واخترعوا خوذتهم هذه ، وصار لِزاماً علينا أن نعتمرها فوق رؤوسنا ، في العمل لأن مديرك يريد أن يعرف ما في رأسك لا ما في لسانك ، وفي

البيت لأنّ زوجتك تريد أن تعرف أفكارك السوداء لا كلامك المعسول، وفي الطريق لأن الحكومة تريد أن تعرف منسوب السخط في رأسك لا مسرحية الرضا التي تمارسها أنت وكل «الكومبارس» من إخوتك المواطنين!

كلنا نعرف أن المجاملات كذب أنيق، وأنها ضرورية لتستمرّ الحياة، فلو عرف كل شخص ما الذي يدور في رأس الآخر، لما استطاع أحدنا أن يتخذ من ستة مليارات إنسان يقطنون الأرض صديقاً واحداً! ولكننا نعتمد على الكلام في بناء علاقاتنا، لأنّ الكلام خير وسيلة لإخفاء الأفكار!

تخيّل عزيزي القارئ أنّك في اجتماع عمل، تعتمر خوذة الفضيحة، ويتحفك مديرك بفكرة جهنّمية من أفكاره، ثم ترتسم على خوذتك عبارة: ما هذا الغباء! تريدُ اليابان أن تقطع رزقنا!

تخيّل أنّكَ تجلسُ في بيتكَ آمناً مطمئناً، فيُقرع باب بيتك، وتقوم لتفتح الباب، فإذا به ضيف ثقيل جاءك من غير موعد، ثم ترتسم على الخوذة عبارة: ما الذي جاء بك السّاعة! قبل الخوذة كنت تصطنع ابتسامة عريضة، وتهشّ وتبش، وكانت الحياة تستمر، ولكنّ اليابان قررتْ أن لا تُبقي لنا أصدقاء!

تخيّل أنّك جالس مع زوجتك تشاهد التلفاز، ثم تطالعك امرأة حسناء، وترتسم على الخوذة عبارة: تباً لحظي، هذا العالم مليء بالجميلات! تريد اليابان أن تخرب بيوتنا، لهذا بالضبط قلت بداية: سيصبح الجهل أكثر قيمة من المعرفة!

ما مثلنا مع عقل اليابان على ظهر هذا الكوكب إلا كمثل قوم استهموا على ظهر سفينة، إن تركناهم لعقولهم غرقوا وأغرقونا

معهم ، وإن أخذنا على عقولهم نجوا ونجونا معهم! احجروا على عقل اليابان ، فهذا ليس تفكيراً بقدر ما هو إرهاب مقنّع بالتفكير! وإن رفضوا أن ينصاعوا فما هيروشيما وناكازاكي منكم ببعيد .

الوطن

٣١ / ١٠ / ٢٠١٥

قانونٌ ضدّ القانون!

يقولُ العبقريُّ علي عزّت بيغوفيتش في كتابه الأشهر والأمتع «الإسلامُ بين الشرق والغرب» : إن كثرة القوانين في مجتمع ما وتشعّبها ، علامة مؤكدة على وجودِ شيءٍ فاسدٍ في هذا المجتمعً ، وفي هذا دعوة للتوقف عن إصدار مزيد من القوانين والبدء في تعليم النّاس وتربيتهم!

بيغوفيتش طبعاً ليس ضدّ أن يكون للمجتمعٍ قوانين تُنظّمُ علاقة الفرد بالدولة ، وعلاقة الأفراد ببعضهم ، أصلاً لا يمكن قيام مجتمع إنسانيّ دون هذا ، ولكنّه ينادي بتربية أخلاقية تجعل الناس لا يرتكبون الأخطاء لأنها ضد الأخلاق ، لا لأًنها ضدّ القانون! وإن كان في هذا الفصل الممتع من كتابه يحدثنا عن العلاقة بين القانون والمجتمع ، فإنه خطر لي أن أحدّثكم عن العلاقة بين القانون والفكاهة!

في هذا العالم قوانين تجعلني أحمد الله أن الأرض هي الكوكب الوحيد المأهول في المجموعة الشمسيّة ، وإلا لكنّا أصبحنا مسخرة عند سُكان الكواكب الأخرى!

في إيران مثلاً يُمنع استخدام الإنترنت عالي السّرعة لأنّه يساعد على جلب المفاسد!

وهذا كلام صحيح ، فالإنترنت البطيء يجعل اللسان لاهجاً بذكر الله ، تفتح صفحة الانترنت وتجلس أمام جهازك تنتظر الفرج ، يتأخر الفرج فتقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم تُفتح الصفحة ،

وتختارُ موضوعا لتقرأه ، وتبدأ بالعبادة! حسبي الله ونعم الوكيل ، أستغفرُ الله العظيم ، وهكذا بعد قراءة أول موضوع تكون قد استغفرتَ ، وسبّحتَ ، بينما لو لم يكن الإنترنت كالسلحفاة ، فإنّ سرعة حصولك على ما تريد سيشغلك عن ذكر الله ، ويضيع عليك الأجر!

في لوس أنجلوس من غير القانونيّ أن يضرب الرجل زوجته بحزام عرضه أكثر من ٢ إنش إلا بموافقتها!

لهذا إذا كنت في لوس أنجلوس عليك أن تشتري كل أحزمتك بقياس أقل من ٢ إنش ، وإلا فلا يمكنك استخدامها إلا لرفع سروالك! وإياك أن ترفعه بوجه زوجتك لأن مقاسه مخالف للقانون ، وإن حدث ورفعتْ لك ضغطك ، عليك أن تقول لها بكلّ أدب : هل تسمحين لي بضربك بهذا الحزام المخالف للمواصفات القانونية!

في الهند لا تستطيع قتل فأر إلا بعد طلب إذن من الحكومة!

تصرخ زوجتك ، فتهرع إليها وأنت تعتقد أن أسداً قد ضلّ الطريق إلى بيتك ، فإذا بك أمام فأر ، ستفكر أن تقتله ، إيّاك! عليك أن تقول له : أيها الفأر اللعين هل تعتقد أن هذا البلد لا يوجد فيه قانون! تلبس ثيابك وتركض إلى أقرب دائرة حكومية مختصّة ، تشرح لهم الأمر ، فيعطونك استمارة لتملأها ، كم بلغ صراخ زوجتك على مقياس ريختر للرعب؟ ما لون الفأر؟ كم عمره؟ هل هو متزوج أم أعزب؟! ثم يجتمعون ويدرسون طلبك ، وإن وافقوا ترجع إلى البيت لتقوم بواجبك!

في ولاية ويسكانسون الأميركية يُعتبر تقبيل القطار جُنحة!

فإذا قادتك خطاك العاثرة إلى محطة القطارات ، ورأيتَ قطاراً فاتناً عليك أن تضبط نفسك ، وتستهدي بالله ، وتتذكر الجزاء

العظيم الذي أعدّه الله للذين يكبحون جماح شهواتهم ، وأن من ترك قطاراً لله عوّضه الله خيراً منه! وإن حدث لا سمح الله أن ضعفت أمام هذا الإغراء ، وقبّلت القطار ، فإن الحكومة لن تقف مكتوفة الأيدي ، وستجد نفسها مضطرة للدفاع عن شرف القطار المُقبّل ، فستعاقبك ، ويُكتب في سجلّك ، هذا المواطن متحرّش بالقطارات!

في جزر ساموا إذا نسي الرجل تاريخ ميلاد زوجته يتعرّض للعقوبة!

صحيح أن المرأة تريد من الرّجل أن يتذكّر تاريخ ميلادها وينسى عمرها! ولكن هذا ليس مبرراً لمعاقبة زوج نسي تاريخ ميلاد زوجته ، لأنّ أعباء الحياة قد تجعلك أحياناً تنسى تاريخ ميلادك! وقد تكون ابتليتَ بزوجة تريد أن تنساها كلّها وليس تاريخ ميلادها فقط ، ولكن على العموم ، إذا انتقل أحدكم إلى جزر ساموا التي لا أعرف أين تقع على الخريطة ، فليكتب تاريخ ميلاد زوجته على جدران البيت ، والعمل ، والمقهى ، وكل مكان يتواجد فيه ، لأن الإخلال بالرومانسية يقود إلى السّجن!

هناك قوانين فكاهية أكثر ، ولكني أكتفي بهذا القدر ، لأن هناك قانوناً في الوطن القطرية يقضي بجلد الكاتب الذي يتجاوز مقاله الحد المسموح به بحزام ٢ إنش!

الوطن

٧ / ١١ / ٢٠١٥

الحُبُّ المَنسيّ!

لم أجد غير الخنساءِ عُكّازاً أتّكئ عليه لأعبر مخاض الفكرة! والحديثُ عن الخنساءِ ذو شجون، ولكنّه ماتعٌ وأخّاذ! هذه المرأة أسطورة تأخذُ بتلابيب القلب فيخرسُ في حضرتها الكلام! وهي إحدى القلائل اللائي لو كان بيتا المتنبي قماشاً لأتيا على مقاسها كأنّما فُصّلا لها تفصيلاً:

ولو كان النّساءُ كمن ذكرنا
لفُضّلت النّساءُ على الرّجالِ
فما التأنيثُ لاسم الشّمسِ عيبُ
ولا التّذكير فَخرٌ للهلالِ!

مُخضرمةٌ أدركتْ عراقة الجاهليّة، ولم تفتها قافلة الإسلام، فجمعت الحُسنيين، وكانتْ في النّاس كما قال سيّدهم: النّاس معادن خيارهم في الجاهليّة خيارهم في الإسلام!

امتطتْ صهوة الشِّعر باكراً، وسابقت الرّجال في مضمار القصيدة، وقال عنها النّابغة وقد نصبوا له خيمة الإفتاء ذات عكاظ: الخنساءُ أشعر العرب!

رثتْ أخاها صخراً فبكته الصّحراءُ معها حتى آخر حبّة رملٍ فيها، وعندما جاءتْ تُكحّل عينيها برؤية النبيّ، وتتوضّأ بنور الإسلام، قال لها مُرحّماً: هيه يا خُنيس، أنشديني من حديث صخر!

وفي القادسيّة قدّمتْ أولادها الأربعة شهداء، وسجدتْ لله

شكراً : لكَ الحمدُ أنتَ أعطيتَ ، وأنتَ أخذتَ! هذا هو الإسلام العظيم يُغيّر نظرة الإنسان ليس للحياة فقط ، وإنّما للموتِ أيضاً!

كان صخرٌ أخاً يستحقُّ الرّثاء ، مات أبوهما وترك مالاً كثيراً ، وكان من عادة العرب أن لا ترث فيهم النّساء ، ولكنّ صخراً الذي كان يرى أخته قطعة من القلب ، أبى أن لا يكون لها قطعة من المال! فأعطاها نصف الإرث سواءً بسواء! وكان عبدُالعزّى زوج الخنساء في الجاهليّة مقامراً ، فقامر بمالها حتى خسره كلّه ، فذهبت الخنساء إلى صخرٍ تطلب معونته ، فجمع ماله كلّه وأعطاها نصفه ثانية ، ثمّ ما لبث عبدالعزّى أن قامر فيه وخسره ، فذهبت الخنساء إلى أخيها مرّةً أخرى ، فجمع ماله كلّه وأعطاها نصفه ثالثة! ولأنّه لم يبخل عليها بالمال لم تبخل عليه بالشّعر! فخلّدته ، وما زلنا كلما سمعنا اسم الخنساء دقّ اسم صخر في آذاننا كناقوس!

هذا الزّمنُ المادّي الذي نعيشه قتل فينا مشاعر حلوة ما كان يجب أن نسمح أن تموت ، على رأسها حُبّ الأخوات! أصدقُ عاطفة أنثويّة بعد عاطفة الأم تجاه ابنها ، هي عاطفة الأخت تجاه أخيها ، حُبّ نقيّ ، ليس من ورائه مطلبٌ يُرتجى ، ولا غاية تُؤمل! فلماذا نسيناه؟! وأنا لا أتحدّث عن الحُبّ من حيث ما هو عاطفة ، ولكن من حيث ما هو معاملة! فالحُبُّ ليس مشاعرَ تُحسّ ، وكلاماً يُقال ، الحُبُّ كالدّينِ معاملة!

متى كانتْ آخر مرّةٍ دلل أحدنا أخته في البيت ، أو أهداها هديّة ، أو قال لها أحبّكِ ، أو طبع على جبينها قبلة؟! متى كانتْ آخر مرّةٍ زار أحدنا أخته المتزوّجة؟! الأختُ المتزوّجة قطعة من القلب لا قطعة من البيت ، ونحن أبعدناها لأن هذه هي سنّة الحياة ، وليس زهداً فيها ، زوّجناها ولم نتخلّص منها!

دللوا أخواتكم ، أغدقوا عليهنّ الحُبّ والاهتمام والحنان ، اسقوا بذرة حبّكم في قلوبهنّ لتصير شجراً وتثمر فتقطفوه! أنتم تحتاجون هذا الحُبّ كحاجتهنّ إليه وأكثر! لا يوجد أجمل من عاطفة بلا جزاء ولا مقابل ، حُبّ لا شيء فيه سوى أنّه حُبّ! فاجئوهنّ ، وأنا أوّلكم : إلى أخواتي الخمس : أحبّكنّ! كل واحدة منكنّ قطعة من قلبي ، وأنا آبى إلا أن أجمع قلبي كاملاً في صدري!

الوطن

١٤ / ١١ / ٢٠١٥

كن رجلا لها لا عليها!

قرأتُ البارحة أنه في قرى «غرينلاند» يقومُ العريسُ يوم العرس بجرّ العروس من شعرها من بيت أهلها إلى بيته . . ليعلمها أنه سيد البيت!

وفي سياق متصل تقول الأساطير أو ربما الخراريف التي تتحدث عن بدايات الإنسان على سطح الأرض أن الرجال كانوا إذا أرادوا النساء حمل أحدهم هراوته كالخارج إلى الصيد ، ثم يتخيّر من بين النساء واحدة ، فيضربها بهراوته ، ثم يحملها إلى كهفه ، كما يحمل الفرائس التي يصطادها! الغريب أن الأساطير تذكر أيضاً استمتاع النساء بهذا الأمر ، فلو لم تكن إحداهن جميلة لما طالتها الهراوة!

ومهما يكن من أمر ، فإنني لا أؤمن بالأساطير . . ولكن يُجمع دارسو المثيلوجيا أن الأساطير هي مرآة عن تفكير وعقلية ناسجيها!

وفي سياق أكثر اتصالًا ، تعرفون جميعًا قضية قطع رأس القطة التي كانت منتشرة في بلاد العرب ، وما زالت حتى اليوم سائرة على قدم وساق في المناطق النائية التي لم تُشرق عليها لا شمس العلم ولا شمس الدين! وقصة قطع رأس القطة باختصار هي أن يُحضر العريس معه قطة أول يوم يدخل فيه على زوجته ، ويقوم بفصل رأس القطة عن جسدها أمام عروسه ليعلمها أنه رجل «حمش» وأن مصير هذه الوافدة الجديدة لن يكون أحسن من مصير القطة المسكينة التي ذهبت هدرًا في ميدان إثبات الرجولة المريضة!

لستُ من دعاة المثالية ، ولا أحبُّ مدعيها ، أعرف أن الحياة الزوجية تشهد طقوسًا كثيرة تتراوح بين الهيام والحُب والغضب والرضا والخصام ، التعامل اليومي بين الزوجين والمصحوب بضغوط الحياة ومتطلباتها ، والمحكوم بأمزجة الناس ونفسياتهم وطباعهم وتربيتهم ، من الطبيعي جدًا أن ينشأ عنه خلافات ، ولا أغالي إذ قلت إن الخلافات هذه ضرورية أحيانًا بشرط ألا تخرج عن الإطار الطبيعي الذي يحدث ضمنه خلاف النبلاء! ويروق لي أن أشبهها بالملح في الطعام ، القليل منه يصلحه والكثير منه يفسده .

بقي أن يعرف الرجال أن الرجل هو من يطوع امرأته بقلبه لا بسوطه ، وبحنانه لا بيده ، وأن رجولته لا تتحقق بمقدار ما يضرب زوجته وإنما تنقص بمقدار ما يضربها! وعلى المرأة أن تعرف أن الجمال شيء والأنوثة شيء آخر ، وأنها يجب أن تحافظ على أنوثتها حتى الرمق الأخير ، فمتى تخلت عنها صارت رجلاً آخر!

وفي عيون الأخبار لابن قتيبة أن امرأة زُفّت إلى رجل فقال لها : ليس فيّ من عيب إلا أني سيئ الخلق عندما أغضب! فقالت له : أسوأ منك خلقًا من اضطرك إلى أن تغضب!

العلاقة الزوجية طائر يحلق بجناحين ، هما الزوج والزوجة ، ولا يستطيع طائر أن يُحلق بجناح مكسور ، على كل واحد منا أن يحافظ على الجناح الآخر لتستمر الحياة!

الوطن

٧- ١١ - ٢٠١٧

الملوك الدستوريون!

يقول توفيق الحكيم في روايته حمار الحكيم :

ينبغي لزوجتي أن تجعل مني «ملكًا دستوريًا» يملكُ ولا يحكم! أشعروني دائمًا أني مُطلق الحرية ، وأني صاحب الأمر والنهي ، واسلبوني بعد ذلك ما شئتم من حرية ونفوذ بأسلوب لطيف غير منظور ، النجاح حليف من يربطني دون أن أنتبه بخيطٍ حريري دقيق طويل أتحرك فيه براحتي ولا أحس له وجودًا! إني رجلٌ لا أحبُّ أن أكذب على نفسي ولكني أحب أن يكذب عليَّ النّاس!

قليلة هي الكلمات التي أقراها فأشعر برغبة في الوقوف لها دقيقة تبجيل ، أو لنقل دقيقة صمت ، لا أعرف لماذا اعتاد الناس أن يقفوا دقيقة صمت للأموات ، لماذا لا يكون الوقوف للجمال صمتًا ، ألا يقول ابن دمشق :

فإذا وقفت أمام حسنك صامتًا

فالصمت في حرم الجمال جمال

ثم إن بعد الوقوف احترامًا ، أرجع بكم إلى توفيق الحكيم ، هذا الرجل له من اسمه نصيب ، كلما قرأتُ له وجدته موفقًا وحكيمًا ، اللهم إلا كتابه «رأيتُ الله» لم أستسغه ، وأعدتُ قراءته مرة أخرى فلم ينزل لي من مريء!

المهم أني أعتقد أن جميع الأزواج يريدون أن يكونوا ملوكًا دستوريين ، وأنا أحد هؤلاء ولا خجل! نريد معشر الأزواج ألا تُصدّع زوجاتنا رؤوسنا بكل صغيرة وكبيرة ، ويُدرن أمور البيت من تلقاء

أنفسهن دون أن يُشعرننا أنه لا حاجة لنا ، تمامًا كما يفعل مجلس العموم البريطاني مع الملكة إليزابيت!

ونريد كذلك ألا نشارك في الزراعة ولكننا لا نتنازل عن حقنا في الحصاد!

فنحن لا نُحبُّ أن نُدرّس أولادنا في المنزل ، ولكننا نغضب إذا تدنت علاماتهم ، وأنا شخصيا أتفشخر بتفوق أولادي في المدرسة ، وإذا تعثر أحدهم يومًا فلا أفعل أكثر مما كان يفعله سيء الذكر بان كيمون! أعرب عن قلقي تجاه هذا الأمر ، وربما أخذتني حماسة الشجب والاستنكار لتحميل زوجتي المسؤولية ، فأنا شريك في المجد فقط ، ولا أقبل أن تنقص حصتي منه!

حتى حين تنشبُ المشاكل بين الأولاد أسارع للنأي بالنفس بل وأتطرف به ، ولا أكتفي بالوقوف على مسافة واحدة من الأطراف المتنازعة ، وإنما أقف بعيدًا عنهم جميعًا ، وإذا أخبرتني زوجتي أن الأمور خرجت على السيطرة ، وأنه يجب عليَّ أن أتدخل تحت البند السادس لمجلس الأمن الذي يبيح التدخل بالقوة لحفظ الهيبة فأتدخل بحزم من باب إثبات الوجود ، ولكني أنتهز الفرصة لأخبر الأولاد أن هذا التدخل العنيف كان تحريضًا من جهات خارجية!

أما أنتن معشر الزوجات فعليكن أن تبقين كالمدراء العامين في الوزارات تواجهن المشاكل من خلف الكواليس ، وتُحرق أعصابكن دون أن يدري عنكنّ أحد ، ثم ستأتي الكاميرات لتصوير الوزير وهو يحمل مقصا ليفتتح مشروعًا علم به منذ يومين ، ثم ستُشيد نشرات الأخبار بحكمته وإنجازاته ، فكان الله في عونكن!

الوطن ١٥- ١٠ - ٢٠١٧

تواضعوا يرحمكم الله!

يتفق دارسو السِّيَر، أن «سير أعلام النبلاء» للإمام الذهبيّ هو أروع وأغنى كتاب في هذا المضمار على وجه الأرض! ومع أن الذهبيّ جعل كتابه في النبلاء الذين سبقوه، إلا أنه ترجم لبعض أقرانه ومعاصريه، ولأن كتابه مختص بعظماء الرجال تورع أن يترجم فيه لنفسه!

ولكنه عندما وضع بعد ذلك كتابه «المعجم المختص بالمحدثين» ارتأى أن يذكر نفسه بين رجال الحديث، ولكنه كان متواضعًا حدّ الذهول وهو يذكر نفسه قائلًا:

«الذهبيّ، المُصنف، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، ابن الشيخ عبد الله التركماني الشّافعي، المقرئ المحدث، صاحب هذا المعجم، ولد سنة ٦٧٣ هـ وجمع تواليف يقال إنها مفيدة، والناس يتفضلون ويثنون عليه، وهو أخبر بنفسه وبنقصه في العلم والعمل، والله المستعان ولا قوة إلا به، وإذا سلّم لي إيماني فيا فوزي»!

هذا درس في التواضع نحتاج أن نتأمله جميعًا، نحن عبدة الألقاب وهواة الفشخرة ونفش الريش كالطواويس!

إن التاجر منا أول ما يفعله بعد أن يرجع من الحج هو أن ينزل اللافتة عن دكانه أو بقالته ليضع واحدة جديدة تخبر الأمة جمعاء أنه تبارك الله قد صار فضيلة الحاج، وأغلبهم كما تعرفون يذهبون إلى الحج سكاكين ويرجعون مناشير، وعظم الله أجورهم في الألقاب!

يحصل أحدنا على درجة الدكتوراة ، والأطاريح كما لا يخفى على شريف علمكم هذه الأيام بغالبيتها تجميع وململمة من هنا وهناك ، فإن كان اختصاصه في علم الاجتماع يشعرك أن ابن خلدون قد أخذ العلم عنه ، وإن كان من أهل اللغة فسيبويه نقطة في بحره ، وحتى في الشريعة تجد الكبر والعجب أيضاً ، كأن أحدهم جُلد على يد المأمون بدل الإمام أحمد ، فحفظ الله به الإسلام!

والويل والثبور لتلميذ جامعي يلفظ اسمه دون لقب دكتور قبله ، والشقي ابن الشقي من أرسل له دعوة ولم يضع حرف الدال قبل اسمه!

إذا قرض شاعر منا بيتين من الشعر اختال على الناس كأنه النابغة وقد نُصبت له قبة في سوق عكاظ ليحكم بين الشعراء!

وإذا ارتدى طبيبنا مريوله في أول تدريب له قبل التخرج أشعرك أن أبقراط وابن سينا لم يكن لهما من فضل إلا أنهما سبقاه زمنًا ، ولو أدركهما لكان اسمه يملأ صفحات التاريخ!

يا أخي حتى طالب الهندسة ما يكاد ينهي سنته الجامعية الأولى حتى يشعرك أنه من بنى الأهرامات أو نصب جسر بروكلين!

أن يحترم الإنسان نفسه ويقدرها شيء عادي لا يُلام عليه ، ولكن هذا الغرور ونفش الريش ورفع أرنبة الأنف فيه الشيء الكثير ، شخصيًا أؤمن أن العلم الذي لا يزيدك تواضعًا نحن في غنى عنه وعنك ، الأمر أيسر من ذلك بكثير فتواضعوا يرحمكم الله!

الوطن ١- ١٠ - ٢٠١٧

لا تدع هذا المقال يقف عندك!

قُلْ : أُقسمُ بالله أن أقومَ بإرسال هذا المقال لكل الكائنات التي أعرفها!

لقد أقسمتَ ولم يعدْ بإمكانك التراجع ، فأنقذْ نفسكَ من النّار ، ولا تدع الشيطان يمنعكَ هذا الأجر العظيم ، مع أنّي أشكُّ أنّه سيحاولُ منعك ، فهذا الاستهبال محطّ ترحيب عنده!

عموماً هناك شخصٌ أهملَ هذا المقال ، ولًم يقم بإرساله كما أقسم ، فاحترق بيته ، وطُرد من وظيفته ، وتشاجر مع زوجته ، وأنا بانتظار أن تدهسه سيّارة!

وهناك شخصٌ برّ بقسمه وأرسل المقال ، فشُفيَ ابنه الذي يئس الأطباءُ منه ، وحصلَ على ترقية في عمله ، ورضيتْ عنه حماته ، وكان من المقرر أن تدهسه سيارةٌ فغيّرت وجهتها وهي الآن في طريقها لتدهس العاصي الذي رفض إرساله!

كما تُلاحظون . . . من السّهل جداً كتابة أشياء كهذه ، ولو أنّي كتبتُ بجديّة أكثر لصدّقني خلقٌ كثير! فمن الذي يكتبُ هذه الأشياء التي إن لم نرسلها لكل الذين عندنا فسنكون كمن ارتكب السبع الموبقات دفعة واحدة! الذين يكتبونها هم أحد شخصين : مُحبٌّ عبيط! أو مبغضٌ خبيث!

بالنسبة للمُحبّ العبيط ، فإن الكذب على السُّنة الشريفة ينقسمُ إلى قسمين : كذبٌ للنبيّ ، وكذب على النبيّ! وكلا الكذبين قبيح ، ولكن الفرق بينهما أنّ الكذب للنبيّ هو عبارة عن

اختراع البعض حسنات ومراتب في الجنّة لمن يفعل طاعة محددة ، والذين يفعلون هذا أشخاص نيّتهم سليمة ، ولكن عملهم قبيح ، والنّية الحسنة لا تُصلح العمل القبيح! فهذا الدين لا يحتاج لمن يكذب له! أما المبغضون الخبثاء الذين يكذبون على النبيّ فهم الذين يُضيفون أحاديث بغرض الإساءة للإسلام! وكلاهما أي الكذب للنبيّ أو على النبيّ اشتركا في قبح العمل وإن اختلفا في النيّة!

أكثر غرابة من الكذابين أعلاه هم أولئك الذي تحسبهم اطلعوا على اللوح المحفوظ! يُحدّثونك عن الغيب بكل ثقة! أرسل هذه الرسالة إلى عشرة أشخاص وبعد سبعة أيام ستسمع خبراً سعيداً! المصيبة أن الكثيرين يرسلونها لعشرة أشخاص بالضبط مخافة أن يقعوا في البدعة! ويعدون الأيام لسماع الخبر السعيد!

نحن الذين نساهم في نشر هذه التفاهات لأننا لا ندع الأشياء تقف عندنا! تماماً كما كنا نفعل أيام الرسوم المسيئة للنبي ، كانت تصلنا رسالة في الإيميل تحتوي على تلك الرسوم وأعلاها مكتوب : أنظر كيف يصوّر أعداء الله نبيّنا! أُنشر هذه الرسائل ليعرف المسلمون حقيقتهم! وكُنّا ننشر! الذين يخترعون التفاهات يريدون منا أن نعمل عندهم ناشرين ، وهم يستغلون عاطفتنا الدينية لننشر فنسيء لديننا!

قليلاً من العقل يرحمكم الله!

الوطن

٥ / ١٢ / ٢٠١٥

بين العقل والقلب!

حياة الإنسان أشبه بعربة يجرّها حصانان هما العقل والقلب ، لهذا على الإنسان وهو يقود عربة حياته أن يُبقيَ هذين الحصانين في خطين متوازيين ، لأنه إن سبق أحدهما الآخر قد تنقلب العربة! وقد قالوا قديماً : ضعْ قليلاً من العقل على قلبك حتى يستقيم ، وضعْ قليلاً من القلب على عقلك حتى يلين!

ولطالما وجد حصانا العقل والقلب في الأدب علفاً دسماً! فالكتبُ مرعىً خصيب ، يدخلان إليه خِماصاً ويرجعان بِطاناً! ولكن المشكلة تبدأ عندما نترك أحد الحصانين يرعى كما يحلو له حتى يسمن ، ونربط الآخر بعيداً حتى يهزل! وقتها سنخسر سباق الحياة لا محالة لأنه لا يمكن كسب سباق بحصان أعرج!

نحن -العرب- عاطفيّون بالمجمل ، أرقُّ قلوباً ، وألينُ أفئدة ، تُطيح برجالنا عيون حُلوة ، وتسقط نساؤنا بالضربة القاضية أمام كلمة جميلة! فمن الطبيعيّ أن يكون كلّ أدب ارتفعتْ منسوب عاطفته قِبلة قراءة ، نولّي وجوهنا شطره! لهذا نجدُ الناس في بلادنا تشعلهم كلمة وتُطفئهم أُخرى ، ونحن راضون ، تسمن قلوبنا والعقول تشكو إلى الله ظلم العباد!

أنا لا أُقلل من شأن شعر الغزل ، ولا أزدري روايات الحُبّ ، على العكس تماماً فإني أقرأها وأدعو لقراءتها! ولكنّي أسأل ما الذي تضيفه إلينا هذه الكُتب وحدها؟! لو قرأ إنسان دواوين نزار قباني الغزليّة كلّها ، وهذا مثال للتقريب لا للانتقاص ، فما الذي

ستضيفه إليه هذه الدواوين ، سواءً في لغتها أو مضمونها ، غير أنها ستهذب بشكل ما حسّك! ولكن جرّب بعد هذا على سبيل المثال أيضاً أن تقرأ «دين ضد الدين» لعلي شريعتي ، أو «الإسلام بين الشرق والغرب» لعلي عزت بيغوفيتش ، أو «شيفرة دافنشي» لدان براون ، أو «الأمير» لميكافيلي ، هذه الكتب تهزك من الأعماق ، تخلخل منظومتك الفكرية ، ليس بالضرورة أن تتبنى كل ما فيها ، فنحن لا نقرأ لنتخلى عما نعتقد ، وإنما لنحاكم ما نعتقد! ولكن هذه الكتب ستخلق فيك عشرات الأسئلة تجعلك وأنت تحاول الإجابة عليها لا ترجع بعدها كما كنت قبلها!

القراءات الأدبية كالسير على الشاطئ ، كل ما سيبتل منك قدماك ، ولكن القراءات الفكريّة كالسباحة ، يستحيل أن لا تخرج منها مبتلّاً! علينا أن نغامر قليلاً ونبتعد عن الشاطئ ، السّباحة الفكريّة مغرية!

علينا ونحن نجعل قلوبنا أرقّ أن لا ننسى أنّ لنا عقولاً لها علينا حقوقاً! فالقراءات العاطفية فقط تحدث فينا عاهة ونحن لا ندري! هل رأيتم أطفال إفريقيا في زمن المجاعات ، قفص صدري ناتئ يمكنكم بسهولة أن تعدّوا عظامه ، وأسفله بطن منتفخ متهدّل سببه أنهم يتناولون نوعاً واحداً من الطعام يبقيهم على قيد الحياة ، ولكنها حياة مزرية ، وهذا بالضبط ما يحدث لنا عندما نحشو أنفسنا بالمشاعر ، نُحدث في قلوبنا انتفاخاً ، وفي عقولنا ضموراً!

مائدة الثقافة عليها أصناف وأنواع ، فلماذا لا يكون طعامنا متوازناً؟!

الوطن

١٩ / ١٢ / ٢٠١٥

البينات في إنصاف الحموات!

قالوا : إن لم يكن لتعدد الزّوجات من عقوبة سوى تعدد الحموات لكفى!

ولا أعرفُ من هم الذين قالوا ، ولكنّي مثلكم جميعاً أعرفُ أن الموقف الحاد من الحموات يكاد يكون محطّ إجماع ، وقضية رأي عام . والرأي العام كما يقول سعيد تقيّ الدّين : بغل كبير! والبِغال يُكنّى بها عن التناحة ، والتشبث بفكرة ما بالأسنان والأظفار والأظلاف! وعدم الاستعداد لتغييرها ، أو حتى مناقشتها! ومن طبائع الإنسان أنه يُدافع عن أخطائه بشراسة أكثر مما يدافع عن صوابه!

هناك مبدأ في علم النفس يقول : إذا أردتَ أن تعرف ما الذي يخشاه النّاس ، فانظر إلى ما يسخرون منه! وتكاد الحماة تستحوذ على حصة الأسد من الطرائف والنكات المتعلقة بالحياة الزّوجية . ومن طريف ما يُروى أن رجلاً خرج من بيته مسرعاً دون أن ينتعل حذاءه ، فاستوقفه جاره في الطريق وسأله عن سبب عجلته هذه ، فأخبره أن حماته أكلت نصف كيلو من السمك وأُصيبت بشلل نصفيّ ، وأنه يريد أن يلحق بالبائع ليشتري لها نصف كيلو آخر! ولو أردتُ أن أذكر ما سمعتُ وقرأتُ في هذا المجال ما اتسع المقام ولا المقال ، وكلكم في هذا معي سواء!

النكتة عموما وسيلة من وسائل التنفيس عن المكبوت مما يعتمل داخل النفس والذي يكون كبته لأسباب إما سياسية أو

اجتماعية أو دينية ويمكن ظهورها بصورة ساخرة تحمل كل المعاني من خلال النكتة . كثرة النكات على الحموات تعني أننا تربينا على خشيتهنّ ، وكوّنا لهنّ في أذهاننا صوراً شريرة ، حتى العازب يحمل في رأسه هذه الصورة المشوهة عن المرأة الشريرة التي ستقوم بتحريض زوجته التي لم يحصل عليها بعد ، والعزباء تفكر كيف ستتعامل مع الحرباء التي لن تتقبل أن ابنها صار لامرأة ثانية ، وستحاول التنكيد عليها للانتقام من خسارتها الفادحة لابنها! هكذا تربينا ، وعلى هذا نشأنا ، وعندما ننتقل لبيوت الزوجية ننتقل وبرؤوسنا هذه النية المبيتة المسبقة ، لهذا لن نجد من الحماة مخلوقاً طيباً ولو أضاءت لنا أصابعها العشر شمعاً!

الحصول على حماة هو عارض جانبيّ للحصول على زوجة أو زوج! ولأجل حلاوة الثاني أو الثانية نصبر على مرارة الأولى! هكذا نُفكّر نحن ، لدرجة أن الفتاة التي يتقدّم لها عريس أمه ميتة تعتبره لقطة ، والشاب الذي يحظى بفتاة أمها متوفاة يسارع أصدقاؤه لتهنئته على هذا الحظ الذي يفلق الصخر! وعندما يحصل لأحدنا أمر جيّد نقول له «حماتك بتحبّك» على اعتبار أنّ هذا شيء خارق للعادة ، وأن الأصل أن تكره الحماة أصهرتها وكنّاتها!

ألا يوجد حموات شريرات؟! بالطبع يوجد ، وهذا شيء بديهيّ ، كما يوجد آباء شريرون وأمهات شريرات ، وإخوة شريرون وأخوات شريرات ، ولكننا مع الحموات يغلب علينا التعميم ، وعلى الحماة أن تدفع ثمن معتقداتنا البائسة التي كوّناها عنها قبل أن نلتقي بها!

ولو فكّرنا قليلاً لوجدنا كثيراً من التناقض في معتقداتنا حول الحماة ، أمهاتنا اللائي نراهنّ ملائكة هُنّ في نهاية المطاف حموات!

فلماذا نريد من الآخرين أن يؤمنوا أن أمهاتنا حموات طيّبات شذذنَ عن القاعدة ، بينما من حقّنا أن نؤمن أنّ أُمهاتهم شريرات!

المسألة لها علاقة بالتربية أولاً وأخيراً ، لقد شوهنا صورة الحماة حتى قبل أن نحصل عليها ، كثيرون تزّوجوا ولم يحصلوا على حماة وإنما على أُمّ ثانية ، امرأة تقوم باحترامها واحترام ابنتها لماذا ستكرهكَ ، وامرأة تطيعين ابنها وتحبينه لماذا ستكرهكِ؟! أحياناً علينا أن نُحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب الآخرين ، قد نكون مسؤولين عن أي توتر في هذه العلاقة ، وكل بنت ستصبح يوماً حماة ، وكل شاب سيصبح حما ، وكل شيء سلف ودين!

للإسلام نظرة راقية في هذه القضية ، كعادته في كل القضايا ، إذ يعتبر أن الحماة أم ، وتلزم هذه الصورة حتى لو انقطع الزواج الذي كان سبباً في عقد صلة القربى هذه! هذا هو الفرق بين العادة والدين ، العادة تشحننا بالمشاعر السلبية قبل تجربتها ، والدين يؤهلنا أننا بصدد الحصول على أم ثانية!

تحية لكل الحموات المسكينات ، ولكل الأمهات الثانيات ، وفي مطلعهن أمي الثانية!

الوطن

٢٦ / ١٢ / ٢٠١٥

هذا ما قالوه لي!

أصعب الأشياء في الحياة هي البدايات ، فعليها تترتبُ كل الحماقات اللاحقة!

هذا ما يقوله واسيني الأعرج ، وإنّي لأصدّقه ، فأكثر ما يُتعبني في النصوص بداياتها ، ثمّ إذا استقامت لي هان ما بعدها! ولم يكن واسيني هو الشخص الوحيد الذي قال لي شيئاً ، مُذ كنتُ صغيراً وهم يقولون لي ، وهذا لا يعني أنهم كفّوا عن القول الآن ، ويُخيّل إليّ أحياناً أنّ النّاس وُجدوا في الحياة ليقولوا!

١

قالوا لي : أنجِبْ ولداً يحملُ اسمكَ بعد موتك!
هذا الاسم الذي اختاروه لي قبل أن أولد
لا أعرفُ لِمَ عليّ أن أقلقَ بشأنه حتى بعد أن أموت!
وعلى سيرة الأسماء . .
قال لي صديقي مرّةً : أتحبُّ اسمكَ؟
قلتُ له : لا أحبه ولا أكرهه!
فقال لي : أعني هل تراه جميلاً؟
قلتُ له : عندما تناديني أمي به!
المهمّ أنّ الأسماء عندي لا تهمّ!
فرأس النّفاق كان اسمه عبد الله ، والذي غسلته الملائكة كان اسمه حنظلة!

٢

صديقي الآخر قال لي : لو قُدّر لكَ أن تكون كاتباً غيركَ فمن تختار لتكون؟

قلتُ له : حسّان بن ثابت!

فسألني بدهشة : لمَ حسّان تحديداً؟

قلتُ له : أريدُ أن أُجرّب متعة أن أكتب وروح القُدس معي!

٣

ثمّ إنهم قالوا لي : صوتُ فيروز هو نافذة الصّباح

فكُن «كيوت» وابدأ نهارك به!

وبعد مدّة سألوني : كيف أنتَ وصوتُ فيروز؟

فقلتُ لهم : إنّ صوت فيروز مقارنةً بصوت ماهر المعيقلي لا يعدو كونه مواءً!

٤

وقالوا لي : اقرأ درويش في كافيتريا الجامعة . .

واحتسِ مع الديوان فنجان قهوة ، فالشّاي من خوارم الثقافة!

فقرأتُ درويش ، وشربتُ القهوة

وفي الليل أمسكتُ مدارج السالكين واعتذرتُ من ابن القيّم

قالوا لي : اقرأْ لبوشكين ، فقرأته ، وأحببتُ المتنبي أكثر

وقالوا : اقرأْ لماركيز مئة عام من العزلة

فقرأتها واكتشفتُ أنّ العزلة في ترك تفسير ابن كثير!

وقالوا : اقرأ الأمير لميكافيللي وتعلّم السياسة

فقرأته ، وقلتُ لهم : اقرأوا سير أعلام النبلاء للذّهبيّ وتعلموا الأخلاق!

وعندما سألوني : أقرأتَ الخيميائي لباولو كويلو؟

قلتُ لهم : شغلني عنه محمد قطب!

٥

وقالوا لي : استخدمْ عطراً فرنسياً ، وضَعْ مُرطّباً لبشرتك ، كي تبدو جميلاً عندما تكبر

فقلتُ : جدّتي تجاوزت السّبعين وبشرتها جميلة

فسألوني بدهشة : ماذا تستخدم؟

قلتُ لهم : تتوضأُ في اليوم عشرين مرّة!

٦

وقالوا لي : اتخذْ صديقاً في الجامعة غير نفسك!

وكانوا لي من النّاصحين

فاتخذتُ صديقاً نصرانياً ، كان مؤدباً كأنه سورة الحجرات ، نقيّ كأنه ماء وضوء!

ولكننا نهاية المطاف افترقنا لأننا في عقلينا لم نلتقِ

كان يُحدّثني أنّ الله أرسل ابنه ليُصلبَ ويغفر لنا

وكنتُ أُحدّثه أنّ الله إذا أراد أن يغفر لا يحتاج إلى ذريعة! ناهيك أن يتّخذ ولداً!

كان يُحدّثني عن الأقانيم الثلاثة الأب والابن والروح القُدس

فلا يحضرني إلا صوت بلالٍ يُكوى على رمل مكّة : أحدٌ أحد!

كان يحدّثني عن بولس ، فأحدّثه عن أبي بكر
ويحدّثني عن لوقا ، فأحدّثه عن عُمر
ويحدّثني أنّ من صفعكَ على خدّك الأيمن فأدِرْ له خدّك الأيسر
فأحدّثه عن اذهبوا فأنتم الطلقاء
وأخبره أنّ العفو عند المقدرة
أما الضعفاء فإن أداروا خدّهم الآخر ازدادوا ذُلاً!
كان يُحدّثني كيف نصرَ الله الصليب على وثنيّة الرومان
فأحدّثه عن جبريل يركب حصانه حيزوم يوم بدر ويأخذ مكانه في الجيش!
فلم يُصدّقني ، ولم أُصدّقه
وكان يريدني نسخةً منه ، وكنتُ أريده نسخة مني ، فافترقنا
كان صريحاً جداً معي ، وكنتُ صريحاً جداً معه
لأنّ كلانا كان يعرف أننا نهاية المطاف سنفترق
ونحن لا نكون صريحين إلا مع الذين نعرف أننا لن نلتقيهم بعد!

٧

وقالوا لي مرّةً : لمَ لا تُشبهنا
فقلتُ لهم : المتشابهون لا يكترثُ بهم أحد!
مضى زمن طويل على هذا
أما الآن فقد صرتُ أُشبههم
أضع عطراً فرنسياً ، ومرطباً للبشرة
وأشرب القهوة في المقهى ، وأقرأ لدرويش وكويلو وماركيز

تغيّرتُ كثيراً ولكني ما زلتُ أؤمن أنّ النهار
الذي لا يبدأ بصوت ماهر المعيقلي هو نهار أعرج!

مدوّنات الجزيرة

٣٠ / ١٠ / ٢٠١٦

اهتموا بـ«السوفت وير»!

قال زهير بن أبي سُلمى في معلقته :

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده
فلم يبقَ إلا صورة اللحم والدّمِ

ولا يخفى على أحد أنَّ زهيراً قد قرضَ معلقته وهو في الثمانين من العمر ، أي بعدً أن طحنته التجارب ، وعجنته المواقف ، وخبزه الزمن على مهل! لهذا ليس مستغرباً أن تكون أكثر المعلقات العشر حكمة ، والعشر على القول الذي لا يراها سبعاً!

وحديثنا اليوم ليس عن المعلقات وإن كان الحديث عنها ماتعاً وذا شجون! وإنما الذي يعنيني منها البيت الذي بدأتُ فيه . . . يرى زهير أن الإنسان بلسانه وقلبه ، وهو إذ يجعل اللسان نصف الإنسان فلا يعني باللسان قطعة اللحم التي تسكنُ الفم! وتقتصر وظيفتها البيولوجية على تذوق الطعام! وإنما كان يعني أن الألسنة مغاريف العقول ، لهذا عندما رأى أرسطو رجلاً يتبختر في مشيته قال له : تكلم حتى أراك! فكم من إنسان أعجبنا منظره ، ولما رأيناه أكبرناه ، فإذا تكلم فلا أسلوب ولا مضمون وما يلبث أن ينزل من أعيننا سريعاً .

وكم من إنسان رأيناه فازدريناه ، ولم نحسبه شيئاً ، فإذا تكلّم ، سحر بأدبه وغمر بلطفه ، وما يلبث أن يرقى في أنفسنا عالياً! فاللسان هو وزارة إعلام المرء! يرينا الأشياء المخبأة في الداخل ، وقد حضر شيخ كبير في السن مجلس أبي حنيفة ، وكان أبو حنيفة

متربعاً وأراد أن يمد رجليه ، ولكنه آثر ألا يفعل ، توقيراً لهذا الشيخ الجليل ، وعندما انتهى الدرس وبدأت الأسئلة إذا بالشيخ يسأل أبا حنيفة : إذا جاء الحج في رمضان نحج أم نصوم؟!

فقال أبو حنيفة : آن لأبي حنيفة أن يمد رجليه!

ومرض خاقان وزير الخليفة المهدي ، فزاره الخليفة في بيته ، وكان الفتح بن خاقان – أشهر وزراء الدولة العباسية فيما بعد– في الخامسة من عمره ، فأراد المهديّ أن يلاطفه ، فقال له : يا غلام ؛ أيهما أجمل دار أبيك أم دار الخليفة؟

فقال له الفتح : دار أبي لأن الخليفة فيها!

فدُهش المهدي من جواب الفتح ، وأراد أن يعطيه خاتمه ، فقال له : يا غلام ؛ أرأيت أجمل من هذا الخاتم؟

فقال له الفتح : أجمل منه اليد التي هو فيها!

وأما القلب فليس المُراد منه العضلة المنوط بها ضخّ الدم في أنحاء الجسم ، وإنما رقة الإنسان وعذوبته ، قسوته وجلافته ، إيمانه وكفره ، حبه وبغضه ، فلطالما كانت المسألة مسألة قلوب بالدرجة الأولى ، وما سبقنا أبو بكر وعمر بصيام ولا صلاة ولكن بشيء وقر في الصدر ، وفي هذا يقول الله تعالى في محكم التنزيل : «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور»! لهذا كان عمر يردد دوماً بعد أن شرح الله صدره ، وجذب إليه قلبه : أين كان عقلي عندما كنت أصنع صنماً من تمر ، أعبده في النهار وآكله في الليل؟!

عمر هو عمر ، هذا الجسد لم يتغير ، ولكنه القلب ما عاد كما كان من قبل! لهذا لا تستغربوا عندما تشاهدون رائد فضاء في الهند يعبد بقرة! .

لو تأملنا في هواتفنا الذكية ، لوجدناها تنقسم إلى قسمين : «الهارد وير» وهو المادة الملموسة المصنوعة منها الهواتف ، و«السوفت وير» وهي البرامج التي تشغل هذه الهواتف ، في هاتف الآيفون الذي ثمنه ٦٠٠ دولار ، لا تتعدى قيمة «الهاردوير» الخمسين دولار على أبعد تقدير ، إننا ندفع ما تبقى ثمناً للبرامج التي تجعل للهاتف قيمة ، ونحن أيضاً كالهواتف تماماً ، ننقسم إلى قسمين : «هارد وير» و«سوفت وير» هذا الجسد إنما تكون قيمته بقيمة البرامج التي تشغله ، أي الأفكار والقيم والمبادئ والمعتقدات ، لهذا علينا ونحن نربي أولادنا أن ننتبه لهذا الأمر جيداً ، الطعام والشراب والرعاية الطبية والملابس على أهميتها للأولاد إلا أنها أشياء جسدية صرفة ، علينا أن نهتم «بالسوفت وير» الذي نزرعه فيهم ، فهذا ما يجعل لأجسادهم قيمة ، وعلينا أن لا نخلط بين مفهوم التربية ومفهوم الإعالة ، تقديم الغذاء والكساء والمأوى ، هو إعالة وهذا ما يقدمه أي إنسان لحيوان أليف يقتنيه ، أما التربية فأرفع شأناً وأكثر تعقيداً ، إنها عملية غرس القيم والمبادئ والمفاهيم ، فاهتموا «بالسوفت وير»!

الوطن

٢٥- ٦- ٢٠١٦

شُكراً آدم!

١ . شُكراً آدم ، من قصتكَ تعلّمتُ أنّ البعضَ مرضى ، لا يحتاجون إلى أسبابٍ ليكرهوا! فإبليسُ كرهكَ وما فعلتَ له شيئاً!

٢ . شُكراً آدم ، من قصتكَ تعلّمتُ أن لا أُصدّقَ كلّ ما أسمع ، وأن لا أغتَرَّ بالمظاهر فالذّئاب كثيراً ما ترتدي ثياب الوعّاظ ، والحاقدون يأتون بهيئة النّاصحين ، فإبليس أخرجكَ من الجنّة بقوله : «هل أدلكَ على شجرة الخُلد وملك لا يبلى»!

٣ . شُكراً آدم ، من قصتكَ تعلّمتُ أنّ أمراضَ القلوبِ أشدُّ فتكاً من أمراضِ الأجسام ، فالحسدُ هو الذي طرد إبليس من رحمة الله ، وهو الذي دفع ابنكَ ليقتلَ أخاه!

٤ . شُكراً آدم ، من قصتكَ تعلّمتُ أنّ الذنبَ مهما كان كبيراً فرحمة الله أكبر منه إن أعقبه الندم ، ذنبكَ أخرجكَ من الجنّة ، وانكسارك لله أعادكَ إليها!

٥ . شُكراً آدم ، من قصتكَ تعلّمتُ أنّهم إذا أرادوا أن يُمرروا رذيلة غيّروا اسمها ، شجرة المعصية صارت شجرة الخلد ، والربا صار فائدة ، والخمر صار مشروبات روحيّة ، والشذوذ صار مثليّة ، ومجلس البلطجة صار مجلس الأمن ، والدول المنحازة صارت دول عدم الانحياز ، حتى العربيّة بدل أن تكذب أكثر صارت أن تعرف أكثر!

٦ . شُكراً آدم ، من قصتكَ تعلّمتُ أنّ البعضَ لا يمكن إرضاؤهم

مهما حاولت ، فإبليس لم يرضَ عن الله في سمائه ، فكيف يرضى النّاس عن النّاس في أرضه!

٧ . شُكراً آدم ، من قصتكَ تعلّمتُ أنّ الله كان قادراً على أن يخلقَ حوّاء من تراب كما خلقكَ ، ولكنّه خلقها من ضلعكَ ، لتعطفَ عليها لأنّها قطعةٌ منكَ ، ولتحنّ إليكَ لأنّكَ كلّها!

٨ . شُكراً آدم ، من قصتكَ تعلّمتُ أن لا أحتقرَ من خلق الله أحداً ، فغرابٌ صغير علّمنا كيف ندفن موتانا!

٩ . شُكراً آدم ، من قصتكَ تعلّمتُ أنّ الصّراع بين الحقّ والباطل هو نفسه في كلّ زمن ، ولكنّ الجنود هم الذين يتغيّرون!

١٠ . شُكراً آدم ، من قصّتكَ تعلّمتُ أن البعض يفعلون أيّ شيءٍ لبلوغ مآربهم ، فأحدهم قتل أخاه لأجل امرأة!

١١ . شُكراً آدم ، من قصتكَ تعلّمتُ أنّ العمر مهما طال فله حدّ ، وأنّ الإنسان مهما عاش على ظهر الأرض فنهايته في بطنها ، ألف عامٍ عشتَ ثم مضيتَ إلى القبر!

الوطن

٢- ٧- ٢٠١٦

الملكيّة العامة!

دخل عروةُ بن محمد اليمنَ والياً عليها ، ثمّ لما اجتمع النّاسُ عليه لحظة وصوله قال لهم : يا أهل اليمن ، هذه ناقتي فإن خرجتُ من عندكم بأكثر منها فأنا سارق!

كنتُ منسدحاً أمام قناة الجزيرة بأمان الله ، إذ خرج علينا عثمان آي فرح بغتةً يخبرنا أن ديفيد كاميرون عندما غادر القصر الرئاسيّ مُنع من اصطحاب القطّ لاري معه ، فالقطُّ لاري من مقتنيات القصر ، وهو ملك للدولة ، وليس لكاميرون أخذه وإن عزّ على أولاده فراقه! وأولُّ ما أنهى عثمان كلامه خطر لي القصّة التي بدأتُ بها!

إذا أردتَ أن تعرف مدى رُقيّ شعب فانظرْ إلى مقدار محافظتهم على الملكيّة العامة! رُقيُّ الشعوب لا يُقاس بنظافة البيوت وإنما بنظافة الطرقات ، ولا يُقاس بالمحافظة على أزهار الشّرفة وإنما بمدى المحافظة على أزهار الحديقة العامة ، وليس من الحضارة في شيء إذا تصرّفنا في المراحيض العامة بطريقة غير التي نتصرّفُ بها في مراحيض بيوتنا!

إنّ مفهوم الملكيّة العامة يكاد يكون معدوماً عندنا للأسف ، فإذا ما تقلّدنا مسؤولية إدارة مكان عام سرعان ما نسعى لتحويله إلى ملكيّة خاصة من رئيس الشركة إلى شرطيّ السّير ، جميعنا نعاني عقدة خصخصة الأشياء!

مدير الشركة العامة يُشعر موظفيه أنهم عبيد أبيه

ومظفوه يُشعرون مراجعيهم أنهم يخدمونهم صدقة لآخرتهم لا نظير مرتّبات يتقاضونها!

المرض في المستشفى يُشعرك أنّه رئيس منظمة الصحة العالمية

وشرطيّ السير يشعرك أنه مدير تنظيم سير كواكب المجموعة الشّمسية

موظّفُ الاستقبال يُشعرك أنّه مدير الديوان الملكيّ

وموظفة شركة الاتصالات ترد عليك وأنفها يكاد يلتصق بسقف الغرفة فتشعرُ أنّك دخلتَ وكالة ناسا تطلب منهم أن يأخذوك إلى القمر على حسابهم لا أنك أتيتَ وكلّ همك أن تحصل على خدمة تدفع لقاءها أجراً

الكنّاس في الشارع يُشعرك أنّه مدير الطريق

والمعلم في المدرسة يُشعرك أنّه أحمد بن حنبل وقد فتح حلقته وتفرّغ لتعليم ابنك لوجه الله!

لا أحد يُشعرك أنه يقوم بوظيفته العامة لأنها وظيفته التي يعتاش منها ، دوماً عليكَ أن تشعر أنّ كلّ ما هو عام تتلقاه صدقة! ألا يكفي أننا نشعر أننا ممتلكات خاصة عند حكامنا حتى نشعر أننا ممتلكات خاصة في أماكن من المفترض أنّها عامة؟!

لا يمكن أن تسود أُمّة لا تُميّز بين ما هو عام وما هو خاص ، ولا يمكن أن يتصدّر شعب لا يحترم الملكية العامة احترامه ممتلكاته الخاصة . أعرفُ أننا هنا لأنّ أُمماً كثيرة اشتغلتْ بنا وأرادتنا أن نكون هنا ، ولكن القلاع الحصينة لا تسقط إلا من الدّاخل ، وبعض الذي هنا صنعناه بأيدينا ، وكما تقول جدّتي في مثل هذا المقام : دود الخل منه وفيه!

الوطن ١٦- ٧- ٢٠١٦

أَلأُمُ الثلاثة!

فلا أكون أنا ألأم الثلاثة!

القائل : المنذر بن ماء السماء ، أما القصة ، فقد تحدثنا في الأسبوع الماضي أن المنذر جعل له في العام يوم سعد ويوم بؤس ، فأول من لقيه يوم سعده أعطاه مائة ناقة ، وأول من لقيه يوم بؤسه قتله ، تماما كما فعل بعبيد بن الأبرص . وأنه خرج في يوم بؤسه فكان أول من طلع عليه رجل من طيء أخرجه الفقر والحاجة ليطلب شيئًا لأولاده ، فلما وقف بين يدي المنذر علم أنه مقتول لا محالة!

فقال للمنذر : حيا الله الملك ، إن لي صبية صغارًا وأهلًا جياعًا ، وقد أرقتُ ماء وجهي في طلب الذي معي لهم ، فإن أذنتَ أن أذهب إليهم فأعطيهم ما جمعتُ وأعود إليكَ لتقتلني ، فقال المنذر : لا آذنُ لكَ حتى يضمنك رجلٌ منا أنك ستعود فإن لم تعد قتلته مكانك! فالتفتَ الطائي إلى شريك بن عدي وكان نديمًا للمنذر ، وقال له : لقد بلغني خبر مروءتك فهل أنت ضامني حتى أدفع لأهلي وأعود؟! فقبل شريك وذهب الطائي ، ثم لما صار العصر ، قال المنذر لشريك : لم يرجع صاحبك ، فقم وتجهز للقتل! فقال شريك : ليس للملك عليّ سبيل حتى تغرب الشمس ، فلما كادت الشمس أن تغرب قال المنذر لشريك : قم للقتل ، ولما قام شريك ، نظر القوم فإذا رجل جاء من بعيد يركض ، فإذا هو الطائي ، فلما وقف على المنذر قال له : الآن فليكن أمرك! فأطرق

المنذر ثم قال : ما رأيتُ أعجب من اليوم ، فأما أنت أيها الطائي فلم تترك لأحد في الوفاء بعدك مكانًا ، فما حملك أن تعود؟! فقال : كي لا يذهب الوفاء من الناس! وقال لشريك : أما أنت فلم تترك لأحد في المروءة بعدك مكانًا ، فما حملك على ضمانة الطائي؟ فقال : كي لا تذهب المروءة من الناس! فقال المنذر : أما أنا والله لا أكون ألأم الثلاثة ، أشهدكم أني قد رفعتُ يوم بؤسي عن الناس!

الدرس الأول:

لا تكن سببًا في انقطاع الخير من الدنيا! إذا استدنت مالًا فأده فإنك إذا لم تفعل فكيف يمد من أعانك يده إلى غيرك؟ وإن وعدت ففِ بوعدك ، فإن أخلفت فكيف سيصدق الناس الوعود بعد فعلتك ، لا تنظر للأمور من زاوية شخصية ضيقة ، الأمر أكبر من هذا ، نحن نشجع الآخرين على فعل الخير ، وإعطاء الأشخاص فرصًا ثانية ، فلا تحفر للخير قبرًا وتهيل عليه تراب سوء أفعالك!

الدرس الثاني:

من أمّنك لا تخنه وإن كنتَ خوانًا ، الأسود المفترسة لا تفترس أولئك الذين ربوها صغارًا ولو جاعت ، فإذا كان الإحسان قد منع الحيوان أن يتصرف بطبعه السيئ وهو حيوان ، فالإنسان أولى بهذا وهو إنسان ، لا تُكذّب من صدقك ، ولا تغدر بمن أمنك ، ولا تكن عدوًا لمن ألبسك ثوب الصداقة ، كن عدوًا بشرف ، أو صديقًا بشرف ، لأن كل شيء في الحياة إذا ذهب قد يعود إلا الشرف!

الدرس الثالث:

اشفع شفاعة حسنة ، الحياة صعبة والناس فيها يحتاجون لمن يسندهم ، بين أختك وزوجها اشفع ، بين جارك وجارك أصلح ، وبين مديرك وزميلك قرّب المسافات ، كل يد تمدها اليوم هي يد تدخرها للغد ، وكلنا سنحتاج للآخرين يومًا ، فإن كنت اليوم قويًا فلن تكون في الغد كذلك ، وإن كنت غنيًا اليوم ، فلن تكون في الغد كذلك ، فخبئ للغد خبيئة!

الدرس الرابع:

لا تكن ألأم الجميع! إذا اتفق الناس على الصلح فلا تفسده ، وإذا اتفق الناس على المساعدة فلا تحرض عليها ، وإذا لم تكن رأسًا في الخير فلا تكن رأسًا في الشر ، على الأقل تنحَ جانبًا ودع الخير يجري ، الخير كالماء يحتاج أرضًا منبسطة ، فلا تكن سدًا!

الوطن

٤- ٣ - ٢٠١٧

حَسْبُكَ من شرٍّ سماعه!

القول : حسبُكَ من شرٍّ سماعه!

القائل : أم الرَّبيع بنت زياد العبسيّ

أمّا القصة ، فإنّ الرّبيع العبسيّ ، الابن الأكبر لأمّ الرّبيع قائلة المثل ، كان قد أخذ درعاً من قيس بن زهير بن جذيمة ، ورفض أن يرده له ، فما كان من قيس إلا أن اعترض أم الرّبيع وهي على راحلتها في مسير لها ، وأراد أن يذهب بها رهينة ، حتى يردَّ ابنها له درعه!

فقالت له : أين ذهبَ عقلكَ يا قيس؟ أترى قومي يتركونك حيّاً وقد ذهبتَ بي يميناً وشمالاً ، وقال الناس ما قالوا! وإنّ حسبك من شرٍّ سماعه!

فقال لها قيس : صدقتِ يا خالة! وخلّى سبيلها .

الدرس الأوّل:

الحُرُّ لا يسكتُ عن ضيم ، وهذه صفة محمودة ، ولكن العقوبة يجب أن تكون على قدر الجُرم! حتى الخصومة لها أدب ، وإلا لو كانت الخصومات حروباً مفتوحة ، ما كان من آيات المنافق أنه إذا خاصم فجر!

قد تستغربون كيف قرر قيس اختطاف أم الرّبيع لأجل درع له أخذه ابنها منه ، ولكن لو تأمّلنا في حياتنا ، ومشاكلنا الاجتماعية لوجدنا الأمر مشابهاً وإن اختلفتْ صورة الخلاف! على الأقل كان

القوم أهل جاهلية ، لا يخشون ناراً ولا يرجون جنّة! ولكن بيننا من إذا طلق زوجته حرمها أن ترى أولادها ، وبيننا من إذا خاصم جاره على موقف سيارة شيطَنَه ، بعد أن لم يُبقِ عليه غطاءً ولا ستراً ، وبيننا من إذا خاصمتْ أخرى حطّتْ من عرضها ، وشكّكتْ في شرفها ، نحن أيضاً فينا بذور من جاهلية!

الدرس الثاني:

للقول معنيان!

المعنى الأول : يكفي المرءُ عاراً أن يُقال فيه الشّر ، بغض النظر إن كان ما قيل فيه صواباً أم خطأً ، فيكفي أم الربيع شراً أن يُقال فلان ذهب بها ففعل وفعل ، وإن لم يفعل! ورحم الله امرءاً جبَّ الغيبة عن نفسه! وإن كان هذا حديث منسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أن الصواب أنه موضوع ولا أصل له! ولكنه كقول ، جميل ولا شيء فيه ، وفي السُّنة الصحيحة ما يشبهه ، فقد جاءت صفية بنت حُيي زوج النبي تزوره في اعتكافه ، فتحدثت إليه ، ثم قامت تنقلب عنه ، فقام معها يوصلها ، حتى إذا بلغا باب المسجد ، مرّ رجلان من الأنصار فسلّما ، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : على رِسْلكما ، هذه صفية بنت حُيي! فقالا : سبحان الله يا رسول الله! أي أفنشُكُ فيك؟! فقال : إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم من العروق وقد خشيتُ أن يقذف في قلوبكما شيئاً ! والخلاصة أن العاقل يدفع عن نفسه الشُّبهة التي تكون الغيبة على إثرها!

الدرس الثالث:

أما المعنى الثاني :

دع الشرّ يقف عندك! ويكفيك نصيباً منه أن تسمعه! شائعة يُطلقها شخص تلف المدينة بسرعة لا تستطيع سيارة في سباق «الفورميلا وان» أن تبلغها ، ذلك أننا لم نعتدْ أن يكفينا من شرٍّ سماعه! كل ما يصلنا ، علينا أن نُبلِّغه ، وكأنها العلم الذي ينتفع به وكاتمه سيلجم يوم القيامة بلجام من نار ، الشائعة التي تصلنا هي أحد أمرين لا ثالث لهما : إما أن تكون صحيحة وإما أن تكون كاذبة! فإن كانت صحيحة فما في نقلها أجر ، وإن كانت كاذبة ففي نقلها وزر ، وإن الله كره لنا ثلاثاً ، منها قيل وقال!

الدرس الرابع:

العاقل يخمد النار في مهدها ، والأهوج ينفخُ في رماد نار خفتتْ ليضرمها من جديد! كثير من الشرِّ لو كان عند ولادته عاقل لتمّ وأده في أرضه وما صار شراً ، وما أعقل أم الربيع وهي تئد الشر في مهده ، وتخبر قيساً أن المسألة لن تبقى بعد اليوم مسألة درع! إن كان في علاج الشر شر أكبر منه فليبقَ الأمر على شره الأول الصغير ، عود الثقاب الواحد يمكن أن يشعل غابة!

الوطن

٢٣- ٤ - ٢٠١٧

شكرا خليل الله!

١- شكرًا خليل الله ، من قصتك تعلمتُ أنّ إخلالَ الأبِ بواجب الأبوّة ، لا يُسقط عن الابن واجب البرّ! وما أجملكَ إذ تقول لآزرَ خائفًا عليه ومشفقًا : «يا أبتِ لا تعبد الشيطان» و«يا أبتِ إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن»! فلما عصاكَ لم تخرجكَ معصيته عن أدبك فقلتَ : «سلامٌ عليك سأستغفر لك ربي»!

٢- شكرًا خليل الله ، من قصتك تعلمتُ أنّ الباطل يجب أن يُعرّى بذكاء! وما أدهاكَ إذ حطمت أصنامهم ، ثم قلتَ : «بل فعله كبيرهم»! وحاشاك أن تكذب ، ولكنك أردتَ أن تريهم عجز الآلهة التي يعبدون!

٣- شكرًا خليل الله ، من قصتك تعلمتُ أنّ الأصنام التي تُعبد ليست تلك المنحوتة من الحجارة والخشب فقط ، بل إنّ في النفوس أصنامًا تُعبد أيضًا ، وشرُّ صنم عُبد يومًا ، هوًى سقيم ، وضلالة متبعة ، وعادات بالية!

٤- شكرًا خليل الله ، من قصتك تعلمتُ أنّ كل ما في الدنيا أسباب تجري على الناس ولا تجري على الله ، وأن النّار الحارقة في الأرض صارتْ بردًا وسلامًا عليكَ بأمر جاء من السماء ، فتعلمتُ ألا أتعلق بالأسباب وإنما بربّ الأسباب!

٥- شكرًا خليل الله ، من قصتك تعلمتُ أنّ الله غنيّ عن خلقه ، وأنه حين يُكلّف أحدًا منهم بأمر لينفذه فتشريفًا له ليس إلا ،

كان بإمكانه أن يأمر ميكائيل أن يصبَّ الماء في النار صبًا ، أو يأمر جبريل أن يخمدها في غمضة عين ، ولكنك حين استغنيت عن الناس ، أغناك عنهم ، وحين تعلقتَ به وحده ، جاء الأمر منه سبحانه ، فما أكرمك على ربك!

٦- شكرًا خليل الله ، من قصتك تعلمتُ أنّ الوقوف على الحياد في القضايا الأخلاقية الكبرى عيب ، وهو شيء تأنف حتى الحيوانات أن تفعله! وعندما وقف البشر يتفرجون عليكَ تُلقى في النار ، هرعت الحيوانات لتعينك ، أما الوزغ الذي كان ينفخ في النار ، فيخبرنا أن للباطل جنودًا لا يخطرون على بال وللحق كذلك!

٧- شكرًا خليل الله ، من قصتك تعلمتُ أنّ شر حاكم هو الأحمق المطاع ، فالذي قلتَ له : «إن الله يحيي ويميت»! قال لك : «أنا أحيي وأميت» فعفا عن سجين محكوم بالإعدام عليه وقتل بريئًا!

٨- شكرًا خليل الله ، من قصتك تعلمتُ أنّ الله أرحم من أن يأمر الناس بعمل ما يفطر قلوبهم ، وأنه عندما أمرك أن تذبح ابنك بعدما تعلق قلبك به ، كان يريد أن تذبح هواك لا أن تذبح ابنك ، أرادك له وحده ، ويا لحظك إذ يتخذك الله خليلًا!

٩- شكرًا خليل الله ، من قصتك تعلمتُ أنّ في المعاريض مندوحة عن الكذب ، فأخبرتَ الفرعونَ أن سارة أختك ، وإن الأخوّة الحقيقية هي التي تخرج من رحم الإسلام لا من رحم الأمهات!

١٠- شكرًا خليل الله ، من قصتك تعلمتُ أنّ الله يحفظ أهله ، وأنه لما أراد زوجتك سارة بسوء شلَّ قدراته ، فأعادها إليك عفيفة على الطّهر الذي كانت عليه معك ، وزيادة عليها أمنا هاجر!

١١- شكرًا خليل الله ، من قصتك تعلمتُ أنّ الإنسان مهما بلغ من الإيمان ، فإنه لا يستطيع أن يخرج من فطرته ، فسارة التي زوّجتك هاجر ، لأنها من فرط نبلها أبتْ أن تُحرم من الولد ، ما لبثت أن غارت! ولأن الجزاء من جنس العمل ، أصلحها بعد أن كانت عجوزًا لتنجب لك إسحاق!

١٢- شكرًا خليل الله ، من قصتك تعلمتُ أنّ امرأة في الشدائد قد تساوي جيشًا من الرجال! ما أجمل أمنا هاجر إذ تتركها وابنها بوادٍ غير ذي زرع ، فتقول : أألله أمرك؟ فتقول لها : أجل ، فتجيبك ، اذهب ، فلن يضيعنا الله!

١٣- شكرًا خليل الله ، من قصتك تعلمتُ أنّ الله إذا أحبّ عبدًا وظّفه لدينه ، وأنه لما أحبَّك أمركَ أن تبني الكعبة ، وعندما ألنتَ قلبكَ له ألانَ الصخرَ تحت قدميك ، فحفرتا في الصخر ، فكان مقام إبراهيم!

١٤- شكرًا خليل الله ، من قصتك تعلمتُ أنّ الأب لا يقطع صلته بأولاده بعد أن يتزوجوا ، ويتعاهدهم بالزيارة ، كما كنت تأتي إسماعيل ، وينصحهم ، كما أمرته مرة أن يغير عتبة داره ، ومرة أن يلزم عتبة داره!

١٥- شكرًا خليل الله ، من قصتك تعلمتُ أنّ الدعاء سلاح المؤمن ، وأنه حين يدعو لا يلتفتُ للأسباب ، لأنه يعلم أنها بيد الله ، ومع أن زوجتك وابنك كانا بوادٍ غير ذي زرع دعوتَ : «وارزقهم من الثمرات» فها هي مكة ، لا شجر فيها اليوم ولا زرع ، ولكن ببركة دعائك تجيء إليها الثمرات من كل بقاع الأرض!

الوطن ٢٣- ٤ - ٢٠١٧

عن الحب وأشياء أخرى!

يقول الدكتور مصطفى محمود رحمه الله :

الحُبّ الثاني في العادة أعمق وأرقى في ملذاته ، وأحلى في ذكرياته! والحُبُّ الثالث أعمق من الحُبِّ الثاني! وآخر حب هو أعمق حُبٍّ لأن البنت تحب رَجُلها بكل خبراتها ، وتطورها ، وتاريخها! وليس صحيحًا أنّ أول حُب هو أعظم حُب ، والصحيح أنّ أوّل حُب هو أصغر حُب! وأكبر غلطة يرتكبها الرجل أن يتزوج أول حبه!

إني وإذ نقلتُ كلام مصطفى محمود بالحرف ، أجدُ من باب الأمانة الأدبية أن أذكر للذين لم يسبق لهم أن قرأوا له أنّ هذا المقطع لا يصلح للحكم على خلفية الرجل الفكرية ، ومبادئه التي نادى بها في ما يناهز السبعين كتاباً ، فهو ليس نزار قباني ، ولا قاسم أمين ، وليس من دعاة التحرر بمفهومه الغربي ، وليس من دعاة تعدد العلاقات والتجريب ، كل ما في الأمر أنه مثلنا جميعًا ، إنسان قبل أن يكون مفكرًا ومنظرًا وفيلسوفًا ، إنسان أفكاره في الحُبِّ والزواج والأسرة لا بُدَّ أن تُصبغ بتجربته الشخصية ، ولأنه خاض تجربة زواج فاشل أثّرتْ هذه التجربة في نظرته للحُبِّ والأسرة والحياة ككل ، فهو عندما دُعي ليكون وزيرًا اعتذر قائلًا : لقد فشلتُ في إدارة أسرة ولا أعتقد أني أصلح لإدارة وزارة! أما حديثه عن الحُبِّ الثالث وجماله أو عقلانيته فأعتقد أنه نابع من أنّ زوجته الثانية كان لها تجربتي زواج قبله ، وكان هو ثالث

أزواجها ، وقد كان سعيدًا معها ، فلم يستطع -شأننا جميعًا- أن يُنحي تجربته الشخصية عن أفكاره العامة!

وبعد هذه التقديم والتأطير للموضوع ، أجدني عاجزًا عن الحكم على كلام مصطفى محمود بالصواب أو الخطأ ، لأنّ أي حكم سأصدره سيكون مرجعه تجربتي الشخصية في الأمر ، وكذلك أنتم! الحُبِّ ليس معادلة رياضية يسهل الإفتاء بها! وليس ظاهرة فيزيائية يحكمها قانون واضح ، وليس نظرية اقتصادية تُكذَّبُ أو تُصدَّقُ بالأدلة والبراهين! ولا طريقة في الزراعة يُحكم عليها بمحصولها! الحُبُّ تجربة شخصية بحتة ، والعلاقات شأن خاص لا يمكن تعميمه ، هناك أشخاص كُثر تزوجوا حبهم الأول وعاشوا سعداء ، وأشخاص كُثر انتهى زواجهم من حبهم الأول بكارثة! هناك زواج تقليدي نجح وأثمر وعاش عشرات السنوات ، وهناك زواج تقليدي فشل بالتأكيد ، هناك أشخاص عاشوا سعداء في زواجهم الثاني ، وهناك أشخاص حين تزوجوا مرة ثانية ترحموا على زواجهم الأول ، هذا برأيي عائد إلى العقلية التي نخوض بها الزواج لا إلى رقمهّ فلو كنا سنخوض علاقاتنا بنفس العقلية فمن المحتمل جدًا أن نصل إلى نفس النتائج!

أجريتُ مرّة مقابلة ، وقال لي محاوري فيها : قدّم نصيحة للمقبلين على الزواج! فقلتُ : أنصحهم أن لا يستمعوا لنصائح المتزوجين! وما دفعني لأقول هذا هو أني على يقين أن الأسلوب الذي يجدي مع رجل ليس بالضرورة أن يجدي مع غيره ، والأسلوب الذي يجدي مع امرأة ليس بالضرورة أن يجدي مع غيرها ، من الرجال من يرضيه القليل ومنهم من إذا أضاءت المرأة أصابعها العشرة شمعًا لم يرضَ ، والنساء كذلك ، نحن طباع

وعقول وأفكار وأهواء مختلفة ، في البيت الواحد تجد الكريم والبخيل ، والحليم ، والغضوب ، والحنون ، والقاسي هذا وهم يعيشون تحت سقف واحد في ظرف اقتصادي واحد ، وبيئة اجتماعية واحدة ومظلة دينية واحدة ، فكيف إذا اختلفت ظروف الناس؟!

الحُبِّ الأول ليس تجربة للنضج وزيادة الخبرة لأجل الحب الثاني ، والحُبِّ الثاني ليس فرصة لنصبح محترفين حين يأتي الحُبِّ الثالث! قد يكون الحُبِّ الأول هو الحُبِّ الأخير ، وقد يكون الحُبِّ العاشر هو مجرد تجربة فاشلة أخرى! لكل إنسان ظروفه وعقليته وقيمه ، الأمر لم يكن يومًا معادلة ثابتة ولن يكون ، عيشوا ضمن ظروفكم وإمكاناتكم ، وتذكروا أن ما يصلح علاقة قد يُفسد أخرى ، ولا تُحدثوا عن علاقاتكم على أنها قوانين ، فهي ليست إلا تجارب ، كذلك لا تدعوا الآخرين يوهمونكم أن علاقاتهم قوانين ، إنها مجرد تجارب أيضًا!

الوطن

٢- ٧ - ٢٠١٧

نصَائحُ للقُرَّاء!

كانت إحدى ليالي العشرة الأواخر من رمضان ، كلُّ شيء في مكة رتيب ويسير كالمعتاد ، غير أن رجلًا عاد إليها من كهف مظلم حاملًا معه النور إلى العالم! لم يُؤمر تلك الليلة بالصيام ولاً بالصلاة ، ولا بالحج ولا بالزكاة ، وإنما أُمر أن يقرأ! أي إعجاز هذا ، وأيّة فرادة تلك أن يعود الأمي حاملًا كلمة «اقرأ» وأولى آيات الكتاب الذي سيغير وجه الأرض إلى الأبد!

هي أمة «اقرأ» إذن ، وهذه نصائح مني غلب على ظني أنها قد تنفع وعلى يقيني أنها إن لم تنفع فلن تضر!

١- اعرف قدر الممكن عن حياة الكاتب الشخصية وظروفه الاجتماعية وواقعه السياسي ، فالإنسان في نهاية المطاف صنيعة ظروفه ، معرفة هذه الأشياء ستوفر عليك البحث عمّا وراء المضمون!

٢- احمل قلمك ودوّن ملاحظاتك ، الكتاب ليس قميصًا عليك أن تحافظ على نظافته ، وتدوين الملاحظات وتحديد بعض العبارات ليس إتلافًا للكتاب على العكس تمامًا ، هو نقطة ستدرك أهميتها حين تضطر يومًا للعودة إلى الكتاب بحثًا عن شيء استوقفك!

٣- الكتب واحدة من أخطر الأماكن في العالم! إنها مليئة بالأفكار ، والأفكار قنابل موقوتة! فلا تأخذ كل ما تقرؤه على أنه من المسلمات ، أحيانًا نحتاج ونحن نقرأ أن نمارس الرفض أكثر من القبول!

٤- حاكم الأفكار ولا ترفضها بسرعة ، نحن غالبًا نتعامل مع الأفكار الجديدة والمخالفة بحدة ، لا تنسَ أن هذا النوع من الأفكار قد يكون صحيحًا!

٥- الكتاب الجيد ليس هو الذي يقول الناس عنه إنه كذلك ، لا بأس أن نسمع آراء الآخرين في كتب لم نقرأها ، ولكن لا تحكم على كتاب لم تقرأه!

٦- لا تحكم على كتاب من غلافه ، فتكون كالأطفال الذين تجذبهم حبوب الدواء لأنها ملونة!

٧- لا تقرأ كالجرادة التي لا همّ لها إلا ابتلاع سنبلة للقفز إلى أخرى ، اقرأ كالعصفور : حبة حبة! فليس المهم عدد الصفحات التي طويناها إنما عدد الأفكار التي قبلناها أو رفضناها .

٨- اقرأ للفائدة والمتعة لا للتباهي ، المثقف المتباهي كالغني الذي ليس لديه إلا المال ؛ فقير جدًا!

٩- هناك كتب محتواها أرخص من ثمن طباعتها ، فإذا تورطت بأحدها فأغلقه على الفور!

١٠- شراء الكتب بكثرة كشراء الملابس بكثرة ، سيأتي عليك يوم وتقول ليس عندي ما ألبسه! اشترِ على قدر قراءتك ، إلا إذا وقعت على غنيمة أو ما تحتاجه كمرجع ، فأنت الذي ستقرأ لا المكتبة!

١١- قراءة كتاب واحد بتعمق أفضل من قراءة عشرة كتب بتصفح ، ودعني أُحرِّف لك المثل الشائع : كتاب في العقل خير من عشرة على الرَّف!

١٢- ستعرف أنك قرأت كتاباً جيدًا حين تشعر أنك قد تعود إليه مرة أخرى!

١٣- الكتب الجيدة كالمعاني عند الجاحظ قد تكون مطروحة في الطرقات! ما أعنيه : هناك كتب جيدة عند بائعي الكتب على الأرصفة!

١٤- القراءة في مجال واحد تجعلك متخصصًا ، والقراءة في مجالات عدة تجعلك مثقفًا ، في كليهما خير ، فاختر لنفسك!

١٥- لا تُفرط في مقدمة كتاب! مقدمات الكتب يتجاهلها أغلب القراء ، لا تفعل أنتَ هذا ، إنها لوائح إرشادية وخريطة طريق!

الوطن

٩- ٧ - ٢٠١٧

العُمْر مجرّد أرقام!

قبل شهرين سألَ صحفيٌّ ليونيل ميسي : سوف تبلغ الثلاثين بعد ثلاثة أسابيع ، ماذا يعني لكَ ذلك؟

فقال : هذا يعني أني وُلدتُ قبل ثلاثين عاماً!

للوهلة الأولى قد يبدو السؤال عميقاً جداً ، والإجابة سطحيّة جداً ، ولكن لو نظرنا إلى السؤال والإجابة بتأنٍ لانقلبت الأدوار ، ولبدا السّؤال غاية في السّطحيّة ، والإجابة غايةً في العمق! ذلك أنه لا يهمّ عدد السنوات التي نعيشها ، ولكن المهم ما الذي حققناه في تلك السنوات!

تتباهى وسائل الإعلام وهي تعرضُ تقريراً عن عثورها على أكبر معمّر في بلد ما وكأنها وقعت على صيدٍ ثمين! ولستُ أدري أي إنجاز هذا أن يعيش إنسان مائة سنة ، ومائةً سنة هي متوسط أعمار السًلاحف بالمناسبة! وفي حديقة الحيوان في لندن توجد سلحفاة عمرها مائتان وخمسون سنة ، عظيمة هذه السّلحفاة منذ قرنين ونصف القرن وهي تأكل أوراق الخسّ والملفوف وتحبو! ودوماً يسألون ذلك المُعمّر كم عشتَ؟ يريدون أن يلفظ الرقم بلسانه ليؤكد تقريرهم العظيم! تمنيتُ لو سألوا معمّراً مرّةً : كيفَ عشتَ بدل كم عشتَ!

سعد بن معاذ ماتَ في السّادسة والثلاثين فصلّى عليه سبعون ألف ملك!

زيد بن ثابت أسلم في العاشرة ، وأتقن العبرية في الرابعة

عشرة ، وكتب الوحيّ للنبي صلى الله عليه وسلم في السّابعة عشرة ، وجمع القرآن لأبي بكر في الحادية والعشرين!

النووي مات في الخامسة والأربعين ولكنه عاش بما يكفي ليشرح لنا صحيح مسلم!

وابن المقفّع مات في السّادسة والثلاثين ولكنّه ترك لنا ثروة رهيبة من النثر!

وطرفة ابن العبد مات في السادسة والعشرين ولكن معلقته ما زالت حيّة!

ومحمد الفاتح كان في الثانية والعشرين من عمره عندما حاصر بجيشه القسطنطينية!

وأبو أيوب الأنصاريّ كان قد تجاوز المائة سنة حين استشهد على أبوابها!

طول العمر ليس سُبّة ، وقصره ليس مثلبة! الفكرة تكمن في ما يفعل الإنسان في سنوات عمره!

العمر مجرد أرقام ، وأعمارنا الحقيقية لا تحددها أوراق الرّزنامة ، ولا وثائق الولادة والوفاة ، وإنما يحددها كيف عشنا ، وماذا قدّمنا! الأشجار بثمارها لا بضخامة جذوعها ، والغيوم بأمطارها وظلالها لا بمدة تسكعها في الفضاء!

أعمارنا الحقيقية لا تُقاس بعدد الأيام بل بحجم التجارب والمشاعر! أوّل ما يسأله الخاطب عن الفتاة عمرها ، وأول ما تسأله المخطوبة عن الشاب عمره . . .

لا أحد يسأل الآخر كم كتاباً قرأت

وكم فقيراً ساعدت

وكم تائهاً أرشدت

وكم واقعاً سيئاً غيرت

وكم ابتسامة على وجوه المحزونين رسمت

وكم فرضاً في المسجد صليت

وكم جزءاً من المصحف حفظت

طبعاً أنا لا أقول إن التناسب في الأعمار ليس مهماً ، وإنه ليس من حق الآخر أن يختار لنفسه عمراً قريباً من عمره ، ليس هذا موضوعنا أساساً ، كل ما أردتُ قوله أننا نُقدّس الأرقام وننسى تلك الأشياء التي تجعل من الإنسان إنساناً!

خلاصة الكلام :

ليس بأيدينا أن نعيش طويلاً ولكن بأيدينا أن نعيش كثيراً!

الوطن

١٦- ٧ - ٢٠١٧

متطلبات وظيفية!

قرأتُ البارحة خبرًا عن المواصفات التي اشترطتها وكالة الفضاء الصينية على المرأة ليكون بإمكانها الانتساب لبرنامج الفضاء الصيني ، للتخرج رائدة فضاء والمواصفات هي :

١ - أن تكون متزوجة .

٢ - أن تكون قد أنجبت بصورة طبيعية .

٣ - ألا تكون أسنانها متسوسة .

٤ - ألا تكون على جسدها آثار جروح .

وكنتُ قبل البارحة أحسب أن الصين أعقل منا لجهة الشروط المطلوبة للحصول على وظيفة ما!

طبعًا من حق أي مؤسسة على ظهر هذا الكوكب أن تشترط معايير محددة لوظيفة ، هذا شيء بديهي نتفهمه جميعًا ، لكن ما لا نتفهمه ، أو ما لا أتفهمه أنا على الأقل ألا يكون لهذه الشروط أية علاقة بالوظيفة الشاغرة!

ما شأن الغلاف الجوي إن كانت رائدة الفضاء عزباء أم متزوجة ، وما شأن سطح القمر إن كانت المرأة قد أنجبت بصورة طبيعية أم بعملية قيصرية أم لم تنجب أصلًا ، وهل يشترط المريخ على دارسيه أن يكونوا من ذوي «هوليود سمايل» ثم ما شأن المجموعة الشمسية بامرأة جرحت اصبعها فترك الجرح عليه ندبة!

فإذا كان هذا حال الصين عملاق الصناعة والإنتاج ، وتقليد

أي منتج بين يوم وليلة ، فإن حالنا «يصعب على الكافر» كما تقول جدتي!

الشركات عندما تطلب بالعادة خبرة لا تقل عن عشر سنوات ، وهذا مأزق الخريجين الجدد ، فمن أين سيحصل الخريجون الجدد على الخبرة إن كنا لا نوظفهم إلا بخبرة! ثم كيف يتوارث الناس الخبرات إن لم يحتك المتخرج الجديد بالموظف القديم صاحب الخبرة ، بدل أن نفتح المجال لجيل الشباب ولو بمرتبات أقل من الموظفين القدماء ، نوصد أبواب الوظائف في وجوههم بداعي عدم امتلاك الخبرة التي لا تأتي إلا بتوظيفهم!

هناك وظائف مكتبية بسيطة عندما أنظر إلى المعايير التي اشترطتها الشركة أعتقد لوهلة أنها وظيفة مدير ناسا أو الرئيس التنفيذي لمايكروسفت!

يريدونك أن تجيد ثلاث لغات ، بالإضافة لشهادة جامعية بتقدير ممتاز ، وسيم وحسن المظهر ، تجيد التواصل والتفاوض ، صبور كالجمل ، رشيق كالغزال .

لم يبق إلا أن يشترطوا في إعلانهم هذا أن تكون حائزًا على ميدالية ذهبية في الجمباز ، تجيد لغة الطير والنمل كأنك ستخلف سليمان عليه السلام على عرشه ، وسبق أن شاركت في غزوة بدر!

الشروط الوظيفية حق للشركة ولكن ما ليس من حقها أن تكون هذه الشروط تعجيزية ، ولا علاقة لها أساسًا بالوظيفة ، أو أحيانًا أعلى من الوظيفة ، إنهم يشترطون مواصفات في حارس أمن لا تتوافر غالبًا لدى جنرال في الجيش!

الوطن

١- ٨ - ٢٠١٧

هذا ما قالته زوجته!

كلّ الذين عرفوه أحبّوه . . . كلّ الذين دنوا منه هاموا به . . . كلّ الذين عاشروه سلبهم قلوبهم . . . كلّ الذين رأوه خارج بيته أقسموا أنه بلغ من النُّبل حداً لا يستطيعه غيره ، ومن المثالية درجة يستحيل أن يرقى لها سواه! ولكنهم كانوا يريدون أن يعرفوا كيف هي حاله إذا دخل بيته وأغلق عليه بابه . . . لم يكن ثمة سبيل سوى أن يسألوا زوجته ، فالزّوجة في البيت كما الصّندوق الأسود في الطائرة ، تحتفظُ بكلّ البيانات ، وتسجل أدقّ التفاصيل!

أخبرتهم زوجتُه أنه لم يكن يدخل بيته إلا مبتسماً ، وأنّ ثيابه كانت دوما نظيفة وإن لم تكن جديدة ، ورائحته كلّ الوقت عطرة!

وأخبرتهم أيضاً أنه كان لطيفاً معها ، إذا وجد في ثوبه عيباً أصلحه كي لا يرهقها ، وإذا تشقق نعله خصفه بيده لأنه لم يكن يرى في هذا منقصة!

وأخبرتهم أنه كان يطعمها بيده ، وأنه أحياناً يطعمها نصف اللقمة ويأكل نصفها الآخر ، وأنها إذا شربتْ من الإناء ، أخذه وأداره ووضع فمه حيث وضعتْ فمها وشرب! كانت تلك طريقته ليخبرها أنه يُحبّها!

وأخبرتهم أنه كان يستمع لشكواها مهما كانت بسيطة ، ويهتم بأمورها مهما كانت صغيرة ، رغم أنه كان يحمل من الهم ما لو حملته الجبال لناءت تحته!

وأخبرتهم أنه كان يضع رأسه في حجرها كأنه طفل صغير ، ما

كأنه ذاك السياسيّ الذي يجهز الجيوش ، ويعقد الأحلاف ، ويقيم صلحاً هنا ، ويغزو قوماً هناك!

وأخبرتهم أنهما إذا خرجا إلى الصحراء تسابقا ، وأنها سبقته مرة فلم يجد حرجاً ، فلم يكن يغار من نفسه!

وأخبرتهم أنه جعل لها اسماً يدللها به ، لم يخطر حتى على بال أبيها الذي أحبها أن يناديها به ، وأنه لم يكن يجد حرجاً أن يُخبر الناس أنه يُحبها ، ويشهد عمرو بن العاص أنه سأله مرة : من أحبّ الناس إليك يا رسول الله؟ فقال له : عائشة!

هكذا كان في بيته بأبي هو وأمي .

إن كان عندك همّ فالأمة كلها كانت همّه ، وإن كان عندك مسؤولية فالبشرية كلها كانت مسؤوليته ، إن كنت تقارع في شركتك ومتجرك وورشتك ووظيفتك فقد كان يُقارع جزيرة العرب بالإضافة لإمبراطوريتين قربها ، إن كنت تُجالس الوزراء فقد كان يجالس جبريل ، وإن كنت تفد على الملوك فقد صعد إلى السماء السابعة بدعوة ملك الملوك!

إنّ همومنا مقابل همومه صغيرة ، ومسؤولياتنا مقابل مسؤولياته وضيعة ، ولكنه كان يعرف أن واجب النبوة لا يُسقط واجب الزّوج ، واهتمامه بالناس لا ينبغي أن يشغله عن الاهتمام بزوجته ، لهذا لم يكن يحضر إلى البيت بجسده فقط ، وإنما كان يحضر بقلبه ، أراد أن يخبرنا أن الاهتمام يجعل البيوت دافئة ، والتفهم والتسامح والتغاضي تجعل البيوت جنّة ، أراد أن يخبرنا أن الدلال أهم من الستائر والطلاء والتحف والزخارف ، لم يكن لديه الكثير من المال ليقدمه ، ولكنه قدّم ما هو أهمّ ، قدّم قلبه!

الوطن ٣- ٨ - ٢٠١٧

ما معاق غيركم!

بينما أنا جالس بأمان الله أتصفح أخبار هذا الكوكب الأهبل ، إذ طلعت عليّ صحيفة «ديلي تليغراف» بخبر مفاده أن منظمة الصحة العالمية في طريقها إلى تغيير تعريف الإعاقة لتشمل العازبين والعازبات! أعدتُ قراءة الخبر مرة أخرى على أمل أن لا يكون صحيحًا ، أو على الأقل لا تقف وراءه منظمة الصحة العالمية!

أن يأتي العبط من مجلس الأمن ، هذا شيء اعتدناه ، أن تستهبل الأمم المتحدة ، هذا شيء ألفناه ، أن تستظرف جامعة الدول العربية هذا شيء عهدناه! أما أن تمرض منظمة الصحة العالمية فهذا شيء لم يكن بالحسبان!

الزواج لا شك رباط مقدس بين رجل وامرأة ، ما لم ترَ منظمة الصحة أنه رباط بين أطراف أخرى! به تنشأ الأسرة التي هي قوام المجتمعات منذ فجر الخليقة وحتى قيام الساعة ، وهو قبل أن يُناط به استمرار العرق البشري ، مهم للرجل والمرأة من زاوية أن كلا منهما إنسان فيه رغبات ومشاعر يزكيها كل طرف في الآخر ، وإن كان الزواج فرصة سانحة لممارسة إنسانيتنا فإن كل فرد فينا هو مخلوق كامل الإنسانية ولا يحتاج غيره لينال شهادة أنه إنسان طبيعي ، وكنت أنتظر من منظمة الصحة العالمية أن تُصنف زواج الرجل من الرجل ، أو المرأة من المرأة ، أو أحدهما من كلبه ، من ضمن الإعاقات ، لا أن تصنف البشر الطبيعيين تصنيفاً معاقاً!

هل تعيش منظمة الصحة العالمية معنا على هذا الكوكب؟!

هل تعرف أن العزوبية في كثير من الأوقات قهر نزل بالإنسان وليس اختيارًا اختاره بملء إرادته!

هل تعرف أن الشباب يركضون ليل نهار ، يجمعون الدرهم على الدرهم ، يتحدون الظروف والعادات والمتطلبات ليكون لأحدهم بيت وأسرة وزوجة!

هل تعرف أن النساء العزباوات تشتاق إحداهن لرجل يأخذها إلى صدره ، ولطفل تأخذه إلى صدرها؟

هؤلاء ليسوا معاقين ، وإن كان من شيء طبيعي وصحيح في هذا الكوكب فهم هؤلاء ، الذين رغم كل هذا ما زالت العفة رداءهم ، والانتظار رغيفهم اليومي!

إن كان هناك ما يستحق أن يُصنف على قائمة الإعاقة ، فهو هذا الكوكب بأنظمته الفاسدة ، بشركاته العملاقة الجشعة ، ببنوكه التي لا تشبع ، بمجلس أمنه شاهد الزور على الدول القوية وهي تسرق خيرات الدول الضعيفة ، حتى لم يعد يجد أفرادها لقمة فضلًا أن يجدوا بيوتًا وزوجات وأزواجًا .

المعاق هو من أغلق أبواب الوظائف أمام الذين أفنوا أعمارهم على مقاعد الدراسة وبين الكتب .

المعاق هو من أشعل الحروب لتحرق الشباب وترمل النساء وتهدم البيوت .

المعاق هي وزارات الإسكان التي تقيم كل يوم مشروعًا على الورق .

المعاق هي العادات البالية التي ترى الزواج صفقة والمرأة سلعة والرجل تاجرًا .

المعاق هو الإعلام الذي لا ينفك يخبرنا كل يوم أن البيت

يجب ألا يقل عن «فيلا» ، وأن فستان الزفاف يجب أن يكون من أرماني ، وأن شهر العسل يجب أن يكون في باريس .

كل أعزب وعزباء في بلادنا على الأقل هم ضحايا هؤلاء المعاقين ، وليسوا من يستحق التصنيف على قائمة الإعاقة!

الوطن

١٠- ٨ - ٢٠١٧

أدعياء الثقافة!

في العام ١٨٦٠م ، كُتب في سيرة الرئيس الأميركي أبراهام لينكولن أنه قرأ كتابا ، وهو في الحقيقة لم يقرأه ، فسارع الرئيس لقراءته لأن الكذب عيب!

طبعًا لم أبدأ المقال بهذا الخبر للحديث فيما بعد عن فضائل لينكولن ، فلستُ بصدد التأليف في «سير أعلام الرؤساء» غير أن الحكمة ضالة المؤمن ، والتصرف النبيل يبقى نبيلًا ولو اختلفنا مع صاحبه ، كذلك يبقى التصرف المشين مشينًا ولو اتفقنا مع صاحبه ، فالعدالة تقتضي أن الحكم على الفعل من حيث ما هو فعل ، لا أن نحكم عليه بناءً على فاعله ، ولا ينتطح عنزان في أن تصرف لينكولن يحمل في طياته الكثير من النُبل ، «ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا»!

المهم ؛ دعكم من لينكولن فقد أفضى إلى ما قدّم ، وتعالوا أحدثكم عن ظاهرة لاحظتها كثيرًا في الفترة الأخيرة ، سواءً في مواقع التواصل أو من خلال احتكاكي المباشر مع فئة «المثقفين» ألا وهي ظاهرة ادعاء قراءة كتاب ما يتبين لاحقًا أن هذا المدّعي لا يعرف عن الكتاب أكثر من عنوانه واسم مؤلفه! والناس ينقسمون في هذا إلى قسمين ، قسم يشتري الكتاب ليصوره بجانب فنجان قهوة ، لأن الشاي من خوارم الثقافة! ثم يضع الصورة في مواقع التواصل الاجتماعي ، وتنتهي هنا علاقته بالكتاب! وقسم آخر يسطو على هذه الصورة ويوفر على نفسه عناء شراء الكتاب وثمن

فنجان القهوة ، فينشر الصورة معلقًا : هذا الكتاب رائع!

محاولة الإنسان تجميل صورته في عيون الآخرين غريزة بشرية ، فالإنسان كائن اجتماعي بطبعه ، يُحب أن يلقى تقديرًا في محيطه ، ونحن نلبس ثيابًا أنيقة ، ونضع عطورًا ، إشباعاً لغريزة التقدير ، سواءً التقدير من قبل الآخرين ، أو تقدير أنفسنا لأنفسنا!

ولا شيء في التجمل ، إن الله يُحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، ولكن الله ذم الذين «يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا»! فإن كانت قراءة كتاب ما فضيلة ، فلا يعني أن عدم قراءته رذيلة ، ثم إن الأمر لم يتعلق يومًا بقراءة الكتب ، بل بمدى التغيير الذي تحدثه الكتب فينا ، كيف تنير عقولنا ، وتوسع أفكارنا ومداركنا ، وترينا العالم بعيون الآخرين ، هذه هي الغاية من القراءة فإن لم تتحقق كانت القراءة مجرد إضاعة للوقت في تقليب الصفحات ، هذا هو الحال في حالة قراءة الكتاب فعلًا فكيف في حالة ادعاء قراءته!

السعي لنيل احترام الناس أمر محمود ، ولكن يجب ألا يتعارض هذا مع احترام الإنسان لنفسه أولًا ، فالإنسانية في أجمل صورها أن يحترم الإنسان نفسه قبل أن يسعى لنيل احترام الآخرين وتقديرهم ، وادعاء قراءة كتاب إهانة من الإنسان لنفسه ، فما فائدة أن أُري الناس أني ممتلئ وأنا في الحقيقة فارغ!

الوطن

١٣- ٨ - ٢٠١٧

مائة شخصيّة مُهمّة!

يقول الرّائع مصطفى محمود في كتابه نقطة غليان : «هذا هو شأن العالم منذ خمسة آلاف سنة ، الراقصة تكسب أكثر من الكاتب ، والطبال يكسب أكثر من الخباز والحداد والنجار ، ولو أنك دعوتَ آينشتاين لندوة علمية ثم دعوتَ امرأة عارية لحديث صحفي لترك الجمهور آينشتاين وعلمه وتجمعوا حول المرأة العارية بالألوف»!

وليس بعيداً عما قاله مصطفى محمود ، خرجتْ علينا مجلة «فوربس» بقائمتها السنوية لأهمّ مائة شخصية عربية ، ولم تختلف قائمة هذا العام عن قوائم الأعوام السابقة من حيث المضمون ، فكان هؤلاء «المهمون» على الشكل التالي : ثلاثة وخمسون مطربا ومطربة ، خمسة وثلاثون ممثلا وممثلة ، واثنا عشر مقدم ومقدمة برامج! لا يوجد في هذه القائمة كاتب ولا شاعر ولا مفكر ولا شيخ ولا داعية ولا رياضي ولا رجل أعمال ، ولا أي بني آدم سبق وأن أحدث تغييراً إيجابيا في فرد واحد ، فضلاً أن يكون قد أحدثه في هذا العالم!

يريدون أن يقنعونا أنّ محمد عساف أهم من رائد صلاح ، وتامر حسني أهم من الحسن ولد الددو ، ورامز جلال أهم من عبد الله النفيسي ، ومحمد حماقي أهم من عبد العزيز الطريفي ، ونانسي عجرم أهم من خديجة بن قنة ، وجوزيف عطية أهم من إبراهيم نصر الله!

لستُ من أصحاب نظرية المؤامرة ، ولا أحب تعليق أخطائنا

على شماعة الآخرين ، على يقيني أن الآخرين ليسوا أبرياء تماماً من بعض ما وصلنا إليه ، أحياناً تكون الضحية هي ضحية نفسها قبل أن تكون ضحية جلادها ، ولكني أجد هذه القائمة مؤامرة! أو بتعبير أدق قائمة تسويقية ، ثمة من يريد أن يقنعنا أن هؤلاء هم القدوات الحقيقية التي يجب أن تُحتذى!

لا أُنكر أننا نهتم كثيراً بالأمور السطحية والناس السطحيين ، ولكن هذا شأن الأمم جميعاً لا شأننا وحدنا! ولكن الفارق أنك هنا تجد التصنيف والانحياز فاقعاً ، ولو كان في أميركا مثلا لكان من الطبيعي أن تجد في القائمة مطربا وراقصة ، ولكنك ستجد في المقابل رياضيا ، أو رجل أعمال ، وحتما ستجد نعوم تشومسكي!

يريدون أن يُحطموا فينا حتى رغبتنا في النهوض ، خذ مثلاً قولهم «أمة اقرأ لا تقرأ» ، ودراسات من نوع أن العربي يقرأ سطراً في السنة بينما يقرأ الأميريكي عشرين كتابا في السنة ، وهذا كذب! نحن لا نقرأ سطراً وهم لا يقرأون عشرين كتابا ، ذهبتُ إلى معرض بيروت للكتاب ، ومعرض جدة ، ومعرض الشارقة ، فكان الزحام على الكتب كالزحام الذي أجده في المطاعم ، لماذا يريدون أن يخبرونا أننا نأكل فقط! بعضنا لا يقرأ وهذا شأن بعض كل المجتمعات ، وبعضنا لا يهتم بالشأن العام وهذا شأن بعض كل المجتمعات ، بعضنا مهووس بالمطربين والممثلين وهذا شأن بعض كل المجتمعات ، ولكن تصوير هذا الوطن العربي على أنه مسرحٍ أو مرقص تصنيف لا يمكنني في أي حال من الأحوال اعتباره بريئاً!

الوطن

١٣- ٨ - ٢٠١٧

أقدمُ مِهنةٍ في التّاريخ!

أما قبل :

أقترحُ أنْ يُكتبَ على أغلفةِ كتب التّاريخ ما يلي : يُعبّرُ عن وجهةِ نظرِ كاتبه ولا يُعبّرُ بالضّرورة عمّا جرى!

أَما بعد :

أنا لا أتقبّلُ الأفكارَ والمعلومات التي أقرأها بسهولة ، أمّا حين يتعلّقُ الأمرُ بالتّاريخ فإني شكّاك! وليس بي نزعة ديكارتيّة ، ولكنّي على يقينٍ أنّ كثيراً مما في التّاريخِ كُتب بالشّكل الذي هو عليه لمآرب شخصيّة ، فالتّاريخُ كان دوماً من تدوين المنتصر ، حتى حين كتبه الذين لا ناقة لهم فيه ولا جمل كتبوه بالشّكل الذي وصلهم ، حتى ابنُ جريرٍ الطّبريّ الذي أبدعَ في تدقيقِ سُننه جرحاً وتعديلاً حين كتبَ في التاريخِ كتب في مقدمة كتابه : إنما أنقلُ إليكم ما نُقل إليّ!

مثلكم جميعاً قرأتُ في مقالات كثيرة ، وسمعتُ من مثقفين كُثر أنّ أقدم مهنة في التّاريخ هي الدّعارة! ولأني شكّاك إذا تعلّق الأمرُ بالتّاريخ ، لم أستسغْ هذه المعلومة عقلاً! وبعد بحثٍ طويلٍ خلصت إلىُ أنّ هذه المعلومة التي يرددها النّاسُ كأشهرِ حقائق التّاريخ ليستْ إلا واحدةً من أكبرِ كذباته! ومردُّ هذه الفِرية إلى الشّيوعيين الذين يؤكّدون أنّ البشريّةَ تدرّجتْ من الشّيوعيّة الأولى إلى الرّق فالإقطاع فالرأسماليّة ثم هم بانتظار الشّيوعيّة الثانية والأخيرة! ويؤكّدون أنّ التّجمع البشريّ الأوّل عرف الشّيوعيّة

الجِنسيّة حيث اختلط الحابلُ بالنّابلِ ، وكان الرّجالُ يعملون في الصَّيدِ وكان النّساءُ يُحصّلنَ أرزاقهُنّ من فرُوجهِنّ كمقابلٍ يدفعنه للرّجال للحصول على الطّعام!

أمّا نقلاً فيرفضُ الإسلامُ هذه المقولة جملةً وتفصيلاً ، فالإنسانُ الأوّلُ كان نبياً ، والتّجمّعُ البشريّ الأوّل إن كان بطبيعة البداية متأخراً مادّياً فلم يكن كذلك أخلاقياً! فقد كانتْ حوّاءُ تلدُ كلّ مرّة توأمين أحدهما ذكر والآخر أنثى ، وكان مُحرّماً أن يتزوّج الذّكر من توأمه الأنثى ، ولّما شبّ قابيلُ وهابيلُ وأرادا الزّواج كما هي سُنّة الله في الكون أخبرهما آدم بما هو حرام وما هو حلال ، ولأنّ توأم قابيل كانتْ أجمل من توأم هابيل وأرادا قابيلُ الزّواج من توأمه ، فأمرهما الله عن طريق أبيهما أن يُقرّبا قرباناً ليحكم بينهما ، فقرّب قابيل حزمة قمح لأنّه كان مزارعاً ، وقرّب هابيلُ شاةً لأنّه كان صاحب ماشية ، فقبل الله قربان هابيل فما كان من قابيل إلا أن قتل أخاه!

والشّاهدُ في القِصّة أنّ هؤلاء هم البشر الأوائلُ ، وكان لهم مهن يعتاشون منها غير الصّيِد ، وأنّ النّساء كُنّ يُخطبنَ وفقاً لشريعة فرضها الله ، وإن عرف البشرُ السّفاح فقد تمّ هذا في مراحل لاحقة شذّتْ بها البشريّة كما اعتادتْ أن تفعل على أكثر من صعيد ، فكان الله يُرسلُ الأنبياءَ لإعادتها إلى جادّة الصّواب!

خلاصة القول : إن كان لا بُدّ من قراءة التّاريخ فيجب في المقابل عدم التّسليم بكلّ ما نقرأ .

الوطن

٢ / ٥ / ٢٠١٥

عندما كانت الدُّنيا أجمل!

عندما كان فيها مستشفيات أقل وصحة أكثر!
محاكم أقل وعدلٌ أكثر!
وسائد أقل ونومٌ أكثر!
غزل أقل وحُبٌّ أكثر!
شعراء أقل وشعرٌ أكثر!
دعاة أقل وإيمانٌ أكثر!
اتصالات أقل وتواصلٌ أكثر!

عندما كانت البنتُ إذا تزوّجتْ بكيناها في العرس كأننا في مأتم لهول ما ينتظرنا من وجع الفقد، وكان الشّاب إذا تزوّج زففناه كأنّما نُشيّعه، لأننا كنا ندري أننا لم نشبعْ من بعض! كنا إخوةً وأخواتٍ ولم نكن كاليوم نعيشُ في بيتٍ واحدٍ وقلوبنا شتى، كل ما يجمعنا مفتاح لذات الباب!

عندما كانت الأحاديثُ دافئة وكنا نتحدّثُ وجهاً لوجه، وقلباً لقلبٍ، فلم يكن هناك «واتسآب» نرسلُ فيه ابتسامةً وفي القلب غصّةً، ونرسلُ فيه باقة وردٍ وفي اليد سكينٌ، ونرسل فيه وجهاً دامعاً من شدّة الضحك وفي القلب قنبلة!

عندما كنا نعيشُ لأنفسنا، فلم نكن نشتري ثياباً جديدة «للفيس بوك»، ولم نكن نطبخ «لانستغرام»!

عندما كان عندنا معارف أقل وأصدقاء أكثر! صار عندنا ألوف يعرفوننا عن بعد، مجرد كائناتٍ افتراضيّة إذا مرضنا لا يعودنا منهم

أحد ، وإذا تعثّرنا لا يمسك بأيدينا منهم أحد ، وإذا حزنّا نكتشف أن الألوف لا يساوون يداً كانت تربت علينا أو كتفاً كنا نبكي عليها!

عندما كانت الحماة أماً ثانية ، والعم أباً ثانياً ، ولم يكن الأقاربُ عقارب!

عندما كان اليوم يمشي على مهل ، وكان عندنا وقتٌ للالتفات للأشياء الصغيرة ، صارت الحياة سباقاً مع الوقت ، نركض فيها لننجز الأشياء الكبيرة ، دون أن ندري أن الأشياء الصغيرة كسؤال ولد عن مدرسته ، وبنت عن جامعتها ، وزوجة عن يومها ، هي الأشياء الكبيرة حقاً!

عندما كان الناس يتركون ألف سبب للخصام ويبحثون عن سبب واحد للوفق ، صاروا يتركون ألف سبب للوفق ويبحثون عن سبب واحد للخصام!

عندما كان للناس خصوصية ، وللبيوت أسرار! وكان الزوجان يختصمان فلا ينتبه الأولاد ، اليوم صارا يختصمان في «الفيس بوك» ونصلح بينهما بـ «كومنت» ، عندما كانت الزوجة إذا ذاقت المر في بيت زوجها توهم أهلها أنها تعيش في العسل ، اليوم إذا قال لها طعامك مالح جمعت ثيابها وذهبت لبيت أهلها! وعندما كان الزوج يمسك يد زوجته ويعبر بها الشارع كأنها ابنته التي تعلّمت المشي حديثاً ، صار يتركها تعبرُ الحياة وحدها!

عندما كان البشر يعيشون وفي طريقهم يجمعون شيئاً من المال لتصبح معيشتهم أسهل ، صاروا يريدون حياةً أطول ليجمعوا مالاً أكثر وتصبح حياتهم أصعب! وعلى مشارف الموت يتذكرون أنهم نسوا أن يعيشوا!

الوطن ٣٠ / ٥ / ٢٠١٥

كلِماتٌ ولَكَماتٌ!

أما قبل :

روى الشيخان من حديث أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر : فليقلْ خيرًا أو ليصمت»! كان عليه الصلاة والسلام يعرفُ أنَّ الكلمة يمكن أن تكون لكمةً موجعة ، ولأنه بُعث رحمةً لم يُرد أن يجلد بعضُنا بعضًا بسياط الكلام! وكان يعرفُ أن النّاس يحتاجون كلمةً حانيةً تربتُ على قلوبهم ، فقال : «الكلمة الطيبة صدقة»!

أما بعد :

الكلمة الأولى :

يقولُ البخاريُّ : حضرتُ يومًا مجلس إسحاق بن راهوية ، فقال : «من ينشط منكم لجمع الصحيح»؟

فوقعت مقولته في قلبي ، فعزمتُ ، وشمرتُ ، وجمعتُ الصحيح!

كلمة واحدة قالها ابن راهوية ، وقعتْ في قلب البخاريّ ، فألّف أصح كتاب بعد القرآن! قد يكون لك رؤية ولكن ليس لديك الإمكانات ، فدلّ الناس على الطريق ، الدالُّ على الخير كفاعله ، والنبيلُ يفرح إذا وصل الآخرون كأنه هو الذي وصل!

الكلمة الثانية :

يقول الشافعيُّ : كنتُ أول أمري مهتمًا بالشعر ، فتمثلتُ بيتًا من الشعر عند كاتب مصعب الزبيري ، فأخذ بيدي وقال : أوتيتَ حظًا من الشعر يا شافعي ، فأين أنت من الفقه؟

فوقع ذلك في قلبي!

كلمة واحدة أخذت الشافعيّ من طريق الشعر وألقته في طريق الفقه ، فصار من كبار علماء المسلمين ، وليس في قول الشعر حُرمة ، فالشعر كلام ، والأصل في الكلام الإباحة ، والشعر كالنثر حرمته وحله في مضمونه ، ولكن لدينا آلاف الشعراء ، وليس لدينا إلا شافعي واحد! كلمة واحدة لم تُغير واقع رجل فقط ، وإنما غيرت واقع أمة كاملة!

الكلمة الثالثة :

يقول الإمام الذهبيُّ : طلب مني البرزاليَّ أن أخط له شيئًا ، فلما عرضته عليه

قال لي : يا شمس الدين إن خطّك يشبه خطّ المُحدّثين!

فحببَ اللهُ إليّ الحديث!

كلمة واحدة ، إشادة حانية رقيقة ، جعلت من الذهبيّ إمام السُّنة في الجرح والتعديل ، فكتب لنا سير أعلام النبلاء ، وميزان الاعتدال في نقد الرجال ، والمعين في طبقات المحدثين ، وديوان الضعفاء والمتروكين! وقد هذّبه الحديث وجعله متواضعًا ، ولما ترجم للنبلاء وأشاد فيهم في السير ، ترجم لنفسه فقال : الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ، يُثني عليه الناس خيرًا وربه أعلم به!

الكلمة الرابعة :

يقول محمد إقبال : كلمة قالها لي أبي غيرت حياتي!

كنتُ صغيرًا أقرأ القرآن على يديه ، فقرأتُ مرةً بسرعة

فقال لي : يا بُنيّ ، اقرأْ القرآن كأنه أُنزل عليك!

كلمة واحدة نقلت الصبيّ من القراءة إلى التمعن ، فترك لنا عشرين كتابًا في الاقتصاد والسياسة والتربية والفلسفة والفكر ، انطلق فيها جميعًا من خلفية إسلامية متينة رغم أنه كان يعيش في بلاد يعبد فيها الناس البقر!

أما الآن : فمع اللكمات!

اللكمة الأولى : «كيف تصبرُ وكيف تصبرين»؟!

تكون المرأة في بيت زوجها ، صابرة متكيفة ، تعيشُ في ستر رغم قلة ذات اليد ، إلى أن تأتي إحداهن فتقول : كيف تصبرين على هذا؟ انظري إلى فلانة كيف تشتري لكل مناسبة ثوبًا ، انظري إلى فلانة كيف تسافر في كل عطلة ، فتفتح لها بابًا للشيطان كان مغلقًا! يكون الرجل في عمله صابرًا راضيًا قانعًا براتبه ، إلى أن يأتي إليه من يقول : يا أخي كيف تصبر ، اُنظرْ للناس من حولك ، ربٌّ العمل يسرقك!

ما لكم وللناس ، تخربون بيوتهم بألسنتكم ، أَبدَلَ أن نشد من أزر الصابرة ، ونأخذ بيد القانع ، نفتح لهم باب السخط على قدر الله وعباد الله!

اللكمة الثانية : «لِمَ لمْ تنجبا بعد ، انظروا إلى فلان وفلانة ، تزوجا قبلكما وأنجبا»!

وكأن الذي أنجب قد أنجب بقوته وشطارته ، وفهلوته ، والذي لم ينجب إنما بسبب كسله وتوانيه! من قال أنهما لا يتشوقان لولد ،

وأنهما لا يحترقان كلما رأيا طفلًا هرع إلى أبويه!

لماذا نجرح الناس بكلام تافه لا يزيد إلا أوجاعهم ، بدل أن نصبرهم ، ونخبرهم أن الأولاد رزق من عند الله ، وأن الله يعطي لحكمة ويمنع لحكمة ، وأنه كريم سبحانه ، ولا شك أنه سيرزقهما بالأولاد مستقبلًا .

اللكمة الثالثة : «أنتِ سمينة جدًا ، قللي من أكلك»

بالله عليكم! أهذه كلمة أم سوط ، نصيحة أم طلقة بندقية ، وكأن المخلوقة سعيدة بهذا ، وكأنها لا تتمنى أن تنحف ، وكأنها لا تحاول كل يوم ، ثم كأنها تأكل من بيتك وبيت أبيك ، أيضًا من قال أن السبب الوحيد للسمنة هو الطعام الزائد ، الناس تختلف أجسادهم ، بعض الناس يأكل خمس وجبات وهو نحيف كالعود ، وبعضهم لو شمّ رائحة الطعام لزاد وزنه!

ثم إن هناك شيء اسمه الهرمونات يا عباد الله ، وقد تكون السمنة لخلل فيها ، أي أنها مرض وليست اختياراً!

اللكمة الرابعة : «لماذا تسكت»؟

الشباب ، ذكورًا وإناثًا ، يصغون في مراهقتهم لأصدقائهم كثيرًا ، ترى الشاب يطيع أباه ، فلا يطيل السهر ، يرضى بالمصروف الذي يأخذه ، فيأتي صديقه : أما زلت صغيرًا حتى تعود باكرًا ، أيكفيك هذا المصروف ، يا أخي كيف تسكت؟ كن رجلًا!

حسناً ، أطعْ صاحبك البطل ، واضرب أباك ، وكن بطلًا مثله ، اصرخ في وجه أمك ، اصنع لنفسك كيانًا!

والأمر مثله مع البنت ، لماذا تتدخل أمك في ثيابك ، أين تعيشين ، انظري للبنات في الجامعة! تحرري ، اخرجي من السجن الذي أنتِ فيه!

أهؤلاء صحبة أم أعداء ، بشر أم شياطين ، إن لم تكونوا قادرين أن تكونوا محترمين ومحترمات ، فدعوا الناس وشؤونهم ، وأمسكوا عليكم ألسنتكم ، فإن بعض الكلمات لكمات!

مدوّنات الجزيرة

١٦ / ٤ / ٢٠١٧

الحمدُ للهِ أنهم لم يُتاجروا!

عندما أنكُروا قيمة أرسطو وفلسفته ، لم يُصدر بيانًا يُدافع فيه عن نفسه ، ولكنه عرفَ بفضل خبرته في علم الفلك ، أنّ موسم جَني الزيتون سيكون رائعًا ، وكان قد عرف هذا شتاءً فاستأجر معصرتي «ميلتوس» و«خيوس» حيث لم تكن هناك منافسة ، وعندما جنى الناس الزيتون احتاجوا إلى المعاصر ، فاستغلّ أرسطو هذا الأمر ، وحدد السعر الذي أراد وربح مالًا وفيرًا ، ثم قال للناس : أستطيع أن أكون غنيًا ، ولكن ليس هذا ما يُحركنا نحن الفلاسفة!

يبدو أن بعض الأشياء لا تتغير على ظهر هذا الكوكب ، فمنذ عصر الإغريق وربما قبلهم إلى عصرنا هذا وربما بعدنا ، السواد الأعظم من الناس يُقيمِّون الآخرين بما يملكون لا بما يعرفون أو يُقدّمون! ولو سألت الناس اليوم عن أسماء بعض الناجحين في مجتمعاتهم فلا تستغرب لو رأيت أسماء الأثرياء في رأس القائمة ، ألوف منهم سيذكرون اسم شخص يملك عشر شركات وقليل منهم سيذكر اسم شخص ألّف عشرة كتب! طبعًا ليس في الثراء شيء ، ولم يكن السعي لتحصيل المال سُبّة يومًا ، ولكن هذا التفكير المادي الصرف مرض لا يقل فتكًا عن الأمراض العضوية الفتاكة الأخرى!

إن الذي غيّر العالم الأفكار لا الأموال ، والذين خلدهم التاريخ فوق صفحاته هم المبدعون لا الأثرياء!

إننا نعرف أرسطو ولا نعرف أثرياء اليونان في عصره!

ونعرف شكسبير ولا نعرف أثرى رجل في زمانه!

نحن لا نعرف أثرياء الجاهلية ولكننا نعرف قس بن ساعدة وورقة بن نوفل وزهير بن أبي سُلمى!

وعندما مات أثرياء العصر العباسي تركوا أموالهم لورثتهم واندثروا ، ولكن الجاحظ بقي

والمتنبي وما زال يطل علينا كل يوم من باب قصائده!

تخيلوا مدى تعاسة العالم لو كان كل الناس جامعي أموال

ما أتعس العالم لو تفرّغ ابن خلدون للتجارة

وما أتعس العالم لو كان نيوتن إقطاعيًا

وما أتعس العالم لو أن نعوم تشومسكي قرر أن ينافس بيتزا هات!

وما أتعس العالم لو أن ابن القيم كان صائغًا

وما أتعس العالم لو أن دافنشي قرر أن يفتح متجرًا بدل أن يرسم

وما أتعس العالم لو أن محمد قطب وعلي شريعتي ومالك بن نبي وعلي عزت بيقوفيتش كانوا مصرفيين!

ختامًا :

عندما كانت القيمة السوقية لفيسبوك تسعة مليارات دولار ، عرض الوليد بن طلال على زوكربيرغ أن يبيعه الموقع!

فقال له مارك : سمو الأمير

الأموال لا تأتي بالأفكار ولكن الأفكار تأتي بالأموال!

اليوم قيمة فيسبوك تتخطى مئة مليار دولار!

الوطن

١٢ /٢٠١٧/١١

أَخرِجُوا يديَّ من التابوت!

قال السلطان سليمان القانوني : عندما أموتُ أخرجوا يديّ من التابوت حتى يعرف الناس أنه حتى السلطان خرج من الدنيا فارغ اليدين!

سليمان القانوني أحد أعظم خلفاء الدولة العثمانية ، ولا أعتقد أن أحدًا غير محمد الفاتح يأتي قبله ، فذاك على صدره وسام نبويّ تقلده قبل مجيئه إلى الدنيا يقول فيه سيِّد الناس : «لتُفتحنّ القسطنطينية ، فنعم الجيش جيشها ونعم الأمير أميرها»! أما سليمان القانوني صاحب أطول فترة حكم في الدولة العثمانية ، بلغت ٤٦ عامًا فكان يقود الجيوش بنفسه في الحروب ، وهو أول من حكم عواصم الشرق والغرب في التاريخ من أثينا إلى صوفيا وبودابست وبلغراد والقدس ودمشق وبغداد والقاهرة وتبريز والقائمة تطول ، وكان حافظًا للقرآن الكريم ، ولصحيح البخاري ، يتكلم التركية والعربية والفارسية والصربية ، ولقبه القانوني نسبة لإصلاحه القضاء وإرساء أمور الدولة .

أن يحدثك فقير عن الزهد ، قد تقول : مجبر أخاك لا بطل! أما أن يحدثك سلطان يحكم نصف كوكب الأرض المعروف وقتذاك فذاك مدعاة للدهشة! وقد أراد أن يكون واعظًا في موته كما كان في حياته ، أراد أن يقول إننا نهاية المطاف سنذهب خاليي الوفاض كما جئنا!

وبدوري لن أقول : إن المال شيء تافه فلا تجمعوه ، وهو وسخ الدنيا فدعكم منه ، على العكس تمامًا ، نِعمَ المال الحلال في يد العبد الصالح ، المال عجلة الحياة ، هكذا كان قبلنا ، وهكذا سيبقى بعدنا ، ولكنه نهاية المطاف عجلة الحياة وليس الحياة ، وهو إنما يُطلب وسيلة أما أن يُصبح غاية في ذاته ، يصبح الإنسان وقتذاك أجيرًا عند ورثته ، ذكرني هذا الكلام بسائق الرجل الغني الذي مات وترك كل ثروته لزوجته ، فتزوجت الزوجة السائق بعد ذلك ، فقال السائق : كنتُ أحسب أني أعمل عند سيدي ولكني اكتشفتُ الآن أنه كان طوال عمره يعمل عندي!

اجمعوا المال ، فهو يجعل حياتكم أسهل ، وأن يترك المرء ورثته أغنياء خير من أن يتركهم عالة يتكففون الناس ، ولكن لا تنسوا وأنتم تجمعوه أن تعيشوا! وتذكروا أن أثمن ما في الحياة هي تلك الأشياء التي ليس لها ثمن! أمّ تحنو عليك ثروة ، زوجة مُحبة غنى ، وولد يدعو لك دُبر الصلاة ثراء فاحش ، قلب رجل يخاف عليكِ من النسمة تساوي مال الدنيا ، اسألوا الأغنياء الذين حُرموا الصحة عن المال ، واسألوا الأثرياء الذين حُرموا الأولاد عن الثراء ، جميعنا أثرياء إذا عرفنا قيمة الأشياء لا أثمانها! يا أخي أن تولد مسلمًا وخمسة مليارات من قاطني هذا الكوكب ذاهبون إلى النار تساوي قارون وثروته وفرعون وملكه والنمرود وسلطانه!

جميعنا نعرف أن المال يشتري الدواء ولا يشتري الصحة ، ويشتري السرير ولا يشتري النوم ، ويشتري كتاب الطرائف ولا يشتري الضحكة ، ولكن علينا أن نُحوّل معرفتنا هذه إلى سلوك وشعور ، وإني لأقسم غير حانث أن كثيراً من القصور التي ترونها ليست إلا قبورًا دُفن فيها الناس أحياء ، وأن كثيرًا من الأساور

والقلائد الذهبيّة ليست إلا أغلالاً في أيدي ورقاب نساء يملكن كل شيء إلا طعم الحُبّ ، فاجمعوا المال وادخروه ولكن لا تنسوا أن تدخروا منه شيئًا للتابوت!

الوطن

٧ - ١ - ٢٠١٧

مليونيّة خلع الحِجاب

سُئلتْ نوال السّعداوي عن الشّذوذ الجِنسيّ فقالتْ : حُرّية شخصيّة

وسُئلتْ عن الحجاب فقالتْ : تخلّف!

ونوال لمن لا يعرفها فليس عليه أن يقلق ، علمٌ لا ينفعُ وجهلٌ لا يضرُّ!

ولمن يعرف اسمها ولا يعرف رسمها فلا يبحثُ عنه حتى لا يردد مثل العرب القديم : أن تسمعَ بالمَعِيديّ خيرٌ من أن تراه!

ولمن يعرف اسمها ورسمها فلا شكّ أنّه فكّر مرّةً واحدةً على الأقل أن يتحجّب وإن كان رجُلاً!

في مليونيّة خلع الحجاب نوال ليست المشهد كلّه ، وإن كانت كبيرتهم التي علمتهم العبط ، ونقاشُ الكبيرِ نقاشٌ للصغير وإن لم يتسع له النّص! ولأنّها دأبتْ على قول أن الفكر لا يُجابه إلا بالفكر فلها دأبها!

الرّأسماليّة - التي أنتجت الليبراليّة فيما بعد- تقومُ على مبدأ الحرّية المطلقة ، بينما تقوم الشّيوعية على مبدأ المساواة ، في حين يقومُ الإسلامُ على المبدأ الأسمى وهو العدل! يُجمع علماء الاجتماع من ابن خلدون حتى إيميل دوركايهم أنّه لا وجود لحريّة مطلقة في أي تجمع بشريّ . وها هو الغرب ماثل أمامنا بدساتيره ، ومحاكمه ، وشرطته ، وسجونه ، وهذا ضروري لأي مجتمع ، ولكن لنُسلّم جدلاً أن ليبراليتكم حرّية مطلقة ، وأننا سنحاسبكم تبعاً لما

تؤمنون به ، فبأي منطق يُعتبر الشذوذ الجنسي حرِّية والحجابُ تخلفاً؟! هذا يعني أنكم لا تسمحون بالحرية إلا لما وافق أهواءكم! أي بتعبيرٍ آخر كن حُراً كما أريدُ أنا!

لا يوجدُ بينكنَّ محجّبة واحدة فلماذا تردْنَ التظاهر لخلع ما هو مخلوع؟! ثم أنتن لو أردتُنَّ أن تخلعن أكثر فلن يعترضكنّ أحد ، فعلى رِسلكُن أيتها النِسوة المتشحات بالحقد ، هذا الإسلام لم يكن يوماً خيَّاطاً يُفصّل أغلِفة للنساء ، هذا الإسلام أخلاق وعفة وستر ، وهُنّ رضينَ بقماش يتناسب مع عفتهِنّ ، الإسلام لا يُقيّد النساء بقدر ما يحررهن ، أجلِ تلك الحريّة المسؤولة التي لا تتحقق إلا حين يكون الإنسان عبداً لله!

ثم انظرْنَ إلى الغرب الذي ترضعنَ حليبَ أفكاره! إلى رائد الفضَاءِ ، والطبيبِ ، والمهندسِ ، والحدّاد ، والنَّجار ، وربة البيتِ ، وبائعة الهوى! عندما يدخلونَ إلى الكنيسةِ ويُشاهدون صورة القديسة مريم محجبة هل يعتبرونها متخلفة أم يُجلِّونها؟! وإذا كنتْنَّ تعتقدْنَ أن الغرب تقدم وتطور لأنه خلع حجاب نسائه فأنتنَّ واهمات! الغرب تقدم لأنه خلع جهله! وقمةُ الجهل أن يعتقد المرءُ أن بين التقدم والتأخر قطعة قماش على رأس المرأة! أنتنّ لا تدركْنَ أنَّ المرءَ يمكن أن يكون جاهلاً وهو يحمل شهادة دكتوراه!

عندما كان خليفتنا يخاطبُ السحابة في كبد السماء : امطري حيث شئت . كانت نساؤنا محجّبات! ولكنَّهم عرفوا أنّ القلاع الحصينة لا تسقط إلا من الداخل ، فصَنعُوكُنّ!

الوطن

٢٥ / ٤ / ٢٠١٥

الفُجُور في الخُصومة

جاء رجلٌ إلى الحجاج بن يوسف الثقفيّ وقال له : إنّ أخي خرج مع ابن الأشعث ، فلما لم تظفرُوا به عمدتم إليّ ، فضُربَ على اسمي في الديوان ، ومُنعتُ من العطاء ، وهُدمتْ داري!

فقال له الحجاج : أما سمعتَ قول الشاعر :

جانيك من يجني عليك وقد
تعدي الصحاحَ مباركُ الجُربِ
ولَرُبَّ مأخوذ بذنب عَشيرة
ونَجا المقارفُ صاحب الذنبِ

قال الرجل : أيها الأمير ، إني سمعت الله يقول خيرًا من هذا!

فقال الحجاج : وما قال؟

قال الرجل : ﴿يا أيها العزيزُ إن له أباً شيخاً كبيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مكانهُ إنا نَراكَ مِن المُحسنين ، قال معاذ اللهِ أنْ نأخُذَ إلا مَن وَجدنا مَتاعَنا عِندهُ إنا إذاً لظالمون﴾ .

فقالَ الحجاج : يا غلام ، فمثل بين يديه

أعد اسمه إلى الديوان ، واعطه عطاءه ، وابنِ داره ، ومُر منادياً ينادي : صدق الله وكذب الشاعر!

لم أسرد القصة للحديث عن فضائل الحجاج ، يكفيه وعبدالملك ما سفكاه من دماء ليكون رزية لا تُجمّلها كل مساحيق الكلام ولكن «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عما كانوا يعملون» ومن يقرأ التاريخ بعيني الخير والشر يُدرك

حتمًا أن كليهما لهما مواقف يُستشهد بها في مكارم الأخلاق، فنذم القبيح ونثني على الحسن، والإنصاف في الناس عزيز!

ما يعنيني هنا أن الفجور في الخصومة قديم في الناس، وهنا رجل دفع ثمن عداوة أخيه للحجاج وعبدالملك، ولعل هذا باقٍ في الناس ما بقوا على هذه الأرض، نشاهده كل يوم، ونعاينه كل حين، إذا اختلفت دولتان كان الناس وقودًا لنار الخلاف، تُقطع أرزاقهم وأرحامهم، رغم أنهم لا رأي لهم ولا يد في الوفاق القديم ولا في الخصام الجديد!

يختلف شخص مع فرد من عائلة فيعادي العائلة كلها.

يختصم زوج مع زوجته فتنقلب صلة الرحم بين العائلتين إلى ميدان معركة، والفارس الشجاع فيها أرذلهم أخلاقًا وأفجرهم خصومة.

يختلف زميلا عمل فيريدك كل واحد منهما في صفه، هكذا هي عقليتنا مع الأسف، إن لم تكن معي فأنت ضدي!

في بداية عملي في التدريس، جاءت أم أحد الطلاب إلى صفي وحضنت ابنها وبدأت تقبله، واعتذرتْ إليّ عن فعلها بأن أباه لا يسمح لها برؤيته، فطلبتُ منها أن تأخذه خارج الصف وتراه كما شاءت، وفي اليوم التالي حضر الأب مهددًا مرعدًا، وأنه لا يحق للمدرسة ولا لي أن نأذن لها أن تراه، وعبثًا حاولت أن أشرح له أن هذا ليس في صالحه ولا في صالح ابنه أولًا فضلًا أن يكون في صالح طليقته، وكل ما فهمه الرجل من كلامي أننا في صف الأم ضده!

الإنسان الذي لا يعرف كيف يختلف مع الآخرين لا يعرف كيف يتفق معهم، وأحيانًا نحن بحاجة إلى الخلافات لنعرف

معادن الناس الحقيقية ، في لحظات الوئام والوفاق الناس كلهم معدن واحد ، فإذا وقع الخلاف تباينوا وانقسموا إلى أراذل ونبلاء!

الوطن

٢٦- ١١ - ٢٠١٧

سِفْرُ «النّكبة» الإصحاح «هُم ونحنُ»!

هُم يحتفِلُون اليوم بسبعة وستّين عاماً على قيامِ دولتِهم ونحنُ نبكي سبعةً وستين عاراً على نَكبتنا!

هم جاؤوا لهيكل نبيّهم المزعوم ونحنُ رحلنا عن مسرى نبيّنا المؤكّد!

هُم أحيوا لغةً ميتةً ونحنُ نقتلُ كلّ يومٍ أكثر لغاتِ الأرض حياةً!

هُم يبكون عند حائط البراق ونحنُ نبكي عند معبر رفح لدخولِ زُجاجة دواءٍ لمريض وعُلبة حليبٍ لطفل ولمغادرة طالبٍ متفوّق للدّراسة ولعودة معتمرٍ لبيته!

هُم يعملون بتوراةٍ خطّوها بأيديهم ونحن لا نعملُ بقرآنٍ محفوظ من التّحريف!

هُم يُحدّثهم حاخاماتهم عن ضرورة قتل العرب ونحن يُحدّثنا الأزهرُ عن حُسْنِ الجوار!

هُم منذ سبعة وستين عاماً يحاربون ونحنُ منذ سبعةٍ وستين عاماً نشجبُ ونَدينُ ونستنكر!

هُم عندهم القدس قضيّة ونحنُ عندنا القدس سلعةً للتجارة نهتفُ زحفاً زحفاً نحو القدس ونذهبُ لنحررها في حمص!

هُم يدّعون أنهم يشبهون يوشع بن نون ونحن على يقين أننا لا نشبه الصحابة!

هُم أقاموا تاريخاً ميتاً من تحت التراب ونحن وأدنا تاريخاً حياً فخسرنا الجغرافيا وما زلنا ندّعي وصلاً بليلى!

هُم اثنتا عشرة طائفة في دين واحد ونحنُ ألف طائفةٍ لكلّ طائفة دين

هُم حدود دولتهم عند حذاء آخر جنديّ من جنودهم ونحنُ أغلقنا حدودنا بوجه بعض وما زلنا نغنّي بلادُ العرب أوطاني!

هُم يبحثون في الجامعات والمختبرات ونحنُ نبحثُ في غوغل!

هُم يعرفون قيمة الإنسان الميت فيعقدون صفقة تبادل يستبدلون فيها ألف حيّ بجثة ونحنُ عندنا الألف حيّ ليس لهم قيمة إلا إذا صاروا خبراً عاجلاً في نشرة الأخبار!

هُم يحميهم جيشهم ونحنُ لم نرَ جيوشنا إلا في رابعة ودمشق وصنعاء حين قُتلنا بالرصاص الذي دفعنا ثمنه من خبز أولادنا!

هُم يقرأون ما معدّله أربعين كتاباً للفرد في السّنة ونحنُ أمة إقرأ نقرأ ما معدّلة نصف صفحة للفرد في السّنة!

هُم يُربّون أولادهم أن قيمةً المرء فيما يعطيه للوطن ونحنُ نربّي أولادنا أن قيمةً المرء ما يأخذه من الوطن!

هُم يحتلون قبلتنا الأولى ونحنُ نحرسُ سفاراتهم في عواصمنا!

هُم عبدة المال الذين يتعالجون بالمجان ونحن الزاهدون الذين نموت على أبواب المستشفيات عندما لا نملك تكاليف العلاج

هُم يأخذون حقوقهم بالقوانين ونحن نأخذ حقوقنا بالمعاريض!

هُم عندهم مفاعل ديمونا ونحنُ عندنا أكبر صحن حمص وأكبر قرص فلافل وأكبر طبق تبولة!

هُم عندهم أن اليهوديّ الذي أمه يهودية وأبوه غير يهوديّ أكثر يهوديّة من الذي أبوه يهوديّ وأمه غير يهوديّة ونحنُ نمتهنُ النّساء!

هُم الكفار الذين يأتون من كل حدبٍ وصوب للصلاة في هيكل لا وجود له ونحنُ المؤمنون الذين لا يكتملُ صفّنا الأول في صلاة الفجر في مسجد الحيّ!

الوطن

١٦ / ٥ / ٢٠١٥

شُكراً موسى بن عمران!

١- شكرًا موسى بن عمران، من قصتك تعلمتُ أنه لا غالب إلا الله، وأنّ ما أمضاه سبحانه في سمائه كان في أرضه، فقد ذبح فرعونُ آلاف الأطفال كي لا تأتي، وعندما جئتَ رغمًا عنه ربَّاك في قصره، وأن قدر الله لنافذ!

٢- شكرًا موسى بن عمران، من قصتك تعلمتُ أنّ الدنيا أم! فقد صار قلب أمك على غيابك فارغًا، كان كل إخوتك عندها، ولكن قلبها كان عندك، ذاك أن أحبّ الأولاد إلى الأم صغيرهم حتى يكبر، وغائبهم حتى يعود، وقد كنتَ غائبهم وأصغرهم، فأعادك إليها لتقر عينها!

٣- شكرًا موسى بن عمران، من قصتك تعلمتُ أن المرأة في بعض المواقف تساوي ألف رجل! أمك تُلقيك، وأختكَ تتبعك، وآسيا تحضنك!

٤- شكرًا موسى بن عمران، من قصتك تعلمتُ أنَّ هذا الدين اصطفاء، ومنّة من منن الله وكرمه، ويا لحظك إذ يقول لك ربك «واصطنعتك لنفسي»، ويقول لك: «ولتصنع على عيني»، ويقول لك: «وألقيتُ عليك محبة مني»!

٥- شكرًا موسى بن عمران، من قصتك تعلمتُ أنّ كل ما في الكون جندي من جنود الله، هذا النهر الهادر الذي كان إذا غضب بأمر الله ألقوا فيه أجمل بناتهم قربانًا ليهدأ، صار ساعي بريد يحمل صندوقًا أرسله الله إلى عدوه لتكون فيه مهلكته!

٦- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أنّ الله يربط على القلوب ، ويثبت الأقدام ، ولولا أنه فعلَ ما ألقتك أمك في النهر وأنتَ قطعة من قلبها ، وأن القوي من ثبته الله ، والضعيف من أركنه الله إلى نفسه!

٧- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن الناس يحتاجون لمن يطمئنهم ، فقد قال الله لأمك مطمئنًا : ﴿ولا تخافي ولا تحزني﴾ ، إن ما يهلك الإنسان ويضنيه ليس شقاء الجسد وإنما شقاء الروح!

٨- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن الجزاء من جنس العمل ، فتلك التي ضحت بابنها لله رده الله إليها ، والذي تآمر ليأخذك من أمك أعطاك الله زوجته لتكون لك أمًا ثانية!

٩- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن لا أنصر قريبًا ولا حبيبًا على باطل ، فيوم ظننتَ أن قريبك على الحق ساندته ، ويوم تبين لك أنه غوي مبين هممتَ أن تبطش به!

١٠- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن بعض الناس لا يُقدّرون المعروف ، وأن الطعنة أحيانًا تأتي ممن حاولنا أن نساعدهم ، فالذي قتلت رجلًا لنصرته هو الذي أخبرَ عنك!

١١- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن لا أقف على الحياد ولو بكلمة ، وأني حين أرى الشّر فلا أستطيع أن أوقفه أن أخبر عنه على الأقل ، فالذي خلّد الله ذكره في القرآن ، رجل جاءك ليقول : ﴿إن الملأ يأتمرون بكَ ليقتلوك﴾!

١٢- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن أفعل المعروف ولا أنتظر السداد ، فلما سقيتَ لابنتيّ شعيب عليه

السلام ، توليت إلى الظل رغم حاجتك لمن يساعدك!

١٣- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن الاختلاط على قدر الحاجة وأن النبيل لا يستغل ظروف امرأة تحتاج أن تعمل ، وأن المرأة وإن عملتْ في حشد من الرجال من السهل أن تحافظ على عفتها!

١٤- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن أجمل مسحوق تجميل تضعه المرأة هو الحياء ، وأن الله حين وصف المرأة التي جاءتك تدعوك إلى أبيها ليجزيك خيرًا على ما فعلت ، لم يصف لنا وجهها وثيابها ، وإنما قال : «تمشي على استحياء»!

١٥- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن القوة دون أمانة تصبح استبدادًا ، وأن الأمانة دون قوة لا تقوم لها على الأرض دولة ، وقد كنت نعمَ القوي الأمين!

١٦- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن الناس على شروطهم ما لم تُحل حرامًا ، أو تُحرم حلالًا ، وأن النبيل عند شرطه ، وأنك لم تسِرْ بأهلك إلا بعد انقضاء أجل وافقت عليه ، وعهد أمضيته!

١٧- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن الرجل الحق يحتمي أهله به ولا يحتمي بهم ، فلا يعرضهم للخطر ليسلم ، ونعم الرجل أنت إذ تقول : «امكثوا إني آنستُ نارًا»!

١٨- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن من رحمة الله أننا قد نخرجُ طلبًا للدنيا فيعطينا الآخرة ، وقد ذهبتَ تطلبُ جذوة من نار فأعطاك قبسًا من نور ، وكلمك تكليمًا ، بالمفعول المطلق حيث تنتفي الكناية! وليتعلم المُعطلون لغة العرب ، فإنه بلسانٍ عربي مبين!

١٩- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن ذنوب الناس ليست مبررًا لغلظة الدعاة ، فالذي قال : ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ ، أرسلكَ الله لتقول له «قولاً لينًا»!

٢٠- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن النبيل يعترف بمزايا غيره ، وما أنبلك إذ تقول : «وأخي هارون هو أفصح مني لسانًا»!

٢١- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن الأخ سند ، ونعمَ الأخ كُنت إذ سألتَ الله أن يشركه معك في أمرك ، وما لأخ على هذه الأرض فضل على أخيه كفضلك على أخيك ، إذ تسأل له النبوة ، فشدّ الله به عضدك!

٢٢- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن العاقل يختار موعد النزال بدقة ، وقد كنتَ ذكيًا إذ اخترتَ يوم الزينة للمواجهة ، لتهزم فرعون وسحرته على الملأ!

٢٣- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن لا أيأسَ من أحد ، فالسحرة الذين جاؤوا لنزالك ضُحى ، ما غابت شمس ذلك اليوم إلا وكانوا مصلوبين في جذوع النخل ، مؤمنين ، موحدين!

٢٤- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن الله يقود الطغاة إلى مصارعهم ، فما حسبه فرعون يوم تبعكَ نصرًا سهلًا كان فيه مقتله!

٢٥- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن القوة بالله لا بالأشياء ، فالعصا العاجزة التي لم تكن تصلح إلا لتتكئ عليها ، وتهش بها على غنمك ، هي التي صارت حية ، وهي التي شقّت البحر لمّا أراد الله لها أن تفعل!

٢٦- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن الله يختار للمعركة السلاح الذي لا يخطر على بال ، من كان يظن أن الذي تأتمر ملائكة السماء بأمره ، أن يستغني عنهم ويختار البحر سلاحًا للمعركة!

٢٧- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن لا أرفع سقف توقعاتي بالناس لأنهم يتغيرون ، فالذين شققتَ لهم البحر ، عبدوا العجل!

٢٨- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن المؤمن يغضب لربه ولا حرج ، وما أجملكَ حين يُنتهك التوحيد فتصبح غاضبًا أسِفًا ، تأخذُ بلحية أخيك ، وتنسفُ عجل السامريّ نسفًا!

٢٩- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أن البعض لو أضأتُ لهم أصابعي العشرة شمعًا فلن يرضوا عني ، وقد قال قومك : ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾!

٣٠- شكرًا موسى بن عمران ، من قصتك تعلمتُ أنه ليس هناك أقل أدبًا ولا أكثر فظاظة من بعض الناس ، فالذين خلصتهم من الذل ، ورفعتَ عن عواتقهم نير الاستعباد هم الذين قالوا لك : ﴿اذهبْ أنتَ وربكَ فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون﴾!

مدوّنات الجزيرة

٢ / ٤ / ٢٠١٧

بناء الشخصيات الروائية!

يقولُ كريستي براون في سيرته الذاتية التي جعلها في كتاب عنوانه «قدمي اليسرى» :

غالبًا ما كنتُ أبدأ قصةً فيها عشرون شخصية ، ثم في منتصف القصَّة أشعرُ بالارتباك بحيث لا أعرف ماذا سأفعلُ بكل هؤلاء الناس ، لذلك أجعلهم يُطلقون النّار على بعضهم بحيث لا يبقى إلا قرابة اثنين من الشَّخصيات الأساسية ، حتى إن دفتري غدا مقبرةً لمن ماتوا بالرَّصاص!

قد يبدو هذا الكلام خبرًا طريفًا لمن لم يُجرِّبْ من قبل أن يكتب رواية ، ولكنه ليس كذلك إطلاقًا لمن خاض غمارها ، وجلس يبني من الحبر شخصيات على الورق! شخصيًا أجد أن بناء الشَّخصية الروائيّة أصعب ما قد يواجهه كاتب ما ، وعلى عكس كثيرين لا أجد الحبكة الروائية مرهقة ، ذلك أنها تبدأ خاطرة أو فكرة ، ولا أنكر أن الفكرة بحاجة إلى ذكاء الاصطياد ، ولكن تحويل الخاطرة العابرة إلى أدب مقروء هو بيت القصيد ، وهذه الخاطرة أو الفكرة إنما تتكئ على عكاز الشخصيات من أول كلمة في الرِّواية حتى آخرها!

ولا أجد خجلاً في أن أعترف أني مؤخرًا عشتُ بالحرف ما قاله كريستي براون حول إطلاق النار على أبطال قصصه للتخلص منهم ، في روايتي الأولى نبض ، لم يكن هناك سوى شخصيتين رئيستين هما نبض والرَّاوي ، أما بقية الشخصيات فكانت ثانوية تمر

مرورًا عابرًا حيث يخرجها بطلا الرواية ، فكنتُ أنتقلُ برشاقة من فكرة إلى أخرى ولا أجد عناء ، وعلى هذا المنوال سرتُ في روايتي الثانية نطفة ، لم يكن هناك إلا حمزة وأسماء وشخصيات تمر مرور الكرام ، فلم أواجه وعثاء بناء شخصيات غير حمزة وأسماء ، لهذا شعرتُ أني ممسك بزمام السرد كل الوقت ، وفي روايتي الثالثة عندما التقيتُ عمر بن الخطاب كان من الطبيعي ألا يكون غير عمر وأنا ، صحيح أنه في حضرة عمر هناك رهبة تتملك كل من يحاول الكتابة عنه فكيف بمن يجلس ليحاوره ، ولكن الأمور مرت على خير حسب ما أعتقد! غير أني في روايتي الجديدة التي أعمل عليها الآن ، قلت في نفسي : إلى متى سوف أبقى أهرب من كثرة الشخصيات ، لماذا لا أواجه هذا الأمر ، وبالفعل مضيتُ أواجه مخاوفي ، وذات مرة وأبطال القصة يركبون الحافلة ، قلت في نفسي : ماذا عساي أفعل بكل هؤلاء ، فكرت أن أجعل سائق الحافلة يهوي بها في وادٍ ، ويخلصني من عبء الشخصيات ، ثم إني عدلت عن قراري هذاً ، لأني لم أعتد أن أهرب من شيء أردت مواجهته!

لستُ أقول إن الرواية الناجحة يجب أن تقلّ فيها الشخصيات ، ولا أقول بالمقابل إن الرواية الفاشلة هي التي تكثر فيها الشخصيات ، فلو كانت شخصية واحدة لم يحسن الكاتب بناءها فستكون الرواية فاشلة ، ولو كانت مائة شخصية وأجاد الكاتب بناءها فستكون رواية ناجحة ، ما أردتُ قوله إن بناء الشخصيات الروائية عمل مرهق جداً!

الوطن

٣١- ١٠ - ٢٠١٧

المثقفون البرجوازيون!

يقول علي شريعتي : مشكلة المثقف عندنا أنه ينكر انتماءه لمجتمعه ، لهذا كيف يا عزيزي المثقف تستطيع أن تُعالج مجتمعًا لا تعيش فيه ، ولا تفهمه ، ولا تتحدث بلغته ، قل لي كيف؟

لقد بُلينا بفئة من المثقفين الذين يعيشون في أبراجهم العاجية ولن أقول في مدينة أفلاطون الفاضلة ، فتلك مدينة بنى صاحبها جدرانها بالقيم ورصف طرقاتها بالمُثل العليا وإن كانت غير قابلة للتحقق في أرض الواقع . . إلا أن مجرد حلم إنسان ما بمجتمع مثالي هو شيء محترم! ولكني سأقول أبراجهم العاجية ، لأنهم يعيشون في وادٍ والناس في وادٍ آخر ، ومع هذا تجدهم يُصرون على التنظير على هؤلاء الناس! والمثقفون البرجوازيون في الغالب يعملون عند السلطة إما لقاء أجر ، وإما مجانًا ، المهم أن يريك صاحبنا أنه يُطل من مكان مرتفع!

تُقرر الحكومة أن تستحدث ضريبة لسد عجزٍ ما ، والمواطن في بلادنا ، كما تعرفون ليس شريكًا في الربح وإنما في الخسارة فقط! فلو زادت مداخيل الدولة لا ترتفع الرواتب ، ولو زادت مصاريفها فعلى المواطن أن يُغطي هذا العجز! فيضج الناس وهم محقون في ضجيجهم هذا ، فيأتي صاحبنا ليكتب مقالًا يسألنا فيه ما هي الطامة الكبرى في أن تستحدث الحكومة ضريبة!؟ ثم يقارن بين الضرائب في بلادنا وفي كندا مثلاً ، ويخبرنا أنهم يدفعون أضعاف ما ندفع! طبعًا إن هذا البرجوازي المتملق لا يعرف كيف يُجاهد

الناس لتكفيهم مرتباتهم حتى آخر الشهر ، ولا يعرف كيف تُدفع أقساط المدارس والجامعات ، وكيف يُشترى الدواء ، ولا يمكن أن يفهم كيف يمكن لثياب العيد أن تكون أزمة حقيقية على ربِّ أسرة! وحين قارن هذا المتملق بين ضرائبنا وضرائب كندا لم يقارن بين الخدمات التي تقدمها حكوماتنا وحكومة كندا! في كندا يا عزيزي لا يُطرد الطالب من الجامعة إن لم يُسدد القسط ، ولا يموت الناس على أبواب المستشفيات إن لم يملكوا ثمن علاجهم!

الغريب في هؤلاء المثقفين البرجوازيين أن لهم قدرة عجيبة على تبرير تلك الأشياء التي لا تستطيع حتى الحكومات نفسها تبررها ، إذا شنّت حكومة ما حملة مسعورة واعتقلت كل من له رأي مخالف لرأيها ، يحدثنا صاحبنا عن نعمة الأمن والأمان ، وإنه على الإنسان أن يُضحي بشيء من حريته نظير أمنه ، وكأنه يستحيل الجمع بين الحرية والأمن! وقد يقول إنها مصلحة الوطن ، ولا أدري أي مصلحة لهذا الوطن في أن نكون قطيعًا لا نرى إلا ما يرى- على رأي سيئ الذكر فرعون- وقد صدق فلاديمير لينين شيخ الشيوعيين الضال حين قال : المثقفون أقدر الناس على الخيانة لأنهم أقدر الناس على تبريرها!

الوطن

٢- ١١ - ٢٠١٧

صحافة «الريموت كنترول»!

في العام ١٨١٥م هرب نابليون من سجنه في جزيرة ألبا ، وانطلق ليستعيد ملكه ، كما حاول من قبله ملكنا الضليل امرئ القيس ، ولكنه لم ينجح ، على العكس سار نابليون بخطى ثابتة ، يرافقه جيش يتعاظم يومًا بعد يوم ، بينما كانت جريدة «المونتير اونفيرسال» التي كانت من قبل جريدته الرسمية ، تؤكد أن الفرنسيين يتشوقون لهفة للموت دفاعًا عن الملك لويس الثامن عشر ، وتُسمي نابليون : مغتصب الوطن بقوة السلاح ، والمأجور ، والخارج على القانون ، وزعيم قطاع الطرق!

ولكن الملك هرب أخيرًا ولم يمت من أجله أحد ، وجلس نابليون على العرش دون أن يطلق طلقة واحدة .

عندها عادت الصحيفة نفسها لتقول : أحدث خبر دخول نابليون السّعيد إلى العاصمة ابتهاجًا ، والجميع يتبادلون العناق ، وهتافات يحيا الامبراطور تملأ الأجواء!

للهِ الأمر من قبل ومن بعد ، وهذا حال أغلب الصحف من قبل نابليون ومن بعده ، وعلى ما يبدو إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها! إن مهمة الصحافة كما يقول مصطفى أمين : أن تقول للحاكم ما يريده الشعب ، لا أن تقول للشعب ما يريده الحاكم!

لا يفهم أحد من كلامي أني أريد من الصحافة أن تكون شتّامة لعّانة ، كل ما أتمناه أن تتكلم بلسان الناس ، والناس يريدون

أحيانًا أن يقولوا شكراً لملك أو رئيس أو وزير ، تماماً كما يريدون أن يقولوا لهؤلاء : تباً لكم!

إذا اقتصرت مهمة الصحافة على الردح فهذا لا يقل سوءاً برأيي عن تفرغها للتطبيل ، وكلاهما أمر سيئ مذموم ، الردح الدائم يتنافى مع «سددوا وقاربوا» ، والتطبيل فيه من التملق ما يُذهب ماء الوجه ، العقل والمنطق يقضيان ألا ننظر إلى النصف الممتلئ من الكوب فقط ، ولا إلى النصف الفارغ منه فقط ، لو اكتفينا بالنصف الممتلئ فلن يمتلئ الكوب أبدًا ، ولو بقينا نذم نصفه الفارغ دون أن نثني على نصفه الممتلئ قد ينسكب ما فيه ويصبح الكوب كله فارغًا!

ولكن ما لم أفهمه أبدًا ، ولا أريد أن أفهمه ، ولن أحاول أن أفهمه ، كيف يستطيع كاتب أن يكتب بـ«ريموت كونترول» يضغطون عليه ، حان وقت المديح يا هذا استحضر كل غزلك ، حان وقت الهجاء يا هذا ، استحضر كل فجورك! المثير للاشمئزاز أن كُتاب الريموت كنترول هؤلاء لديهم هجاء ومديح في شخص واحد ، وفي فكرة واحدة ، رغم أن الشخص على حاله ، والفكرة كما هي ، ولكن ثمة من أراد منه أن يكتب!

الوطن

١١- ١١ - ٢٠١٧

العين بالعين!

من القوانين الجميلة في هذا العالم ، قانون سنغافوري يقول :

إذا رميتَ النفايات في الشارع ثلاث مرات تُعاقب أيّام الآحاد بتنظيف الشارع وأنتَ ترتدي زيّا مكتوبٌ عليه : «أنا أُلقي النفايات»!

وليس بعيدًا عما عليه السنغافوريين ، في العام الماضي قرأتُ عن لصٍّ في البرازيل اقتحم بيت صاحب محل أوشام ، فانطلقتْ أجهزة الإنذار في البيت ، فجاء صاحب البيت وأمسك باللصِّ ولم يتصل بالشرطة ، وإنما أوثقه ووشم على جبهته جملة تقول : لا يكفي أني لصّ ولكني غبي أيضًا!

تعجبني سياسة العين بالعين ، ولا أنتقصُ من العفو والقيم النبيلة والتسامح ، هذا هو الأصل فيما يقع بين الناس ، ولكن ثمة مواقف في الحياة يصبح العفو فيها مهزلة ، ومضيعة للوقت ، تمامًا كمحاولة إجراء تنفس اصطناعي لميت! ولا أبالغ لو أن القوانين تأخذ هذه السياسة بعين الاعتبار وتعمدُ إلى تنفيذها لكانت أجدى وأنفع بكثير من الإجراءات القانونية المُتّبعة ، وبالمناسبة إن باب التعزير في الشريعة الإسلامية قائم على هذا المبدأ ، فليس من العدل أن يسقط كل فعل مشين ليس فيه حدّ!

لو أنّ متحرشًا يُلقى عليه القبض ، ويُطاف به في الشوارع وهو يلبسُ قميصًا كُتب عليه : أنا متحرش! لخفت هذه الظاهرة كثيرًا ، ولارتدع كثيرون!

ولو أن كل من اعتدى على إنسان بالضرب أحضرناه إلى مكان عام ، وأعطينا المُعتدَى عليه عصًا ليضربه على رؤوس الأشهاد كما فعل عمر بن الخطاب من ابن عمرو بن العاص في حادثة القبطي الشهيرة والتي يتنطع كثيرون بعدم صحتها بحجة انقطاع في السند ، رغم أن الحادثة تقع ضمن الأخبار التاريخية لا ضمن الأحاديث النبوية وبمنطق الأسانيد هذا يجب أن نحرق كل كتب التاريخ لانقطاع أسانيدها ، وحجة أخرى أنها تُسيء لعمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ، ولا أعلم أين الإساءة في أن يقتصّ الخليفة للضعيف من ابن الوالي ، ولا أين الإساءة في أن يُحضر الوالي ابنه للقصاص! واللهِ إن لم تكن هذه في فضائل الرّجلين ، لما بقي على الأرض فضائل!

بقي أن أشير أنّ ما أدعو إليه ، وهو انتصار المظلوم أمام الرأي العام ومن خلاله هَدي نبويٌّ بالأساس ، فقد روى البخاري في الأدب المفرد :

أن رجلًا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

يا رسول الله إن لي جارًا يؤذيني

فقال له النبي : انطلق فأخرج متاعك إلى الطريق

فانطلق فأخرج متاعه ، فجعل الناس يمرون به ويسألونه عن السبب فيقول : لي جار يؤذيني فذكرتُ ذلك للنبي فقال لي : أخرج متاعك إلى الطريق

فجعلوا يقولون : اللهم العنة ، اللهم اخزه

فبلغ ذلك جاره : فأتاه فقال : أرجع إلى منزلك ، فو اللهِ لا أؤذيك!

الوطن ١٤- ١١ - ٢٠١٧

الدعاية العكسية!

يقول إدواردو غاليانو في كتابه «أبناء الأيام» :
في ١٦ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٠ ، أقرّ مجلس شيوخ الولايات المتحدة قانون منع الكحول المعروف بقانون الجفاف ، وهكذا تأكد مرة أخرى أن المنع هو أفضل طريقة للترويج ، بفضل قانون الجفاف ازدهرت صناعة الخمور المحظورة واستهلاكها وقام آل كابوني وجماعته بالقتل وتحقيق الأرباح أكثر من أي وقت آخر .
وفي العام ١٩٣٣ اعترف الجنرال سميدلي باتلر الذي قاد مارينز الولايات المتحدة في امتداد ستة عشر عامًا . إن نجاحات آل كابوني في شيكاغو كانت مصدر إلهام لجنوده في ثلاث قارات .
المنع هو أفضل طريقة للترويج ، هذه حقيقة يعرفها الجميع اليوم ، إذا أردتَ أن تنشرَ كتابًا قُم بحظره ، هذا الحظر سيمنحه في الغالب قيمة أكثر من القيمة التي كان سينالها لو كان رائجًا ، خذ عندك مثلًا كتاب آيات شيطانية لسلمان رشدي ، الكتاب تافه وأتفه منه صاحبه ، ولكن الحملة المستعرة ضد الكتاب أدّت لبيع ألوف النسخ منه ، وكُتب عنه مئات المقالات ، وصار سلمان رشدي في الغرب بطلًا ثقافيًا مضطهدًا ، طبعًا أنا لستُ ضد منع الأمراض الفكرية وإنما أكتب من باب التوصيف ، وسرد الواقع لا أكثر!
قرأتُ مرة شيئًا له صلة بما أحدثكم عنه ، يقول صاحب الكلام إن الرقابة السينمائية في مصر تتلقى أموالًا من بعض مؤسسات إنتاج الأفلام لتقوم بحظر فيلم ، ثم تتجه مؤسسات الإنتاج إلى

المحاكم لتحصل على حكم يبطل حظر الرقابة ، وبين المدة الفاصلة من حظر الرقابة للفيلم إلى صدور الحكم بعرضه ، تكون الصحافة الفنية قد كتبت عشرات المقالات ضد تكميم الأفواه ومصادرة حرية الفكر والفن ، وعندما يتم عرض الفيلم في دور السينما يقبل عليه الناس كأمواج البحر ، فتجني مؤسسات الإنتاج أضعاف ما دفعته من رشى ، والناس في هذا معذورون لأنهم يريدون أن يشاهدوا ما هذا الشيء الذي وقفت ضده الرقابة بهذه الصرامة ودافعت عنه الصحافة بهذه الاستماتة!

اغتيال غسّان كنفاني من قبل الموساد أعطى حياة لأدبه ، وتوجه بهالة من المصداقية ، سيد قطب لولا إعدامه ما كانت أفكاره وكتبه لتلقي هذا الرواج الذي لقيته! وجيفرا لم يكن اليساري الوحيد الذي حارب الاستعمار ولكن النهاية ، طريقة الحظر تحديدا ، في حوّلاه من رجل إلى أيقونة!

من هنا نستنتج أن بعض المنع قد يكون ذكيًا وبعضه قد يكون أحمق ولكن بكلتا الحالتين فإنه يقوم بمهمة الترويج على أكمل وجه!

عندما حظرت فرنسا النقاب زاد عدد الفرنسيين الذين اعتنقوا الإسلام أضعاف ما كان يحصل من قبل ، والسبب لأن الفرنسيين صاروا يقرأون عن هذه المنظومة الفكرية التي تقف وراء النقاب .

خلاصة الكلام :

الحظر : بغض النظر عن النية التي تقف وراءه هو أعلى درجات التسويق!

الوطن ١٦- ١١ - ٢٠١٧

نفحات نبويّة على اللغة العربيّة!

يقولُ النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم : «أُوتيتُ جوامع الكَلِم»

وعرّفَ البُحتريُّ جوامعَ الكَلِمِ فقال : جوامعُ الكَلِمِ ما قلّ وجلَّ ودلَّ ولم يُملّ!

وعرّفه ابنُ الأثيرِ فقال : عظيمُ المعاني ببسيطِ العبارة!

وهذا عند العربِ غاية البلاغة ، وقد سُئل الجرجانيُّ عن البلاغة فعرّفها بكلمةٍ واحدة ، قال : البلاغة الإيجاز! وقد بُعث عليه الصّلاة والسّلام في قومٍ أهل بلاغة ، يأسرهم حَسَنُ العبارة ، ويسحرهم بليغ القول ، فكانً بحسن عباراته آسراً ، وببليغ قوله ساحراً! ومن سحر بلاغته أنّه أضاف إلى اللغةِ العربيّة ألفاظاً لم يعرفها العربُ قبله باللفظِ وإن عرفوها بالمعنى!

ومن جميل قوله ما جرى بين العربِ مثلاً يقولونه إذا استعذبوا قولاً ، أو فُتنوا ببلاغة : «إنّ من البيان لسحراً» وقد قالها صلى الله عليه وسلّم بعدما سمع بلاغة الزّبرقان بن عَديّ ، فغدتْ من يومها في العربِ قولاً مأثوراً!

ومن أقواله التي لم تعرفها العربُ قبله : «لا ينتطحُ فيها عنزان»! فصارتْ مثلاً يُقال في المسائل التي لا خلاف فيها ، كأن يسألك أحدُهم : أَترثُ المرأةُ؟ فتقول له : هذه مسألة لا ينتطحُ فيها عنزان! أي هي من المُسلّمات التي ليست موضع خلاف .

ومما حفظت العربُ عنه قوله : «ماتَ حتفَ أنفه» ، وقد قالها

لمن قعدَ عن الجهاد مخافة أن يدركه الموت ، فأدركه على فراشه! ثمّ اتخذتْ دلالة أوسع مع الزّمن فصارتْ تُقال لكلّ تارك أمرٍ فراراً من الموت فأدركه من غيره!

ومن أقواله التي لم تعرفها العربُ قبله في الحرب ، رغم أنها أُمّة غزو ، فشا فيها القتال ، واستعرتْ بينها الحروب التي دارت رحاها أعواماً ، كداحس والغبراء بين عبس وذبيان ، والبسوس بين تغلب وذهل ، والفُجَار بين مُضر وقيس ، قوله : «الآن حميَ الوطيس» أي الآن اشتدت الحربُ ، فأخذتها العربُ عنه ، وصارت جملةً لا تخلو منها معركة! ومن أقواله في الحرب أيضاً : «الحربُ خَدعة» ، وقيل الحربُ خُدعة ، وهي بالفتح أصوب ، وهي جملة تخطّت حدود العرب ، وتستخدمها اليوم البشريّة قاطبة!

ومن أقواله التي جرت بين العرب مجرى المثل قوله : «المُستشار مُؤتمن» . وهذه مقولة تجمع أناقة اللفظ وأناقة الخُلق! أي أنّ كلّ من استشارك بأمرٍ فكأنّه وضع عندك سرّاً ليس لكَ أن تفشيه!

ومن بليغ عباراته التي لم تعرفها العربُ قبله قوله : «السّعيدُ من وُعِظَ بغيره» . وتُقال لمن كان عازماً على أمرٍ فلما تفكّر في عاقبة أقوام أقدموا عليه قبله أحجم عنه!

ومن أقواله التي تجمع جمال اللفظ وجلال المعنى قوله : «حُبّكَ للشيءِ يعمي ويصمّ»! وفيه يُنبّهنا إلى عدم المغالاة في الحُبّ ، فالمؤمن لا يرضى بباطلٍ ولو أتى به أحبُّ النّاسِ إليه ، ولا يردُّ حقّاً ولو أتى به أبغضُ النّاسِ إليه! فالحُبُّ المفرط كالكراهية المفرطة تعمي ، ففي الحُبّ المفرط لا نرى إلا الحسنات ، وفي البُغض المفرط لا نرى إلا السّيّئات!

وله أقوال كثيرة فتنَ بها أصحاب الألسن البليغة ، ولكن لا

يتّسعُ لها المقام كقوله «النّاس معادن» وقوله «الناس سواسية كأسنان المشط» وقوله «كلكم لآدم وآدم من تراب» ولكن لا يتسعُ لها المقام ، فاخترتُ ما قرأتم والسّلام!

الوطن

٢٠- ٢- ٢٠١٦

شجرةُ الخُلد

قال عمرُ المختار قبل لحظاتٍ من إعدامه من قبل المحتلين الإيطاليين: «يستطيعُ المدفعُ أن يُسكتَ صوتي ولكنّه لا يستطيعُ أن يُلغي حقّي، والشيءُ الوحيدُ المؤكد لديّ الآن أنّ حياتي ستكون أطول من حياتي شانقي»!

ونبقى مع الإيطاليين ولكن بعيداً عن حبال المشانق، قال الرّوائيّ والفيلسوف الإيطاليّ أمبرتو إيكو: «للاستمرارِ في هذا العالم الرّهيب يجب أن تنجحَ في شيئين اثنين على الأقل: أن تكتبَ كتابًا، أو أن تُنجب طفلاً»! عموماً مات إيكو منذ أيام، وقد أحرزَ نجاحاً كبيراً في هذين الأمرين، فقد كتبَ وأنجبَ ولكنّه لم يستطع الاستمرار!

ليستُ هنا لأنعى إيكو، ولكنّ الشيء بالشّيء يُذكر، لطالما كان الموتُ أكثر ما يشغل الإنسان، وبعيداً عن الموت أو قريباً منه، شغلت فكرة الخلود البشر حتى قبل وجودهم على هذه الأرض، وكان مما أغرى به إبليسُ آدمَ وهو يُزيّن له شجرة المعصية «هل أدلكَ على شجرة الخُلد وملك لا يبلى»!

وبعد النّزول إلى الأرض استمات البشرُ بحثاً عن حياة أبدية، وأفنى الكيميائيون أعمارهم لإيجاد إكسير الحياة أو ماء الخلود، ولم يحدث أن جاء زمنٌ لم يحلم الناس فيه أن يعيشوا إلى الأبد! لهذا جاب الملك السّومريّ جلجامش الأرض بحثاً عن نبتة الخلود بعد وفاة صديقه أنكيدو، وتقول أسطورة البابليين هذه أنّه لمّا عثر عليها

سبقته أفعى إليها وبقي البشر محكومين بالموت! يبدو من كلّ ما سبق أن فكرة المكوث على ظهر هذا الكوكب هي فكرة جذابة للكثيرين ، رغم أني أميلُ إلى رأي الجاهليّ الجميل زهير بن أبي سلمى في مطلع معلقته حين قال :

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يعشْ
ثمانينَ حولاً لا أبا لكَ يسأم

لا مناص من الموت إذاً ، وستبقى فكرةُ الخلود تدغدغُ أحلام البشر دون جدوى ، لأنهم يفهون أنّ الخلود في أن تكون الحياة طويلة ، رغم أنّي أرى الخلود في أن تكون الحياة عريضة!

كلّ الذين خلّدهم التاريخ كانوا قد عاشوا لفكرة ما ، آمنوا بها حدّ اليقين ، لهذا لم يستطع الموت أن يُغيّبهم ، كل ما فعله أنه اغتال أجسادهم فقط ، أما أرواحهم فما زالت تخفقُ حتى اللحظة أقوى من أرواح كثير من الأحياء! ويبدو لي أنّه ليس من المهم كيف يموتُ الإنسان وإنما كيف يحيا! أبو بكر مات على فراشه ، وعمر وعليّ ماتا مطعونين في صلاة الفجر ، وعثمان مذبوحاً على المصحف ، وعمر بن عبد العزيز مات مسموماً ، وابن تيمية مات مسجونا في قلعة دمشق فوق كتاب الفتاوى ، وسيّد مات مشنوقاً في السّجن الحربيّ على مقربة من ظلال القرآن! كلّ واحد منهم مات بطريقة ، ولكنّهم جميعاً عاشوا لله لهذا تخلّدوا!

لا يمكن الخلود دون فكرة ، نبيلة كانت أم وضيعة ، وكلّ إنسان قد تخلّد اختار فكرة على شاكلته ، وأفنى حياته في سبيلها ، قارون عاش لأجل المال ، والنمرود عاش لأجل المُلك ، وفرعون عاش لأجل الجاه ، وأبو لهب وأبو جهل وعتبة وأمية عاشوا لأجل دين آبائهم ، هؤلاء أيضا تخلّدوا لكن هناك فرقا بين من يُكتب اسمه

في أنصع صفحات التّاريخ ، وبين من يُذهبُ به إلى مزبلته!

شجرة الخُلد لا يمكن أن تكون إلا في فكرة ، فإذا أردتَ أن تأكل من ثمرها فآمن بفكرة حتى اليقين ، عِشْ لها ، واعمل بها حتى آخر رمق . لا فكاك من الموت ، ولا سبيل للحفاظ على الأجساد ، والكائن الوحيد الذي ظل جسده خالداً حتى اللحظة هو إبليس ، وتلك لم تكن جائزة بل كانت عقاباً!

الوطن

٢٧- ٢- ٢٠١٦

دعوهم وشأنهم!

قال أميرُ المؤمنينَ عليّ بن أبي طالب رضيَ اللهُ عنه : لا تُربُّوا أبناءكَم كما ربّاكم آباؤكُم فإنّهم وُلدوا لزمانٍ غير زمانكم!

يبدو لي أنّ الفذّ ابن أبي طالب كان يقصدُ بالتربيةِ هنا العقليّةُ لا القيم ، فالقيمُ مجموعةٌ من الأخلاق الحسنة التي لا تفقدُ قيمتها بتعاقب الأيام ، فعلى سبيلِ المثال : الأمانةُ والصّدقُ والوفاءُ والعفّةُ أخلاقٌ نبيلةٌ ما لم يتحلَّ بها الإنسانُ لن يكون إنساناً وإن وطأ سطح القمر ، وشيّد ناطحاتِ السّحاب! أمّا العقليّةُ فهي طريقةٌ التفكير التي يتعاطى بها الإنسان مع واقعه ، وما دام واقع الإنسان متغيّرا دوماً فالحكمة تقتضي طريقةٌ متغيّرة في التفكير أيضاً! وقريباً من هذا يقولُ العبقريُّ آلبرتْ آينشتاين : لا يمكنُ حلُّ المشاكلِ بنفس العقليّة التي أنتجتها!

يقولُ بيكاسو : قالتْ لي أُمي يوماً : إذا صرتَ جنديّاً ستصبحُ جنرالاً ، وإذا صرتَ راهباً ستصبحُ البابا ، ولكنّي صرتُ رسّاماً وأصبحتُ بابلو بيكاسو!

يرغبُ الأهلُ بغالبيتهم العظمى أن يصبحَ أولادهم أطبّاء أو مهندسين ، وهذه رغبةٌ جديرة بالاحترام ، ولا يمكننا أن نلومَهم لأنّهم أرادوا لأولادهم الأفضل ، وليس في الأمرِ شيءٌ إن أرادَ الأهلُ من وراء هذا أن يتباهوا بأولادهم حتى! لا يُلام المزارعُ إذ يتباهى بمحصوله الوافر ، والأهلُ زُرّاعٌ والأولادُ محصول! ولكن الذي يُخطئ فيه الأهلُ هو أن يجعلوا أولادَهم يعيشون حياةً لا يريدونها ،

ويمشُوا في طريق لا يرغبون أن يمشوها! عندما نجبرُ ولداً أن يصبحَ طبيباً أو مهندساً وهو يريدُ أن يصبحَ شيئاً آخر فنحن هنا لا نخدمه بقدر ما نحطّمه! الوظيفةُ التي تدرُّ راتباً أكثر ليس بالضرورة أنها تدرُّ سعادةً أكثر! ولو تأملنا في الحياة من حولنا لاكتشفنا أنّ هناك ملايين الأطباء ولكن هناك بيتهوفن واحدا! وهناك ملايين المهندسين ولكن هناك محمود درويش واحدا! وهناك ملايين المدراء ولكن هناك أغاثا كريستي واحدة! وهناك ملايين الوزراء ولكن هناك محمد متولي الشعراوي واحدا! وهناك ملايين الجنرالات وهناك علي عزت بيغوفيتش واحدا!

كوننا جئنا بالأولاد إلى الحياة لا يعني أنّه يحقّ لنا أن نسلبهم حرّيتهم في اختيار حياتهم! وكوننا فشلنا في أن نصبح أطباء أو مهندسين فليس من حقنا أن نسعى لنصبح هذا من خلالهم! وكوننا نحب التباهي فليس من حقنا أن نجعل منهم «بريستيجنا» الاجتماعي! لماذا نريد أن نعيش حياتنا وحياتهم؟!

الأولادُ بحاجة إلى النّصح والإرشاد والتوجيه ، لا بأس أن ننصحهم بالأفضل إذا رأيناه ، ولا بأس إن وجهنا الطاقات ، ووضعنا الأقدام على الطريق ، بل هذا هو الواجب ، ولكن البأس أن نتعامل معهم على أنّهم دمى ليس لها رغبات وأحلام وأمنيات ، انصحوهم ، ساعدوهم ، وجهوهم ، ناقشوهم ، ولكن تذكّروا بعد كلّ هذا أن تدعوهم وشأنهم!

الوطن

١٩- ٣- ٢٠١٦

خيرُ الشّرّين

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

ليس الفطِنُ من عرفَ الخير من الشرَّ ، وإنما الفَطِنُ من عرف خير الشَّرين!

لو كانت الحياة تضعنا دوماً في خيار بين الخير والشرّ لتفضلت علينا كثيراً ، فخيار كهذا رفاهية ليست متاحة على الدوام! ولكنها في كثير من مواقفها تضعنا بين أمرين أحلاهما مرٌّ!

واختيار خير الشّرين ليس مبدأً من مبادئ العقل فقط ، وإنما مبدأ من مبادئ الشريعة أيضاً ، وما استحسن العقل السليم رأياً إلا وكانت الشريعة قد سبقته إليه ، فحين خرق الخضر سفينة الصيادين المساكين ، استهجن موسى عليه السلام فعلته هذه ، لأن الفطرة السوية ضد الشر مهما كان صغيراً ، ولكن الخضر كان يختار خير الشرين ، إما أن يخرقها وإما أن يبقيها سليمة فيسلبهم الملك إياها ، وسفينة مثقوبة لأهلها تُصلح على الشاطئ فيما بعد ، خير لهم من سفينة سليمة ومسلوبة عند الملك!

يروي صديق حسن خان – وهو أحد الفقهاء والمعاصرين وليس عمدة لندن الذي انتخب أخيراً– قال :

حكم أحد الملوك الظالمين بالإعدام على شيخ المملكة ، فذهب إلى الملك شيخ آخر يشفع له ، وقبل الملك شفاعته ، ولكنه اشترط أن يقوم الشيخ الشافع بجلد المحكوم عليه بالإعدام مائة جلدة أمام الناس!

وضعه بين خيارين أحلاهما مر ، وكان عليه أن يختار بين سمعته وبين دم الشيخ ، فاختار أن يضحي بسمعته ويحقن دم الرجل ، وبالفعل جلده أمام الناس ، وما زال فيهم مذموماً ، وقد كان بينه وبين الله نبيلاً!

وأخرج الذهبي في ترجمته لرجاء بن حيوة ، ورجاء من فقهاء التابعين الأفذاذ ، عاش في عهد سليمان بن عبد الملك ، وكان سليمان يُجله ويقدره ، وكان رجاء يعرف أن سليمان يستهين بالدماء ، فيقتل في أي شبهة ترده! وحدث أن تكلم تلاميذ رجاء في حضرته عن ظلم سليمان ، فسمعهم أحد الوشاة ، وعرف رجاء أن هذا سيحملها إلى سليمان بن عبد الملك ، وهكذا كان!

وعندما استدعى سليمان رجاءً وأنَّبه ، أقسم رجاء أن هذا الكلام ما حدث في مجلسه ، فما كان من سليمان إلا أن أمر بجلد الواشي أربعين جلدة لكذبه!

وفي اليوم التالي قال الواشي لرجاء : تكذب وأنت فقيه المسلمين؟

فقال له رجاء : أربعون جلدة في ظهرك ولا سيف سليمان في رقاب الناس!

ما أوردتُ هذه القصص للمتعة بل للعبرة ، ولننزلها منزل التطبيق في الحياة ، إن وُضعنا بين أمرين أحلاهما مرّ ، أحياناً إبقاء مشكلة على الشكل الذي هي عليه هو الحل المثالي لها ، فالحلول الجذرية مؤلمة أحياناً ، والمصلحة التي تتحقق في حلها أقل كثيراً من المفسدة التي تترتب على ذلك ، لهذا كان دوماً درء المفاسد مقدم على جلب المصالح!

أحياناً يكون الطلاق حلاً وأحياناً يكون باباً لمشكلة أكبر!

وأحياناً يكون ترك عمل شيئاً حسناً ، وأحياناً تكون الأشياء المترتبة على تركه أسوأ من البقاء فيه!

أحياناً قول كلمة قد يكون خيراً ، وأحياناً قد يكون الصمت هو الخير الوحيد في هذا الموقف!

من تمام النضج أن نعرف أن الدنيا في مرحلة ما لا تغدو أسود وأبيضَ فقط ، وخيراً وشراً فقط ، هناك لون رمادي ليس له علاقة بالنفاق بقدر ما له علاقة بالفهم .

الوطن

١١- ٦- ٢٠١٦

أبغضُ الحلال!

يقولُ الشّيخ علي الطنطاوي رحمه الله :
لبثتُ قاضياً في محكمة النّقضِ سبعاً وعشرين سنة ، فوجدتُ أنّ أكثر حوادث الطّلاق سببها غضبُ الرجل الأعمى ، وجوابُ المرأة الأحمق!

الخِلافاتُ الزّوجية شيء طبيعي في حياة أي زوجين ، تفرضها هموم الحياة ومتطلباتها ، واختلاف أمزجة الناس وتقلبها ، ولا تستغربوا إذ أقول إنها دليل عافية ، بل هي ضرورية أحياناً! ونحن نحتاجها بين فترة وأخرى كما نحتاج الوفاق فيما تبقى! لأنّ الحياة التي تسير على وتيرة واحدة تأسن كالماء الرّاكد! ولكني أقصد الخلافات التي تبقى ضمن نطاق الأدب فلا تُهان فيها الكرامات ، ولا تُمتهن فيها المشاعر ، ولا تُكسر فيها القلوب ، لأنّ كسر القلوب وإن كان لا يصدر صوتاً ككسر العظام إلا أنه أشدّ ألماً! وتذكروا أن النبلاء يظهرون في الخصومات ، ففي لحظات الوفاق كلنا نبلاء!

ولكن جرت سُنة الله في النّاس أن تصل الأمور أحياناً إلى طريق مسدود ، فالنّاسُ كالمركّبات الكيميائية ، بعضها إذا تلاقى كان هناك خيرٌ كثير ، تماماً كما يتلاقى الأوكسجين والهيدروجين فيكون الماء! وبعضها إذا تلاقى كان هناك خراب كبير ، تماماً كما يُطفئ الماء الحرائق ، ولكننا إذا سكبناه على الصوديوم الجالس بأمان الله اشتعل!

ولكن علينا أن لا ننسى أنّ المركبات الكيميائية مخلوقات

عاجزة أمام التفاعلات! فهي لا تملك إرادة أن تتفاعل أو لا تتفاعل ، عندما تتهيأ لها الظروف تنجر إلى التفاعل بلا حول ولا قوة! ولكن البشر ليسوا بهذا العجز ، لقد خلقنا الله سبحانه بعقول وإرادات ، وقدرة على تجنب المشكلات وتلافيها ، فكثير من المشاكل التي تقع إنما تبدأ بالأساس صغيرة ولكن ردة فعلنا تجاهها هي التي يُفاقمها!

والرّجلُ الحقيقيّ هو رجل للمرأة لا عليها! ومن لطيف ما قرأتُ في تفسير «وعاشروهنّ بالمعروف» ، قال المُفسّر : العشرة بالمعروف ليس عدم إلحاق الأذى بها ، وإنما احتمال الأذى منها! أحياناً موقف نُبل من الرّجل يُطفئ مشكلة لو تفاعل معها لشبّ في البيت حريق كبير! تماماً كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في إحدى لياليه في بيت عائشة ، إذ أرسلت إليه إحدى زوجاته قصعة فيها طعام مع خادمها ، فما كان من عائشة إلا أن ألقتها من يد الخادم فانكسرت! فالتفتَ النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وقال مبتسماً : غارتْ أمكم! وطلب من عائشة أن تعطي الخادمِ قصعة بدل التي كسرتها! بموقف عقل وقلب حوّل العظيم موقفاً غاية في الإحراج إلى موقف غاية في النُبل!

والمرأةُ الحقيقية هي التي تأبى أن تتخلى عن أنوثتها مهما أغراها الموقف بذلك! مناقشة رجل غاضب كمحاولة إطفاء النار بإلقاء الحطب فيها! سكوت المرأة في غضب الرّجل هو الموقف المثاليّ في تلك اللحظة ، وعندما تهدأ الأمور تقول ما أرادت آنفاً أن تقول متذكرة أن الأسلوب جزء من الكلامِ ، فالأسلوب السّيئ يحط من المضمون مهما كان صادقاً وجميلاً ، ولا يغبْ عن بالكنّ أنّ الرجل طفل كبير ، بالحيلة واللطف تجعلونه طيّعاً ، وبالعناد تجعلونه شرساً!

شرع الله الطلاق حلاً لمشكلة لم يعد لها حلّ غيره ، ولكن علينا أن نتذكر أننا أزواجاً وزوجات نوصل الأمور بأيدينا إلى طريقها المسدود ، وإن حياة تكفّل الله أن يجعل فيها مودة ورحمة لا تفشل إلا إذا أردنا لها أن تفشل!

قديماً كان الطلاق أقلّ ليس لأنّ الناس امتلكوا مقومات سعادة أكثر ، ولكنهم امتلكوا إرادة حياة أكثر! موقف نُبل وعقل من الرجل ، وموقف أنوثة وهدوء من المرأة ، هو كل ما نحتاج في بيوتنا . . . وتستمر الحياة .

الوطن

١٣- ٨- ٢٠١٦

اخشوشنوا أيها القوم!

كتبَ القسيسُ ألفارو القرطبيّ في مذكّراته ، متذمراً من الحال التي وصل إليها شبابُ نصارى الأندلس ، قائلاً :

يا لحسرتي وأنا أرى الموهوبين من شبابِ النصارى يحرصونَ على اللغة العربيّة أكثر من حرصهم على لغتنا ، وإنّ أحدهم ليحفظُ بعض كلام العربِ وغزلهم ، ليتباهى به أمام حبيبته!

ما ذكرَه ألفارو في مذكّراته يندرجُ ضمنَ ما ذكره ابنُ خلدون في مقدّمته : «المغلوبُ مولعٌ دوماً بتقليد الغالب»! وما لا أفهمه شخصيّاً ، لماذا لا يكتفي المغلوبُ بالهزيمة العسكريّة ، ويصرُّ أن يجعلَ معها هزيمةً ثقافيّة ، فالهزيمة العسكريّة هي خسارة معركة ، بينما الهزيمة الثّقافيّة هي خسارة الحربِ كلّها!

طبعاً ، تعلّم لغاتِ الآخرين لا شيء فيه ، أعداءً كانوا أم أصدقاءً ، على العكسِ تماماً هو مطلب حياتيّ ، وإن كان من تعلّم لغة قوم فقد أمِنَ مكرهم لا يصحُّ حديثاً ، إلا أنّه يصحُّ واقعاً ، ناهيك أنَّه ليس بالضرورة أن تكون العلاقة بين الأمم علاقة حرب كلّها ، فالنّاسُ محكومون بالتواصل فيما بينهم بغضّ النّظر عن شكل العلاقة التي تجمعهم!

ولكن تعلّم لغة قوم شيء ، واستخدامها بين أهلكَ وناسكَ بغرض التباهي شيء آخَر ، فبإمكانك أن تكون «كيوت» دون أن تكون مايعاً! وجملة كـ«هاي ... كيفك ... سافا» التي تجمع ثلاث كلمات كلّ كلمة من لغة ، فيها من السماجة أكثر مما فيها

من الكيتنة! والكيتنة لفظة اشتققتها من كيوت سدد الله قلمي!

تباً لكم ، وتباً هذه مرادفة لكلمة shit التي تستخدمونها عند كلّ مأزق خطير ، ومصيبة تلم بكم ، كانكسار ظفر أحدكم!

من أخبركم أن bonjour أكثر شاعريّة من صباحكِ سُكّر

وأنّ i missed you أكثر لهفةً من اشتقتُ إليك

وأن hug me أكثر حناناً من ضمّني

مساكين لأنكم لا تعرفون أية فتنة تكمن في أن يفتح أحدكم ذراعيه لامرأته ويقول لها : تعالي!

بعض الإيماءات أبلغ من لغتكم المستوردة كلها!

شخصيّاً أفهم هذا الأسلوب إذا استخدمته الفتيات ، لأنه أكثر تماشياً مع فطرتهنّ في الغنج والدلال ، مع تحفظي عليه ، إذ أُفرّقُ بين المياعة والرّقة ، ويؤسفني أن التفهم هو أكثر ما يمكنني فعله! أما أنتم معشر الشّباب ، فهذا تصرّف لا أفهمه ، ولن أحاول أن أتفهمه! اخشوشنوا قليلاً فالنّساء يُحببن الرجولة كما تُحبّون أنتم الأنوثة وأكثر! اخشوشنوا في لسانكم كخطوة أولى تسبق تصرّفاتكم ، لأني أخشى إن عاد مجد هذه الأمة وأنتم على هذه الحال أن يُفرض عليكم الحجاب .

الوطن

٢٠- ٨- ٢٠١٦

شُكراً نوح!

١ . شُكراً نوح ، من قصتكَ تعلّمتُ أن لا أُعيّرَ أحداً بأقاربه ، فالله يبتلينا أحياناً بأقرب النّاس إلينا ، تماماً كما ابتلاكَ بزوجتكَ وابنكَ ، وأنتَ أوّلُ أُولي العزم من الرُّسل!

٢ . شُكراً نوح ، من قصّتكَ تعلّمتُ أنّ غريزة سليمةً أفضلُ من عقلٍ مريض! فقد ناديتَ في الحيوانات مرّةً فركبت السّفينة ، وبقيتَ تنادي في النّاس ٩٥٠ سنة فاختاروا الغرق!

٣ . شُكراً نوح ، من قصّتكَ تعلّمتُ أن لا أستوحشَ طريق الحقّ لقلّة السّائرين فيه ، وأن لا أستأنسَ بطريق الباطل وإن كثُر سالكوه ، وأنّ العبرة ليست بالعدد ، فأكثر النّاس في القرآن تارةً لا يعقلون ، وتارةً للحقّ كارهون ، وأُخرى فاسقون ، وفي آية ﴿وما أكثر النّاس ولو حرصتَ بمؤمنين﴾!

٤ . شُكراً نوح ، من قصّتكَ تعلّمتُ أنّ صاحب المبدأ لا يفتر ولا يسأم وإن قلّ أتباعه ، فقد أتممتَ ألفاً إلا خمسين وما اتّبعكَ إلا قليل!

٥ . شُكراً نوح ، من قصّتكَ تعلّمتُ أنّ النّاس بقلوبهم لا بثيابهم ، وبمعتقداتهم لا بوظائفهم ، وبقربهم من الله لا بعائلاتهم وأنسابهم ، فقد قالوا لكَ : ﴿وما نراكَ اتّبعكَ إلا الذين هم أراذلنا﴾! ولكن هؤلاء الأراذل عندهم كانوا أعزّاء عند الله فأغرقَ الأرضَ لأجلهم!

٦ . شُكراً نوح ، من قصّتكَ تعلّمتُ أنّ المؤمنين عائلة واحدة ، مهما

اختلفت ألوانهم وتعددت جنسياتهم ، أبوهم التوحيد ، وأمهم العقيدة ، فالغرباء على متن السّفينة كانوا عائلتكَ ، وابنكَ الذي أنجبته قال لكَ الله عنه : ﴿إنّه ليسَ من أهلكَ﴾!

٧ . شُكراً نوح ، من قصّتكَ تعلّمتُ أنّ جهاد الرّأي لا يقلُّ أثراً ولا أجراً عن جهاد السّيف! وأنّ الحُجّة تُقارع بالحُجّة ، والرّأي يُضربُ بالرّأي ، وقد عرّيتَ أفكارهم ومعتقداتهم ردحاً من الزمن حتى قالوا لكَ : ﴿قد جادلتنا فأكثرتَ جدالنا﴾!

٨ . شُكراً نوح ، من قصّتكَ تعلّمتُ أن الله لا يذرُ عباده وحدهم ، وأنّ المؤمن مُسدد إن حارب وإن سَالَم ، ففي الحرب قال لأخيك : ﴿وما رميتَ إذ رميتَ ولكنّ الله رمى﴾ ، وفي السّلم قال لك : ﴿فاصنع الفلكَ بأعيننا ووحينا﴾!

٩ . شُكراً نوح ، من قصّتكَ تعلّمتُ أنّ الدعاء سلاح المؤمن ، وأنّ طلب المدد ليس من مجلس الأمن وإنما من مجلس الملأ الأعلى ، والاستعانة ليست بعصبة الأمم وإنما برب الأمم ، فلما نقلتَ ملفّ القضية من الأرض إلى السّماء ، ورفعتَ يديكَ داعياً : ﴿إنّي مغلوبٌ فانتصر﴾ ، أجابكَ بماءٍ منهمر ، فإنّ لله عباداً إذا أرادوا أراد!

١٠ . شُكراً نوح ، من قصّتكَ تعلّمتُ أنّ كلّ ما في الكون جند من جنود الله ، من أصغر ذرّة إلى أقوى مخلوق ، وأنّه سبحانه دوماً يُفاجئنا بسلاح المعركة الذي يختار! فالذي جعل من الماء كلّ شيء حيّ أدهشنا عندما جعل منه سلاحاً فتّاكاً للانتقام .

الوطن

٢٧- ٨-٢٠١٦

بلاغة الأَعْرَاب!

قال عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما : لم أعرفْ معنى ﴿فاطر السَّموات والأرض﴾ إلا من شجار أعرابيين حول بئر كلّ واحدٍ منهما يدّعيها لنفسه . فقال أحدهما للآخر : أنا فطرتها! يريدُ أن يقول : أنا بدأتها!

والأعرابُ من ناحية أنثروبولوجيّة هم الذين سكنوا بادية شبه جزيرة العرب ، فكانوا بعيدين عن المدينة والحضر . اشتغلتْ فيهم الصحراء شغلها ، فأكسبتهم قسوتها! والبيئة تنحتُ النّاس على مزاجها شاؤوا أم أبوا! ولابن خلدون كلامٌ طويل في الأمر ، ليس هذا مقام سرده ، وينوب عن السّرد كله الجملة السابقة! عموماً لو أنهم لم يكونوا كذلك لما صمدوا في أعتى مناخ على وجه الأرض!

ظلمناهم كثيراً عندما أخطأنا في فهمٍ قول الله تعالى : ﴿الأعرابُ أشدّ كفراً ونفاقا﴾! إذ يعتقدُ أغلبيتنا أنّ هذا نعتٌ مقيمٌ أبد الدّهر لا يتغيّر ولا يتحوّل! والحقيقة أنّه نصّ مخصوص ، في حادثة مخصوصة ، في زمن مخصوص! وهي بالمناسبة من باب التغليب لا من باب التعميم ، وإلا لكان القرآن يُناقض بعضه بعضاً وحاشا القرآن هذا ، وقد وقع فيهم الاستثناء في غير آية . والتغليب في زمن معيّن لم يطل الأعراب فحسب ، فهذه قريش أعرق قبائل العرب ، يقول الله فيها : ﴿وكذّب به قومك وهو الحقّ﴾! والمُراد أغلب قومك وقت النزول ، وإلا فإنّ الإسلام بدأ بقريش ، والخلفاء الأربعة الرّاشدون ، ومن ورائهم خيار الصحابة قرشيّون . وقد قال

صلى الله عليه وسلم : «نحن قريش ولاة هذا الأمر»! فكيف يكون ولاة الأمر مُكذّبوه؟!

والحديثُ اليوم كما جاء في فاتحته عن بلاغة الأعراب لا عن إيمانهم ، ولكنّ الكلام يجرُّ بعضه بعضها ، وقد استطرد الجاحظ من قبل ، وفي استطراده عذر لمن طلب! وليس غريباً أن يكون الأعراب أبلغ العرب ، وقد جاء في وصيّة عمر بن الخطاب رضي الله عنه للخليفة الذي سيأتي بعده : أُوصيكَ بأهل البادية فإنّهم أصل العرب!

كانوا ينظمون الشّعر بحنكة الجواهريّ إذ يصفُّ اللآلىء في العِقد!

ويُرسلون النثر بمهارة بائع الورد إذ يشكُّ الوردة إلى جانب الوردة في الباقة!

يفهمون مُراد الكلام باقتدار ، ويحيطون بالسّياق إحاطة السّوار بالمعصم!

وحديث البئر أعلاه غيضٌ من فيض!

ولابن عبّاس في البلاغة معهم قصّة طريفة أخرى ، فقد كان يتلو قول الله تعالى : ﴿وكنتم على شفا حفرة من النّار فأنقذكم منها﴾

فقال أعرابيّ : والله ما أنقذكم منها وهو يريدُ أن يدخلكم فيها!

فقال ابن عبّاس : خذوها من غير فقيه!

وقرأ الأصمعيّ من سورة النّساء : ﴿والسارق والسّارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله غفورٌ رحيم﴾!

فقال له أعرابيٌّ لأول مرة يسمع الآية : كلام من هذا؟

فقال الأصمعيّ : كلام الله

فقال له الأعرابيّ : لو غفرَ ما قطَعَ!

فرجع الأصمعيّ إلى المصحف فإذا هي ﴿عزيز حكيم﴾ لا ﴿غفور رحيم﴾! فأخذ يرددُ : لو غفرَ ما قطعَ ، لو غفرَ ما قطعَ!

والحديثُ عن بلاغة الأعراب يطول ، وسرد حكاياهم مع اللغة لا ينتهي ، وسلوك الآباء الدينيّ في فترة ما لا يُحاسبُ به الأبناء! وإلا بهذا القياس المعتوه ما قبلنا إسلام أحد! فسيفُ الله خالد هو ابن عدو الله الوليد بن المغيرة الذي ذمّه الله في قرآنه قائلاً : ﴿ثمّ أدبر واستكبر﴾! وعكرمة صفوة شهداء اليرموك هو ابن أبي جهل الذي قال فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم : «إنّ لكل أمّة فرعون وفرعون هذه الأمة أبو جهل بن هشام»! لهذا فظلم الأعراب بنصّ مخصوص أبد الدهر حماقة توازي ذمّ أهل الطائف أبد الدّهر لرجمهم النبيّ صلى الله عليه وسلم!

الوطن

١٧- ٩- ٢٠١٦

قالوا عن الحُبّ!

قالوا قديماً : من كان الكتاب شيخه فقد ضلّ! وقد قالوها لأنهم كانوا يرون أنّ العلمَ لا يكون إلا بالتّلقي وثني الرُّكب في مجالس العلماء! وإذا ما كان من اتخذَ الكتاب شيخًا فقد ضلّ عندهم فما عساهم يقولون لو رأوا شيخنا غوغل يُستفتى في كلّ كبيرة وصغيرة!

والشيءُ بالشيء يُذكر ، بمجرد أن تضع عنوان المقال في محرك البحث «غوغل» وتقول له : «نبئنا بتأويله إنّا نراك من المحسنين» ، حتى تجد كماً هائلاً من الأقوال التي تحاول شرح وتفسير وفلسفة وتبرير هذه العاطفة ، ولا شك بأنك ستجد الكثير من التناقض بين تلك الأقوال . . وهذا طبيعي جداً ، فالتباين في مدرّج الآراء والأفكار يعني أن ثمة عقولاً تعمل!

يتحدث الناس في الغالب من تجاربهم الخاصة ، ولكن في الحب يتحدث الناس عنه حين لا يملكون فيه تجارب خاصة ، ببساطة لأنه حين يجد الإنسان حباً فإنه يخلق بداخله رغبة العيش أكثر من رغبة الكلام .

فدستيوفسكي مثلاً يرى أن «الحب لا يمكنه أن يكون سوى إعطاء المحبوب للمحب الحق في ممارسة الاستبداد عليه بشكل طوعي» . . وهذا التصوير قد يكون فيه من الحقيقة الكثير ، فالحب بشكل ما يستعبد القلوب ، ذلك الاستعباد الذي يستلذ به صاحبه ويجد معه أن الحرية هي نوع من الموت ، لأن نزع الحبيب بالنسبة

للعاشق لا يقل ألماً عن نزع الروح ، وهذا ما يمنح السلطة للأحبة على بعضهم .

أما ليو تولستوي فيرى أن «الإنسان الذي يقدر على الحب يقدر على كل شيء» . . فالحب في رأيه بحاجة إلى قوة وشجاعة ، إذ لا يمكن لأي قلب أن يضم حباً وضعفاً في نفس الوقت . . وربما كان ذلك العمى الذي يتصف به الحب هو العمى عن كل شيء يعيق تلك العاطفة ، أو الجنون المطلق الذي يجعل رؤية شيء آخر عدا المحبوب أمراً غير قابل الحدوث .

بالنسبة لتشيزاري بافيزي فإنه يرى أنك «ستحيا الحب حقًا يوم تكون قادرًا على أن تثبت ضعفك ، دون أن يستغله الطرف الآخر ليؤكد قوته» . . وهو يلخص هنا علاقة الحب المتكافئة ، لا الحب بصفته شعوراً محضاً ، فلا يكتمل الحب دون أن تكشف قلبك وروحك لمن تحب بيقين تام أنك مقبول بكل حالاتك ، وثقة كاملة أنك محبوب بسيئاتك وحسناتك ، فأنت في قلب من تحب كما أنت في بيتك ، مفاتحه بيدك ، لا تخشى أن تُطرد لسوء تصرفك ، ولا أن تقفل الأبواب في وجهك .

ويقول أبوعبدالله القرشي في هذا : «حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت ، فلا يبقى لك منك شيء» . وقال الشبلي : «سميت المحبة محبة ؛ لأنها تمحو من القلب ما سوى المحبوب» . . فالقلوب كالمدن ، حين يفتحها أحدهم لا يعود لغيره حكم عليها ، وكأن كل حب هو ولادة جديدة ، تمحو ما سبقها من حياة ، وهنا يجتمع الإيثار والأنانية في ذات الشعور ، أن تمنح نفسك بالكامل دون أن تدّخر منك شيئاً ، وتستأثر بالآخر تماماً دون أن تسمح أن يقاسمك فيه أحد ، وكأن من معاني الحب تبادل القلوب والأرواح .

والأقوال في هذا كثيرة ، والقائلون كثر ستجد منهم من يصف لك الحب كمن يصف الجنة ، ومن يصفه لك كمن يصف الجحيم ، رغم أن المتحدث في الغالب لم يغادر الأعراف! وستجد من يقنعك أن الحب مجرد عملية فيزيائية بحتة ، ومن يؤكد لك أن الحب مرتبط بالكيمياء ، من يخبرك أن الحب حيلة الرجال للاستحواذ على أجساد النساء ، ووسيلة النساء لإدخال الرجال قفص الزوجية ، من يمنطق لك هذا الشعور ، ومن يشرّحه بمشرط الفلسفة .

ولا أحد منهم مصيب ولا أحد مخطئ ، فالحب كالحياة ، لا يُعاش بطريقة واحدة ، ولكل إنسان طريقته في الحب ، وفي التعبير عن الحب ، وفي فهم الحب ، وفي التعامل مع شعوره ذاك دون أن يشبه غيره من الناس ، فلا يمكن أن نقول إن كل العشاق سيفنون حياتهم يتبعون صوت قلوبهم كمجنون ليلى ، ولا كل العاشقات قد يفارقن الحياة بقبلة الموت كجولييت . فالعشاق القدامى كانوا أكثر رفاهية منا ، إذ يمكنهم الهروب من حرقة القلب بشهقة يفارقون بعدها مرّ الحياة ، أو يتخلصون من صراع العقل والقلب بالتخلي عن أحدهما ، وقد تجد في قصص المحبين من هم أكثر جنوناً من قيس ، لكنهم يكممون قلوبهم كي لا تفضحهم ، ليس لأنهم أكثر تعقلاً ، بل لأن هذه الأرض لم تعد فسيحة كالسابق ليهيم فيها العشاق ، فقد ضاقت الأرض حتى بالحياة .

الوطن

٢٤- ٩- ٢٠١٦

العبيد المعاصرون!

قيل . . . وقيل هذه مفردة عربيّة جميلة نقولها عندما نريد أن نلطش مقولة لا نعرف قائلها! المهم أنّه قيل : حتى الكلاب المقيّدة تقول عن الكلاب الحُرّة : ضالة!

واستطراداً . . . وإنّي أجدُ متعةً إذ أستطردُ! فدعكم الآن من الكلاب المقيدة والضّالة ، فلن يهرب من حبل الكلام لا كلبٌ مربوط ولا كلب طليق! المهمُ أني كنتُ جالساً بأمان الله ، فجاءني شيطان الكلام ووسوس لي بفكرة راقتْ لي كثيراً ، والعربُ بالمناسبة كانت تؤمنُ أنّ لكل شاعرٍ شيطان يوحي إليه! وهذا الاعتقاد مردّه عجزهم عن تفسير ظاهرةً الشّعر ، ولقد كان دأبُ النّاس دوماً إذا أعياهم شرح ظاهرة اخترعوا لها أسطورة ، المهم أنه قال لي : يا ولد ، لماذا لا تأتي بقول قد سبق وقرأته وأعجبك ، فتُعمل قلمكَ فيه بحثاً وتحليلاً وتعليقاً؟! فعقدتُ مع نفسي اجتماعاً عاجلاً ، ووافقتُ على هذا الاقتراح بالإجماع! وهذا أوّل الغيث!

وبالعودة إلى القول : حتى الكلاب المقيّدة تقول عن الكلاب الحُرّة : ضالة!

فإنّه من نافلة القول أن أقول إن الكلام بمعناه لا بألفاظه! لهذا فإنّ أمتع ما في اللغة هي الكِنايات! أضِف أن الأدباء لطالما وجدوا في قول أفكارهم على ألسنة الحيوانات منجاة من الاعتقال! وما ابن المقفّع في كليلة ودمنة منّا ببعيد! والنّاسُ في هذا – شرقهم وغربهم – سواء ، واقرأوا إن شئتم «مزرعة الحيوان» لجورج أورويل!

المقولة إذاً داخلة في الكِناية ، والمُراد معناها البعيد لا ألفاظها القريبة ، وقد أحسن قائلها فِيها وأجاد! فالنّاسُ في هذه الحياة لا يُحبّون أولئك الذين يُذكّرونهم بنقصهم! الذين ارتضوا العبودية في القرن الواحد والعشرين - والعبودية ليستْ دوماً رِقاً ظاهراً وأغلالاً من حديد - يزعجهم أن يروا حُراً ، لا يريدون لَأحدٍ أن يُنغّص عليهم عبوديتهم! الأحرار يُذكّرونهم بنقصهم ، وهذا في كلّ مجالات الحياة! فالموظّفُ الذي يرتشي يكره الموظف الذي لا يرتشي ، لا لشخصه ، وإنما لأنه يخبره دون كلام أن الحياة يُمكن أن تُعاش بالحلال! وإنكَ قلما تجد في الحياة مُتعثّراً نبيلاً ، يُحبُّ لكَ أن لا تقعَ فيما وقع هو فيه! وودّ السّارقُ لو كل الرّجال سرقوا وودت الزّانية لو كلّ النّساء زنينَ!

لا تستغربوا عندما تتكلمون عن الحُرّية وتُنادون بها أن يقفَ العبيد في وجوهكم قبل الجلاد! إنّ العبودية لتتملّك الإنسان حتى تصير له ديناً! وقصص التّاريخ تشهد ، وهذا الواقع من حولنا يشهدُ كذلك ، إنّ دفاع العبيد عن جلّاديهم أشرس من دفاع الأحرار عن حُرّيتهم!

الوطن

١- ١- ٢٠١٦

الفاشلون الذين لا يعترفون!

عندما عرضَ أنورُ السّادات على الرّائع مصطفى محمود أن يتولى الوزارة ، رفضَ قائلاً : أنا فشلتُ في إدارة أصغر مؤسسة وهي الأسرة ، فأنا مُطلق ، فكيف أنجحُ في إدارة وزارة؟!

مصطفى محمود رجلٌ أشهر من أن أُعرّفَ به ، فهو في سماء الفكر كصخرٍ في شِعر الخنساء : علمٌ في رأسه نارُ! ولكن إن كان الكثيرُ لا يكفي فالقليل لا يضرُّ!

مصطفى محمود الفيلسوف والطبيب والكاتب والمُفكّر ، صاحب الأربعمائة حلقةٍ من التحفة التليفزيونيّة برنامج العلم والإيمان ، وصاحب التسعة وثمانين كتاباً! هو الفيلسوف في حوار مع صديقي الملحد ، والمؤمن في رحلتي من الشّك إلى الإيمان ، والمفكّر في الإسلام السياسي والمعركة القادمة ، والباحث في حقيقة البهائيّة ، والرقيق في اعترافات عشّاق ، والقاصّ في المسيح الدّجال ، والرّوائيّ في الطوفان! والحديثُ عن الشّخص يطول ، وفي الجعبة أشياء أُخرى ، لهذا أُمسكُ عن هذا!

سألتُ نفسي سُؤالاً شائكاً لم أعثر له على إجابة : إذا كان مصطفى محمود لا يصلح للوزارة فمن يصلحُ لها؟!

لا شكّ أنّه كان يصلح ، ولكنّ الرجل الذي زهد بالوزارة ، كان نبيلاً إلى حدّ الخوف من الفشل! وهؤلاء لا نعثر عليهم كلّ يوم ، فللأسف نحن نعيش في وطنٍ عربيّ مترامي الأطراف يعجُّ بالوزراء والمسؤولين الذين تبدو مناصبهم عليهم فضفاضة كطفلٍ لبس عباءة أبيه!

لا أعرفُ أية إهانة في أن يعترف المرءُ أنّه لا يصلح لأمرٍ أُنيطَ به ، على العكس تماماً ، ولكن كيف أطلب هذه الدّرجة من النُبل وأنا أرى أن الكفاءة الوحيدة التي يملكها مئات الوزراء في بلادنا هي عدم الكفاءة! كثيرٌ من الأطباء الفاشلين صاروا وزراء صحة ومدراء مستشفيات ، وكثيرٌ من الموظفين الفاشلين في وظائف صغيرة تقلّدوا وظائف كبيرة ، الضباط الذين خسروا الحروب صاروا جنرالات ووزراء دفاع ، الفاسدون يحققون في الفساد ، وأصحاب الأرصدة المتخمة في بنوك سويسرا يسألون النّاس : من أين لكَ هذا؟ متى سنعرف أهمّ قانون في علم الإدارة : إذا أردتَ أن تلغي هيبة منصب كبير عيّن فيه صغيراً ، وإذا أردتَ أن ترفع من شأن منصب صغير عيّن فيه كبيراً!

قد يفشلُ شخصٌ في جانبٍ من جوانب حياته الشّخصية وينجح في منصب عام ، لا أنكر هذا ، فيمكن لامرأة مطلقة أن تنجح في وزارة شؤون الأسرة ، ويمكن لرجل لا يعرف ابنه في أي صفّ أن ينجح في إدارة مؤسسة! ولكن هذا لا يحصل إلا نادراً ، فالشّخصُ الذي لا يعرف كيف يدير بيته لن ينجح في إدارة وزارته ، وهؤلاء حين نمنعهم من المناصب العامة فإننا نحميهم من الفشل ، ونحمي الناس من إخفاقاتهم أيضاً!

ولكن يبقى السؤال : لماذا لا يعترف الفاشلون أنهم كذلك؟! ومتى سيرفض فاشلٌ منصباً أكبر منه ، ويقول : اعذروني أنا لا أصلح لهذا الأمر ، ولا أريد أن أبدو فيه مضحكاً كالطفل الذي لبس عباءة أبيه!

الوطن

٨- ١- ٢٠١٦

ماذا قدم الإسلام؟!

يقولُ سام هاريس : منطقة واحدة من مدينة نيويورك وحدها قدّمتْ من العلوم والفنون والآداب ما لم تقدّمه الحضارة الإسلاميّة بأكملها!

سام هاريس لمن لا يعرفه ، أقول له : لم يفتْكَ الكثير ، علمٌ لا ينفع وجهل لا يضرّ! ولمن تملّكه حُبّ الفضول أقول : هو عالم أعصاب أميركي شهير ، ولكنه لم يحقق شهرته في مجال الأعصاب وإنما في مجال الإلحاد! فهو أبرز الملحدين الجُدد ومنظّريهم ، له أربعة كتب ، وكتابه الأول «نهاية الإيمان «أشهرها . والحقّ يُقال أنّ مشكلة هاريس ليست مع الإسلام تحديداً ، وإنما مع الدّين بشكل عام ، سواءً دين أمه اليهودية ، أو دين أبيه الكاثوليكي!

ولستُ بصدد مناقشة سام هاريس في إلحاده ، فالشخصُ الذي لا يقنعه جهاز الإنسان العصبيّ بوجود إله لن يقنعه مقال! وبالعودة إلى المقولة ، من الواضح أنّ سام هاريس يُعاني جهلاً مركّباً! والجهل بالمناسبة نوعان ، جهل بسيط وجهل مركّب ، والجهل البسيط هو أن لا يملك الإنسان معلومة عن أمر ما ، كأن لا يعرف أن النهر الذي يمرّ في مصر يُسمى نهر النيل! أما الجهل المركّب فهو امتلاك معلومة خاطئة عن شيء ما ، كأن يعتقد أنّ النهر الذي يمر في مصر هو نهر الأمازون! والجهل المُركّب في حالة صاحبنا هاريس أنّه يعتقد أنّه يصحُّ مقارنة كميّة الاختراعات بين أُمتين لتعرف أيهما أكثر مساهمة

في التراث الإنساني بمعزل عن الزمن الفاصل بين وجودهما! فالحضارة السومرية مقارنة بنتاج الأمم ومخترعاتها اليوم شيء غاية في البساطة والسّذاجة ، ولكن مقارنة بالأمم التي عاصرتها تُعتبر من أرقى الحضارات الإنسانية! لهذا ما كان على هاريس أن يُقارن بين نيويورك اليوم وبغداد قبل ألف عام ، كان عليه أن يخبرنا عن مستوى أوروبا العلمي مقارنة ببغداد قبل ألف عام! وذكرتُ أوروبا لأن أميركا وقتها كانت نسياً منسياً! وليس من العدل أن أسأل هاريس قائلاً : قبل ألف عام كان المأمون يعطي وزن الكتاب المترجم ذهباً ، بكم كنتم وقتها تشترون الكتب المترجمة في نيويورك؟!

ثانياً ، نسيَ سام هاريس شيئاً مهماً ، وهو أنّ المعرفة الإنسانيّة معرفة تراكميّة ، كلّ جيلٍ مدين للجيل الذي قبله بشيء من حضارته ، فالبشريّة لم تخترع طائرة البوينغ مرة واحدة ، ولكنها نتاج خبرة إنسانية بدأت بمحاولة ابن فرناس إلى أن وصلت للأخوين رايت ، وهي في تقدّم مستمر! ولم تخترع آبل وسامسونغ هواتفهما من الصّفر ، وما كان ليتمّ لهما هذا لولا أنّ غراهام بيل اخترع الهاتف أولاً ، وإنّ علم البصريّات وعمليات العيون المعقّدة اليوم مدينة لابن الهيثم وغيره ، والطّب اليوم مدين لابقراط وابن سينا وغيرهم! السّيارات أخذت فكرة الإطارات من العربة التي تجرّها الخيول ، والأقمار الاصطناعيّة تعتمدُ على فكرة دوران الأرض التي حُوكم لأجلها جاليلو جاليلي!

أميركا لا شكّ متقدّمة مدنيّاً وإن كانت متخلّفة أخلاقياً ، ولكن أميركا ومن قبلها ومن سيأتي بعدها مدينون لكل من كتب حرفاً ، أو خطّ كتاباً ، أو اخترع دواءً ، ولم يبدأ من الصّفر إلا آدم!

الوطن ٢٢- ١٠- ٢٠١٦

أجملُ عرضٍ شاهدته في حياتي!

يقولُ شارلي شابلن ، أشهر كوميديّ في تاريخ السّينما : عندما كنتُ صغيراً ، ذهبتُ برفقة أبي لمشاهدة عرض في السّيرك ، وقفنا في صفّ طويل لقطع التذاكر ، وكان أمامنا عائلة مكوّنة من ستة أولاد والأم والأب ، وكان الفقر بادياً عليهم ، ملابسهم قديمة لكنها نظيفة ، وكان الأولاد فرحين جداً وهم يتحدّثون عن السيرك ، وبعد أن جاء دورهم ، تقدّم الأبُ إلى شبّاك التذاكر ، وسأل عن سعر البطاقة ، فلما أخبره عامل شبّاك التذاكر عن سعرها ، تلعثم الأب ، وأخذ يهمس لزوجته ، وعلامات الإحراج بادية على وجهه!

فرأيتُ أبي قد أخرج من جيبه عشرين دولاراً ، ورماها على الأرض ، ثم انحنى والتقطها ، ووضع يده على كتف الرجل وقال له : لقد سقطتْ نقودك! نظر الرّجلُ إلى أبي ، وقال له والدموع في عينيه : شكراً يا سيّدي! وبعد أن دخلوا ، سحبني أبي من يدي ، وتراجعنا من الطابور ، لأنه لم يكن يملك غير العشرين دولار التي أعطاها للرجل! ومنذ ذلك اليوم وأنا فخورٌ بأبي ، كان ذلك الموقف أجمل عرض شاهدته في حياتي ، أجمل بكثير حتى من عرض السيرك الذي لم أشاهده!

لطالما آمنتُ أنّ التربية بالقدوة لا بالتنظير ، ولستُ أُقللُ من شأن النّصيحة والكلام ، فأحياناً قصة نلقيها على مسامع الأولاد فيها من الدروس الكثير ، وحديث نبويّ شريف نشرحه لهم نُزيل

من نفوسهم مفاهيم ونزرع أخرى ، فلا بد من الكلام أحياناً . . لا بدّ أن يفهم الأولاد ما الخطأ الذي ارتكبوه . . . قوانين البيت ، آداب الطعام ، آداب الطريق ، كل هذا لا غنى عن الكلام فيه ، ولكن تبقى المواقف أبلغ أثراً ، وأصدق من كلّ الكلام!

ورقة تلقيها في سلة المهملات أمام ابنك هي أبلغ من ألف خطبة عن النّظافة!

وصدقة تضعها في يد فقير أمام ابنتك هي أبلغ من ألف خطبة عن الصّدقة!

لا يمكنك أن تُقنع ابنك بمضار التّدخين وأنت تنفث دخان سيجارتك في وجهه!

ولا يمكنكِ أن تقنعي ابنتكِ بقدسيّة الحجاب ما دام الحجاب في تصرفاتك لاَ يعدو كونه غطاءَ على الرأس!

أنتَ عندما تصحب ابنك للمسجد فإنك تعلّمه أهميّة صلاة الجماعة حتى لو لم تعقد له في البيت جلسة للحديث عن أهميّة الموضوع!

وأنتِ حين لا ترفعين صوتكِ في وجه زوجكِ أمام ابنتكِ فإنك تعلمينها درساً للمستقبل وإن لم تقيمي لها محاضرة عن حُسن التّبعل!

طاعتكَ لوالديك هي درس في البرّ لأولادك!

وزيارتك لأختكِ هي درس في صلة الرّحم لابنتك!

رسَمَ طفلٌ رسماً لَبيته المستقبلي ، وعرضها على أبيه ، أُعجب الأب برسمة ابنه ، وأخذ يسأله : ما هذه الغرفة الواسعة؟

فقال الصّبي : هنا ستكون غرفة الجلوس!

قال الأبُ : وما هذا المكان في الأسفل؟

أجابه : مطبخ كبير حتى لا تتذمر زوجتي من مطبخنا الصغير كما تفعل أمي!

عندها قال الأب : وما هذه الغرفة الصغيرة عند مدخل البيت الخارجي؟

فقال : هذه ستكون لك ، ألا ترى أنها تشبه غرفة جدي التي وضعته فيه؟!

كلّ شيءٍ نقوم به هو درس للأولاد من حيث لا ندري! فكُنْ لوالديك الابن الذي تتمنى أن يكون لك وكوني لحماتك الكنّة التي تحبين أن تكون لكِ .

الذي يزرع الحنظل لا يجني العنب!

في أوّل حياتي المهنيّة في التدريس ، درّستُ طالباً في السّادس الابتدائيّ ، اسمه حسين ، كان ذكيّاً ومتفوقاً ، ولم يسبق لي أن التقيتُ بأحد من أهله إلا بعد امتحانات نصف السّنة ، والسببُ أن حسين أشغله سؤال لم يعرف إجابته ، فبقي حائراً فيه إلى أن انقضى الوقت ، ولما أرادت المعلمة التي تراقب عليه أخذ الورقة منه ، رفض أن يعطيها ورقته وقال لها : لم أنتهِ بعد!

فقالت له : ولكن الوقت انتهى

فقال لها : سأكمل إجاباتي رغماً عنكِ!

هنا سحبت المعلمة الورقة منه ، واعتقدنا أنّ الموقف انتهى . .

وفي صبيحة اليوم التالي حضرت أمه إلى المدرسة ، وطلبتْ من المدير أن يجمع لها أساتذته ، فلما اجتمعنا قالت وحسين بقربها : إنّ ابني هذا قليل أدب ، والعلم دون أخلاق هو الذي أفسد العالم ، الذين صنعوا القنابل الذّرية كانوا علماء بلا أخلاق ، ولا أريد لابني أن يصبح مثلهم ، إذا ترك المدرسة الأن كان شرّه على

نفسه ، لهذا قررتُ أن أجعله يجلس في البيت!

أخذنا نُهوّن لها الأمر ، وأنّ هذا شيء قابل للحدوث . . وحسين يبكي دون أن يلفظ بكلمة ، وكانت أم حسين أعظم أم ، وكان ذلك أجمل عرض شاهدته في حياتي ، تخيلوا لو أنّ الأم حضرت إلى المدرسة لترفع صوتها على المعلمة بحجة أن ابنها مجتهد وكان بإمكانه حلّ الامتحان ، لقد ربحت هذه الأم ابنها ، وأعطته درساً للعمر ، وأنا على يقين أنها كانت تفقه في التربية أكثر منا نحن الذين درسنا في كلية التربية!

مدوّنات الجزيرة

٢٦ / ٣ / ٢٠١٧

الخسارة الكبرى

بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالميَّة الأولى بأيام، وقف جماعة من الألمان في الطابور للصعود إلى القطار، ولكن شابًا يافعًا حاول أن يتخطى الطابور، فقالت له عجوز: لقد خسرنا الحرب، ولكننا لم نخسر أخلاقنا!

وبالفعل ما كادت دورة الزمان تدور دورة يسيرة، حتى كانت ألمانيا الموقعة على معاهدة فرساي المذلّة تحتل دولًا في أوروبا بين يوم وليلة، وتقصف لندن وتغزو روسيا في آن، إلى أن هزمها جنرال روسيا الشرس: «الثلج»!

ثم ها هي ألمانيا اليوم نخاع أوروبا الشوكي ووريده!

العبرة من هذا الكلام ليس التغزل بأمجاد هتلر، ولا الشماتة فيه، ولا الثناء على ميركل من باب أولى، ما أردتُ قوله أن الهزيمة العسكرية قابلة للترميم، ولنا في اليابان المفجوعة بهيروشيما وناجازاكي عبرة! ولكن الهزيمة الحضارية والأخلاقية هي هزيمة فادحة من العسير الاستفاقة منها.

نحن أيضًا هُزمنا على مرّ التاريخ كثيرًا، وكنا كل مرة نعود، من كان يظن أن صفحة المغول ستطوى؟ بعد أن كان المغولي يقول للعربي انتظرني هنا حتى أذهب لأحضر سيفي وأعود لأقتلك فلا يجرؤ أن يبرح مكانه! ولكننا حين كنا نعود كل مرة كنا قبل أن نسلّ سيوفنا نقوّم أخلاقنا، وكانت رايتنا ترفرف باسم الله وجيوشنا تحتل عواصم أوروبا في سبيل الله!

إن الله حين مدح نبيه لم يمدحه بنسبه مع أنه كان من أعرق العرب نسبًا ، ولم يمدحه بقبيلته وقد كانت سيدة القبائل ، ولم يمدحه بوطنه وقد كانت مكة أم القرى ، ولكنه مدحه بأخلاقه فقال : ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ ثم هو بعد ذلك يخبرنا أنه قد بُعث ليتمم مكارم الأخلاق ، وما ردّ النجاشي صديقه عمرو بن العاص يوم أراد منه أن يسلمه القلّة المهاجرة إلا أن جعفر بن أبي طالب أخبر النجاشي عن الفوارق الأخلاقية بين دين قريش ودين محمد صلى الله عليه وسلم .

نحن اليوم مهزومون عسكرياً وعلميًا ، وهذه رغم فداحتها سنة من سنن الله في الكون ، ليست المرة الأولى لنا ، وربما لن تكون الأخيرة ، كل الدول التي بلغت أشدها يومًا ، ما لبثت أن تقهقرت وزالت ، راجعوا التاريخ ، واسألوا أنفسكم ، أين الممالك والإمبراطوريات القديمة برّها وفاجرها ، هل بقي منها شيء! ولكن هناك هزيمة أكبر من الهزيمة العسكرية هي الهزيمة الأخلاقية ، ونحن اليوم مهزومون بأخلاقنا!

نظرة واحدة على حال البيوت تخبرك أين كنا وأين صرنا!

جولة على الدوائر العامة والوزارات تلخص لك مفهومنا للمال العام!

الجميع يحدثونك عن احترامهم للمرأة ولكن نسبة الطلاق في ازدياد!

الجميع يحاضرون في النظافة وشوارعنا تشكو إلى الله ظلم العباد!

الجميع يتحدثون عن ظلم الحكام وكلنا نمارسه على كل الذين لنا عليهم سلطة إلا من رحم ربي!

لا شك أن البعض منا خلوق وعادل ، ولكن الهزيمة تقع على الأمة جمعاء لا على الأفراد ، والنصر إنما يكون نصر أمة لا نصر أفراد ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، كتاب الله وسنة رسوله!

الوطن

٢٦- ٩ - ٢٠١٧

لهذا سميت دنيا!

جاء في الأثر أن «ذو القرنين» كان وحيد أمه، وأنه كما نعلم جميعًا طاف الأرض من مشرقها إلى مغربها فاتحًا وداعيًا، وأنه لما وصل إلى بابل مرض مرضًا شديدًا، وأحس بدنو أجله، فلم يخطر بباله لحظتذاك غير الحزن الذي سيصيب أمه إذا مات، فأرسل لها كبشًا عظيمًا ورسالة، وكتب إليها في الرسالة:

أماه، إنّ هذه الدنيا آجال مكتوبة، وأعمار معلومة، فإن بلغكِ تمام أجلي فاذبحي هذا الكبش، ثم اطبخيه، واصنعي منه طعامًا، ثم نادي في الناس أن يحضروا جميعًا إلا من فقد عزيزًا!

فلما بلغها نبأ موته، عمدت إلى تنفيذ وصيته، فصنعت بالكبش كما طلب، ونادت في الناس كما أوصى، ولكنها تفاجأت أن أحدًا لم يحضر ليتناول طعامها، فعلمت أنه ما من أحد إلا وقد فقد عزيزًا، ففهمت مراد ابنها من وصيته تلك، وقالت: رحمك الله من ابن، لقد كنت لي واعظًا في موتكَ كما كنتَ في حياتكَ.

المصائب دومًا تقع، فهذه الدنيا ليست دار لقاء وإنما دار فقد، وليست دار إقامة وإنما محطة عبور، والموت ليس ضد الحياة وإنما هو جزء منها! نحزن لأننا بشر، ونلتاع لأننا نحب، وننكسر لأننا ناس، ونضعف لأننا أكثرنا الاتكاء على أحبتنا، هو شيء طبيعي، ولكن علينا أن نتأدب مع الله حين يمضي قدره، إن السخط لا يغير

القـدر ، ولكـن الرضى يزيد في الأجـر ، ألـم يخـبـرنا ربنا عن بيت الحمد!

ما دام هناك مدارس وجامعات فسيبقى هناك رسوب ونجاح

وما دام هناك متاجر وأسواق وشركات فسيبقى هناك ربح وخسارة

نقيم مستشفيات جديدة لأن الأمراض باقية

ونحفر كل يوم قبورًا لأن الموت لا يتوقف

نقيم ورش ميكانيك لأن السيارات ستبقى تتلف

وننشي مراكز إطفاء لأن الحرائق ستبقى تندلع

هذه هي الدنيا ، مزيج من كل شيء ، من الخير والشر ، ومن الحياة والموت ، ومن الحرب والسلم ، ومن العدل والظلم ، ومن الصحة والمرض ، ومن الزواج والطلاق ، ومن الاجتماع والافتراق! هكذا كانت قبلنا وهكذا ستبقى بعدنا ، علينا أن نكون واقعيين ونحياها كما هي ، وعلينا ونحن نخوض غمارها أن نحمد الله على العافية ونتأدب معه إذا شاء أن يمضي قدره!

الوطن

٨- ١٠ - ٢٠١٧

الحُرّية ليستْ جريمة!

يتَّفقُ الناسُ جميعًا عربُهم وعجمُهم ، شرقُهم وغربُهم ، وعلى اختلاف مللهم وأعراقهم ومستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية ، أن أي تجمع بشري لا بُد له من قوانين تحكمه ، الأُسرة ، والشركة ، والورشة ، والمدرسة ، والوزارة ، والدولة ، حتى المقاهي جميعها محكومة بقوانين مكتوبة أو أعراف لها حكم القانون!

ولطالما كانت القوانين كالبشر منها ما هو مثير للضحك والغرابة ومنها ما يجعلك ترفع القبعة له احترامًا!

منذ أيام عرفتُ أن محاولة الهروب من السجن في ألمانيا والنمسا ليست جريمة ، وليس لها عقوبة ، فقط يُعاد الهارب ليستكمل عقوبته التي هرب منها ، وإن كان من عقوبة تُنزل به فهي على ما يقترفه من أفعال أثناء هروبه ، شأنه شأن الناس خارج السجن ، والسبب في هذا أنهم يعتبرون السعي للحرية غريزة بشرية!

ليست السجون هي تلك المباني المحكمة الإغلاق فقط ، وليست الزنازين هي تلك الحجرات الضيقة ذات القضبان فقط ، هناك سجون على هيئة أوطان!

ليس بالضرورة أن تكون مقيدًا بالسلاسل لتكون سجينًا ، هناك قيود أعتى من هذا وأشدّ ، تكون أحيانًا على هيئة قوانين وأعراف! ومحاولة التحرر من هذه السجون المعاشة وغير المرئية ليست جريمة

وإنما الرضى بها هو الجريمة الأبشع التي نرتكبها بحق أنفسنا وحق مستقبل أولادنا!

الوطن الذي ليس لك فيه رأي غير ما تراه الحكومة سجن!

الوطن الذي تنفق فيه دم قلبك لتعليم أولادك ثم تجلس وتنظر إليهم عاطلين عن العمل لأنه ليس عندك واسطة سجن!

الوطن الذي يُعالج فيه الثري ويموت فيه الفقير على أبواب المستشفيات سجن!

الوطن الذي يريد منك الضرائب ومتى احتجته قال لك «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون» سجن!

الوطن الذي تستعين حكومته عليك بشيوخ الريموت كنترول والفتاوى المعلبة المفصلة على مقاس الحاكم سجن!

الوطن الذي تقسم عقاراته وتشبك أراضيه أمام ناظريك بينما العقار الوحيد المسموح لك تملكه قبر كمكافأة نهاية الخدمة سجن!

الوطن الذي ترتعدُ فيه من رؤية شرطي بدل أن تشعر بالأمان ، سجن!

الوطن الذي تدخل محكمة فيه وأنت ترتجف كمن يدخل على مقصلة لأنك تعرف أن العدل أساس الملك ليس إلا شعارًا فوق رأس القاضي ، سجن!

حتى إذا غضبوا عليك أصدروا قرارًا بمنعك من السفر ، ألا ترى أنهم يقرون ويعترفون أن العيش في هذا الواقع عقوبة ، وأن وطنًا كهذا سجن!

الوطن

١٠- ١٠ - ٢٠١٧

درس اليوم!

في كلية الحقوق ، دخل الأستاذُ إلى قاعة المحاضرة ، وأشار بيده إلى أحد الطلاب ، وقال له : ما اسمك؟

وما كاد الطالب يجيب ، حتى صرخ به الأستاذ وطرده من القاعة وسط دهشة الحضور!

ثم قال : حسنًا لنبدأ درسنا ، أخبروني ما الغاية من القانون؟

فقال طالب : كي لا تقع الأمور السيئة في المجتمع!

فقال الأستاذ : لا!

قال آخر : كي يدفع المسيء ثمن إساءته!

فقال الأستاذ : لا!

ثم قال ثالث : كي يسود العدل!

عندها قال الأستاذ : هذه هي الغاية الحقيقية من القانون ، أن يسود العدل!

ثم قال للطلاب : عليكم الأمان ، هل تصرفتُ بعدل مع زميلكم؟

فقالوا جميعًا : لا

فقال : إذاً لقد ارتكبتُ ظلمًا بحق زميلكم؟

قالوا : نعم

عندها قال لهم موبخًا : لقد رأيتم الظالم بأم أعينكم ، وسكتم عنه ، ولم تحركوا ساكنًا لإقامة العدل ، غدًا ستصبحون محامين ، لا تدافعوا عن ظالم ولو دفع لكم ولا تقفوا ضد عادل ولو كان الخصم ،

ليس لدي شيء أضيفه ، لقد كان هذا درس اليوم .

في الحقيقة هذا ليس درس اليوم فقط ، وإنما هو درس كل الأيام!

الحياة تضعنا كل يوم في اختبار تكون فيه قيمنا ومبادئنا على المحك وما أكثر الراسبين وأقل الناجحين!

قلما تجتمع المصالح والمبادئ معًا ، والذي يفعله أكثر الناس أنهم يختارون المبادئ ما دام الحدث متعلقًا بالآخرين ، ويختارون المصلحة إذا تعلق الأمر بهم ، وهذا أقل كلمة تصفه هو الانفصام!

الأم التي لا تسكت عن أي خطأ يفعله زوج ابنتها مع ابنتها ، تجدها تسكت عن خطأ أكبر منه يفعله ابنها مع كنتها!

والزوجة التي تقيم الدنيا ولا تقعدها لخطأ ترتكبه زوجة أخيها مع أمها تفعل مثله وأكثر هي مع حماتها!

وعليه قِسْ

إن أسوأ ما يفعله البشر أن يكونوا ضد الفاعل أو معه لا ضد الفعل أو معه!

النبل يقتضي أن تحكم على التصرف بالخطأ والصواب بغض النظر عمن قام به ، فالخطأ خطأ ولو قام به من نحبه ، والصواب صواب ولو قام به من نكرهه ، والإنسان الذي لا يُدافع عن العدل لأنه عدل فقط ، ولا يقف ضد الظلم لأنه ظلم فقط ، يتخلى عن جزء كبير من إنسانيته!

كل ظلم نراه ولا نحرك لتغييره ساكنًا مع امتلاكنا القدرة لذلك نحن شركاء فيه ، وكل إهانة يتلقاها إنسان أمامنا ولا ندافع عنه نكون قد اشتركنا في إهانته ، إن أعلى مراتب الإنسانية أن لا يرضى الإنسان لغيره ما لا يرضاه لنفسه بغض النظر أحبّ أم كره!

الوطن ١٢- ١٠ - ٢٠١٧

كي تبحر السفينة!

يقول رسول حمزاتوف في روايته داغستان بلدي :

يقولون في داغستان : الثّور الذي يُحبُّ الخصام يُجمُّ قرناه ، والكلب الذي يعض يُربط بالسلسلة . لو كان في العالم مثل هذه القاعدة لأصبحت الحياة ميسورة!

وفي ذات الفلك الذي يدور فيه قول الداغستانيين ، يدور كوكب آخر هو أكثر وضاءة ، يقول فيه صلى الله عليه وسلم ، كما في البخاري من حديث النعمان بن بشير :

مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ، ولم نؤذ من فوقنا! فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعًا .

إن المجتمعات البشرية كالسفينة ، من حق الجميع أن يركبوا فيها ، وليس لأحد أن يرمي في البحر أحدًا ، ولكن ليس من حقِّ الجميع قيادة السفينة وإلا انتهى بها الأمر محطمة عند الصخور!

البعض ليس لهم إلا أن يركبوا بصمت وبارك الله بنا إذ نسمح لهم أن يركبوا وإلا لولا الخوف من الله ما كانوا يصلحون غير طعام للسمك! وإن في إلجام البعض وكفِّ أيديهم حماية لهم وللمجتمع ، تماما كما جعل الشرع وصيًا على مال اليتيم القاصر

حتى يبلغ ، وعلى مال المجنون حتى يعقل ، وما هذا الحجر إلا لصالح كل منهما!

إن حرية التعبير عن الرأي لا يعني أن كل قادر على فكِّ الحرف ، يجب أن يُفرد له مكانًا في صحيفة ، فإن بعض الكتابة نهيق وإن أنكر الأصوات قد يكون مقالاً!

وإن حقَّ الإنسان في حبِّ وطنه لا يعني أن يشتم هذا ويُخوّن ذاك ، ويجعل من نفسه مقياسًا للوطنية ، من وافقه فهو وطني خالص ومن خالفه فهو خائن وعميل ، ولو تأملت حالنا لوجدت أن أكثر الناس إساءةً لأوطانهم هم أكثرهم إدعاءً للوطنية!

وإن حقَّ الإنسان في تلقي العلوم بشتى أنواعها لا يعني أن من تخرَّج من كلية الشريعة أهل لأن تُمنح له المنابر وتُنصب له كراسي الفتوى ، كلكم تعرفون أن الإنسان يمكن أن يكون بلطجيًا وشبيحًا ولو كان على رأسه عمامة!

كان عمر بن الخطاب مغرمًا بالشعر ، يقول الذهبي : ما عرض لعمر أمر إلا تمثل له بيت من الشعر ، ولكن حبه للشعر لم يمنعه أن يُلجم لسان الحطيئة يوم آذى الناس بشعره ، وإن مشاكل المجتمعات ليست في هؤلاء البسطاء الذين لا يدري عنهم أحد ، إنما في الشعراء والمفكرين والأدباء والأئمة والتجّار والوزراء والأطباء والمهندسين والمدرسين إذا كان عندهم الكثير من العلم والقليل من الأخلاق .

إنها سفينة تحملنا جميعًا ، فإن أردنا أن نُبحر ، فالثور الذي يُحبُّ الخصام يجب أن يُجمَّ قرناه ، والكلب الذي يعض يجب أن يُربط بالسلسلة!

الوطن ١٧- ١٠ - ٢٠١٧

شُكراً أوكسفورد!

قرأتُ البارحة عن دراسة قامتْ بها جامعة أوكسفورد، واعتقدتُ للوهلة الأولى أنّ هذه الدراسة منسوبة إليها من قِبل من قام باختلاقها إما لمنحها بعض المصداقية، فاسم أوكسفورد عريق كما لا يخفى على أحد، وإما للإساءة إلى أوكسفورد فالشّجرُ المُثمر يُقذفُ دوماً بالحجارة، في حين أنّ الشّجر العاقر لا يلتفتُ إليه أحد! ولكن بعد بحث وتنقيب، قاتل الله الفضول، تبيّن أنّ الدّراسة قامتْ بها أوكسفورد فعلاً!

تقولُ الدّراسة:

إنّ منح الموظفين رواتب عالية، له تأثير ملحوظ على صحّتهم النّفسية، ويمنحهم سعادة، ويخفف عنهم الكثير من ضغوط الحياة!

بالنّيابة عن سبعة مليارات بني آدم يقطنون هذا الكوكب... أتوجّه بالشّكر الجزيل إلى جامعة أوكسفورد، لقد استفدنا من هذه الدراسة العظيمة، وتغيّرتْ بسببها مفاهيمنا ونظرتنا إلى الحياة! فقبل هذه الدّراسة كنا نعتقدُ أنه كلما قلّ راتب الإنسان زادتْ سعادته! وكنا نعتقد أنّ الإنسان عليه أن يحتاج ما لا يجد كي تكون صحته النّفسية بخير! وكنّا نظنّ واهمين أن الذين يستطيعون شراء السيارات الفارهة، ويتعالجون في المستشفيات الصالحة للاستخدام البشري، ويدفعون أقساط الجامعات كما يدفع أحدنا ثمن فنجان قهوة، يعانون من الأزمات النفسية والاكتئاب! وكان من الممكن أن نبقى على هذا الضلال المبين، لولا أن جاءت

أوكسفورد وأخبرتنا أن زيادة الراتب لا بأس به على الصّحة ، على العكس ، فإنه قد يجلب مزيداً من السعادة! فشكراً أوكسفورد . . . هذه الدراسة إضافة عظيمة تشبه إضافة سرحان عبد البصير في مسرحية «شاهد ما شفش حاجة» عندما سأله القاضي : هل لديك ما تضيفه حول هذه الراقصة؟ فقال : هي كانت رقاصة وبترقص!

من أمثال جدّتي الخالدة : الفاضي يعمل قاضي!

ويبدو أنّ دراسة أوكسفورد كانتْ من باب الفضاوة ليس إلا! ولأني أنا الآخر فاضي ، فقد قمتُ بدراسة هامة ، أعتقد أنها ستغيّر شكل الحياة على وجه الأرض ، وكنتُ أنوي عدم الإفصاح عنها ، ولكني خشيتُ من عاقبة كتم العلم! لقد توصلتُ في دراستي أن الأخشاب تُستخرج من الأشجار! أتمنى أن تستفيدوا من هذه الدراسة ، ولا يذهبنّ جهدي سدى ، وأتمنى أن لا يتفاجأ بنتائج دراستي أحد ، خصوصاً أولئك الجهلة الذين يعتقدون أن الأخشاب تُستخرج من الصخور! وكلّ دراسة وأنتم بخير!

الوطن

١٩- ١٠ - ٢٠١٧

هل يملك العرب أوطانهم؟!

يقولُ روبرت فيسك : أتعلمون لِمَ بيوت العرب في غاية النّظافة بينما شوارعهم على النّقيض من ذلك؟! السببُ أنّ العرب يشعرون أنّهم يملكون بيوتهم لكنهم لا يشعرون أنهم يملكون أوطانهم!

روبرت فيسك أحد أشهر الصحفيين في العالم ، وأحد الذين يعرفوننا جيداً ، عاش في بلادنا ثلاثين عاماً وما زال يسكن في بيروت . هو مراسل الأندبندنت البريطانية في الشرق الأوسط ، كان شاهداً على الثورة الإيرانية ، ومجزرتي حماة وحلب ، والحرب الأهلية اللبنانية ، وحرب الخليج الأولى ، وغزو العراق ، وحروب غزة الثلاثة ، وهو من الصحفيين الغربيين القلائل الذين أجروا مقابلة مع بن لادن . وهو بالمناسبة رجل طمر فيه الخبز والملح إذ يُعتبر مناهضاً لسياسة أميركا وبلده بريطانيا في بلادنا ، وله كتاب شهير في هذا المجال ، أسماه : «الحرب من أجل الحضارة : السيطرة على الشرق الأوسط»!

وبالعودة من القائل إلى المقولة : أشوارعنا عفنة لأننا نشعر أننا لا نملكُ أوطاننا؟ شخصياً ، لا أعتقد! وإن كنتُ أبصم بأصابعي العشرة وجسمي كله أنّه صدق إذ قال أننا لا نشعر أننا نملكُ أوطاننا ، إذاً ما السبب؟

هذا يرجع برأيي إلى سببين :

الأوّل : أننا نخلطُ بين مفهوم الوطن ومفهوم الحكومة ، فنعتبرهما واحداً ، وهذه مصيبة بحدّ ذاتها! الحكومة هي إدارة

سياسية لفترة قصيرة من عمر الوطن ، ولا حكومة تبقى للأبد . بينما الوطن هو التاريخ والجغرافيا ، والتراب الذي ضمّ عظام الأجداد ، والشجر الذي شرب عرقهم ، هو الفكر والكتب ، والعادات والتقاليد! لهذا من حقّ كل إنسان أن يكره الحكومة ولكن ليس من حقّه أن يكره الوطن! والمصيبة الأكبر من الخلط بين الحكومة والوطن هي أن نعتقد أننا ننتقم من الحكومة إذا أتلفنا الوطن! وكأن الوطن للحكومة وليس لنا! ما علاقة الحكومة بالشارع الذي أمشي فيه أنا وأنتَ ، وبالجامعة التي يتعلم فيها ابني وابنك ، وبالمستشفى الذي تتعالج فيه زوجتي وزوجتك ، الأشياء ليست ملكَ من يديرها وإنما ملك من يستخدمها! نحن في الحقيقة ننتقمُ من الوطن وليس من الحكومة ، الحكومات تُعاقبُ بطريقة أُخرى لو كنا نحب الوطن فعلاً!

الثّاني : أنّ ثقافة الملكيّة العامة معدومة عندنا ، حتى لنبدو أننا نعاني انفصاماً ما ، فالذي يحافظ على نظافة مرحاض بيته هو نفسه الذي يوسّخ المرحاض العام ، والذي يحافظ على الطاولة في البيت هو نفسه الذي يحفر اسمه على مقعد الجامعة ، والأب الذي يريد من ابنه أن يحافظ على النّظام في البيت هو نفسه الذي يرفض أن يقف في الطابور بانتظار دوره ، والأم التي لا ترضى أن تُفوّت ابنتها محاضرة واحدة هي نفسها التي تهربُ من الدوام ، والأخ الذي لا يرضى أن تُحدّث أخته شاباً ولو أحبها وأحبته هو نفسه الذي يُحدّث عشر فتيات ولا يُحبّ أيّاً منهن!

خلاصة القول:

الحكومة ليست الوطن شئنا هذا أم أبينا ، ومشاكلنا مع الحكومة لا يحلّها تخريب الوطن ، إنّ الشعب الذي ينتقم من وطنه لأن حكومته سيئة لا يستحقّ حكومة أفضل! ورقيّنا لا يُقاس بنظافة حوش بيتنا وإنما بنظافة الحديقة العامة بعد جلوسنا فيها ، لو تأملنا حالنا لوجدنا أننا أعداء أنفسنا ، وأنه لا أحد يسيء لأوطاننا بقدر ما نفعل نحن! وصدق القائل : الإنسان لا يحتاج إلى شوارع نظيفة ليكون محترماً ، ولكن الشوارع تحتاج إلى أُناس محترمين لتكون نظيفة!

الوطن

٢٩- ١٠- ٢٠١٦

فتنة الأدب!

أنتم تسجدون لجيّد القرآن ، وأنا أسجدُ لجيّد الشّعر!

القائلُ هو الفرزدق ، وأما المناسبة– والكلام على عهدة الرّواة– أنه مرّ على مسجدٍ لبني زُريقٍ في البصرة ، فإذا فيه منشدٌ يُنشد أبياتاً من معلقة لبيدً بن ربيعة ، ولما وصل إلى قول لبيد :

وجلا السّيول عن الطلول كأنّها

زُبَراً تجدُّ متونها أقلامها

خرّ الفرزدقُ ساجداً ، فتعجّب النّاسُ ، ولما رفع رأسه سألوه : ما هذا يا أبا فراس؟

فقال : أنتم تسجدون لجيّد القرآن ، وأنا أسجدُ لجيّد الشّعر .

والشيءُ بالشيء يُذكر ، فإنّ لبيد هو الوحيد الذي أسلم من أصحاب المعلقات ، فقد أدرك الإسلام منهم اثنان ، لبيد والأعشى ، فأما لبيد فأسلم ، وأما الأعشى فكاد! حيث نظم قصيدة مديح في النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم نكص على عقبيه ، فلم يقل القصيدة ، ولا الشهادتين! وأما الفرزدق فهو أحد أضلاع الثالوث الأمويّ الشهير ، عريق النّسب من تميم ، وهو حفيد صعصعة بن ناجية الذي كان يفتدي البنات من الوأد في الجاهلية ، فيدفع لمن أراد وأد ابنته مالاً ليبقيها! والقارئ في شعر الفرزدق لا يلبث طويلاً أن يكتشف أنّ جده الجاهليّ كان أرفعُ خُلقاً منه! فقد كان هجّاءً فاحشاً سليطاً ، وله مع جرير نصف قرن من الهجاء المتبادل انتهتْ بموته ، فرثاه جرير ، فقد كانا صديقين في الحياة عدوّين في الشّعر!

وبالعودة إلى القول ، أزعمُ غير مرتاب ، وأُقسم غير حانث ، أنّ البعض فُتنوا في الأدب فتنة بقية النّاس في المال والولد! وإن كان العربُ في جاهليتهم وإسلامهم إلى اليوم يعشقون عذب القول ، ويطربون لجميل العبارة ، فإنّ الإعجاب شيء والفتنة شيء آخر! فالإعجاب سياقه كيوم دافع الزّبرقان بن عديّ عن نفسه أمام النّبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأُعجب سيّد النّاس ببلاغته ، وقال قولته الشّهيرة : إنّ من البيان لسحراً! وكإعجاب عمر رضي الله عنه بشعر زهير بن أبي سلمى ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما بشعر عمر بن أبي ربيعة ، أما الفتنة فهي شأن الفرزدق مع شعر لبيد!

ومما قرأتُ وسمعتُ وشاهدتُ أقول إنّ البعض وإن كانت لا تسجدُ جباههم للأدب فإنّ قلوبهم تفعل! يُحدّثك أحدهم عن شِعر درويش كأنما القصائد أُمليت عليه من فوق السّبع الطّباق ، ويقرأ عليك أحدهم قصيدة مطر للسّياب كأنما يقرأ عليك سورة الرحمن ، ويُدافع أحدهم عن نثر ديستوفسكي كأنه يدافع عن نثر النبي في خطبة حجة الوداع ، ويُنافح أحدهم عن شعر التفعيلة كأنّ العرب لم يقولوا شِعراً قبل نازك الملائكة!

لستُ ضدّ الأدب بالطّبع ، فأنا أقرؤه بشغف وأكتبه بنهم ، وأستعذبُ الجميل منه وأنتقدُ الرّديء ، وإني في هذا وذاك أؤمن أنّ الأدب فنّ من فنون القول ، يتفاوتُ النّاس فيه ، ويعجبني من يطربُ لكلمة جميلة ، ويُفرحني من يهديني اقتباساً حلواً ، ولكني أُشفقُ على المفتونين والمفتونات بالأدب ، الذين ينظرون إليه بعين القداسة ولأصحابه بعين العِصمة ، ترى من يحب نزار قباني يريد أن يقنعك أنّ كل ما كتبه نزار جميل ، ويستميتُ في الدّفاع عن قصيدة مهما كانت تافهة ، وقد ناقشتُ شخصاً يرى أن قول نزار :

فصّلتُ من جلود النساء عباءةً

أحد أبلغ ما قالته العرب اليوم ، وأن نزار لو تقدّم لكان من أصحاب المعلقات على جدار الكعبة ، باعتبار هذا أحد الأقوال في سبب تسميتها!

أُشفقُ على من يتّخذ شاعراً يتعامل مع شعره تعامل المريد مع شيخه ، ومن يتّخذ ناثراً يتعامل مع نثره كأنه ابن حجر العسقلاني في صحيح البخاري!

عاديّ جداً أن يستعذب المرء شاعراً ويذر آخر ، وأن يطرب للون أدبي ويستقبح آخر ، وله أن يرى أدونيس أهمّ من المتنبي ، وأحلام أهم من الخنساء ، ولكني شخصياً أنزعج عندما أرى من يرى البيّاتي بالعين التي أرى فيها عمر بن الخطاب ، ومن يرى غادة السّمان بالعين التي أرى فيها عائشة!

الوطن

٥- ١٢- ٢٠١٦

العفو!

قال المأمون : واللهِ إني لأستلذُّ العفو حتى أخاف أن لا أؤجر عليه!

ومن قصص عفوه وحلمه ، أنه كان جالساً ذات يوم وعنده ولاته ووزراؤه ، فنادى على خادمه فلم يجبه ، ثم نادى عليهً ثانية فلم يجبه ، ثم نادى ثالثة فخرج الخادم وبيده قطعة خبز وقال متأففًا : ما هذا القصر الذي لا يستطيع فيه خادم أن يأكل لقمته! فنظر المأمون إلى الأرض وقبض على لحيته ، فغطى بعض الحاضرين رؤوسهم خشية أن ينالهم شيء من دم الخادم! ولكن المأمون رفع رأسه وقال : إنّ الملوك إذا حسُنت أخلاقها ساءت أخلاق عبيدها ، وإذا ساءت أخلاقها حسنت أخلاق عبيدها ، وإنّا قوم لا نشتري حُسنَ أخلاق عبيدنا بسوء أخلاقنا!

المأمون أحد أعظم الخلفاء العباسيين ، كان رجل دولة بامتياز ، مُحب للعلم والعلماء ، عاشق للكتب والأدباء ، في عهده تمًّ اختراع الإسطرلاب وحساب محيط الأرض بدقة ، وفي عهده كان من يُترجم كتاباً يحصل على وزنه ذهبًا! ولأنه كما تقول جدتي : «الزين ما يكمل» كان المأمون على عقيدة المعتزلة ، وفي عهده تمّ جلد إمام السّنة والجماعة أحمد بن حنبل! وعلى يديه كذلك دم أخيه الأمين ، ولكن لله ثم للتاريخ أن الأمين هو الذي بدأه الغدر ، فقد أخذ أبوهما الرشيد منهما العهد عند الكعبة أن لا يقتتلا ، وأن يكون الأمين خليفة والمأمون وليًا للعهد ، ولكن الأمين عزله من

ولاية العهد مستغلًا وجوده في خرسان ، فأخذ المأمون البيعة من أهلها وعاد إلى بغداد وقتل الأمين!

وبالعودة من المقولة إلى القائل ، فقد يتصرف الناس في مواقف على عكس ما هي طبائعهم التي عُرفوا بها ، فترى الرقيق يشتد كما أبو بكر يوم الردة ، وترى الصنديد يضعف كما عمر يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم! فلا هذا يُلغي رقة أبي بكر ولا ذاك يلغي شدة عمر ، كذلك لا يلغي ذاك حلم المأمون وعفوه!

إذا طمع أحد بعفوك فلأنه علم طيبة قلبك ، سهل جداً أن يخافك من حولك ، الصعب هو أن تفرض احترامك دون سيف! فالعنف يجعلك مخشيًا في حضورك ملعونًا في غيابك ، ولكن اللين يجعلك محترمًا في حضورك ، محفوظًا في غيابك ، فلينوا تكثر أغصانكم ، واعفوا تُقدّروا ، الرجل من يُطوع امرأته بقلبه لا بسوطه ، والأب من يُربي لا من يجلد ، والزوجة من تكون مع زوجها على الأيام لا مع الأيام عليه ، والحماة من تكون أمًّا ثانية لا زوجًا ثانيًا!

الوطن

١٢- ١١- ٢٠١٦

الثقافة الجمعية!

يقول بوكوفسكي : أينما يذهبُ الحشد ، اذهب في الاتجاه الآخر ، إنهم دومًا على خطأ!

تشارلز بوكوفسكي شاعر وقاصٌّ أميركي ، قصصه أجمل بكثير من شعره ، وسيرته الذاتية أجمل من كليهما ، قرأتُ لكثيرين كتبوا سيرهم الذاتية ، ولا تحتاج لكثير ذكاء وأنت تقرأ السير الذاتية لتكتشف كمية مساحيق التجميل التي يضعونها على سيرهم ، أما بوكوفسكي فكان جريئًا جدًا ليعترف بضرب أبيه المتكرر لأمه ، بعزلته الاجتماعية بسبب بثور حبّ الشباب التي كست وجهه ، وبملابسه الغريبة التي كان والده يُصر على إلباسه إياها ، وأخيراً اعترافه إدمان الخمور حتى بقيت مرضه وهروبه لآخر أيام عمره ، وقد عاهدتُ نفسي منذ زمن أن أفصل بين الأديب وأدبه ، فسيرة الأديب لا تقدح بنتاجه الأدبي ، ولو أردنا أن نحاكم الأدباء بسلوكهم ما قرأنا لأبي نواس الذي يعاقر الخمر ، وما قرأنا لابن أبي ربيعة الذي إن لم يُعجبها سلامه فالسلام على أخرى ، وما قرأنا لابن كلثوم الذي يشرب إن ورد الماء صفوًا ويشرب غيره كدرًا وطينًا ، ولما قرأنا للمتنبي السامق شعرًا ، الوضيع تكسبًا!

مقولة بوكوفسكي تطرح أمامنا سؤالًا : هل يمكن لمجتمع ما أن يكون بغالبيته على خطأ؟

والجواب بلا تردد عندي : نعم!

لو تأملنا سيرة الأنبياء ، لاكتشفنا أنهم بُعثوا في مجتمعات

تعاني بأكملها خطبًا ما! وهذه بالحقيقة وظيفة الأنبياء، علاج المجتمعات المريضة! أُرسل نوح عليه السلام في مجتمع مريض بالشرك، وأُرسل لوط عليه السلام في مجتمع مريض بالشذوذ، وأرسل محمد صلى الله عليه وسلم في مجتمع يعاني انفصامًا رهيبًا، مكارم أخلاق لو تأملتها لأصبتَ بالذهول، يقابلها رزايا يقترفها نفس الأشخاص تصيبك بالعجب! ولو تأملت آيات القرآن لوجدتَ فيها أن أكثر الناس: تارة لا يعقلون، وتارة لا يؤمنون، وأحيانًا لا يفقهون، ومرة لا يشكرون، وأخرى لا يعلمون!

والعاقل لا يتنازل عن صوابه ليرضي الغالبية الخاطئة التي لا يرضيها إلا أن تشبهها، كما فعل الملك والوزير في قصة البئر الخرافية، التي تروي قصة مملكة جاءت إليها ساحرة، وألقت في بئرها تعويذة تصيب كل من يشرب منها بالجنون، فشرب الناس جميعًا إلا الملك والوزير، فثارت الرعية تُطالب بخلع الملك المجنون ووزيره!

عندها عمد الملك إلى ماء البئر فشرب منه، وناول وزيره، فاحتفل الناس بعودة الملك والوزير إلى رشديهما!

ولا يقتضي بالضرورة أن يكون كل ما في المجتمع خاطئا، فقلما يوجد مجتمع تكون كل قيمه فاسدة، والحل هنا ليس بطلاق المجتمع وإنما بفعل الصواب وترك الخطأ.

والكلام عن احتمالية مرض المجتمع لا يعني أن الذي يتبنى أفكارًا مخالفة على صواب، لأنه خالف الحشد، وسلك طريقًا غير الذي سلكه الناس

يحدث أيضاً أن يكون الأفراد على خطأ، فليس كل ما لا يُعجب الفرد يقتضي ثورة، أحيانًا يحتاج الفرد علاجًا!

وأحيانًا كثيرة يشذّ الأفراد عن خط المجتمع من باب خالف تُعرف ، ثمة نساء ما كنا لنعرفهن لولا أن تعرّين!

وثمة رجال دين ما كنا لنسمع بهم لولا فتاواهم الشاذة ، هؤلاء ينطبق عليهم المثل العربي : كالبائل في بئر زمزم .

وقصة المثل أن رجلًا من الأعراب توجه إلى بئر زمزم وبال فيه ، فاجتمع عليه الناس ضربًا ولكمًا حتى أنقذه جنود الحرم في الرمق الأخير ، ولما رفعوه إلى الأمير ، قال له : قبّحك الله ، ما حملكَ على هذا؟ فقال : أردتُ أن يُشار إليّ ويُقال : هذا الذي بال في بئر زمزم!

الوطن

١٩- ١١- ٢٠١٦

الزّمن دوّار!

«الزّمن دوّار» ، كلمتان خفيفتان في اللفظ ثقيلتان في المعنى! لا أعرفُ من القائل ، وأغلب الظن عندي أنه من الكلام الذي لا يمكن الرجوع به إلى أحد بعينه ، وإن كان أنه لا شك أن ثمة قائلا اندثر وبقيت مقولته! ولكني وإن كنت لا أعرف القائل الذي يستحق قبلة على جبينه ، إلا أني مثلكم جميعًا أعرف قصصًا كثيرة من التاريخ والحاضر تثبت أن الزمن دوار فعلاً ، وإليكم واحدة ، أحسبها تكفي :

روى ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية أن وائل بن حجر الحضرمي ، سليل ملوك اليمن ، قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم معلنًا إسلامه ، وكان صلى الله عليه وسلم قد قال لأصحابه قبل وصول وائل : «يأتيكم بقية أبناء الملوك»!

فلما أتى وائل رحّب به النبي صلى الله عليه وسلم وأدناه ، ثم أعطاه أرضًا نظير ما ترك خلفه من المُلك والزعامة ، وأرسل معه معاوية ابن أبي سفيان ليدله على الأرض ، وكان معاوية وقتها من شدة فقره لا ينتعل حذاءً!

فقال معاوية لوائل : أردفني على الناقة خلفك

فقال وائل : ليس شحًا بالناقة ولكنك لست رديف الملوك

فقال معاوية : إذن أعطني نعلك!

فقال له وائل : ليس شحًا بالنعل ، ولكنك لستَ ممن ينتعل أحذية الملوك! ولكن امشِ في ظل الناقة!

ثم أخـذ الزمن يدور ، وولـى الفـاروق مـعـاوية على الشـام ، ثم أبقاه عثمان ، ثم صار ما تعرفون بين علي وعثمان إلى أن قُتل علي وآلت الخـلافـة إلى مـعـاوية ، وجـاء وائل إلى الشـام وقـد جـاوز الثـمـانين ، ودخل على معاوية ، وكـان جالسًا على كرسي الملك ، فنزل وأجلس وائلًا مكانه ، ثم ذكّره بالذي كان بينهما فيما مضى ، وأمر له بمال ، فقال وائل : أعطه من هو أحق به مني ، ولكني وددتُ بعـد مـا رأيت من حلمك لو رجع بنا الزمـان لأحـملك يومـهـا بين يديّ!

رضي الله عن الجميع : الفاروق وعثمان وعلي ووائل ومعاوية!

لا غنى يدوم ، ولا فقر يبقى ، لا صحة إلا ويعقبها مرض ، ولا وظيفـة مرموقة إلا ولها من تقاعد ، وزير يأتي وآخر يذهب ، نائب اليـوم تحت قبـة البـرلمان وغـدًا مـواطن عـادي على أبواب الإدارات العامة ينتظر أن يتمم معاملة كانت فيما مضى يكفيه اتصال واحد لتتم! العشرة الذين يتربعون اليوم على قائمة أثرياء العالم بحسب تصنيف مجلة فوربس كانوا قبل أربعين عامًا معدمين! الدنيا دولاب لا يكف عن الدوران ، وقد قال هارون الرشيد : ما أحلى المُلك لولا الموت ، فقيل له : حلا بالموت ، ولو دامت لغيرك ما وصلت إليك!

اسعَ إلى المناصب ، واجـمع المال ، حقق مـركـزًا مرموقًـا ، ابن شركة ، أسس مصنعًا ، كن ناجحًا ومميزًا ، واصعد إلى أعلى مكان يمكنك أن تبلغـه ، ولكن لا تنسَ أن تصـعـد بأخـلاق ، وأن ترفق بالذين ستقابلهم في طريق صعودك ، ولكن تذكر أنه لا أحد يبقى في القـمـة ، وأن كـثـيـرًا ممن التـقـيـتـهم وأنت في طريق صـعـودك ، ستلتقيهم في طريق هبوطك!

الوطن ٢١- ١ - ٢٠١٧

أرِحْنِي من سجعك!

«أَرِحْنِي من سجعك» ، مقولة شهيرة قالها زياد والي البصرة لأبي الأَسْود الدُّؤليّ . . . والقصّة أنّ أبا الأسْود وطليقته تخاصما في ابن لهما أراد أخذه منها ، فتحاكما إلى زياد ، فأشار زياد إلى أبي الأَسْود أن تكلّم ، فقال : الولد لي ، أنا حملته أولاً ، وأنا أنزلته أولًا! فقالت المرأة : هو حمله خفيفاً وأنا حملته ثقيلاً ، وهو أنزله شهوةً وأنا أنزلته ألماً! فالتفتَ زياد إلى أبي الأسْود وقال له : ادفعْ إليها ابنها وأَرِحْنِي من سجعك!

أبو الأسْود الدّؤليّ ، هو ظالم بن عمرو بن سفيان الكنانيّ ، وُلد قبل البعثة الشّريفة بثلاث سنوات ، آمن بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ولكنه لم يره ، لهذا عُدّ في طبقات التّابعين ، لغويّا فذّا ، وفصيحا لا يُشقُّ له غبار ، ربطته علاقة وثيقة بأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، شهدَ معه صفين وحرب الخوارج ، وعيّنه على قضاء البصرة ثم على إمارتها ، وأوكلَ إليه نقطَ المصحف الشّريف ، وقيل : هو أوّل من وضع علم النّحو ، والصّحيحُ أنّه وضع علامات الإعراب فقط ، أما واضع علم النّحو فهو سيبويه ، معجزة النحو العربيّ ، وصاحب أوّل كتابٍ فيه ، أسماه «الكتاب» ، وكان النحاة يسمونه قرآن النحو! لما أجاد فيه وأبدع ، وما زالت كتب النحو إلى اليوم تتبع تصنيفه وترتيبه ومصطلحاته إلا يسيراً! وبالعودة إلى أبي الأسْود ، فالزّين ما يكمل ، كما تقول العجائز ، فقد كان بخيلاً

شحيحاً ، يكره أن يأكل معه أحد ، ولم يبت عنده ضيف قط ، وقد أوصى أولاده قبل موته قائلاً : لا تتصدقوا على فقير ، فلو علم الله فيهم خيراً لأغناهم!

نستخلصُ مما سبق دروساً أهمها :

الدّرس الأوّل:

في بداية العلاقات تظهر المشاعر ، وفي نهايتها تظهر الأخلاق! في الوئام الجميع نبلاء ، فتريّث ولا تتسرع ، انتظر وقت الخصومة ، هناك تسقط الأقنعة وتظهر الوجوه على حقيقتها!

الدّرس الثّاني:

الخلافات تقع دوماً بين النّاس ، لأنهم عقول وآراء وقيم وأخلاق مختلفة ، وكلّ إنسان يبني قناعاته بناءً على ظروفه ، الذي ألقته أمه رضيعاً وذهبت لتعيش حياتها ، نظرته إلى الأم غير ذاك الذي فتح عينيه فوجدها تحوطه وترعاه ، والذي لا يعيش علاقة سوية بينه وبين زوجته نظرته ونظرتها إلى العلاقة الزوجية لن تتطابق مع أشخاص يعيشون حياةً سوية ، الذين يبدون جُناةً ليسوا إلا ضحايا ظروفهم!

الدّرس الثالث:

لماذا في كلّ خلاف يجب أن يدخل بيننا القضاة! واللذان جمع بينهما سقف بيت من العيب أن يجمع بينهما سقف محكمة!

الدّرس الرّابع:

القويّ لا يحتاج لمن يقف معه ، يكفيه أن القانون بيده! النُّبل أن تقف مع الضعيف ، فكل ظلم يقع أمام عينيك وتسكت عنه أنتَ شريك فيه! صحيح أنك لا تتحمل مسؤولية قانونية ولكنك تتحمل مسؤولية أخلاقية ، وأن يُقال فلان خاصم قوياً نُصرة لضعيف أشرف مليون مرة أن يُقال فلان تكاتف مع القويّ على الضعيف!

الدّرس الخامس:

ليس صحيحاً ما قال أبو الأسْود : لا تتصدقوا على الفقراء فلو علم الله فيهم خيراً لأغناهم! الله يُعطي الدّنيا لمن يُحبّ ولمن يكره ، ولكنه لا يُعطي هذا الدّين إلا لمن يُحبّ ، لو كان المال علامة على حُبّ الله للعبد لكان قارون في الفردوس الأعلى ، ولزاحم النمرود وفرعون شهداء بدر على باب الجنّة ، ولكن الحقيقة ليست كذلك ، المال رزق قسمه الله لحكمة يعلمها لا علاقة لها بالحُبّ أو البُغض ، وقد كانت تمضي الأيام ولا يُوقد في بيت النّبي صلى الله عليه وسلم نارٌ لطعام ، وكسرى وهرقل يتقلبان على الحرير!

الوطن

٤- ٢ - ٢٠١٧

ولا يوم الطين؟!

«ولا يوم الطين؟!» : قالها المعتمد بن عبَّاد لزوجته اعتماد الرميكية ، وللقول قصة طريفة ، لا بدّ قبل ذكرها أن نتحدث عن شخصياتها ، إذ إني أجد أن الإحاطة بأبطال القصة تعين كثيرًا على فهم أبعادها .

المعتمد بن عباد آخر ملوك بني عباد في الأندلس ، حكم إشبيلية وقرطبة ، اتفق المؤرخون على ارتفاع قدره ودماثة أخلاقه ، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق ، أكتفي بترجمة الذهبي له في سير أعلام النبلاء ، فهو من أعلم الرجال بالرجال ، قال عنه : كان المعتمد فارسًا شجاعًا ، عالمًا وأديبًا ، ذكيًا وشاعرًا ، محسنًا وجوادًا ، كبير الشأن خيراً من أبيه ، وكان من أبذل الملوك راحة ، وأرحبهم ساحة ، وكان بابه محط الرحال وكعبة الآمال . . . ولأنه لا مُلك غير مُلك الله يدوم زال ملك المعتمد على أيدي المرابطين ، ونفوه إلى مراكش في المغرب ، وهناك مات ، وما زال قبره موجودًا إلى اليوم ، أما اعتماد الرميكية ، فهي زوجته التي أحبها بجنون ، كانت جارية لرميك بن حجاج وله نُسبت ، وكانت أول معرفة المعتمد باعتماد أنه خرج يومًا في نزهة برفقة شاعره ابن عمار ، ولما وصلا إلى نهر هناك ، أنشد المعتمد : «صنع الريح من ماء الزرد» وطلب من شاعره ابن عمار أن يأتي بعجز للبيت ، ولكن قريحة الشاعر كانت غائبة وقتذاك فلم يكمل البيت ، وكانت اعتماد هناك تغسل ثيابًا لها ، فقالت للأمير تكميلًا لبيته : «أي درعٍ لقتالٍ لو جمد» فأعجب

المعتمد بشعرها ، وأكثر بجمالها ، فافتتن بها ، فاشتراها من سيدها ، ثم جعلها حرة وتزوجها ، وعاملها كما تُعامل الملكات ، وحدث أن خرج ذات يوم برفقتها في شوارع إشبيلية ، فرأت صبية يلعبون بالطين ، فاشتهت أن تلعب معهم ، فلم يأذن لها لأنه لا يليق بها اللعب في الطرقات ، وعندما رأى حزنًا في عينيها ، أراد أن يعوضها ، فاحضر في باحة قصره كمية كبيرة من الحناء وخلطها بماء الورد والمسك حتى صارت كالطين ، ثم نادى عليها وقال لها : الآن العبي بالطين! ثم دارت الأيام وحدثت بينهما مشاحنة ، فقالت له : واللهِ ما رأيتُ منكَ خيرًا قط ، فقال لها : ولا يوم الطين؟! فخجلت منه ، واعتذرت إليه .

الدرس الأول:

المشاكل الزوجية تحصل بين أي زوجين ، حصلت بين النبي صلى الله عليه وسلم وزوجاته في حادثة زيادة النفقة الشهيرة ، وحدثت بين الملوك وزوجاتهم كما رأينا مع المعتمد ، وإن كانت تحدث في الخاصة فعند العامة حدّث ولا حرج ، علينا أن نفهم أنها جزء لا يتجزأ من حياة أي زوجين ، تفرضها الطباع المختلفة ، وضغوط الحياة ، وقد تتعجبوا إذ أقول إن لها أثرًا طيبًا ، تجعلنا نقول ما لم نقله ساعة الرضا ، ونسمع ما لم نسمعه في ساعة الرضا ، وهي في حياة الزوجين كالملح في الطعام قليله يُصلحه وكثيره يُفسده! المهم ألا تُنال الكرامات ، ولا تُنتهك الحرمات ، ولا يُفجر في الخصومة .

الدرس الثاني:

طبيعة المرأة أنها تنسى بسرعة كل الإحسان عند أول غضب ، وهذا لا يحتاج إلى كثير برهان ، يكفي أن أورد لها شهادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو إذا شهد خرس بعده كل شاهد ، وإذا قال ضُرب بعده بعرض الحائط كل قائل ، وقد قال : كما في البخاري ومسلم : «يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكنّ أكثر أهل النار ، فقلنَ : ولم يا رسول الله؟ فقال : تُكثرن اللعن وتُكفرن العشير» وفي رواية أخرى شرح قوله يكفرن العشير «يحسن إليها زوجها دهرًا فإذا غاضبته قالت ما رأيتُ منك خيرًا قط»!

الدرس الثالث:

على الزوج أن يعرف أن نكران زوجته لإحسانه إليها ساعة الغضب إنما هو طبع في النساء ولا شيء شخصياً ، ولا يعني أن إحسانه ذهب أدراج الرياح ، ولا يعني أن المعروف قد ضاع فيها ، إنه مجرد طبع لا تملك المرأة منه فكاكًا ، وعلى المرأة ألا تدع هذا الطبع يسيطر عليها ، فالطبع الكامن فينا شيء ، وإنفاذ الطبع شيء آخر ، فالجحود موجع سواء جحود الرجل لفضل المرأة عليه ، أو جحود المرأة لفضل الرجل عليها .

الوطن

١١- ٢ - ٢٠١٧

جوِّع كلبك يتبعك!

جوّع كلبك يتبعك : مثل عربي شهير قيل في الجاهلية ، والمثل العربيّ لا بد له من قصة بعكس الحكمة التي قد تُقال دونما مناسبة ، وقائل المثل أحد ملوك اليمن ، أما القصة ، فقد كان صاحبنا عنيفًا على أهل مملكته ، جشعًا طماعًا يغصبهم أموالهم ويسلبهم ما في أيديهم ، حتى أضحى القوم فقراء وليس فيهم غني غيره ، فقالت له امرأته ناصحة : ارفق بقومك فإني أخاف أن يصيروا علينا سباعًا بعد ما كانوا لنا أعوانًا! فقال لها : جوِّع كلبك يتبعك! وأقام فيهم على حاله هذه ، ثم غزا فيهم مرة فأصابوا خيرًا كثيرًا ، فأخذه كله كعادته ، فلقي القوم أخاه وقالوا له : لقد رأيتَ ما فعل أخوك بنا ، وإنا نكره أن يخرج الملك منكم إلى بيتٍ غيركم ، فأعنا على قتل أخيك ، واجلس مكانه! فوافقهم في طلبهم ، فوثبوا عليه جميعًا وقتلوه ، فمر به عامر بن جذيمة وهو مقتول ، وكان قد سمع قوله : جوّع كلبك يتبعك ، فقال له : ربما أكل الكلب مؤدبه إذا لم يشبعه ، فصارت مثلًا هي الأخرى .

الدرس الأول:

العدل أقل تكلفة من الظلم! فالعادل مطمئن وحده والظالم خائف في حرسه ، وعندما جاء رسول كسرى إلى عمر بن الخطاب ووجده نائمًا مطمئنًا تحت الشجرة بلا حرس ولا جند قال له قولته

الشهيرة : حكمتَ فعدلتَ فأمنتَ فنمتَ! العدل معادلته بسيطة : خذ ما لكَ وأعطِ الناس ما لها واطمئن ، أما الظلم فمعادلته معقدة ، حرس وجنود ومخابرات وكلاب بوليسية وخوف!

الدرس الثاني:

القلاع الحصينة لا تسقط إلا من الداخل! اقرؤوا التاريخ ، كل نظام سقط على أيدي أعدائه الخارجيين كان قد سقط قبل هذا بكثير من الداخل ، بغداد لم تسقط على يد هولاكو وإنما كانت ساقطة قبله ، ولكن هولاكو أطلق عليها رصاصة الرحمة ، والأنظمة التي رأيناها تسقط بعد مظاهرتين ، لم تسقط لأن المظاهرات كانت صلبة ولكن الأنظمة كانت هشة ، والذي لا يحميه عدله لا يحميه جنده!

الدرس الثالث:

قال أبو جعفر المنصور يومًا لقادته ، صدق القائل : جوّع كلبك يتبعك ، فقال له حميد الطوسي : يا أمير المؤمنين ، إن لوَّح له غيرك برغيف تركك! وأسوأ سياسة في الحكم هي سياسة التجويع ، والتطويع عن طريق الحرمان ، الحاكم الذكي لا يخاف إذا شبع الناس ، ولكنه يخاف إذا جاعوا ، إذا صارت الوظيفة بالواسطة ، والسرير في المستشفى بالواسطة ، والمقعد الدراسي في الجامعة بالواسطة ، والمنزل في وزارة الإسكان بالواسطة ، والقبر في المقبرة بالواسطة ، فانتظر السقوط ، إن القطة الوادعة تصبح أسدًا عندما تُحشر في الزاوية .

الدرس الرابع:

سياسة التجويع لنيل التبعية ليست سياسة حكومات فقط ، وإنما سياسة أفراد أيضًا ، يمارسها الزوج مع زوجته ، والأب مع أولاده ، والحماة مع كنتها ، والكنة مع حماتها ، يعتقد الناس أن التبعية تتحقق بامتلاك الأجساد ، ولا يعرفون أن

أجمل تبعية يمكن تحقيقها هي عن طريق امتلاك القلوب!

الوطن

١٨- ٢ - ٢٠١٧

مَن عزَّ بزَّ؟

«مَن عَزَّ بَزَّ» مقولة جرت مجرى المثل ، قائلها عبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلي الشهير أحد أصحاب المعلقات ، والقول مرتبط بقصة ، وإن شئت فقل مرتبط بجريمة شنعاء!

دعك الآن من عبيد بن الأبرص فسيقتحم ساحة الكلام وحده لاحقًا ، وتعال نذهب إلى اليمن زمن الجاهلية ، نحن الآن هناك والمنذر ابن ماء السماء ملك على القوم ، له صديقان حميمان هما خالد بن المضلل وعمرو بن مسعود ، جلس الثلاثة ذات ليلة يحتسون الخمر على عادتهم ، فسكر المنذر وغضب من مزاح نديميه له ، فأمر بهما أن يُقتلا ويدفنا! ولما أصبح سأل عنهما ، فأُخبر بما كان منه ، فحزن عليهما وأمر أن يُبنى على قبر كل منهما بناء ، وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما على القبرين ، أحدهما يوم السّعد والآخر يوم التعس ، وأول من يطلع عليه يوم السّعد يعطيه مائة ناقة ، وأول من يخرج أمامه يوم التعس يقتله ، ثم جلس مرة في يوم التعس فكان أول من طلع عليه عبيدالله بن الأبرص فقال له المنذر : أما كان غيرك يا عبيد؟ والله لو أن ابني النعمان خرج إليّ في هذا اليوم لقتلته ، فقال له عبيد : أتتكَ بحائن رجلاه أي أتيتُ إلى مصرعي .

ثم قال له : أنشدني من شعرك قبل أن أقتلك! فقال له عبيد : أنساني تهديدك إياي شعري . فقال له : إذن هو القتل ، فقال عبيد :

مَن عَزَّ بَزَّ أي من ملك فعل ما شاء فجرت مثلًا ، ثم خيره كيف يقتله ، فقال عبيد : اسقني من الخمر حتى إذا سكرت اقتلني ، فأمر المنذر بالخمر ، فجعل عبيد يشرب حتى إذا سكر ، قام إليه المنذر فقتله!

الدرس الأول:

الناس في هذه الحياة لا يمشون إلا في دروب أقدارهم ، على اتساع الصحراء لا يجد عبيد بن الأبرص إلا مترا فيها يقف المنذر ، ذلك أنه منذ البداية كُتب أن هذا قاتل ذاك ، لا فرار من الأجل ولا من الرزق ، وإن الطمأنينة كلها لخصها سيد الناس : واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك!

الدرس الثاني:

هذه قصة تُريك أية نقلة نقلها الإسلام للعرب ، لكأنهم كانوا قطيعا مملوكا يختار صاحبه منه ما يذبح وما يترك ، دون أن يراجعه أحد ، وهي فوق هذا أمة متناحرة ، تقتتل على الكلأ والماء ، وتفني بعضها بالحروب الطوال ، من حرب البسوس إلى داحس والغبراء ، تئد البنات وتقطع الرحم إلا قليلا من مكارم الأخلاق جاء سيد الناس ليتمها ، ثم لما جاء انظر ما الذي حدث ، دم العبد كدم الخليفة ، وحرمة الأمة كحرمة الشريفة ، الرعاع المتحاربون على التوافه صاروا فاتحين ، أكلة الربا وشرّاب الخمر صاروا رهبان ليل ، ونحن قوم أعزنا الله بالإسلام .

الدرس الثالث:

من أمن العقوبة أساء الأدب! ما قتل المنذر إلا لأنـــه علم أن أحدا لن يسأله لماذا قتلتَ ، وما وأد أحد ابنته إلا لأنه علم أن أحدا لن يسأله لِمَ وأدتَ ، المحاسبة فيها صلاح الراعي وصلاح الرّعية ، والقانون الذي يغضّ الطرف عن القوي ويفرض عضلاته على الضعيف ليس قانونا وإنما سوط جلاد على هيئة مرسوم!

الدرس الرابع:

خلق الله الحيوان بغريزة دون عقل ، وخلق الإنسان بعقل وغريزة ، وعندما يسعى الإنسان لتغييب عقله هو في الحقيقة يتنازل عن الصفة التي تميزه عن الحيوان ، لهذا لا تصدقوا أن الخمر مشروب روحي هو في الحقيقة مشروب حيواني بقدر ما تشرب منه بقدر ما يغيب معه عقلك ، وأنتَ تخسر من إنسانيتك بقدر ما تخسر من عقلك .

الوطن

٢٥- ٢ - ٢٠١٧

«عرب آيدول» و«إسلام آيدول»!

الفرق بين «عرب آيدول» و«إسلام آيدول» كالفرق بين عمر بن الخطاب في الجاهلية وعمر بن الخطاب في الإسلام! في الجاهلية كان يصنع صنمًا من تمر، يعبده أول النهار، ويأكله آخره! وفي الإسلام كان يكسر صليب الروم، ويُطفئ نار المجوس، ويجلي اليهود، ويضع التاريخ الهجري، وينشئ الدواوين، ويحاسب الولاة، ويخشى أن تتعثر دابة عند شاطئ الفرات فيسأله الله: لِمَ لم تُصلح لها الطريق يا عمر!

لتشترك في «عرب آيدول» يجب أن تكون وسيمًا نوعًا ما، فمهما كان صوتك جميلًا، إلا أن الفاكهة في النظر، وسيمًا كمصعب بن عمير إذا رأته فتاة من قريش في الطريق افتخرتْ ذلك اليوم على رفيقاتها، وسيمًا كدحية الكلبيّ إذ يأتي جبريل عليه السلام على هيئته! ولكن مصعب الوسيم ذاك اختار أن يخوض مسابقة من نوع آخر، فكان أول سفير في الإسلام، ليس بالتصويت إنما بالتزكية، زكّاه محمد صلى الله عليه وسلم، لمّا علم أن رغبته هي الفوز بالجنة، ويوم أُحد كان الوسيم يُقدم عرضه الأخير في مسرح المعركة، حيث يُقدّم الرجال الحقيقيون عروضهم، فنال وسام الشهادة، وصوتت له الملائكة بالإجماع!

لتشترك في «عرب آيدول» يجب أن تكون صغيرًا في السِّنّ، لا بأس أن تكون في الرابعة عشرة كمعاذ بن الجموح ومعوذ بن عفراء يوم قتلا أبا جهل في معركة بدر!

ولا بأس أن تكون في الخامسة عشرة كالزبير بن العوام يوم سلّ أول سيف في الإسلام! ولا بأس أن تكون في السادسة عشرة كالأرقم بن أبي الأرقم يوم فتح بيته ملاذاً للدعوة السرّية في مكة! ولا بأس أن تكون في السابعة عشرة كسعد بن أبي وقاص يوم رمى أوّل سهم في الإسلام فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارمِ فداك أمي وأبي!

ولا بأس أن تكون في الثامنة عشرة كأسامةَ بن زيد إذ يوليه النبيّ صلى الله عليه وسلم على جيش فيه أبو بكر وعمر! أو كعتاب بن أُسيد إذ يولّيه رسول الله صلى الله عليه وسلم على مكة! ولا بأس أن تكون أكبر من هذا قليلًا ، في الثانية والعشرين مثلًا كمحمد الفاتح يوم فتح القسطنطينية فنال وسام الشرف من رتبة : نعم الجيش جيشها ونعم الأمير أميرها!

لتكون في لجنة التحكيم في «عرب آيدول» يجب أن تكون شهيرًا ، يعرفك الجميع ، كسعد بن معاذ سيد الأوس ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر أشيروا عليّ أيها الناس ، فيتكلم الأول ، والثاني ، والثالث ، وكلهم من قريش ، وما زال النبي يقول أشيروا علي أيها الناس ، فيقف سيد قومه ليقول : كأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال له : أجل ، فقال : والله لو خضتَ بنا برك الغمام لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد!

ولأن لجنة التحكيم تتقاضى مبالغ خيالية ، كان لا بُدّ لأجر سعد أن يكون خياليًا ، فاهتزَّ لموته عرش الرحمن!

لتنتج برنامج «عرب آيدول» يجب أن تكون كبيرًا في السن نوعًا ما ، فلا بُدّ لهذا الأمر من خبرة ،

وربما في الواحدة والستين كأبي بكر يوم أعاد المرتدين إلى حظيرة الإسلام!

أو في السبعين كحسان بن ثابت يوم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اهجهم وروح القدس معك!

ولا أعتقد أنك إذا كنت أكبر من هذا يمكنكَ أن تقوم بأعباء البرنامج ، فلا يصح أن تكون كيوسف بن تاشفين في الصف الأول من المعركة وهو ابن ثمانين ، ولا كأبي أيوب الأنصاري يوم استشهد على مشارف القسطنطينية وهو ابن مئة عام!

انظروا أين كنا ، وأين يحاول أن يأخذنا هؤلاء ، وأي قدوات يقدمونها لأولادنا ، وأية أحلام يزرعونها في رؤوسهم ، وكأنه لا يكفينا قصف المدافع على رؤوسنا من أعدائنا ، حتى يأتينا عزف المزمار من أبناء جلدتنا ، والحكومات تشجع وتموّل وتصوت ، يجعلون الأمر مسألة وطنية ، يا أخي تبًا لوطن مجده في حنجرة مطرب ، وخاصرة راقصة!

مدوّنات الجزيرة

٥ / ٣ / ٢٠١٧

لسنا أبرياء يا عزيزي!

قال رجلٌ من الخوارج لعليّ بن أبي طالب يريد أن يُقيم الحُجّة عليه : لماذا كان أبوبكر وعمر ينتصران وأنت لا تنتصر؟

فقال له عليّ : لأن أبا بكرٍ وعمر كانا يحكمان أمثالي وأنا أحكم أمثالك!

وخطب عبد الملك بن مروان على المنبر يوماً فقال : ألا تُنصفونا يا معشر الرّعية ، تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ولم تسيروا في أنفسكم ولا فينا بسيرة رعيّة أبي بكر وعمر ، أسأل الله أن يُعين كلاً على حاله!

صحيح أنّ النّاس على دين ملوكهم ، فلما وصلتْ كنوز كسرى إلى عمر قال : إن قوماً أدّوا هذا لأمناء! فقال له عليّ : يا أمير المؤمنين عفَفْتَ فعفُّوا ولو رتَعْتَ لرتعوا!

ولكن الصحيح أيضاً أن النّاس يتخذون الحكام والحكومات شماعة يُعلّقون عليها فسادهم ، فإذا كانت الحكومات تستورد الخمور- وهذا خطأ طبعاً- فنحن الذين نشربها ، ولم أسمع يوماً أن حكومة أصدرت مرسوما بوجوب شراء الخمر ، وإذا كانت الحكومة تغض الطرف عن بيوت الدعارة- وهذا خطأ أيضاً- ولكن نحن زبائنها ولم أسمع يوماً أن حكومة أصدرت مرسوماً يحث المواطنين على دعم المومسات ولو من باب التكافل الاجتماعيّ ، وإذا كانت المعاملات لا تمشي دون رشوة فبعضنا الراشي وبعضنا المرتشي!

الحرية هي أساس الفضيلة ، فليس هناك عفّة حين لا تتوافر

القـدرة على الزنى ، وليس هناك عـدل حين لا تتـوافـر القـدرة على الظلم ، وليس هناك أمانة حين لا تتوافر القدرة على السرقة ، وليس هناك زهد حين لا تتوافر القدرة على البذخ ، فالمجبر على الزهد ليس زاهداً ، والمجـبـر على الطاعـة ليس طائعـاً ، ونحن أحـرار بما يكفي لنختـار ، حبوب الكبتـاغون لو لم يكن لها زبائن مـا وجدت من يهرّبها ، والخمور لو لم يكن لها شاربون فلن تجد من يستوردها ، والمومسات لو لم يجدن زبائن كرماء لقرنَ في بيوتهنّ!

لو جلسنا مع أنفسنا جلسة صراحة لوجدنا أننا نسخة مصغّرة من حكوماتنا التي ننتقدها! نطالب بحرّية الرأي وفي داخل كل منا حاكم عربيّ صغير لا يرى إلا نفسه ولا يسمع إلا صوته ، ونطالب بتحسين التعليم وكثير منا لا يعرفون أبناءهم في أي صفّ! مشكلتنا أننا تربينا على المطالبة بحقوقنا دون أن نتربى أن كلّ حق يقابله واجب!

مشكلتنا يا أعزائي أننا جميعاً حكومات عربيّة!

الوطن

٦ / ٦ / ٢٠١٥

هلال رمضان

جاء أعورٌ إلى عمر بن الخطاب يزعمُ أنّه رأى هلال رمضان فسأله عمر يريد أن يتثبّتَ : بأيّ عينيكَ رأيته؟!

فقال الرّجل : بشرّهما لأن خيرهما ذهبتْ مع النبيّ في إحدى غزواته!

قد يبدو سؤال عمر فظّاً أوّل وهلة ولكنّه لا يبقى كذلك حين نتذكّر أن برقبته دين ملايين النّاس! والقصة لا تكشف جديداً في شخصيّته ، هذا هو عمر ، شرسٌ إذا تعلّق الأمر بالدّين ، نبيل إذا تعلّق الأمر بالرّعيّة ، يخاطب معدته عام الرمادة قائلاً : قرقعي أو لا تقرقعي لن تذوقي طعاماً حتى يشبع الناس! ومن فرط النُّبل يخشى إن عثرتْ دابة في شاطئ الفرات وهو في المدينة أن يُسأل : لمَ لمْ تُصلح لها الطريق يا عمر!

ككل عام حين توشك شمسُ شعبان على الأُفول تُثار القضيّة القديمة الجديدة : كيف يثبتُ دخول رمضان ، ولماذا لا نعتمد على الحساب الفلكيّ ونحن في عصر العلم ، وهل الإسلام ضد العلم؟!

أولا علينا أن نتذكّر أن الصّيام ركن من أركان الإسلام وليس مجرّد ظاهرة فلكيّة! وما دام الأمر دينا فالدّين يُؤخذ من صاحب الشّريعة ، وقد قالت الشريعة كلمتها بما يريح النّاس ويحفظ هيبة العلم! يبدأ رمضان بأحد أمرين : رؤية الهلال بالعين المجرّدة أو تمام شعبان ثلاثين يوماً!

لا أحد أغير على دين الله من الله ، ولا أحد أورع على الرسالة من صاحب الرّسالة!

لم يقف الإسلام يوماً على طرف والعلم على الطرف الآخر ، على العكس تماماً لم يجد العلم رحماً أحنّ عليه من الإسلام ، وعندما كان المسلمون يحسبون محيط الأرض بدقة كانت الكنيسة في أوروبا تُحاكم من قال بدورانها!

الأمرُ ليس تنحية للعلم ، ولكن هذه الشريعة تحدد أدواتها ووسائلها دون أن يكون في الأمر امتهان للعلم! وإن كان العلم تطوّر فالإسلام يُبارك ولكن من قال أن الإسلام حدد طريقة بداية رمضان بهذا الشكل لخلل في العلم وقتذاك؟!

عندما يحتاج الأمر إلى حساب الوقت تُخبر الشريعة النّاس بضرورة الحساب! وعندما أخبر النبيّ عن الدّجال أنّه يمكث في الأرض أربعين يوماً ، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وبقية أيامه كأيامنا! سألوه أتكفي صلاة يوم؟! فقال : لا ولكن اقدروا للصلاة قدرها! أي احسبوا وقت كل صلاة!

إذا لم يغبْ عن صاحب الشريعة أن الأمور تحتاج لحساب أحياناً ، وإن أُخفي عنه أن العلم سيتطور فلم يخفَ ذلك على الله ولأمرَهُ أن يأمرنا أن نأخذ بالحساب متى تطوّرنا!

الأمر ليس حظ الإسلام من العلم بقدر ما هو هذا هو الإسلام! وإلا فاسألوا الغرب : لماذا لكل طائفة عيد فصح مع أنكم تحسبون ميلاد الأهلّة بدقة؟!

الوطن

١٣/ ٦ / ٢٠١٥

سلاماً على البشر الحقيقيين!

يقولُ الرّائع علي عزت بيغوفيتش في كتابه «هروبي إلى الحريّة» :

في الوقت الذي اهتزتْ فيه مدينة نابولي الإيطاليّة من الضّحك لعروض الممثل الكوميدي «كارلينا» ، جاء رجلٌ إلى طبيب مشهور في المدينة ، وشكا إليه اكتئاباً شديداً . . . اعتقدَ الطبيبُ في البداية أنّ المرض عضويّ ، فباشرَ بإجراء الفحوصات المخبرية والتحاليل ، فتبيّن له أنّ المريض في أحسن حال . . واقتنع فعلاً أن المشكلة نفسيّة!

فقال للمريض : أنتَ معافى جسدياً ، جرّب أن تبحث عن المرح والتّسلية ، لماذا لا تذهب إلى عروض «كارلينا»؟!

نظر المريض في عيني الطبيب وقال له : أنا «كارلينا» سيّدي الطبيب!

فسلاماً على الذين يُثبتون كلّ يوم خطأ المقولة الشهيرة : فاقد الشيء لا يعطيه!

سلاماً على الذين يُعطون ما لا يجدون!

سلاماً على الآباء الذين حُرموا التعليم بسبب الفقر ، فأبوا رغم الفقر أن يحرموا أولادهم ، فذاقوا الويلات يبحثون لهم عن قلم وكتاب ومقعد دراسيّ في جامعاتٍ لا ترحم!

سلاماً على الأمهات اللائي حُرمن الحنان والاهتمام فلم يُفسد هذا الحرمان فطرتهن ، وما زلنَ يُغدقن الحنان والاهتمام!

سلاماً على الموظفين البسطاء الذين لا يعرف أحد كيف تكفيهم مرتباتهم ورغم هذا تجد أحدهم يضع في يد فقير صدقة!

سلاماً على الذين غرقوا في المعاصي ولم يجدوا من يأخذ بأيديهم إلى الله ، ورغم هذا ما زالوا يُحبّون الله وأهله!

سلاماً على الذين لم تُنسِهم الموسيقى القرآنَ ، ولم تُكرّههم الملاهي بالمساجد ، ولم يقدهم ركضهم وراء الأزياء إلى احتقار الحجاب!

سلاماً على الذي تقلّد منصباً مرموقاً فظلّ إنساناً ولم يقل لنا «أنا ربكم الأعلى»!

سلاماً على الذين يرفضون الظلم وإن وقع على غيرهم ، ويُعارضون القهر والاستبداد وإن سلموا له!

سلاماً على الذين لم تشغلهم وظائفهم عن الإحساس بالعاطلين عن العمل ، ولم تُنسهم مناصبهم أن الآخرين بشرٌ أيضاً!

سلاماً على التي أخبروها أنّ عليها أن تتلحلح قليلاً لتظفر بعريس فلم تلتفت إليهم وبقيت تُؤمن أن العريس أيضاً رزق ، وأن ما كُتب في السماء فسيكون في الأرض وإن لم تتلحلح!

سلاماً على الذي تنازل عن رغبة حرام وهو قادر عليها ، وحاور نفسه بالآية : «ألم يعلم بأن الله يرى» ، فرفض أن يكون الله أهون الناظرين إليه!

سلاماً على هؤلاء البشر الحقيقيين الذين يخبروننا أنّ ثمة ضوءا خافتا في عتمة الحياة ، ويجعلوننا نحلم أن هذا الضوء سيصبح يوماً ساطعاً ، وتصبح الأرض مكاناً صالحاً للحياة!

الوطن

٢٩- ٨ - ٢٠١٧

شكرا أبا بكر الصديق!

١ - شكرًا أبا بكر الصِّديق ، من سيرتك تعلمتُ أنّ البعض يصنعهم الله على عينه ، ففي سن مبكرة هيّأكَ الله لتكون فيما بعد أبا بكر! كنتَ صغيرًا عندما أوقفكَ أبوك أمام هُبل ، وقال لكَ : هذا ربك! فقلتَ له : اسقني ، أطعمني ، اشفني! فلم يجبك ، فقلتَ له : بئسَ الربُّ العاجز أنتَ! ومن يومها نشأتَ على غير دين قريش كصاحبك!

٢ - شكرًا أبا بكر الصِّديق ، من سيرتك تعلمتُ أنّ الطيور على أشكالها تقع ، وقعتَ على النبي صلى الله عليه وسلم ووقع عليكَ ، ولأنه لم يكن هناك متسعٌ إلا لنبي واحد ، ولأنّ النبوة لم تكن تليق إلا به ، كنت أنتَ دون الأنبياء خطوة ، وفوق الناس خطوات!

٣ - شكرًا أبا بكر الصِّديق ، من سيرتك تعلمتُ أنّ المرء حقًا على دين خليله ، ولأنّ خليلك كان خير نبيٍّ بُعث ، كان لا بد أن يكون له خير صاحب ، وأن أصحاب الأنبياء إذ سبقوك زمانًا فقد سبقتهم فضلًا ، وإن كان أصحاب نوح ركبوا سفينة الخشب ، فقد كنت أول رجل ركب سفينة الحق ، وإن كان أصحاب عيسى طلبوا مائدة لتطمئن قلوبهم ، كان قلبك مطمئنًا دون أن ترى ، ولمّا أخبروك أن صاحبك قد أُسري به ، قلتَ : لو قال أنه عرج إلى السماء لصدقته! صدقته حتى قبل أن يخبرك!

٤ - شكرًا أبا بكر الصِّديق ، من سيرتك تعلمتُ أنّ المال أفضل خادم وأسوأ سيِّد ، وأنه إذا وُضع فوق الرأس خفض وإذا وُضع تحت القدم رفعَ ، وقد وضعتَ مالك تحت قدميك فارتفعتَ! تشتري بلالًا وتعتقه ، ويوم العسرة جاء عمر بن الخطاب بنصف ماله ليسبقك ، فإذا بكَ قد أتيت بكل مالك! فعلموا أنكَ لا تُسبق! ولما سألك صاحبك ، ماذا تركتَ لأهلك يا أبا بكر! قلت له : تركتُ لهم الله ورسوله!

٥ - شكرًا أبا بكر الصِّديق ، من سيرتك تعلمتُ أنّ البعض لا تحلو بدونهم الطريق! كنتَ كل صباح تقول لصاحبك : ائذن لي بالهجرة! فيقول لكَ : انتظر لعل الله أن يجعل لكَ رفيقًا! كان يعرف أنه مهاجر لا محالة ، فأراد أن يخبئك لنفسه بـ«انتظر»! كان لا يطيق الدرب دونك ، ولما طرق بابكَ ذات ليل وقال : هلمّ بنا يا أبا بكر ، لم تودع أهلكَ ، لأن محمدًا كان كل أهلك!

٦ - شكرًا أبا بكر الصِّديق ، من سيرتك تعلمتُ أنّ الأصدقاء روح واحدة في جسدين ، تحضر لبنًا وتعطي صاحبكَ ليشرب ، فيشرب هو وترتوي أنتَ!

٧ - شكرًا أبا بكر الصِّديق ، من سيرتك تعلمتُ أنّ الدعوة أهم من الدعاة ، وأن الإسلام لم ينتصر إلا لأنكم قدمتموه على أنفسكم ، فعندما وصل الفرسان إلى الغار ، كنتَ ترتعد خوفًا على صاحبك ، وتقول له : إن أهلكَ فإنما أنا رجل ، وإن تهلكَ فأنتَ الأمر كله ، ولأن الجزاء من جنس العمل ، صديقك الذي خفت عليه يطمئنك بصوته العذب : يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا ، يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما! وشاء ربك ألا يبقى هذا الحب حبيس مغارة ، فجعله قرآنًا يُتلى إلى قيام

الساعة : «ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا»! يا لحظك يا أبا بكر ، يا لحظك ، يشهد القرآن أنك كنتَ صاحبه!

٨ - شكرًا أبا بكر الصِّديق ، من سيرتك تعلمتُ أنّ لا أحكم على الناس من مظهرهم ، فالرجل الأسيف الذي ما كان يقوى على القرآن فتبكيه آية ، ينهار الناس يوم موت النبي صلى الله عليه وسلم ، ويثبت قائلًا : من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت!

٩ - شكرًا أبا بكر الصِّديق ، من سيرتك تعلمتُ أنّ في داخل كل إنسانٍ ، إنسانا آخر! يرتد العرب ، فتشهر سيفك لتعيدهم إلى حضن الإسلام ، يناقشك عمر الصّلب ، ويتريث خالد المقدام ، وينتظر أبو عبيدة الفارس ، ويُقلّب الأمر سعد بن أبي وقاص الرامي ، وحدك الرقيق العذب وقفتَ كالأسد الهصور ، قائلًا : والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه! ولما راجعكَ عمر ، أخذتَ بتلابيب ثوبه وقلت له : أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام يا ابن الخطاب؟!

١٠ - شكرًا أبا بكر الصِّديق ، من سيرتك تعلمتُ أنّ القانون فوق الجميع وأن الناس سواسية فيه ، ولأن صاحبك قال : نحن معاشر الأنبياء لا نرثُ ولا نورِّثُ ما تركناه صدقة ، لم تدفع لفاطمة أرض فدك ، وما كان لكَ أن تمنع ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إرثًا ليس لها ، وتعطي ابنتك إرثًا ليس لها ، فلم تعطِ عائشة لذاتِ السبب الذي لم تعطِ لأجله فاطمة!

١١ - شكرًا أبا بكر الصِّديق ، من سيرتك تعلمتُ ما يفعل الاقتداء برسول الله ، وإنك ما سبقت الجميع إلا لفرط اتباعك

له ، يجد الصحابة في صدورهم شيئًا يوم الحديبية ، وقد غضبوا لله وحقّ لهم ، وحدك كنت تقول : إن الرجل نبي فالزموا غرسه! وعندما أشاروا عليكَ أن لا تنفذ بعث أسامة خوفًا أن تغدر بكم الروم ، قلتَ : واللهِ لا أحلُّ لواءً عقده رسول الله ولو علمتُ أن السباع ستأكلني .

١٢ – شكرًا أبا بكر الصِّديق ، من سيرتك تعلمتُ أنّ النبلاء يتواضعون في مواضع الفخر ، كان أول كلامك بعد البيعة : أيها الناس ، إني قد وُليتُ عليكم ولستُ بخيركم! يا لفرط التواضع يا أبا بكر ، والله إنك لخيرنا ، ووالله لو جُمعنا في كفٍ وكنتَ في كفٍ وحدك لرجحت بنا .

١٣ – شكرًا أبا بكر الصِّديق ، من سيرتك تعلمتُ أنّ الدولة العادلة صديق الضعيف حتى لا يخاف ، وعدو القوي حتى لا يعتدي ، وما أجملكَ إذ تقول : الضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع له حقه ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه!

١٤ – شكرًا أبا بكر الصِّديق ، من سيرتك تعلمتُ أنّ الحاكم العادل يبحث عن رعية لا عن عبيد ، فمنذ اليوم الأول لك في الحكم قلتَ للناس : أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله فيكم ، فإن عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم

١٥ – شكرًا أبا بكر الصِّديق ، من سيرتك تعلمتُ أنّ السلطة لا تُفسد الناس بل تظهرهم على حقيقتهم ، لا تشغلك السياسة أن تأتي عجوزًا وحيدة لتكنس دارها وتطبخ طعامها ، وتمشي في الطريق فيأخذ أولاد المسلمين بثوبكَ ويقولون : يا أبتاه ، يا أبتاه!

الوطن ٢٨– ٥ – ٢٠١٧

شُكرًا عمر بن الخطاب!

١- شُكرًا عمر بن الخطاب ، من سيرتك تعلمتُ أن لا أيأس من أحد ، ولا أفرط الثقة بأحد ، وأن الهداية كالضلالة أقرب إلى أحدنا من شراك نعله ، أسلمتَ متأخرًا قليلًا فسبقتهم كثيرًا!

٢- شُكرًا عمر بن الخطاب ، من سيرتك تعلمتُ ماذا تفعل دعوة قيلتْ في الأرض فلقيتْ في السماء إجابة ، على غفلة منك دعا لك سيدنا ، اللهم أعزّ الإسلام بأحبّ الرجلين إليك ، عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام ، فكنتَ أحب الرجلين إلى الله ، وجاءت بك دعوته إلى دار الأرقم!

٣- شُكرًا عمر بن الخطاب ، من سيرتك تعلمتُ أن المؤمن أديب مع الله ، دعا لك سيد الناس أن يعزّ ربُك الإسلامَ بك ، فأجاب دعوته ، وأعزّ الإسلام بك ، ولكنك لأدبك كنت تقول نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، ولم تقل أعز الإسلام بنا!

٤- شُكرًا عمر بن الخطاب ، من سيرتك تعلمتُ أنّ المسألة مسألة قلوب لا مسألة عقول ، يوم كان القلب مظلمًا عبدتَ صنمًا من تمر أول النهار وأكلته آخره ، ويوم أضاءه الله بنور الإيمان ، قلتَ لجلساء دار الندوة : تعستْ آلهتكم!

٥- شُكرًا عمر بن الخطاب ، من سيرتك تعلمتُ أن جنود الإسلام يولدون دفعة واحدة ، فعند اللحظة الأولى لإسلامك ، تسأل سيدك : يا رسول الله ، ألسنا على حق وهم على باطل؟ فقال

لك : بلى ، فقلتَ : فعلامَ نعطي الدنية في ديننا ، واللهِ لنخرُجنَّ إليهم ، وقد كان إسلامك نصرًا!

٦- شُكرًا عمر بن الخطاب ، من سيرتك تعلمتُ أنّ لله عبادًا يجعل الحقّ على ألسنتهم وقلوبهم ، وقد كنتَ منهم ، في الخمر ، وفي الأسرى ، وفي الحجاب ، تقول رأيًا في الأرض ، ينزل الوحي به من السماء ليصير قرآنًا يُتلى!

٧- شُكرًا عمر بن الخطاب ، من سيرتك تعلمتُ أنّ المؤمن عزيز لا يختبئ ما لم تدعُ حاجة ، ولم تقتضِ ضرورة ، فإنك على الملأ مهاجر ، فمن أراد أن ييتم ولده ، وترمل زوجته ، وتثكل أمه ، فليلقكَ وراء هذا الوادي ، فإن المسير إلى المدينة!

٨- شُكرًا عمر بن الخطاب ، من سيرتك تعلمتُ أنه يجب أن نزيل كل عائق يهدد العقيدة ، وقد قطعتَ شجرة بيعة الرضوان لما كثر زوارها ، خشية أن يتعلق قلب بغير الله!

٩- شُكرًا عمر بن الخطاب ، من سيرتك تعلمتُ أنّ الحُرَّ لا يرضى الضيم لغيره ، ولو خالفه في الدين والمعتقد ، وأنه علينا بحسن صحبة الناس ، وعلى الله الحساب ، ومتى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!

١٠- شُكرًا عمر بن الخطاب ، من سيرتك تعلمتُ أنّ النبلاء لا ينسون ماضيهم ، تجمع الناس آخر حجة لك ، وقد انتشرت رعيتك ، واتسعت دولتك ، وعلا شأنكٌ ، فتقول لهم : هنا كنتُ أرعى إبلًا للخطاب!

١١- شُكرًا عمر بن الخطاب ، من سيرتك تعلمتُ أنه ليس من العيب أن نخطئ ، وإنما أن نستمر على الخطأ ، وما أنبلك ، إذ تعطيك العجوز درسًا في الحكم : أيليَ عمر أمرنا ويغفل عنا؟!

فتهرعُ إلى بيت المال ثم ترجع لتطبخ لها بيديك ، وفي صبيحة الغد تشتري منها مظلمتها ، وما ظلمتها ولكنك من فرط العدل اتهمتَ نفسك!

١٢- شُكرًا عمر بن الخطاب ، من سيرتك تعلمتُ أن المؤمن الحق يستشعر أنه مسؤول عما أوكله الله إليه ، فلا يستريح إلا حين يؤديه ، وهو فيه بين الخوف والرجاء ، ولو أنّ دابة عثرت عند شاطئ الفرات لخشيتَ أن يسألك الله عنها : لِمَ لمْ تصلح لها الطريق يا عمر؟!

١٣- شُكرًا عمر بن الخطاب ، من سيرتك تعلمتُ أن المسؤولية تكليف لا تشريف ، تحضر زوجتك لتساعدا أعرابيًا تلد زوجته وليس لهما أحد ، وتداوي بيديك إبل الصدقة .

١٤- شُكرًا عمر بن الخطاب ، من سيرتك تعلمتُ أن النبلاء ينزلون على الحق بغض النظر عمن قاله : أردتَ تحديد المهور ، فأوقفتك الشّفاءُ بنت عبد الله على المنبر وقالت : لا يحلُّ لكَ! ولما قرأتْ لكَ قول الله تعالى ، قلتَ : أخطأ عمر وأصابت امرأة!

١٥- شُكرًا عمر بن الخطاب ، من سيرتك تعلمتُ أن النصر والهزيمة بالطاعة والمعصية ، لا بالسيوف والرماح ، ولما جاءك رسول سعد يبشرك بالنصر في القادسية ، سألته : كم استمر القتال؟ فقال : من الصبح حتى العصر! فقلتَ : سبحان الله ، لا يثبتُ الباطل أمام الحق مثل هذا ، لعله بذنبٍ أذنبتموه أنتم أو أنا!

١٦- شُكرًا عمر بن الخطاب ، من سيرتك تعلمتُ أن الاجتماع في الصلاة اجتماع في الحياة ، وحين جمعتَ المسلمين على

إمام واحد في صلاة التراويح ، جمعهم الله على قلبك ، فهدمتَ الإمبراطوريات!

١٧- شُكرًا عمر بن الخطاب ، من سيرتك تعلمتُ أن القائد الفذ لا ينظر إلى الحاضر وإنما إلى المستقبل أيضًا ، وما امتنعتَ عن قسمة سواد العراق إلا كي يكون للمسلمين الذين لم يولدوا بعد حظًا منه!

١٨- شُكرًا عمر بن الخطاب ، من سيرتك تعلمتُ أنّ معيار الولاية الأكفأ لا الأقرب ، ولما قالوا لك : ولِّ ابنكَ! غضبتَ وقلت : هذه كلمة ما أريد بها وجه الله!

١٩- شُكرًا عمر بن الخطاب ، من سيرتك تعلمتُ أنه لا حظّ في الإسلام لمن ترك الصلاة ، فعندما طعنكَ اللعين ، أُغمي عليكَ لكثرة ما فقدتَ من دم ، وما استعدتَ وعيكَ إلا في بيتك ، وكان أول ما قلت : أصلى المسلمون الفجر؟!

٢٠- شُكرًا عمر بن الخطاب ، من سيرتك تعلمتُ أن الإنسان يموتُ على ما عاش عليه ، عشتَ لله ، فمتَّ لله! كنت عزيزًا عند ربك فجمع لك الشهادة مع القرآن ، فهنيئًا لكَ يا شهيد المحراب! .

الوطن

٥- ٦ - ٢٠١٧

شُكرًا عثمان بن عفان!

١- شُكرًا عثمان بن عفان، من سيرتك تعلمتُ أن الطيور على أشكالها تقع، ولأنّ أبا بكر عرف أنك من طينته الطيّبة، وقع عليكَ! وحدّثك عن ربٍّ هو خير مما كنتَ تعبد، فشرح الله بلسانه العذب صدرك، وجاء بكَ إلى النبيّ باكرًا، والمسلمون يومذاك لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين، فكان لكَ فضل السبق!

٢- شُكرًا عثمان بن عفان، من سيرتك تعلمتُ أنّ الأرض لله، والعقيدة أغلى من الوطن، فلأجل عقيدتك تركتَ الوطن مرتين، مرة إلى الحبشة، ومرة إلى المدينة، فكنت صاحب الهجرتين!

٣- شُكرًا عثمان بن عفان، من سيرتك تعلمتُ أن القلوب تُفتح بالأخلاق لا بالسيوف، وأن اللين أقصر طريق للحُبّ وقد كنتَ خلوقًا لينًا، حبيبًا عفيفًا، لهذا أحبك الناس، وكانت المرأة من قريش تلاعب صغيرها قائلة: «أحبكَ والرحمنُ.. حبَّ قريش لعثمان»! ويوصي سيدك ابنته بك قائلًا: يا بنية أحسني إلى أبي عبد الله فإنه أشبه أصحابي بي خُلقًا!

٤- شُكرًا عثمان بن عفان، من سيرتك تعلمتُ أنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فلا يوجد في تاريخ البشرية رجل تزوج ابنتي نبي غيرك، ولما ماتت أم كلثوم، قال لك معزيًا: لو كان عندنا ثالثة لزوجناكها يا عثمان!

٥- شُكرًا عثمان بن عفان ، من سيرتك تعلمتُ أنّ الابتلاء بالغنى لا يقل فتنة عن الابتلاء بالفقر ، فالابتلاء بالفقر داعٍ للانكسار ، والابتلاء بالغنى داع للغطرسة ، وقد نجحت في الامتحان ، عرفت كيف تجمع المَال ولكنكَ لم تتخذه سيدًا يحكمك بل عبدًا يخدمك ، ولم تجعله قِبلةً وإنما جعلته جسرًا تعبر عليه إلى الجنة!

٦- شُكرًا عثمان بن عفان ، من سيرتك تعلمتُ أنه نِعم المال الحلال بيد الرجل الصالح ، يقلّ الماء في المدينة ، ويتحكم برقاب الناس يهودي له البئر ، فيقول سيدك : من يشتري بئر رومة ويجعله للمسلمين وله خير منه في الجنة ، فتشتريه! يضيق المسجد على أهله ، فيقول سيدك : من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد وله خير منها في الجنة ، فتشتريها! يحثكم على تجهيز جيش العسرة ، فتعطي المائة بعد المائة من الإبل ، ثم لا تكتفي ، فتضع في حِجره الشريف مالًا كثيرًا ، فيقلبه بيديه الطاهرتين ، ويقول : ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم!

٧- شُكرًا عثمان بن عفان ، من سيرتك تعلمتُ أن الحياء كما هو أجمل زينة للنساء ، فإنه تاج على رؤوس الرجال ، وهنيئًا لكَ التاج الذي ألبسكَ إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قال : «أشدُّ أمتي حياءً عثمان»!

٨- شُكرًا عثمان بن عفان ، من سيرتك تعلمتُ أنَّ الرجل الذي يهتم بزوجته لا ينحدر وإنما يتسامق ، ولأنك سامق لم تخرج معهم إلى غزوة بدر ، بقيت قرب زوجتك ترعاها وتداويها من مرضٍ نزل بها ، ولأن الجزاء من جنس العمل ، ولأن الله علم

ما في قلبك ، أبى إلا أن يجمع لكَ الأجرين ، أجر الاهتمام بزوجتك ، وأجر القتال ، فقسم لكَ رسول الله صلى الله عليه وسلم نصيبًا من الغنائم كأنك شهدتَ الوقيعة!

٩- شُكرًا عثمان بن عفان ، من سيرتك تعلمتُ أن المسلم وفيٌّ ، وأنه لا ينسى معروفًا أُسديَ إليه ، يرسلك سيدنا لتبلغَ قريشًا رسالته ، فأجارك عبدالله بن سعد على ما فيه من شرك ، وعداوة لله ورسوله إلا أنه كان فيه شيءٌ من مكارم أخلاق الجاهلية ، وبعد الفتح يُهدر دم عبدالله بن سعد ، فيدخل عليكَ مستجيرًا ، فتجيره ، ولأنك كنت عزيزًا عند رسول الله إلى الحد الذي لا يكسر لكَ فيه عهدًا ولا ذمة ، قبل منك أن تجيره ، على شدة بغضه للرجل يومذاك!

١٠- شُكرًا عثمان بن عفان ، من سيرتك تعلمتُ أنكم لم تسبقونا بصلاة ولا صيام ، وإنما بقلوبٍ في الصدور ليست كقلوبنا ، قلوب مفطورة على الاتباع ، وتقديم الله ورسوله ، ولما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من البيت الحرام عام الحديبية وكنتَ أنت رسوله إلى مكة ، قالوا لك : هذا البيت أمامك ، فطُفْ به! فقلت : ما كنتُ لأطوف حتى يطوف رسول الله!

١١- شُكرًا عثمان بن عفان ، من سيرتك تعلمتُ أن المسلم ليس مجرد فردٍ في جماعة ، وإنما هو الجماعة كلها إذا نزل به ضيم ، يصلُ إلى المسلمين إشاعة مقتلك عام الحديبية ، فيستنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمة كلها ثأرًا لك ، ويأخذ منهم بيعة الموت عند الشجرة ، فينزل أمين السماء على أمين الأرض بقول الله : «لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة» وقد كنت سبب البيعة والرضا!

١٢- شُكرًا عثمان بن عفان ، من سيرتك تعلمتُ أنّ المؤمن لا يغتر بعمله ، ويبقى دومًا بين الخير والرجاء ، فرغم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيك : ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم! إلا أنك كنت كلما وقفت على قبر بكيت وقلت : القبر أول منازل الآخرة!

١٣- شُكرًا عثمان بن عفان ، من سيرتك تعلمتُ أن بعض الناس عزيزين على الله إلى الحد الذي يطوي أعمارهم ولا يطوي أعمالهم ، جاءك حذيفة بن اليمان يوم خلافتك وقال : أدرك الناس يا أمير المؤمنين ألا يختلفوا في القرآن اختلاف اليهود والنصارى في كتبهم! وكان القرآن يومذاك مفرقًا في الألواح وسعف النخل وصدور الرجال ، فانبريت باقتدار تجمعه في مصحف واحد ، وما فتحنا اليوم مصحفًا إلا فيه : «بالرسم العثماني» ، كل مصحف على وجه الأرض اليوم هو صدقة جارية لكَ!

١٤- شُكرًا عثمان بن عفان ، من سيرتك تعلمتُ أن الله حقًا ينزع بالسلطان ما لا ينزع بالقرآن ، وما جرأهم إلا حلمك ، ولكنك كنت رجلًا حتى آخر لحظة من عمرك ، وأبيت أن تخلع قميصًا ألبسكَ الله إياه ، لا حبًا في السلطة ولكن كي لا تكون في الناس سُنة سيئة ، وليتحقق وعد الرسول لكَ : بشره بالجنة على بلوى تصيبه!

١٥- شُكرًا عثمان بن عفان ، من سيرتك تعلمتُ أنه من عاش على شيء ماتَ عليه ، كان القرآن صديقكَ فنزل بك قول الله : «أمن هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه»! ثم جمعته ، فكتب الله لك الشهادة عليه ،

وكانت أول قطرة من دمك على قوله تعالى : «فسيكفيكهم الله»! فمات كل الذين قتلوك قتلى!

الوطن

١١- ٦ - ٢٠١٧

شُكرًا علي بن أبي طالب!

١ - شُكرًا علي بن أبي طالب ، من سيرتك تعلمتُ أن الطيور على أشكالها تقع ، يا صهر النبيّ ، وجليس أبي بكر ، ونسيب عمر ، وصاحب عثمان ، وخاتم الراشدين ، وقد كان ختامها مسكًا!

٢ - شُكرًا علي بن أبي طالب ، من سيرتك تعلمتُ أن الله يُورد الذين يحبهم الطريق التي يُحبُّ ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيًا . . . ولأن أباك كفله في صغره ، أراد أن يُخفف عنه لفقره ويكفل أحد أولاده ، فكنتَ أنتَ ، وما فعلَ بأمره ولكن ليمضي قدر الله ، وتكونَ تربية بيت النبوة ، ولتكون أول من أسلم من الغلمان ، وتكون يحيى أمتنا فتؤتى الحُكم والحكمة صبيًا!

٣ - شُكرًا علي بن أبي طالب ، من سيرتك تعلمتُ أن البعض يولدون رجلًا ، ولا يحتاجون للسنوات أن تصنعهم ، باسلٌ ومغوار كنتَ منذ نعومة أظفارك ، أول فدائي في الإسلام كنتَ ، تنام في فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رغم علمك أنهم أخذوا من كل قبيلة رجلًا ليقتلوه فيتفرق دمه بين القبائل ، ولكن هذا لم يثنكَ عن خدمة الإسلام ، فلزمتَ فراشه ، ليمضي النبي وصاحبه في هجرة غيرتْ وجه الأرض ، وصححت مسار الزمان والإنسان!

٤ - شُكرًا علي بن أبي طالب ، من سيرتك تعلمتُ أن حبَّ

البعض عبادة ، وميزان إيمان ، كيف لا وقد قال لكَ سيدنا : يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق! وإنا واللهِ لنحبك ، ونتقرب إلى الله بحبك على أمر نبينا ، وما أنتَ منه إلا بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعده!

٥ - شُكرًا علي بن أبي طالب ، من سيرتك تعلمتُ أن الجنة محفوفة بالمكاره ، وأن من أرادها شمَّر عن قدميه ، ولم يهتم بوعثاء السفر وأشواك الطريق ، سيرًا على الأقدام تهاجر ، تتورم قدماك ويسيل دمك ، ولكن الجبال خُلقتْ لتنتصب لا لتنحني ، وقد كنتَ جبلًا في هيئة رجل!

٦ - شُكرًا علي بن أبي طالب ، من سيرتك تعلمتُ أن المؤمن يعطي لله وإن بدا أنه يعطي للناس! وأن النبيل يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة! تجوعُ وأهلك ليشبع مسكين ويتيم وأسير ، فهنيئًا لك ولأهل بيتك قول الله فيكم : «ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريدُ منكم جزاءً ولا شكورًا»!

٧ - شُكرًا علي بن أبي طالب ، من سيرتك تعلمتُ أن الطيبين للطيبات ، ولأن الزهراء كانت سيدة نساء العالمين ، لم يكن يليق بها غيرك ، فائتمنك رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعضه ، فأي مجد ذاك بعد أن تتزوج سيدة نساء الجنة ، لتنجب سيدي شبابها!

٨ - شُكرًا علي بن أبي طالب ، من سيرتك تعلمتُ أن الحنان لا يُنقص من الرجولة وإنما يُزيّنها ، وأن خير الأزواج ألينهم قلبًا ، وأحسنهم عشرة ، وأرقهم غزلًا ، وما أجملك إذ تدخل على الزهراء فترى السواك في فمها فتداعبها قائلًا :

حظيت يا عـــود الأراك بثـــغـــرها
أمـــا خـــفت يا عـــود الأراكِ أراكـــا؟
لـو كنتَ من أهل القـــتـــال قـــتلتك
مـــا فـــاز مني يا ســـواك ســـواكـــا!

٩ - شُكرًا علي بن أبي طالب ، من سيـرتك تعلمتُ أن المسلمين رحم واحـد ، وعـائلة من دون النـاس ، يصل بعـضـهم بعـضًـا ، ويتحبب بعضهم إلى بعض ، تخرج إلى المسجد برفقة ابنك الحسن ، وقد كان في أول صباه ، فيلقاك أبو بكر وهو يومذاك الخليـفـة ، فـيأخـذ ابنك منك ، ويضعـه على رقبـتـه ، ويسـير معك ، ويمازحك مداعبًا ابنك : بأبي شَبه النبيّ ، ليس بشبه علي! فتضحكان ، أخ بجانب أخيه ، وتقي قرب تقي!

١٠ - شُكرًا علي بن أبي طالب ، من سيـرتك تعلمتُ أن الكبـير كبير المواقف لا كبير السنوات ، يخرج عمرو بن ود يوم الخندق مختالًا يسأل ، أين جنتكم التي تزعمون أنه من قُتل دخلها؟ فتخرج لتدله على النار! ويوم استصغرك وقال : ارجع يا ابن أخي فإني أكره أن أهريق دمكَ! قلتَ له بلسان الكبار : ولكني والله أحب أن أهريق دمكَ! فكان لك ما تحبُّ!

١١ - شُكرًا علي بن أبي طالب ، من سيرتك تعلمتُ أن المسلم ندٌّ شرس ، وأن السيف بالسيف والبادئ أظلم! يخرج مرحبُ يوم خيبر فخورًا يقول :

قـــد علمتْ خـــيـــبـــر أني مـــرحبُ
شـــاكـي الســـلاح بطلٌ مُـــجـــربُ
إذا الحـــــروب أقـــــبـلـت تـلـهـبُ

فخرجت له أسدًا هصورًا وقع على فريسته وقلتَ :

أنا الذي سمتني أمي حيدرة
كليث غابات كريه المنظرة
أكيلكم بالسيف كيل السندرة

ولأن في النزال لا ميزان إلا السيف كلته حقه ، ووفيته طعنة إثر طعنة!

١٢ - شُكرًا علي بن أبي طالب ، من سيرتك تعلمتُ أن المؤمن تسعى الإمارة إليه ولا يسعى إليها ، ولما اشتد حصار خيبر ، قال سيدنا : لأعطين الراية غدًا رجلًا يُحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله! فلما كان الصباح سأل عنك ، فجيء بك إليه تشكو رمدًا في عينك ، فشفاك الله ببركته ، وقلدك أرفع وسام من رتبة رجل يحبه الله ورسوله!

١٣- شُكرًا علي بن أبي طالب ، من سيرتك تعلمتُ أن من كرم الله أن يجمع لرجل شدة البأس ورجاحة العقل ، وقد كنتَ ذلك الرجل ، وكما خدمتَ الإسلام بسيفك خدمته بعقلك ، وكلما أشكلت على الفاروق مسألة دعا بك ، وقال عنك قول النبيل الذي يُنزل الناس منازلهم : قضية ولا أبا الحسن لها!

١٤ - شُكرًا علي بن أبي طالب ، من سيرتك تعلمتُ أن المؤمنين سيماهم في وجوههم ، فلما جاء نصارى نجران يريدون المباهلة ، وجاء رسول الله بك وبأهلك ، نظروا إليكم فامتنعوا ، وقالوا : إن هذه الوجوه لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها!

١٥ - شُكرًا علي بن أبي طالب ، من سيرتك تعلمتُ أن الدنيا مليئة بالحمقى ، وأنّ البعض يتقربون إلى إبليس وهم يحسبون

أنهم يتقربون إلى الله ، يطعنك اللعين ابن ملجم خاتمًا حياتك بالشهادة وحياته بالنار ، فأشقى الأشقياء بوحي النبوة : أُحيمر ثمود الذي عقر الناقة ، والأخرق الذي قتلك! فهنيئًا لك بالإسلام وهنيئًا للإسلام بك!

الوطن

١٨- ٦ - ٢٠١٧

إنّها مُجرّدُ أرقام!

كان الطلابُ على مشارف الامتحانات ، فكتب مدير المدرسة إلى أولياء أمورهم رسالة يقول فيها :

«أعلمُ أنكم قلقون على أطفالكم ، وتريدون أن يُحصّلوا علاماتٍ عالية ، هذا حقكم ، ولكن تذكروا جيدًا أنّ من بين الذين سيتقدمون للامتحان هناك الفنان الذي لا حاجة له أن يفهم الرياضيات ، وهناك المقاول الذي لا يهمه التاريخ والأدب ، وهناك المؤلف الذي لا تهمه علامة الكيمياء ، وهناك الرياضي الذي سيحتاج اللياقة البدنية أكثر من الفيزياء ، فإذا حصل ابنكم على علامة عالية فهذا ممتاز ، وإذا لم يحصل فأخبروه أنكم ستحبونه رغم كل شيء ، ولا تسلبوا منه ثقته بنفسه ، ولا تحكموا عليه بالفشل ، فامتحان واحد أو علامة منخفضة ليست مبررًا لقتل المواهب والأحلام ، ورجاءً لا تفكروا أن الأطباء والمهندسين هم أسعد الناس في هذا العالم!» .

هذا الرّجل تُرفع له القبعة ، وهذه المقولة لخليق أن تُكتب بماء الذهب على صحافٍ من فضة! ليس في الأمر انتقاصًا من التفوق والنجاح في المدارس ، ولا ازدراءً للاجتهاد وتحصيل العلامات العالية ، ولا تشكيكًا بالامتحانات ، أساسًا أجمع فقهاء التربية أنّ الامتحانات والعلامات ليست أداة قياس خلاقة للكشف عن قدرات الناس ، ولكن لم تهتدِ البشرية حتى الآن لأداة أكثر عدلًا منها!

من حق الآباء أن يفخروا بتفوق أولادهم ، فالصياد يختال بصيده ، والمزارع يبتهج بمحصوله ، والأديب يزدهي بنصه ، والرسام يغتبط بلوحته ، هذا وهي أشياء ، فكيف بمن يُنتج إنسانًا! ولستُ أعارض إعجابي بفكر الرجل إذ أقول أن واجب الآباء أن يحثوا أبناءهم على الاجتهاد والدرس والتفوق ، ولكن ليس من حق الآباء أن يزنوا أولادهم بما يحصّلون من علامات ، ولا أن يختاروا لهم طريق حياتهم فيقتلوا مواهبهم اعتقادًا منهم أن التعليم الأكاديمي هو الطريق الوحيد للنبوغ ، ولتحقيق حياة مرفهة .

وإحدى مشاكل الأهل المستعصية أنهم يعتقدون أن الشهادات الأكاديمية وسيلة رهيبة لتحقيق الثراء ، رغم أن هذا شيء يكذّبه الواقع ، لاعب كرة قدم شهير يجني مقدار ما يجنيه مئات الأطباء ، وشاكيرا تجني لوحدها ما لا يجنيه أساتذة جامعة كامبردج مجتمعون ، غير أن نجاح الإنسان لا يُقدّر بما يجني من مال ، ولكني طرحتُ هذه الأمثلة من باب النقاش ليس إلا! وإلا فاسكوبار جنى من المخدرات أكثر مما جناه آينشتاين في نظرية النسبية!

الأشخاص الذين غيروا مجرى التاريخ أغلبهم لا يملكون شهادات جامعية ، أبقراط وابن سينا لم يتخرجا من كلية الطب ، ولو كانوا بيننا اليوم لما سُمح لهم بمزاولة المهنة!

بيتهوفن لم يتخرج من المعهد العالي للفنون ، والمتنبي لا يحمل شهادة في الأدب العربي ، ولو شارك في شاعر المليون فسيتم استبعاده لقلة التصويت!

سيبويه لا يحمل شهادة في النحو ، والخليل لا يحمل شهادة في العروض ، وبمعيار اليوم لن تقبلهم الجامعات أساتذة فيها ، رغم أنّ الأول وضع النحو ، والثاني اكتشف موسيقى الشعر!

نيوتن لا يحمل شهادة جامعية في الفيزياء، وبيكاسو لم يذهب إلى معهد الفنون الجميلة، خالد بن الوليد لم يتخرج من الكلية الحربية ولكنه أفقه بالحرب من جنرالات البنتاغون!

الشافعيّ لا يحمل شهادة في الشريعة، وأحمد بن حنبل ليس لديه مؤهل أكاديمي يسمح له أن يعتلي منبرًا اليوم!

ابن الهيثم لا يحمل شهادة في طب العيون، وعمر بن الخطاب هازم الإمبراطوريات، واضع الدواوين، سائس أمة كاملة بالعدل والحنكة لا يحمل شهادة في القانون الدولي!

حتى بيل غيتس يقول: رسبتُ في بعض مواد الجامعة بينما نجح صديقي في تخطيها جميعًا، وهو اليوم مهندس في مايكروسوفت وأنا مالك الشركة!

خلاصة القول:

التفوق الأكاديمي شيء جميل، والمدارس واحدة من أقدس الأماكن على وجه الأرض، ولكن القبيح أن يُكال الأولاد بعلاماتهم فيكون مقدارهم مقدار ما يُحصلون من درجات وكأنهم بضائع تُوزن، وسلع تُثمن، ثم لماذا على الجميع أن يكونوا أطباء وكأن مهمة كل إنسان أن يداوي نفسه، ولماذا على الجميع أن يكونوا مهندسين وكأن شقّ الطرق ورفع البنايات وبناء الجسور فرض عين!

لا يوجد واحد منا إلا ويعرف عشرات بل مئات الأسماء الناجحة في حياتها والتي لا تحمل شهادات أكاديمية ولم تتخرج من الجامعات، إذا وجدنا النبوغ الأكاديمي علينا أن نشجعه ونرعاه ونثيب عليه، وإذا رأينا موهبة أخرى علينا أن لا نئدها لأن وأد

المواهب من وأد الأرواح ، ثم قد لا يكون هناك نبوغ ولا موهبة ، فهل ندفن أولادنا؟! إننا نحتاج البقال والنجار والحداد والسمكري وعامل النظافة والطاهي والخياط والاسكافي وبائع الزهور!

فكفوا عن تقديس العلامات إنها مجرد أرقام!

مدوّنات الجزيرة

١٥ / ١ / ٢٠١٧

أمَرَ مبكياتك لا أمرَ مضحكاتك!

القول : أمَرَ مبكياتك لا أمر مضحكاتك!

القائل : أعرابيٌّ مجهول

أما القصة : يُحكى أن أعرابيًا ماتت زوجته ، وتركت له بنتًا ، فقرر ألا يتزوج مخافة أن يُحضر للبنت خالة ينالها منها ظلم وضيم ، وكان للبنت عمّات وخالات تزورهن ، فإذا زارتْ خالاتها أضحكنها وألهينها ، وإذا زارت عماتها أدبنها وأخذن عليها ، فقالت يومًا لأبيها : إن خالاتي يضحكنني ، وإن عماتي يُبكينني ، فلما استوضح منها الأمر . . .

قال : أمَرَ مبكياتك لا أمر مضحكاتك!

وأمر منصوب على فعل الأمر المحذوف : إلزمي

فيصبح الكلام دون حذف : إلزمي أمر مبكياتك ودعي أمر مضحكاتك!

الدرس الأول:

كانت جدتي رحمها الله تقول : «من أضحكك ضحك عليك ومن بكّاك بكّى عليك» ولعل هذه ترجمة عامية للمثل الفصيح ، ومن أقوالها في الأمثال : المثل نبيّ! وهذا من أبلغ أنواع التشبيه ، حذف منه الأداة ووجه الشبه ، ووجه الشبه هنا مفهوم من السياق وهو الصدق ، ويصبح القول بلا حذف : المثل صادق كنبيٍّ!

الدلال الزائد مفسدة ، انظر للشجر الذي يُسقى ماءً كثيرًا يهيج

ويكبر بسرعة ، ولكنه هشّ في داخله ، قلما يُستفاد منه ، وانظر لشجر الجبال لا يحصل على غير ما تسقيه السماء ، فإذا هو متين صلب ، تُصنع منه السفن ، ويوضع في النار فيدفئ الناس الساعات الطوال ، والأولاد كذلك ، أحيانًا من فرط الحب ينسى الأهل أن الأولاد يجب أن يسمعوا كلمة لا ، وينسون أننا نعدُّ أولادنا للحياة ، وأننا لن نكون بجانبهم دومًا ، وفرق شاسع بين أن نمشي بهم الطريق وبين أن نساعدهم قليلاً ليشقوا طريقهم ، منع الأولاد أحيانًا من أشياء أنفع لهم من إعطائهم إياها ، وليس في الأمر بخل ، وحثهم على أشياء بخلاف هواهم يكون فيها صلاحهم ، ألا ترى أنك تحاول جاهدًا أن تعطي ابنك الدواء المر رغم أنه لا يستسيغه ، ولكنك تفعل لأنك تعلم أن فيه شفاءه ، النار هي التي تصقل الحديد ، بينما الماء يجرّ عليه الصدأ!

الدرس الثاني:

اختصم زوج وزوجته إلى القاضي في ولد لهما كل منهما يريد حضانته ، فخيَّر القاضي الصبي بين أمه وأبيه ، فاختار أباه ، فسأله القاضي : لِمَ اخترتَ أباك؟

فقال : أمي تجبرني أن أذهب للمدرسة ، وأبي يسمح لي أن ألعب في الطريق!

فحكم به للأم!

ليس كلّ ما يحب الأولاد فيه صلاحهم! وليس كل ما يكرهون فيه إتلافهم ، حتى نحن الكبار لو تأملنا في حياتنا لاكتشفنا أن أجمل ما حدث لنا كان نتيجة مواقف ما انصعنا فيها لأهوائنا ، وأسوأ ما حدث لنا كان نتيجة مواقف تركنا فيها النفس

على هواها ، وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري : السلام عليكَ ، أما بعد ، فإذا وصلك كتابي هذا فعظني وأوجز ، والسّلام! فكتب إليه الحسن : وعليكَ السلام ، وصل كتابك ، فاعص هواك والسلام!

الدرس الثالث:

كما في الدنيا كذلك في الدين ، من خوّفك حتى تبلغ مأمنك ، خير لك ممن أمّنك حتى تلقى ما تخاف! الطريق إلى الجنة شائك ووعر لأن الجنة حفّت بالمكاره ، والطريق إلى النار يسير ومعبد ، لأن النار حُفّت بالشهوات ، والنفس فرس جامح والإنسان فارس ، فمن ترك فرسه على سجيتها أوردته المهالك ، ومن ألجمها بلغ بها المراد ، وكل وجهة إلى غير الجنة وجهة خاطئة ، وتذكر دومًا لذة الذنب تذهب ويبقى أثرها ، ومشقة الطاعة تذهب ويبقى أجرها .

الدرس الرابع:

بين الحزم والقسوة شعرة لا يدركها إلا القليل ، وبين اللين والضعف شعرة لا يدركها إلا القليل أيضًا! فكن حازمًا دون قسوة ، لينًا من غير ضعف ، نريد أن نربي أولادنا لا أن نكسرهم ، فقتل الأرواح لا يقل وحشية عن قتل الأجساد ، وشر الناس من استخدم سوطه في موضع كان بإمكانه أن يستخدم فيه لسانه .

الوطن

٢٥- ٣ - ٢٠١٧

إيّاكِ أعني، واسمعي يا جارة!

القول : إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة!

القائل : سهل بن مالك الفزاريّ

أمّا القصّة : فإنّ سهل بن مالك الفزاريّ ، خرجَ يريدُ النّعمان بن المنذر ، ملك اليمن الشّهير . . وهو في طريقه إليه مرّ على قبيلة طيء . . .

فسألَ : من سيّد القوم؟

فقيل له : حارثة بن لأَم

فقصده ، فلم يجده ، فقالتْ له أختُ حارثة : انزلْ على الرّحب والسّعة ، عما قليل يعود حارثة . فنزلَ سهلٌ ، ثمّ بعد قليل خرجتْ ، فإذا بها جميلة فاتنة ، عاقلة حصيفة ، سيّدة بين النّساء! فوقعتْ في قلبه ، فجلسَ محتاراً لا يدري كيف يخبرها بإعجابه بها ، فجلس في فناء خيمتها وهي تسمع ، وقال :

يا أُختَ البدو والحضارة
كيف ترينَ في فتى فزارة
أصبحَ يهوى حُرّةً معطارة
إيّاكِ أعني ، واسمعي يا جارة!

فلمّا سمعتْ قوله ، قالتْ :

إنّي أقولُ يا فتى فزارة
لا أبتغي الزّوج ولا الدّعارة
ولا فراق أهل هذي الحارة
فارحلْ إلى أهلك باستخارة

فقال : واسوأتاه ، واللهِ ما أردتُ مُنكَراً!

فقالتْ له : صدقتَ!

فكأنّها تسرّعتْ في رفضها ، إذ أعجبها كما أعجبته ، وارتحلَ إلى النّعمان ، وفي طريق عودته ، نزَلَ على أخيها حارثة ، فأرسلت إليه ، أن اخطبني من أخي إن كان لكَ بي حاجة! فخطبها ، وتزوّجها ، وسار بها إلى قومه!

الدّرس الأوّل:

إذا تعلّق الأمر بالقلوب ، لا تكُنْ لجوجاً! تقبّل الرّفض ، فالقوّة لا تنفع في مثل هذه المواقف! قرأتُ عن نوع من الطّيور يعيش في جماعات ، إذا أراد العصفورُ عصفورةً للزواجً ، أحضرَ حبّة قمح ، وذهبَ إليها ، ووضعها أمامها ، فإن أخذتها يعلمُ أنها قبلته ، وإن لم تأخذها علم أنها رفضته ، فلا يقربها مرّةً أخرى ما دام على قيد الحياة! فلا يكن الطيرُ أحسن تصرّفاً منّا ، وأكثر كرامة!

الدّرس الثّاني:

المرأة بطبيعتها متمنّعة ، والرّجلُ بطبيعته مُبادر ، خصوصاً في أوّل العلاقة ، فهي تُظهرُ أقلّ مما في قلبها ، وهو يُظهر أكثر مما فيه ، ذلك أنّ كلاً منهما مفطورٌ على هذا ، فهي مفطورة على أن تُطلب ، وهو مفطور على أن يَطلب ، وأحياناً لا يكون الرّفض رفضاً قاطعاً ، إنما رفض فرضته تربيتها ، وطبعها ذاك الذي فُطرتْ به ، حتى إن كثيراً من النساء يلزمنَ هذا الطّبع بعد زواجهنّ ، فهي تُحبُّ أن تُطلب لا أن تَطلب!

الدّرس الثّالث:

ادخلوا البيوت من أبوابها! نحن لا نملكُ أن ندفع حُبّاً يقتحمُ جنبات القلب عنوة، ولكننا نستطيع أن نمسك زمام تصرّفاتنا، فإذا أعجبتكَ فتاة، فاسلكْ إليها الطريق الذي تُحبُّ أن يُسلكَ للوصول لأختك!

الدّرس الرّابع:

لا تكنْ دجّاً، ولا تكوني عنيدة!

التلميح يكفي مؤونة الرّفض، ويحفظ الكرامات، ويدفع الإحراج عن الاثنين، فلا تزهد فيه، وكان أفصح العرب أحسنهم كناية!

وأنتِ، العناد والثقل الزائد يُضيعان فرصاً قد لا تتكرر، والدنيا دار أسباب، ما دام القادمُ قد أعجبكِ، وسلكَ إليكِ طريقاً مشروعاً، فلمَ التردد اللابس عباءة الرّفض، إمّا أن ترفضي بلباقة، أو تقبلي برفق!

الدّرس الخامس:

كانوا أهل جاهليّة، لكنّهم كانوا أهل عِفّة وشرف أيضاً، هو يُلمّحُ لها تلميحاً وما في قلبه إلا الحُبّ! وهي ترفضُ رفضاً قاطعاً أوّل الأمر وما في نفسها إلا القبول، فلّما عادَ، وأحسّتْ أنّها تسرّعتْ، قالت: اخطبني من أخي! أي اطرقْ باب البيت، مثلي لا يخرج من النوافذ!

إن كُنّا سبقناهم بالإسلام، فالعار ألا نسبقهم بالعفّة أيضاً!

الوطن ١- ٤ - ٢٠١٧

إنّما نُعطي الذي أُعطينا

القول : إنّما نعطي الذي أُعطينا

القائل : زوجة أعرابي يُقال له أبو الذَّلفاء

أما القصة : فإنّ أعرابياً يُسمى بأبي الذّلفاء كان لا يُنجب إلا الإناث ، فطلّق امرأته وتزوج غيرها طمعاً أن تُنجب له ولداً ، فأنجبت الزوجة الجديدة بنتاً ، فصبر عليها ، ثم أنجبت له بنتاً أخرى فهجرها ، وتحوَّل عنها إلى بيتٍ قريبٍ منها ، فلما رأت ذلك ، أنشدت وهو يسمع :

ما لأبي الذّلفاء لا يأتينا
وهو في البيت الذي يلينا
يغضب إن لم نلد البنينا
وإنما نعطي الذي أُعطينا

فلمّا سمع ذلك ، طابت نفسه ورجع إليها!

الدَّرس الأوَّل:

أحيانا تكون المشكلة فينا ، ولكننا مفطورون أن نعلقها على مشاجب الآخرين ، دوماً نبحث عمّن نحمّله وزر ما نحن فيه ، رغم أنه في أغلب الأحيان لسنا إلاّ ضحايا أنفسنا!

الدّرس الثاني:

وأحياناً لا تكون هناك مشكلة أساساً ، ولكننا ننظر للأمر من

زاوية ضيقة تجعلنا نعتقد أن هناك مشكلة! بينما لو تأملنا فيما نراه مشكلة لوجدنا غيرنا في قمة سعادته وهو في نفس ظروفنا ، والسبب أننا وإن كنا جميعاً نملك نفس العين فلا نملك نفس النظرة . هناك فرق شاسع بين من ينظر للأمور على أنها أرزاق ، وهي بيد الله ، فيعرف أن سخطه لن يزيد في رزقه فيرضى ، وبين من يعتقد أنه يرزق نفسه ، وينجب بقوته!

الفرق في السعادة بين شخص وآخر ليس مرتبطاً بكم يملك من المال والأولاد والنفوذ بل بكم يملك من الرضا ، الإنسان الجشع لو ملّكته الأرض إلا درهماً لقضى الليل يفكر كيف يحصل عليه ، ولو زوّجته نساء الأرض إلا واحدة لنسي كل ما عنده وانشغل كيف يصل إليها ، بينما في المقابل قد تجد عامل محطة أسعد من وزير النفط ، وشرطي سير ينام ساعاتٍ طويلةً بالليل لا يستطيع أن ينامها وزير الدفاع .

الدّرس الثّالث:

كفى تجبراً ، وتسخطاً ، وتبرماً على قدر الله!

ترى الذي رُزق الأولاد ساخطاً يريد لو أنجب معهم بنتاً ، وترى الذي رُزق البنات ساخطاً يريد لو أنجب معهن صبياً ، وترى الذي لديه الأولاد والبنات يتذمر إذا أُخبر بحملٍ جديد ، وترى الذي حُرم الأولاد والبنات يسأل لِمَ أنا يا رب؟ «وقليلٌ من عبادي الشكور» .

من نحن حتى نُملي على الله ما يخلق وما لا يخلق؟! من جاء إلى الدنيا بخاطره فليرنا نفسه ، وليشترط أريد كذا ولا أريد كذا!

من بيده رزقه أو أجله فليتأفف ، أمّا ما دمنا عاجزين فلِمَ قلة الأدب مع الله؟!

ثمّ إنّ الله خلق أرواحنا جميعاً منذ القِدم ، وأشهدنا على أنفسنا بالوحدانية له ، ثم ردنا إلى صلب أبينا آدم ، فإذا أراد أن يجعل الروح التي خلقها في جسد ، جعل لذلك سبباً ، ونحن لسنا إلا أسباب ، لا نخلق أولادنا ، ولاً نرزقهم ، نحن أدوات واقعة في قدر الله يسيّرها كما شاء ليكون ما أراد!

الدّرس الرابع:

الرجوع إلى الحقّ خير من التمادي في الباطل!

خُلق الإنسانُ نسّاءً ، عجولاً ، حريصاً ، غضوباً ، لهذا نُخطئ جميعاً ، فالذي يُخطئ هو إنسان ، أما الذي يصرّ على الخطأ فهو شيطان . تحصل المشاكل دوماً ونحن نتعاطى مع الآخرين .

ما ضرّ أحدنا إذا أخطأ أن يرجع ولا يتمادى .

قبلة على رأس زوجة خاصمتها تعيد الحياة إلى مضمارها بدل هذه الأنفة الفارغة والتّجبر .

عناق أخ خاصمته يصلح لك دينك ودنياك

مع الجار والزميل في العمل وكل مكان

أتفهم إن كان أحدنا مظلوماً ألا يُبادر ، لستُ مثالياً ، ولا أدعو أن نكون ملائكة ، أنا أيضاً أجد صعوبة في الاقتراب من شخص ظلمني!

ولكن ماذا لو كنا نحن من ظَلم ، ألا يكفي ارتكاب الظلم ، حتى نقرنه بالعنجهيّة والكِبر!

الوطن ٨- ٤ - ٢٠١٧

إنما يحفل بالحب النساء!

القول : إنما يحفلُ بالحُبّ النساء

القائل : أبو مريم الحنفي

أما القصة فهي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقي أبا مريم الحنفي ، قاتل أخيه زيد بن الخطاب

فقال له : واللهِ لا أحبكَ حتى تحبّ الأرض الدم المسفوح!

فقال أبو مريم : أتمنعني لهذا حقًا هو لي

فقال عمر : لا

فقال : أتغصبني حقًا ليس لكَ

فقال عمر : لا

فقال أبو مريم : فإن كان عدل وإنصاف يا أمير المؤمنين ، فإنما يحفلُ بالحُبّ النساء!

الدرس الأول:

زيد بن الخطاب شقيق أمير المؤمنين عمر لأبيه ، كان زيد أكبر من عمر بعشر سنوات ، وكان عمر يحبه كثيرًا ، فقد كان الخطاب أبوهما قاسيًا شديدًا ، وكان أقسى على عمر منه على زيد ، فكان زيد يعينه ويصبره ، أسلم زيد قبل عمر بثلاث سنوات وأخفى إسلامه ، وكان من أوائل المهاجرين ، وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم كل المشاهد ، وكذلك شارك في حروب الردة مع الصّديق رضي الله عنه ، وكان يوم اليمامة يحمل راية المسلمين ،

واستشهد فيها على يد أبي مريم الحنفي قبل أن يسلم ، فحزن عليه عمر حزنًا شديدًا ، وظل يذكره حتى آخر أيام حياته ، فيقول : رحم الله زيد بن الخطاب ، أسلم قبلي واستشهد قبلي ، ولما جاء متمم بن نويرة يرثي أخاه مالكًا شعرًا عند أبي بكر ، قال له عمر : لو أني أعرف قول الشعر لرثيتُ أخي زيدًا! فقال له متمم : لو أن أخي استشهد كأخيك يوم اليمامة ما رثيته! فقال له عمر : يرحمك الله ، ما عزاني أحد بمثل ما عزيتني!

الدرس الثاني:

لا يمكن لأحد أن يخرج من طبيعته البشرية مهما حاول ، نحن نحب ونكره ، نفرح ونحزن ، نعطي ونبخل ، نهدأ ونغضب ، نُقبل وندبر ، نجوع ونشبع ، نرضى ونسخط ، هذه الأشياء هي التي تجعلنا بشرًا ، ولكن ونحن نمارس بشريتنا علينا ألا ننسى أن الغرائز يجب ألا تسيطر علينا ، وأن النبيل تحكمه أخلاقه وقيمه ومبادئه ، تمامًا كما كان عمر بن الخطاب نبيلًا ، ليس لأحد أن يقول لعمر عليك أن تحب قاتل أخيك ولو أسلم بعد ذلك ، هذه طبيعته البشرية التي لا سبيل له عليها ، كما لا سبيل لنا جميعًا ، ولكن عمر النبيل لم يمنعه البغض من العدل والإنصاف ، فلم يمنع أبا مريم حقًا هو له ، وقسم له سهمًا كما قسم للمسلمين جميعًا ، إننا لا نملك زمام قلوبنا أحيانًا لأننا بشر ، ولكن علينا أن نملك زمام تصرفاتنا ، فإياك أن تأخذ حق إنسان لأنك تبغضه ، أو تسكت عن باطل آخر لأنك تحبه .

الدرس الثالث:

قلوب الناس لهم ، وليس لكَ أن تملي عليهم المشاعر التي

يكنونهـا لـك ، الشيء الوحـيـد الذي لكَ ألا تقـبله هو أن تُظلم لبـغض ، أو يُسكتَ عنك لحب! فـإن حُـرمت شـيـئًـا هو لـك ، قفْ كالجبل مدافعًا عن حقك ، وقد قال عمر بن الخطاب : يعجبني الرجل إذا سيم خطة ضيم قـال بملء فـيـه : لا . وإن أُعطيت حق إنسان آخر فلا تأخذه ، فالمعطي والآخذ في الإثم سواء ، وكل يوم نسمع عن أب جعل ماله كله لابن واحد وحرم البقية من الميراث ، فـهنا كـلاهمـا ظالم ، الأب والابن ، لأن الميراث ليس لرابطة الحب وإنما لرابطة الدم ، وبئس الحب الذي يدفع إلى الظلم ، والابن الذي يأخذ حق إخوته لا يعفيه من الإثم أن أباه هو الذي أعطاه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضي له على النحو الذي أرى ، فـمن قطعتُ له من حق أخيـه شيئًـا فـلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من نار»! فـلا تركن إلى محاكم الدنيا وتنسى محكمة الآخرة!

الدرس الرابع:

إنما يحفلُ بالحُبّ النساء!

جملة ليست في سبيل الذم وإنما في معرض المدح ، المرأة مخلوق رقيق ، تلتفت للمشاعر كثيرًا ، فطرة الله التي فطر عليها الناس ، فـالرجل نصف البشرية الصلب الكاسب ، والمرأة نصفـهـا العذب الرقيق ، ضع هذا نصب عينيك وأنت تعامل النساء ، زوجة وأمًا وأختًا وعمة وخالة وبنتًا ، لا تكسر قلب امرأة ، فإنما النساء قلوب!

الوطن ١٦– ٤ – ٢٠١٧

الأدب.. إبداع بشري أم وحي من الجن؟!

كانت القبيلةُ في الجاهلية إذا بُشِّرتْ بشاعرٍ تُضرمُ النّار ثلاث ليالٍ في مضاربها ، وهذا- برأيي-عائد لسببيَن ، الأول يتعلقُ بالشاعر ، والثّاني يتعلقُ بالشّعر!

فالشاعرُ كان وزير إعلام القبيلة! هو الذي يفخرُ بأنسابها ، ويهجو أعداءَها ، ويصدرُ بيانات التهديد والوعيد إلى العدوّ ، وبيانات التحبب والتقرب إلى الحليف ، على هيئة قصائد!

أما الشّعر فقد آمن العربُ- بعد أن عجزوا عن تفسيره- أنه ظاهرة خارقة تتخطى القدرات البشرية!

والبشرُ على مرِّ التاريخ إذا عجزوا عن تفسير ظاهرة طبيعية نسجوا حولها الأساطير! فالفراعنة كانوا يلقون فتاةً جميلةً في النيل إذا فاض ليرضى عنهم ويهدأ! وفي العراق وبلاد الشام كان إذا حدث الخسوف قرعوا الأواني المعدنية ليخاف الحوت الذي بلع القمر ويتركه! والعرب كانوا كغيرهم من الشعوب عدوهم الأول الجهل! ولما عجزوا عن تفسير الشّعر زعموا أنه وحي من الجنِّ للإنس! فقد اعتقدوا أن لكل شاعرٍ شيطانًا يُلقنه الشعر ، وأطلقوا عليهم أسماءً! فمسحل بن جندل هو شيطان الأعشى ، وهبيد بن الصلادم هو شيطان عبيد بن الأبرص ، ولافظ بن لاحظ هو شيطان امرئ القيس ، وهادر بن مادر هو شيطان النابغة الذبياني ، أما مدرك بن داغم فشيطان افتتح فرعين ، فقد كان يوحي للكُميت ولزيدٍ الأسديّ معًا!

والعربُ والغربُ في هذا سواء! وهم ليسوا أفضل حالًا منا! وعنهم حدّثْ ولا حرج! فالشاعر كولردج يزعم أنه بدأ قصيدته كوبلافان فعجز عن إكمالها فأكملها عنه جنيّ! وماسفيلد يدّعي أن جنيًا كتب له قصيدة المرأة تتكلم! ووليام بلاك يقول إن الشياطين سكنته أياماً كتب فيها ديوانًا كاملًا! أما جورج إليوت فكانت تعتقد أنها مسكونة بكائنات من عالم آخر! وجورج إليوت ليس إلا اسمًا ذكوريًا مستعارًا لماري آن إيفانس! أما غوته فيقول إنه كتب رواياته كلها وهو في غيبوبة!

وبعد ولادة علم النفس على يد فرويد بسنوات، حاول سيغموند وتلميذه كارل يونغ تطبيق نظرية التحليل النفسي على النتاجات الأدبية، فكانا يعزُوان ظاهرة الإبداع الأدبيّ إلى العقل الباطن! والعقل الباطن أو العقل اللاواعي، أو اللاشعور، هو مفهوم يشير إلى مجموعة من العناصر التي تتألف منها الشخصية، بعضها قد يعيه الفرد كجزءٍ من تكوينه، والبعض الآخر، يبقى بمنأى كامل عن الوعي! والجدير بالذكر أن علماء النفس المعاصرين وإن اتفقوا جميعًا على وجود العقل الباطن إلا أنهم اختلفوا اختلافًا كبيرًا حول وظيفته، واختلافًا أكبر حول آليات عمله!

ولو قمنا بتطبيق نظريات علم النفس على الأدباء، فسنخلص نهاية المطاف إلى أن الإبداع الأدبي حالة مرضيّة! ولكنها حالة مرضيّة مُنتجة! فالذي يقرأ شعر المتنبي بعيني فرويد يستنتج أن المتنبي كان يعاني من حالة تضخم الأنا! فالمتنبي كان يرى نفسه أكبر من الجميع! فهو الذي ينام ملء جفونه عن شواردها ويسهرُ الخلقُ جرّاها ويختصمُ! حتى أنه يرى نفسه أكبر من ممدوحيه الذين كانوا أمراء يُغدقون عليه الأموال، أليس هو القائل في مجلس سيف

الدولة يفخر على الجميع بمن فيهم سيف الدولة :

سيعلمُ الجمع ممن ضمّ مجلسنا
بأنني خير من تسعى به قدم!

مشكلة علم النفس تكمن في كونه عباءة فضفاضة! لو طبقتَ مبادئه بحرفيتها على شخص قد تثبت أن الشخص يعاني من عقدة ما وضدها! فمن نتاج شاعر يمكن ببساطة أن نثبتَ أنه متواضع ومتعجرف! وأنه تقي وفاجر! وهكذا كان شعر أبي نواس!

شخصيًا لا أنكر أن الكتابة «حالة» يدخل فيها الأديب ساعة إنتاج النصِّ ، ولكني لا أجزم أنها حالة لا واعية ، هي مجرد طور طبيعي من أطوار النفس البشرية ، فنحن مجموعة شخصيات في شخصية واحدة ، ونتصرفُ في الحياة وفق أية شخصية نحن فيها! امرأة واحدة قد تكون زوجة وأمًا وبنتًا وأختًا وعمة ، وكلنا نعرف أن الزوجة كائن والأم كائن آخر! تمامًا كما أنّ الزوج كائن والأب كائن آخر! صحيح أن هناك خيطا يربط بين شخصياتنا المتعددة إلا أنها لا شك شخصيات مغايرة لبعضها أحيانًا!

لماذا علينا أن نجزم أن آينشتاين حين وضع النسبية كان في كامل وعيه ، وعندما اهتدى نيوتن إلى قانون الجاذبية كان واعيًا ، وحين اخترع أديسون المصباح الكهربائي كان واعيًا ، وحين اخترع نوبل الديناميت كان واعيًا ، بينما حين قرض المتنبي قصيدة كان غائبًا عن الوعي؟! والفرق الوحيد بين الحالات آنفة الذكر أن النتاج العلمي مادي محسوس قابل للقياس والتقويم والتجريب ، بينما النتاج الأدبي نتاج فكري شعوري تختلف معايير الناس في التفاعل معه ، وتقييمه تبعًا لحالة القارئ النفسية ، أو لخلفية الناقد الثقافية!

الوطن ٧- ٥ - ٢٠١٧

متلازمةُ المُديرِ العَرَبيِّ

يعرفُ الجميعُ أن يوسف عليه السّلام رفضَ الإذعان لزليخة فيما طلبته منه ، فدخل السّجن ظلماً ، ولبثَ فيه بضع سنين . . . ثمّ شاء الله أن يرى الملك رؤياه الشّهيرة ، ويرسل صاحب يوسف عليه السّلام القديم في السجن ليأتيه بتعبيرها ، ولكن لا يعرفُ الجميعُ أن يوسف عليه السّلام في تعبيره للرؤيا قد وضعَ أهمّ قانون في علم الإدارة ، وهو أنّ الفشل يقع بسبب سوء الإدارة لا بسبب قلة الموارد!

فيوسف الوسيم حدّ الذّهول ، الحكيم حدّ العبقريّة ، لم يرشدهم إلى البحث عن موارد جديدة لتخطي السبع العجاف ، كلّ ما فعله هو أنه أرشدهم إلى طريقة إدارة الموارد المتاحة بين أيديهم! ثم شاء الله أن يخرج من سجنه ، ويدير تلك الموارد المتاحة بنفسه ، ويقود أهل مصر وجيرانهم الكنعانيين والهيثيين إلى برّ النجاة!

أمّا اليوم . . . فيعرفُ الجميع ، باستثناء المدراء طبعاً ، أن الفشل يقع بسبب سوء الإدارة لا بسبب قلة الموارد!

فإذا تعرّض فريق كرة قدم لخسائر متلاحقة يطردون المُدرّب ولا يبيعون اللاعبين!

وإذا تفاقمت مشكلة وطن يعزلون الحكومة ولا يُغيّرون الشّعب!

وإذا وصلتْ العلاقة الزّوجيّة إلى طريقٍ مسدود فهذا خطأ الزّوجين لا خطأ الأولاد!

وحده المدير العربيّ ملكاً كان ، رئيساً ، وزيراً ، زوجاً ، في

الجامعة ، والمدرسة ، والمستشفى ، والشركة ، والمصنع ، والورشة ، يبحث عن سبب المشاكل في كلّ مكان إلا في نفسه!

دوماً يبحثُ عن مشجب يُعلّق عليه فشله ، فإذا نجح اختال كالطاوس فهذا النجاح نجاحه ، وإذا فشل فحتماً هو خطأ الذين يعملون تحت إمرته!

منذ سنوات نظّمتْ إحدى جامعات بلجيكا ، إن لم تخني الذاكرة ، رحلةً لطّلابها ، وأثناء الرّحلة قام أحد الطلاب بقتل بطّة ، فاستقال وزير التعليم! وعندما سألوه عن علاقته بمقتل البطة حتى يستقيل ، قال : أنا مسؤول عن نظام تعليمي أحد أهدافه أن ينتج مواطنين يحترمون حقّ الحياة لكلّ المخلوقات ، وبما أنّ هذا الهدف لم يتحقق فأنا المسؤول!

لو حدثتْ هذه القصة في بلادنا ، سيُوبّخ وزير التعليم مدير الجامعة ، وسيوبّخ مدير الجامعة المعلم ، وسيوبخ المعلم التلميذ ، وسيوبخ التلميذ البطّة! هذه هي عقليتنا الإدارية باختصار : تحميل أسباب الفشل لمن هم تحت إمرتنا ، فلا أحد يجرؤ أن يعترف أن نصيبه من الفشل هو بمقدار نصيبه من المسؤولية!

يستحيلُ أن ينجح مدير لا يملك الجرأة ليعترف أنّ أي خطأ يقع ضمن حدود صلاحياته هو خطؤه بالدرجة الأولى!

أحد أسباب نجاح عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إدارة أمة كاملة هو امتلاكه لجرأة أن يلوم نفسه قبل أن يلوم عمّاله على أي خطأ يقع! وهو القائل : لو أنّ دابة عثرتْ عند شاطئ الفرات ، لخشيتُ أن يسألني الله لِمَ لَمْ تُصلح لها الطريق يا عمر؟! هو في المدينة وهي دابة في العراق ، ولو تعثرتْ فهذه مسؤوليته قبل أن تكون مسؤولية عامله على العراق!

هزيمة جيش ما هي فشل الجنرالات قبل أن تكون فشل الجنود

وسوء شبكة الطرق هي فشل وزير المواصلات قبل أن تكون فشل البلدية

وسوء أحوال المستشفيات هي فشل وزير الصحة قبل أن يكون فشل الأطباء والممرضين

والفشل الأكبر طبعاً هو فشل من جعلهم وزراء!

وعلى صعيد أصغر هذه كتلك!

فإذا تردتْ أحوال البيت على الزوج أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب زوجته وأولاده

وعندما تتردى أحوال مدرسة على المدير أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب معلميه وطلابه

وعندما يتردى حال مصنع على مديره أن يحاسب نفسه قبل أن يُحاسب عماله

وعندما تتردى حال ورشة على مديرها أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب مستخدميه

لأنّ المؤسسات أجساد والمدراء رؤوس ، وإنه لا يستقيم جسد ما لم يستقِمْ رأسه .

مدوّنات الجزيرة

٨ / ١ / ٢٠١٧

نحن لم نسلم منك!

روى ابن كثير في البداية والنهاية عن سُفيان بن حُسين قال :

ذكرتُ رجلاً بسوء عند إياس بن معاوية ، فنظر في وجهي وقال : أغزوتَ الروم؟

قلتُ : لا!

قال : أغزوتَ السند والترك؟!

قلتُ : لا!

قال : أيسلمُ منكَ الروم والسند والهند والترك ، ولا يسلم منكَ أخوك المسلم!

إياس بن معاوية أحد دهاة القضاة في التاريخ ، ظهرت عليه علامات النبوغ منذ نعومة أظفاره ، وفد وهو ابن أربع عشرة سنة على عبدالملك بن مروان قبل أن يلي الخلافة في وفد من الشيوخ ، فقام ليتكلم بين يديه ، فازدراه عبدالملك ، وقال : أفٍّ لهذه اللحى إذ قدّمت إليّ هذا ، ثم سأل إياسًا باستخفاف كم عمركَ يا فتى؟! فقال له إياس : بعمر أسامة بن زيد ؛ إذ ولاه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على الجيش ، وفيه أبوبكر وعمر!

وله قصص عجيبة في القضاء لا يتسع المقام لسردها ، ويكفي أن أذكر حادثة واحدة على شدّة علمه ، فقد قال له رجل وهو في مجلس القضاء ، ما أسرع قضاءك يا أبا واثلة- وهي كنية إياس- لو أنك تتروى ،

فقال له إياس : كم إصبعاً في يدك اليمنى

فقال الرجل : خمسة . .

فقال إياس : أرى أنك لم تتروَّ!

فقال : لا يتروى الرجل في أمر هو منه على يقين .

فقال له : وأنا مثلك لا أتروى مما أنا فيه على يقين!

وإذا ما تركنا إياسًا وعدنا إلى سفيان بن حسين ما احتجنا إلى كثير ذكاء لنعرف أننا نسخة عنه ، يسلم منه الجميع إلا من حوله!

– الزوج الذي يقيم الدنيا ولا يُقعدها لأن الطعام مالح هو نفسه الذي يشاهد حلب تُقصف ليلاً نهاراً ، لا يسلم مشفى ولا مسجد ، ولا طفل ولا امرأة فيها ، ولا يحرك ساكنًا ، ويتابع حياته كالحمل الوديع كأنه شاهد فيلماً على إم بي سي أكشن!

– الأخ الذي لم يكلم أخاه منذ سنوات لأنه إنسان لديه كرامة ، هو نفسه الذي يشاهد المسجد الأقصى يُمنع فيه الأذان فلا يسأل أيهما يجرح كرامته أكثر ، الصفح عن أخيه أم الصفح عن إسرائيل!

– تُرمى مكة بصاروخ فيقولون لك : لا تكن طائفياً!

يُحرق المسلمون في ميانمار فيقولون لك : أصلح الله الأحوال!

يُذبح المسلمون في العراق فيقولون لك : شدة وتزول!

الذي لا يريد أن يكون طائفياً هو ذاته العنصري الذي يعامل عامل المحطة بازدراء لأنه غريب ومن جنسية أخرى ، والذي يقول لك أصلح الله الأحوال في ميانمار هو الذي لا يُصلح الأحوال بينه وبين جيرانه ، ولا بينه وبين أقاربه ، والذي يقول لك شدة وتزول هو نفسه الشديد على زوجته وأولاده وعمّاله ، الذي يحدثك عن احترام الآخر هو نفسه الذي يهجرك لأن رأيك خالف رأيه!

للأسف نحن متسامحون إلا في ما بيننا!

متحضرون إلا مع بعضنا!

يسلم منا الجميع ولا نسلم من بعض!

وبالمناسبة فإن إياسًا عندما سأل عن الغزو كان يعني به جهاد الطلب لا جهاد الدفع!

الوطن

٢٦- ١١- ٢٠١٦

مناهج التعليم، إلى أين؟!

يقولُ علي الطنطاوي رحمه الله : أنا قد ألّفتُ أكثر من خمسة وعشرين كتاباً ، فهل تظنونني أحفظها عن ظهر قلب؟ فلماذا يُكلّفُ التلاميذ حفظَ كُتب لا يحفظها أصحابها؟!

الشّيخ علي الطنطاوي ، فقيه وأديب وقاضٍ سوريّ ، وهو أحد أشهر أعلام الدّعوة الإسلاميّة والأدب العربيّ في القرن العشرين ، جاء إلى هذه الأرض عام ١٩٠٩ ، وغادرها بعد تسعين سنة حافلة بالعطاء ، أسلوبه جزل أخّاذ ، يجمع فيه عمق المعنى وعراقة اللغة ، وإن جاز لمثلي أن يشهد لمثله ، فهو أحد الذين تُرفع لهم القبعة احتراما ، وتُطوى في حضرتهم الرُّكب تَتَلْمُذاً!

تُعاني مناهج التعليم في بلادنا من مشكلتين رئيستين ، الأولى أنّها ما زالت تنظرُ إلى الطلاب على أنّهم أكياس على المعلّم أن يحشوها بالمعلومات ، والثّانية أنّ كثيراً من هذه المعلومات لا طائل منها!

كانت ابنتي في الصّف الثالث الابتدائيّ عندما طلبتْ منّي أن أكتبَ لها الحروف الشّمسيّة والحروف القمريّة لتقوم بحفظها ، ولأنّها تعتبرني أعلم أهل الأرض ، كما يعتبر الأطفال جميعاً آباءهم في هذه السّن ، فقد أُصيبت البنتُ بدهشة عظيمة! وزادت دهشتها عندما قلتُ لها : لا أريدكِ أن تقومي بحفظها أنتِ أيضاً! فسألتني : وكيف أُصنّف الحروف في الامتحان بين شمسيّة وقمريّة؟! قلت لها : الأمرُ بسيط ، وسأعلمكِ كيف تفعلين هذا! شرحتُ لها أولاً

سبب تسمية الحروف بالشمسيّ والقمريّ ، وكيف تختفي اللام في كلمة الشمس وتظهر في كلمة القمر! ثم قلتُ لها : لنأخذ حرف الحاء ونعرف إن كان شمسياً أم قمرياً ، أعطني كلمة تبدأ بحرف الحاء ، فقالت : حَبْل . قلتُ لها : أدخلي عليها ال التعريف . فقالت : الحَبْل . سألتها هل لفظنا اللام؟ قالت : أجل . قلتُ لها إذا الحاء حرف قمريّ ، وعليه قيسي ، فكتبتُ لها حروف الهجاء كلها ، وقامت بتصنيفها في دقائق! وهذا ما أُسمّيه درسا للعمر! ما ضربته مثلاً إنما هو مثل صغير على الحشو ، وعلى استبدال الفهم بالتحفيظ ، وإذا كان المثل يقول : لا تعطِ الفقير سمكة ، ولكن علّمه كيف يصطاد ، فمناهجنا لا تُعطي التلميذ سمكة ، ولا تعلمه كيف يصطاد ، وإنما تريد منه أن يدخل إلى المحيط ويقبض على حوت ويعود به إلى البرّ!

بخصوص المعلومات التي لا طائل منها ، أولاً لا مشكلة عندي في أن يكون المرءُ مثقّفاً ، على العكس تماماً فإنّ العكس عندي هو المشكلة! ولكن هناك معلومات لا تلزم إلا إذا اشترك الإنسان في مسابقة من سيربح المليون! لماذا على التلميذ الغضّ الطريّ أن يحفظ مساحة البرازيل ، وكم هو طول نهر المسيسيبي ، وكم تُنتج جنوب إفريقيا من الأخشاب ، وكم عدد الأغنام في الدنمارك ، وكم حصة الفرد من الناتج القومي في آيسلندا ، وكيف هو المناخ في بنما ، وما اسم الذي اغتال وليّ عهد النّمسا ، لم يبقَ إلا أن يحفظ الطلاب أسماء سكّان الصين!

مناهجنا لا تُعدّ الطالب للحياة ، لأن الذين يضعونها لم يفهموا الحياة بعد! في حرب الخليج الأولى طلب من طلاب عدّة جامعات أميركية تحديد موقع الكويت على الخريطة ، فلم يستطع تحديدها إلا

٨٪ منهم ، ومع هذا أميركا بخير ، وطلابها يتخرّجون ويُنتجون ويخترعون ، وابنتي التي تحفظ ثلاثة أرباع عواصم دول العالم وعملاتها ، لا يوجد في منهاجها حصّة كمبيوتر واحدة! ولكن لا شيء يدعو للأسف ، فأنا مطمئن لمستقبل البنت ، فإنها ولله الحمد تعرف أنّ عملة الهند هي الرّوبية!

الوطن

٣- ١٢- ٢٠١٦

الحياد لعبة الأوغاد!

يقول مارتن لوثر كينغ : إن أسوأ مكان في الجحيم مخصص لأولئك الذين يقفون على الحياد في القضايا الأخلاقية الكبرى!

مارتن لوثر كينغ أميركي من أصول إفريقية ، وهو أحد أبرز الذين ناضلوا من أجل الحرية وحقوق الإنسان في القرن المنصرم ، قاد حركة احتجاج واسعة ضد التمييز العنصري في أميركا ، كان ضد العنف بكل أشكاله ، حتى أنه كان ضد حركة السود الحربيين الذين انتهجوا طريق العمل المسلح ، وكان أصغر من نال جائزة نوبل للسلام ، ولكن هذا المسالم لم ينجُ من عنصرية أميركا فتم اغتياله عام ١٩٦٨ وهو لا يزال في التاسعة والثلاثين .

وبالعودة إلى المقولة الجميلة لمارتن ، فإني وإن كنتُ لا آخذ أماكن الناس في النار أو في الجنة بحسب تصنيف البشر ما لم يكونوا مؤيدين بالوحي ، إلا أن الحياد أمقت سلوك إنساني مارسه البشر يومًا ، إنه في كثير من الأحيان موقف مخزٍ ، ولا أعرف إن كان يصحُ تسميته موقفاً ، إذ أنه في حقيقته غيابٌ الموقف! ثمة قضايا ، الوقوف على الحياد فيها لا تفعله البهائم ولا الجمادات ، إذ أنها ترى من العيب أن لا يكون لها موقف تجاهها ، ولا تستغربوا إذ أقول إن الحيوانات والجمادات لا تعرف الحياد الذي يعرفه البشر ، وسآتيكم بمن ترضون دليلاً حتى لا يكون كلامي رجمًا بالغيب .

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : «أُحد جبل يحبنا ونحبه»! ويقول صلى الله عليه وسلم : «إني لأعرف حجرًا في مكة كان

يُسلم عليّ بالنبوة»! حجارة أيها الناس ، حجارة! لم ترضَ أن تقف على الحياد بين الحق والباطل ، وما يزال بعض البشر يُشاهدون الصراعات المستعرة على ظهر هذا الكوكب ، كأنما يشاهدون فيلمًا من أفلام الخيال العلمي ، يحكي قصة حروب بين مجرات بعيدة!

حتى الحيوانات لا تعرف الحياد ولا تعترف به ، ولا ترضى أن تكون تافهة بلا موقف ، فعندما أُلقي إبراهيم عليه السلام في النار ، هرعت الحيوانات تحاول إطفاءها ، إلا الوزغ فإنه كان ينفخ فيها! بغض النظر عن موقف كل فريق ، وبغض النظر عن البون الشاسع بين طرفي الصراع يومذاك ، إلا أن الحيوانات رأت أنه من التفاهة أن تتخذ سلوكًا بشريًا اسمه الحياد ، تأنف الحيوانات أن تكون تافهة ، وتعيش على هامش الحياة!

حتى النبات يأنف أن يقف على الحياد! يقول النبي صلى الله عليه وسلم : «لن تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يُنادي الحجر والشجر : يا مسلم ، يا عبد الله ، هذا يهودي ورائي تعال فاقتله ، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود» هكذا بكل بساطة ، يأخذ كل مكانه في المعركة الدائرة ، والصراع المستعر ، فريق مع الحق وفريق مع الباطل ، هذا الشجر العاجز عن الحركة إلا حركة النمو ، المغروس في الأرض كالأسير المقيّد ، آثر أن يكون له رأي وهو واقف مكانه على أن يُحايد!

المحايدون هم التافهون الفارغون الذين ارتضوا لأنفسهم سلوكًا تأنف منه الحيوانات والنباتات والحجارة! ليس المطلوب أن نشارك بكل صراع ، ولكن من العيب أن لا يكون لنا رأي وموقف على الأقل ، ثم وحدها النوايا والمشاعر قد ترفع البشر مكانًا ما ظنّ أحد أن يبلغوها ، وقد روى البخاري في كتاب المغازي من حديث أنس

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك وصار بحذاء المدينة ، قال : «إن في المدينة أقوامًا ما سرتم سيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم ، قالوا : يا رسول الله ، وهم بالمدينة؟! قال : وهم بالمدينة ، حبسهم العذر»!

وأختمُ بقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم قال : المحايد لم ينصر الباطل ولكنه خذل الحقّ!

الوطن

١٠- ١٢- ٢٠١٦

الحِجاب!

تقول أيان حرسي علي : يقوم الحجاب بتمثيل المرأة كحدود وملكية خاصة وليس كإنسان!

أيان حرسي علي صومالية الأصل هولندية الجنسية ، قضت سنوات طفولتها في السعودية بحكم أن والدها كان طالباً للجوء السياسي هناك ، كانت مسلمة أولاً ثم ألحدت متأثرة بالبيان الإلحادي العام لهيرمان ، حازت على ماجستير في العلوم السياسية ، ووصلت إلى قبة البرلمان الهولندي ، ولكنها استقالت إثر فضائح بالكذب العمد في أوراق هجرتها ، لها كتاب بعنوان «الكافرة» هاجمت فيه الإسلام بضراوة ، وقالت كلاماً لاذعاً في القرآن الكريم والنبي الكريم وهذا دأبها في مقالاتها ومقابلاتها . .

ومن كتابها «الكافرة »الجملة موضع المقال . .

أن تُلحد أيان فهذا شأنها وحريتها الشخصية ، وأن تعبر عن أفكارها ومعتقداتها فهذا حقها أيضاً ، ولكن ما ليس من حقها أن تُسيء لمعتقدات الآخرين منطلقة من منطق أعوج ، وإلا بنفس المنطق وعملاً بمفهوم المخالفة يمكن القول : إذا كان الحجاب يجعل المرأة ملكية خاصة فنزع الحجاب يجعلها ملكية عامة! وطبعاً هذا الرد منطق أعوج كذلك ، لا المحجبة ملكية خاصة ولا غير المحجبة ملكية عامة ، المرأة قبل الحجاب وبعد الحجاب إنسان ، قطعة قماش على الرأس لا تُنقص في إنسانيتها ، وخلعها لا تزيد في إنسانيتها كذلك!

ولكن مشكلة الملحدين- ومنهم الذين ألحدوا للحصول على الجنسية- أنهم يؤمنون بالحرية الفكرية والاعتقادية للجميع ما عدا للمسلمين ، إنك لا تجد ملحداً ينتقد هندوسياً يقدّس بقرة ، ولا تجد ملحداً ينتقد ثلاثية الأب والابن والروح القدس مع أنه لا يوجد شخص في العالم يستطيع شرح هذه المعادلة حتى بابا الفاتيكان نفسه! الجواب كما قال البابا السابق : آمن وسيجعلك الله تفهم! وأنت تخشى أن تقول لم أفهم لأنهم سيقولون لك : هذا لأنك لم تؤمن! عموماً هذا من باب الاستشهاد وإلا فإنه ليس بيت القصيد!

المرأة في الإسلام ليست ملكاً لأحد ، لا لأبيها ولا لزوجها ولا لأخوتها ، إنها إنسان معصوم الدم لو قتلها رجل لقُتل بها ، وإنسان معصوم المال لو سرق رجل مالها لقُطعت يده ، وفوق هذا لها أن تدير تجارتها ، وتباشر وظيفتها وليس لأبيها أو زوجها أن يأخذ درهماً منها دون رضاها ، بل إن النفقة من واجب الزوج والأب عليها ولو كانت أغنى منهما ، فإذا كان الرجل- أي رجل- لا يحق له درهم منها دون رضاها فكيف تكون هي ملكية خاصة!

ثم لماذا تُصور المرأة على أنها قطعة أرض يملكها رجل يضع حولها سياجاً هو الحجاب ليمنع الناس من الاعتداء على أملاكه!

من قال إن المحجبة تحجبت لأنها ملك أبيها أو زوجها؟ ألا تعرف السيدة أيان أن في أوروبا نفسها مئات آلاف المحجبات اللاتي يحميهن القانون لو أردن أن يخلعن حجابهن ورغم هذا لا يفعلن ، بل العكس هو الذي يحدث ، ففرنسا كانت تعتبر النقاب زياً مخالفاً للقانون يُعرّض التي ترتديه للغرامة ، وكانت النساء يخرجن فيه رغم معرفتهن أنهن سيتلقينَ مخالفات .

إن الإسلام ليس خياطاً عمله الوحيد خياطة أغطية لرؤوس

النساء ، إن هذا الدين دين الأخلاق والعفة قبل أن يكون دين عبادات ، ولأنهن خلوقات وعفيفات ارتدينه ، ولا أقول إن غير المحجبة غير خلوق ولا عفيفة ، ولكنني بالمقابل لا أرى في الأمر سُبة ولا شتيمة أن ترى امرأة أنه لا يحق لأي كان أن يرى شعرها ومفاتنها ، ولا أرى في الأمر سُبة ولا شتيمة أن يرى رجل أن لا يحق لأي كان أن يرى شعر زوجته أو ابنته أو أخته .

نساؤنا عندما يتحجبن فلأن الله أمرهن بذلك لا لأنهن يشعرن أنهن مجرد مقتنيات منزلية ، ونحن عندما نحثهن على الحجاب ونربيهن عليه فلأن الله أمرنا بذلك لا لأننا نعتقد أننا نملكهن .

إن المرأة التي تعتقد أيان أنها إحدى ممتلكاتنا هي الأم التي جُعلت الجنة تحت قدميها ، والزوجة التي لا يكون الزوج كريماً إلا إذا أكرمها ، والبنت التي جُعلت باباً للجنة ، والأخت التي محبتها عبادة ، والعمة والخالة التي صلتها قربى لله ، والجارة التي الحفاظ عليها نُبل!

الوطن

١٧- ١٢- ٢٠١٦

ليس بيني وبين الله أحد!

«ليس بيني وبين الله أحد» مقولة شهيرة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد جرت العادة في هذه السلسلة أن أكتب نبذة تعريفية عن صاحب القول موضوع المقال ، ولكني ارتأيتُ أن أُخالف عادتي تلك ، فالمسمى لا يحتاج إلى تسمية ، والمعرفة لا يحتاج إلى تعريف ، والمؤكد لا يحتاج إلى تأكيد ، وليس من الأدب أن تكتب حفرة تعريفًا عن قمة!

وبالعودة إلى المقولة ، فهي مرتبطة بمناسبة حجّه رضي الله عنه بالناس في خلافته ، فلما صار بوادي ضجنان قرب مكة قال : لا إله إلا الله العليّ العظيم ، المعطي ما شاء لمن شاء ، كنتُ أرعى إبل الخطّاب بهذا الوادي في لباس خشن من صوف ، وكان الخطّاب فظًا يُتعبني إذا عملتُ ، ويضربني إذا قصّرتُ ، وها أنا قد أمسيتُ وليس بيني وبين الله أحد!

إذا أردتَ أن تعرف معادن الرّجال سلمهم سُلطة ، عندها فقط يمكنك أن تراهم على حقيقتهم دون مستحضرات تجميل! دون تصنّع ومواربة ، وهذا هو معدن عمر ، يظهر في مقولته التي قالها في عامه التاسع في الحكم ، بعد أن هزم أعظم إمبراطوريتين في التاريخ ، فارس والروم ، وصارت بيده مقاليد دولة كانت يومذاك الأكبر والأقوى على وجه الأرض ، ولكنه لم يتكبر ولم يتغطرس ، كلّ هذا المجد عنده عطاء من الله ليس له فيه يد ، وكل هذا السلطان لا ينسيه ماضيه : هنا كنتُ أرعى إبل أبي! إحدى مشاكلنا

في هذا العصر أننا نعاني «تورمًا» رهيبًا في «الأنا» ، يؤلف أحدنا كتاباً فيمشي على رؤوس أصابعه ، ويؤسس أحدنا شركة فلا يعود يرى الناس من حوله ، ويحصل أحدنا على شهادة دكتوراة فلا يترك فرصة إلا ويخبرك أنه أعلم أهل الأرض ، ويستلم أحدنا رئاسة قسم فيشعرك أنه يدير المجموعة الشمسية!

تواضعوا ، إنّ المرء إذا نجح وتغطرس فهو لم ينجح حقًا ، ولا تستسلموا فإن المرء إذا فشل ولم يستسلم فهو لم يفشل حقًا!

قسوة الخطاب هي التي صقلت عمر ، فالحديد الصلب هو كذلك لأن النار كوته ، ولا أطالب هنا أن نكون قساة مع أولادنا ، على العكس ، أؤمن أن الأولاد بحاجة إلى الحب حاجتهم إلى الطعام والشراب ، ولكن هناك فرقا بين القسوة والحزم . الدلال الزائد فوق أنه مفسدة فهو لا يُعدّ الأولاد للحياة ، والحُب لا يتنافى مع أن نقول لأولادنا لا أحيانًا ، من قال إنه من حُبّ البنت أن تتخرج في الجامعة وهي لا تعرف كيف تقلي بيضة ، ومن قال إنّ من حب الابن أن يبلغ سنَّ الزواج ويأخذ مصروفه من أبيه كأنه طفل في الروضة ، هناك فرق بين أن نُعبّد طريق الحياة أمام أولادنا وبين أن نمشيها نيابة عنهم!

الوطن

٢٤- ١٢- ٢٠١٦

أردت عَمْرًا وأراد الله خارجة!

أردتُ عَمرًا وأراد اللهُ خارجة ، قول جرى مجرى المثل ، والأمثال لا بُد لها من قصة ، وقصة المثل أن الخوارج لما رفضوا قبول علي بن أبي طالب رضي الله عنه للتحكيم في معركة صفين ، عزموا على قتل الثلاثة عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهم ، فتوجه عبد الرحمن بن ملجم إلى الكوفة لقتل علي ، والبرك بن عبد الله إلى الشام لقتل معاوية ، وعمرو التميمي إلى مصر لقتل ابن العاص ، وعزموا أن تكون صلاة الفجر في السابع عشر من رمضان موعدًا لهذا ، فأما ابن ملجم - عليه لعائن الله تترا- فقتل عليًا في المحراب ، وأما البرك فضرب معاوية فأصابه في خاصرته فاقترح عليه الأطباء أن يُكوى الجرح بالنار وإلا فلن ينجب ، فرفض أن يكتوي وقال حسبي من الأولاد يزيد ، لهذا لم ينجب غيره ، وأما عمرو بن العاص فقد اشتكى وجعًا في بطنه فأمر خارجة قائد شرطته أن يؤم الناس ، فطعن التميمي خارجة فقتله ظنّاً منه أنه من أراد ، ولما جيء به إلى عمرو بن العاص قال له : ألم أقتلك؟ فقال عمرو : بل قتلت خارجة ، فقال : أردتُ عمرًا وأراد الله خارجة! فصارت مثلًا!

والأمثال بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهو يضرب لمن أراد شيئًا وحصل له خلاف ما يريد! المهم أننا قوم لا نُؤمن بالصُدف ، وكل ما نظنه صدفة إنما هو شيء رُتب في السماء ليكون في الأرض فكان! قدر الله نافذ لا محالة ، مهما أخذنا بالأسباب

لنمنعه إلا أنه واقع ، ولكننا نأخذ بالأسباب لأنها واقعة في قدر الله أولاً ، وثانيًا لأننا لا نعرف الأقدار إلا عندما تقع! أراد نوح عليه السلام لو ركب ابنه السفينة ، وأراد إبراهيم عليه السلام لو آمن أبوه ، وأراد لوط عليه السلام لو آمنت زوجته ، وأرادت آسيا بنت مزاحم لو آمن زوجها ، وأراد محمد صلى الله عليه وسلم لو آمن أبو طالب! ولكنك لا تهدي من أحببتَ!

أصاب ابن ملجم ضربته ليرقى علي شهيدًا ، وأخطأ البرك ليُصاب معاوية بالعقم ، ومرض ابن العاص ليستشهد خارجة! يخرج المسلمون في إثر القافلة فيريدها الله معركة!

يحدث أن ترى جنديًا شارك في الحرب العالمية يروي ما حدث ثم تسمع أن طفلًا شرق بحليب أمه ومات ، هذا لأن الله قضى ألا يموت المحارب في أكثر الأماكن خطرًا على وجه الأرض بينما يموت الرضيع في أكثر الأماكن أمنًا ودفئًا وحنانًا ، يعمل العشرات لأجل رغيف خبز كتبه الله لكَ فيصلكَ ، وتتعب وتجني مالًا ثم تخسره ، هذا لأن الرغيف لكَ والمال ليس لك!

تعالوا نأخذ بالأسباب ما استطعنا ولكن بالمقابل دعونا نتأدب مع الله إذا أراد أن يُنفذ قدره! وإن السخط على القدر لا يُغيره ، وإنما يجتمع على الإنسان إثم السخط وشر ما وقع ، فسبحان من إذا أراد أمرًا قال له كن فيكون!

الوطن

٣١- ١٢- ٢٠١٦

كَذَبَ المُنَجِّمون!

ليلة أمس ودّعت البشرية العام ٢٠١٦ باحتفالات صاخبة ، وحقّ لها أن تحتفل فقد أنجزت فيه الكثير!

تحوّلتْ حلب من مدينة إلى ركام ، والأطفال الذين لم تنقلهم القذائف إلى الجنة نقلتهم الأمم المتحدة إلى الخيام!

وغزة محكمة الإغلاق ، والعراق مسلخ كبير!

ورائحة البشر المشويين في ميانمار لم تشغل العالم المتحضر عن التكاتف لمواجهة الاحتباس الحراري الذي يؤدي لذوبان ثلوج القطب مما يهدد حياة الفقمات والبطاريق!

وبان كي مون أنهى ثماني سنوات حافلة بالقلق والدّجل!

وكما هو الأمر في نهاية كل عام ، تحلّق الناس حول شاشات التلفزة ينتظرون العرافين ليخبروهم ما الذي سيحدث في العام الجديد ، والعرّافون يتحدثون عما سيحدث في المستقبل بثقة بالغة كأنهم اطلعوا على اللوح المحفوظ!

وكالعادة كانت النبوءات فضفاضة :

انقلاب عسكري هنا

زلزال هناك

مقتل زعيم هنالك

وكأن حدوث هذه الأشياء يحتاج إلى نبوءة

القتل في الأرض منذ قابيل وهابيل

والانقلابات العسكرية أقدم من نيرون

والزلازل تقع قبل اختراع التلفاز!

لم يبقَ إلا أن يتنبأ أحدهم أن موج البحر سيبقى يهدر ، وأن أسدًا سيفترس غزالاً في تنزانيا ، وسمكة سالمون ستموت قبل أن تضع بيوضها ، وأن المطر سيهطل في فصل الشتاء ، والحرارة ستكون مرتفعة في الرّبع الخالي!

هل سبق ولاحظتم أنه لا أحد يتنبأ بحصول شيء جيد؟!

لم أسمع أن عرافًا تنبأ بعلاج للسرطان أو الإيدز ، رغم أن كل الأمراض المستعصية سبق أن وجدت لها البشرية أدوية

لم أسمع أن عرافًا تنبأ أن حربًا ما ستضع أوزارها رغم أن الحروب مهما طالت ستتوقف

إنهم يعرفون أننا نعرف أن هذا الكوكب مجنون وأن الأشياء السيئة تحصل دائمًا ونحن لا نتوقف عن انتظارها ، إنهم يخبروننا بما ننتظر لهذا يجدون من يصدق حقًا أنهم يعرفون!

وبعيدًا عن رأي الإسلام الحاسم في أمر الكهانة والتنجيم وقراءة الكف والطالع وفناجين القهوة ، أرى شخصيًا أن أجمل ما في المستقبل أنه قد حُجب

لو علم أحدنا أن بيته سيُهدم ما بناه

ولو علم أن ابنه سيموت في حياته ما أنجبه

ولو أن بنته ستطلق ما زوّجها

أراد الله لنا أن نكون أحرارًا

نزرع كأن الزرع لن يتلف ، ونبني كأن البناء لن يُهدم

وننجب كأن أولادنا لن يموتوا!

معرفة المستقبل من زاوية ما تدب الفتور في النفس ، والمنجمون إنما يفسدون هذا الأمر ، ولطالما وضعوا العِصيّ في

الدواليب ، فعندما استصرخت المرأة المسلمة المعتصم لأن النساء كُنّ يعرفن يومذاك نخوة الحكام . . . سأل المعتصم أي حصون الروم أمنع وأحصن ، فقد كانوا إذا استُصرخوا لا يذهبون إلى مجلس الأمن ، ولا يبحثون عن أسهل معركة!

فقيل له عمورية ، لم يسبق أن حاول أحد فتحها لمنعتها

فقال : إذن إلى عمورية!

وأجمع المنجِّمون أمرهم وأخبروه أن النصر لن يكون حليفه إن قاتل ، ولكن المعتصم كان من الرجال الذين يعرفون أن المستقبل يُصنع ولا يُنتظر

فغزا وفتح الله له عمورية ، فأنشد أبو تمام بيته الشهير ساخرًا بالمنجمين :

السيف أصدق إنباءً من الكتب . . . في حدِّه الحد بين الجَدّ واللعبِ

نحن أمة تصنع ما تحب ولا تجلس على شاشات التلفزة تنتظر أن يتحقق ما تكره ، فهذا قبل أن يكون وهنًا وعجزًا ، مثلبة في العقيدة الصحيحة وناقض من نواقضها ، وصدق علّام الغيوب حين قال في كتابه العزيز ﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله﴾!

مدوّنات الجزيرة

١ /١ / ٢٠١٧

رسالة إلى دونالد ترامب!

السّيد دونالد ترامب ، تحيّة وبعد :

هذه ليستْ رسَالة تهنئة ، يكفيكَ من رسائل التّهنئة ما جاءكَ! وليستْ رسالة بيعة ، فنحن قومٌ يُبايعُ حكّامنا عنّا ، وأحسبُ أن صكوك الطاعة والولاء صارت عندكَ ، والنّاسُ على دين ملوكهم! إنها فضفضة ليس إلا ، فنحن قومٌ مولعون بالكلام ، ولعلكَ لا تعلم ، وأنتَ لا تعلمُ كثيراً بالمناسبة ، أننا الأمة الوحيدة في التّاريخ التي أنشأتْ سوقاً للكلام ، فقد كان أجدادنا يبيعون الكلام في سوق عكاظ قبل أن تُكتشف أمريكا ، ومن شابه أباه فما ظلم!

سيادة الرّئيس :

بدايةً ، لي عتبٌ عليك لأنكم لم تُشركونا في انتخاباتكم ، تقولون لنا أنّ من حقّ الشّعوب أن تختار حكّامها ، ثمّ لا تنادوا علينا لندلي بأصواتنا! بالمناسبة كنتُ سأصوّتُ لكَ! ويشهدُ الله أني كنتُ أدعو أن تفوز ، حتى أن زوجتي بشّرتني بفوزك قائلة لي : لقد فاز صاحبك! وطبعاً كنتُ سأصوتُ لكَ ليس محبةً فيك ، فقلبي ليس أعمى إلى هذه الدّرجة ، ولكن لأنّكَ خبيث مكشوف على البركة ما بقلبكَ على لسانك ، فلستَ دبلوماسياً كالحيّة الرقطاء هيلاري! أردتُ لكَ أن تفوز ليظهر لقومي وجه أمريكا القبيح على يديك .

فأنا من قوم إذا قالت لهم هيلاري : اذهبوا إلى الجحيم أيها اللطيفون! لقالوا : تغزّلتْ بنا الشقراء! معكَ الأمرُ مختلف ، أنتَ

صريحٌ جداً وتلعبُ على المكشوف، أنتَ تقول صراحةً: نريدُ نفط السعودية، ولا تقول السعودية صديقتنا ثم تذهب لتدقّ في أسفلها اتفاقاً نووياً مع إيران، وتُطلق قطيع الحشد في العراق، وكلاب الحوثيّ في اليمن! أنتَ تقول صراحةً: المسلمون غير مرحّبٍ بهم في أمريكا، ولا تقول أهلاً بكم، ثم تهمس لمجلس الشيوخ: أعطوهم قانون جاستا! أنتَ تقول صراحةً: ما شأننا وشأن سوريا اذبحوا أهلها ولا تجعلوننا نرى دماءهم، ولا تقول أن قيم أمريكا لا تسمح بمجازر حلب ثم تهمس لبوتن: اجمعهم عدداً واقتلهم بدداً! أنتَ تقول صراحةً: أنا مع إسرائيل في كلّ ما تفعل، ولا تقول أنا ضدّ الاستيطان وتدفع لهم ثمن الإسمنت، ولا تُطالب إسرائيل بضبط النّفس تجاه غزّة وتعطيهم الصواريخ ليقصفوها!

سيادة الرّئيس:

أتعرفُ لماذا اختارتكَ أمريكا؟ سأخبركَ، لقد اختارتكَ لأنّكَ نسخة عنها، فمواصفاتك في أي دولة محترمة ليست إلا مواصفات رئيس عصابة! ولا تغضب، فالبيّنة على من ادّعى! أولاً أنتَ عديم الثقافة، وتفهم في السياسة مقدار ما تفهم شاكيرا في النظرية النسبية، فقد مرّغتك هيلاري في مناظرتين، وعرّتْ جهلكَ، ورغم هذا انتخبوك! سرّبوا لكَ مقاطع فيديو بالصوت والصورة تفتخرُ فيها بالتّحرش بالنساء، ورغم هذا انتخبوك! أثبتوا تهربك من دفع الضرائب التي ستطالب الناس بدفعها، ورغم هذا انتخبوك! حياتك الأُسرية مثيرة للغثيان ورغم هذا انتخبوك! صدّقني أنتَ نسخة مصغّرة عن أمريكا، نسخة قبيحة عن دولة قبيحة ما زالت حتى اليوم تحتفل بذكرى إلقائها قنابل نووية على هيروشيما وناكازاكي دون أدنى وازعٍ من ضمير!

سيادة الرّئيس :

سئمنا من الأقنعة فأرنا وجه أمريكا الحقيقيّ ، وسئمنا من الكلام المعسول فأسمعنا كلام أمريكا الحقيقي ، سئمنا من شعوركم بالقلق والغثيان لما يحدثُ لنا ، فهذه أعراض حمل ووحام لا أعراض سياسة ، فأظهر لنا مشاعر أمريكا الحقيقية نحونا ، ولا تخف علينا من خيبة عاطفية ، فنحن نعرف ولكن نريد أن يعرف حكامنا أنها علاقة حُبّ من طرف واحد! سئمنا من محاولة إظهار إمساككم بالعصا من المنتصف ، فامسكها من طرفها ، وهُشّ بها على رؤوسنا علّنا نستيقظ!

سيادة الرّئيس :

لا شيء أسرع في خراب الدّول من تسليم زمام أمرها لأحمق ، وإني أسأل الله أن يكون عهدكَ فاتحة الخراب ، وأن تكون سنوات حكمك على أمريكا كالسّبع العجاف على أهل مصر زمن يوسف عليه السّلام ، فكُنْ أنتَ ، ولا تسمح لهم أن يلجموك ، أرجوك ، كُنْ أمريكياً من دون مساحيق تجميل!

سيادة الرئيس :

هذا ما كان منّي : أي انتهيتُ!

وما أردتُ إلا أن أُفضفض : أي أتكلم!

والسّلام : أي اقلبْ وجهك!

مدوّنات الجزيرة

١٣ / ١١ / ٢٠١٦

النّبيّ والشّعر!

لطالما كان موقفُ الإسلام من الشّعرِ مثار جدلٍ ، وقضية ذات أخذ وردّ ، يتجاذبُ النّاسُ أطرافَ الحديثِ عنها ، ومردُّ ذلك الجدل إلى فهمٍ خواتيم سورة الشّعراء فهماً ظاهريّاً ، واعتبارها من قبل كثيرين في معرض الذّم للشّعر والشّعراء!

ولكن كما هو معلوم فإنّ الشّعر كلام ، والكلام الأصلُ فيه الإباحة ما لم يحمل معنى حراماً! فالقصيدة كأس ومحتواها شراب! فإن احتوى الكأسُ خمراً فبئس الكأسُ وبئس الشّراب ، وإن احتوى ماءً عذباً فنعم الكأسُ ونعمَ الشّراب! وأخذ نصّ قرآنيّ على إطلاقه وبناء حكم شرعيّ عليه وفي السُّنّة ما يُقيّده فليس من التفسير في شيء!

فما هو موقفُ النبيّ من الشّعر؟

كان عليه الصلاة والسّلام ذوّاقاً ، يُعجبه جزل العبارة ، ويستوقفه جميل المعنى ، ولما دافع الزبرقان بن بدر عن نفسه في حضرته بأعذب العبارات قال قولته الشهيرة : إنّ من البيان لسحراً!

ولم يكن موقفه من الشّعر موقف الاستعذاب والاستحسان فقط ، بل حضّ عليه في مواطن كثيرة ، وكان يقول لحسّان بن ثابت يشجّعه على الذّب عن الإسلام : أُهجهم وروح القُدُس معك!

ولما رأى أثر شعر حسّان فيهم قال له : أنّ شِعرك عليهم أشدُّ من نضح النَّبل!

وكان لتواضعه قد نهى الصحابة أن يقفوا له إجلالاً ، وقد دخل عليهم مرّة فما شعروا بأنفسهم إلا وقد وقفوا له ، فغضب! ولما رأى حسّان ذلك في وجهه قال له :

وقـــوفي للعـــزيز عليّ فـــرضُ
وتركُ الفـرضِ مـا هو مـستـقـيمُ
عـــجـــبتُ لمن له عـــقلٌ وفـــهمٌ
يرى هذا الجـــمـــال ولا يقـــومُ

فرضيَ وكان بعيد الغضب قريب الرّضى!

ولمّا أهدر دم كعبٍ بن زُهير جاءه كعبُ معتذراً وأنشده قصيدته ذات المطلع الغزليّ :

بانَتْ سُعـادُ فـقلبي اليـوم متـبولُ
مـتـيّمٌ إثْرَها لـم يُفْـدَ مكبـولُ

وأخذ ينشد حتى بلغ :

نُبّتُ أن رســول الله أوعـــدني
والعـفـو عند رسـول الله مـأمـولُ
إنّ الرّســول لنورٌ يُســتــضــاء به
مـهنّدٌ من سـيـوف الله مـسلولُ

فخلع بردته وكساها كعباً!

ولما جاءت الخنساء تعلن اسلامها بين يديه قال له : إيهٍ يا خُنيس ، أنشديني من حديث صخر!

بل وأكثرُ من هذا ، كان له آراءٌ نقديّة! يعطي رأيه بما سمع ، فيذُمّ ويمدح ، وقد قال : أصدق كلمةٍ قالها شاعرٌ كلمة لبيد : ألا كل ما خلا الله باطل!

ولما سمع عجز البيت : وألا إن كل نعيم زائل

قال كذب لبيد فإن نعيم الجنّة لا يزول!

وكان يستعذبُ شعر أميّة بن أبي السلط ، وكان ردحاً من الزمن من الأحناف ، كورقة بن نوفل وقس بن ساعدة ، ولكنه أدرك الإسلام ولم يُسلم! فحفظ له النبيّ عذب شعره ، وصدق مضمونه ، وقال : كاد ابن أبي الصلت أن يُسلم!

وقال مرة لما سمع شعره من قائل : آمن شعره وكفر قلبه!

خاتمة القول كما فاتحته ، الشّعر كلامٌ ما حسُن مضمونه حسُن ثوابه ، وما ساء مضمونه ساء جزاؤه ، وما كان لدين كتابه ينبض بالبلاغة أن يحارب الشّعر ويُجافي الشّعراء!

الوطن

١١ / ٧ / ٢٠١٥

هذا هُو الإسلامُ يا سادة!

سَألَ عمرُ بن الخطّاب عن رجلٍ ما إذا كان أحدُ الحاضرين يعرفه ، فقام رجلٌ وقال : أنا أعرفه يا أمير المؤمنين .

فقال عمر : لعلّكَ جاره ، فالجارُ أعلمُ النّاس بأخلاقِ جيرانه؟

فقال الرّجلُ : لا

فقال عمر : لعلّكَ صاحبته في سَفرٍ ، فالأسفار مكشفة للطباع؟

فقال الرّجلُ : لا

فقال عمر : لعلّكَ تاجرتَ معه فعاملته بالدّرهمِ والدّينارِ ، فالدّرهمُ والدّينار يكشفان معادن الرّجال؟

فقال الرّجلُ : لا

فقال عمر : لعلّك رأيته في المسجدِ يهزُّ رأسَه قائماً وقاعداً؟

فقال الرّجلُ : أجل

فقال عمر : اجلسْ فإنّكَ لا تعرفه!

كان ابن الخطّابِ يعرفُ أنّ المرءَ من الممكن أن يخلعَ دينه على عتبةِ المسجد ثم ينتعلَ حذاءَه ويخرجَ للدّنيا مسعوراً يأكلُ مالَ هذا ، وينهشُ عرض ذاك!

كان يعرفُ أن اللحى من الممكنِ أن تصبحَ متاريسَ يختبئ خلفها لصوصٌ كُثر ، وأنّ العباءة السّوداء ليس بالضرورة تحتها امرأةٌ فاضلة!

كان يعرفُ أن السِّواكَ قد يغدو مِسنّاً نشحذ فيه أسناننا ونأكل لحوم بعض!

كان يعرفُ أن الصلاةَ من الممكنِ أن تصبحَ بُشْتاً أنيقاً لمحتال، وأنّ الحجّ من الممكنِ أن يصبحَ عباءةً اجتماعية مرموقة لوضيع!

كان يؤمنُ أنّ التَّديّنَ الذي لا ينعكسُ أثراً في السُّلوكِ هوَ تديّنٌ أجوف!

أندونيسيا لم يفتحها المحاربُون بسيوفهم وإنما فتحها التُّجارُ المسلمونَ بأخلاقهم وأماناتهم! فلم يكونوا يبيعون بضائعهم بدينهم، لهذا أُعجبَ النّاسُ بهم وقالوا: يا له من دين!

الكُفرُ الصّريحُ أفضلُ من الإيمان الكاذب، وفي كليهما شرّ!

والتعاملُ مع الآخرين هو محكُّ التّديّنِ الصحيح

إذا لم يلحظ الناسُ الفرقَ بين التّاجر المتديّنِ والتّاجرِ غير المُتديّن فما فائدة التّدينِ إذاً، وإذا لم تلحظ الزّوجةُ الفرقَ بين الزّوجِ المُتديّنِ والزّوج غير المتديّنِ فما قيمة هذا التّديّن، والعكس بالعكس! وإذا لَم يلحظ الأبوان الفرق بين برِّ الولد المُتدَيّنِ وغير المُتدَيّنِ فلماذا هذا التّديّن؟!

مصيبةٌ ألا يكون لنا من حجّنا إلا التّمر، وماء زمزم، وسجاجيد الصلاة المصنوعةِ في الصّينِ، ووجباتِ البيك!

مصيبةٌ ألا يَكونَ لنا من صيامنا إلا السمبوسة، والفيمتو، والتمر هندي، وباب الحارة!

مصيبةٌ أن تكون الصلوات حركاتٍ سُويديّة تستفيدُ منها العضلاتُ والمفاصلُ ولا يستفيدُ القلب!

مظاهرُ التّديّنِ أمرٌ محمود، ونحنُ نعتزُّ بديننا شكلاً ومضموناً، ولكن العيب أن نتمسّكَ بالشّكلِ ونتركَ المضمون، فالدّينُ الذي

حوّل رعاة الغنمِ إلى قادةٍ للأمم لم يُغيّر أشكالهم وإنّما غيّر مضامينهم . أبو جِهل كان يلبسُ ذات العباءة والعمامة التي كان يلبسها أبو بكر! ولحية أُميّة بن خلف كانتْ طويلة كلحية عبد الله بن مسعود! وسيف عُتبة كان من نفس المعدن الذي كان منه سيف خالد!

تشابهت الأشكالُ واختلفت المضامين ، هذا هو الإسلام يا سادة!

الوطن

١٥ / ٨ / ٢٠١٥

غُولدا مائير: قَرِّي عيناً!

سُئِلتْ غولدا مائير : ما أتعس يوم وما أسعد يوم مَرّا عليكِ في دولة «إسرائيل»؟

فقالتْ : أتعس يوم مرَّ عليّ هو يوم إحراق المسجد الأقصى ، قلتُ في نفسي إنّ العرب سيأكلوننا ، وأسعد يوم مرّ عليّ هو صبيحة اليوم التالي عندما لم يحدث شيء!

يبدو أنّ الشمطاء غولدا لم تكن سياسيّة مُحنّكة كما يُشاع عنها ، فهذا أحد أسخف القراءات لمشهد سياسيّ على مرّ التاريخ! فلو كان عندنا أسنان تأكل أعداءنا ما لبثوا فينا قبل هذا سنين! أو لعّلها كانت تُحسن الظنّ بنا اعتقاداً منها أنّ الذين أقسموا أن لا يُصلّوا العصر إلا في بني قريظة لأجل امرأةٍ واحدة أُهينتْ يمُتُّون إلينا بصلِة ، أو لم تكن تعرفُ أن الذي تناهى لسمعه امرأةً استصرختـه قائلَةً : وامعتصماه . فقال لها : لبّيكِ ، لأبعثّن لكِ جيشاً أوّله عندكِ وآخره عندي ليس مدفوناً في كتب التّاريخ!

المهم أننا خيبنا ظنّها ، وقد كانتْ سعيدة بذلك ، فليس هناك أوهن من أُمّة لا تكون عند حسن ظنّ أصدقائها إلا أُمة لا تكون عند حسن ظنّ أعدائها!

كانت الأُمّ في الجاهليّة توصي ابنتها إذا زُفّتْ لزوجها قائلة : إذا دخل عليكِ فخذي عمامته وألقيها أرضاً ، فإن غضب فهو رجل فاحذريه ، وإن رضي فهو دابة فامتطيه! ويبدو أن إحراق المسجد

الأقصى قديماً هو نفسه بالون الاختبار ، وقد دخلنا منذ عقود في زمن الامتطاء!

لقد عاد العربُ سيرتهم الأولى من الوهن التي كانوا عليها في الجاهليّة! قبائل متناحرة ، بأسها بينها شديد ، وعندما حضر أبرهة بجيشه قالوا : للبيت ربّ يحميه! وللأقصى رب يحميه كذلك ، ولكن الله أرسل الطير من السماء لأنّ الأرض لم يكن فيها من يستحق أن يكون جنده!

أصعب ما في المشهد أن تتبلد فينا الأحاسيس ، وتصبح الخيبة عادة ، والشعور بالعجز طقس يومي لكثرة ما عشناه ألفناه فلم يعد مذاقه مُرّاً كما أوّل مرّة تجرّعناه! عندما أُحرق المسجد الأقصى أوّل مرة كنا ندين ونستنكر ونشجب بقوة ، صحيح أنّ الشجب كان فصلاً من فصول المسرحيّة ، وينطبق عليه قول العرب : أسمع جعجعة ولا أرى طحيناً! أمّا اليوم فحتى الجعجعة على استحياء وعظّم الله أجرنا في الطحين!

ما الذي حدث لنا؟! لو أُهينت للهندوس بقرة لتداعوا عن آخرهم ينتصرون لها ، ولو أُطفئت للمجوس نار لأطفؤوا عين من أطفأها ، ومسرى نبيّنا يُدنّس على مرأى منا ومسمع ، وليس فينا من يرمي «إسرائيل» بوردة فضلاً على أن يرميها بحجر!

الوطن

١٩ / ٩ / ٢٠١٥

لا تجعلُوا الحلالَ حراماً!

أقـــولُ لظبيّ مـــرّ بي وهو شَـــاردٌ
أَأَنتَ أخـــو ليلى ، فـــقـــال : يُقـــالُ

هذا البيتُ لقيس بن المُلوّح الذي لقّبته العربُ مجنون ليلى ، والعربُ كانتْ إذا لقّبتْ بالغت! ولعلّ هذا أحد أقلّ ألقابها مبالغة ، فقد كان مجنوناً بليلى على وجه الحقيقة لا المجاز! وقد بلغ من جنونه بها ، أنّه في يوم عرفة وقد انعقد سوق العتق ، جاء النّاسُ يبيعون ذنوبهم ويشترون مغفرةً ، وحده قيس جاء ذاك اليوم يبيع كلّ ذنوبه إلا هوى ليلى ، وأنشد يقول :

أتـوبُ إلـيـكَ يـا رحـــــــمـنُ ممـا
عـــملتُ فـــقـــد تظاهرت الذنوبُ
فـــأمـــا عن هوى ليلى وتركي
زيارتـهـــا فـــإنـي لا أتـوبُ
وكـــــيـفَ وعـنـدهـا قـلبـي رهـينٌ
أتـوبُ إلـيـكَ مـنـهـــــا أو أُنـيـبُ

وليلى العامريّة هي ابنة عمّه الذي رفضَ تزويجها له ، لأن العربَ لا تُزوّج امرأةً لرجلٍ شبَّبَ بها ، أي تغزّل بها شعراً على الملأ ، لأنها كانت ترى أنّه غيرُ جدير بالحفاظ على عرضها ، ولعلّ هذا أحد أهمّ الأسباب التي لأجلها لَم يتزوّج شاعرٌ حبيبته ، فلا قيس تزوّج العامريّة ، ولا جميلٌ تزوّج بُثينة ، ولا توبة تزوّج الأخيليّة!

وعندما زوّجها أبوها لغيره ، ذهب المجنون إلى مضافة الرّجال حيث يجلس زوجها ، وكانوا قد أوقدوا ناراً كعادة العرب الذين لا تحلو سهراتهم دونها ، وقال له :

بدينِكَ هل ضممتَ إليك ليلى
قُبيل الصُّبح أو قبّلتَ فاها
وهل رفّتْ عليكَ قرونُ ليلى
رفيفَ الأقحوان على نداها

فقال له زوجها : بما أنّك استحلفتني بديني ، اللهم إنّي قد فعلتُ!

فقبض قيس على الجمر وخرّ مغشيّاً عليه!

كانت العربُ إذاً تُقدّم الغيرة على الحُبّ ، ومن فرط الغيرة المجنونة وأد بعضهم بناتهم مخافة السبيّ إذ كانوا قوماً يَغزونَ ويُغزَون! أمّا اليوم فقد انقلبَ حال بعض العرب ، صاروا متحضّرين ، وكفّوا عن الغزو والغيرة معاً!

بِاسم الحُبّ عناق زوج لزوجته في مواقع التّواصل ، وبِاسمِ الحُبّ قُبلةَ على الملأ ، وبِاسمِ الحُبّ ضمّة في المطبخ ، وغداً بِاسمِ الحُبّ في السّرير!

ملعون هذا الحُب الذي يجعل الزّوجة ملكيّةً عامة يتأملها الآخرون ، ملعون هذا الحُبّ الذي لا يُراعي غيرة أبٍ على ابنته ، وأخ على أخته ، لمجرّد أنّ أحدهم قرّر أن يقول للنّاس : نحنُ عشّاق أيهاً القوم!

أنا لا أُشكك في حبّ أحدٍ لزوجته ، على يقيني أنّه مهما بلغ أحدنا من العشق لامرأة فلن يبلغٍ معشار ما بلغ عشق المجنون لليلى ، فهوّنوا عليكم! وتذكّروا أن الحُب خُلق لنعيشه لا لنتحدث عنه ،

لنستمتع به لا لنصوّره ، لنتلذذ به لا لنوثّقه!

وأنتُنّ أيتـها الزوجـات مـا الذي دهاكُنّ ، أنتُنّ أمـهـات لا إعـلانات عاطفيـة ، أخوات لا بطاقات رومانسيّـة ، بنات لا سلعاً قلبيّة ، فإذاً أخلّ الرّجال بعقدِ الغيرة فأينَ غيرتكن على أنفسكنّ!

أَحِبُّوا ، اعشقوا حدّ التلف ، قبّلوا وتقبّلوا ، تهادوا ، تسامروا ، تراحموا ، تفننوا بالحب ، وتلذذوا به حتى آخر قطرة ، فما منّ الله على عبدٍ بعد الإسلام إلا بحبٍّ حلال يسوقه إليه ، فلا تجعلوا الحلال حراماً

الوطن

٣ / ١٠ / ٢٠١

لا عزاء!

السّيد فرنسوا هولاند ، تحيّة طيّبة وبعد :

بداية . . . هذه ليستْ رسَالة عزاء ، يكفيكَ من العزاءِ ما جاءكَ ، كما أنّي أحسبُ أنّ العزاءَ من فروضِ الكِفايات ، إذا قام به البعضُ سقط عن البعضِ الآخر ، وقد عزّاكَ قومي في مُصابِكَ ، من أكبر داعيةٍ حتى أرشق راقصة! وبهذا سقط واجبُ العزاءِ عنّي ما لم يُقرر فقهاءُ مكافحة الإرهاب أنّ التّعزية بمصابكم الأليم من فروض الأعيان ، وقتها سأتأنقُ وآتي إلى ساحة الشانزليزيه لأبكي على كتفك! أمّا وما زال العزاء اختياراً فقد اخترتُ ألاّ أُعزّيكَ!

لن أُعزّيكَ لا لأني مع القتل ، معاذ الله ، فنحنُ نحبُّ الحياة لغيرنا وإن لم نستطعْ نحنُ إليها سبيلاً! ولكن في بلادي مأتم شغلني عن مأتمكَ ، وعزاء شغلني عن عزائك ، وإنّي إذا تركتُ مأتمي وضربتُ أكباد البوينغ إلى مأتمك سأبدو كالنّائحة المستأجرة ، وقد قال أجدادي الذين كانوا يجوبون قارّتك دون فيزا شنغن : النّائحة الثكلى ليست كالنّائحة المستأجرة!

لو كانتْ حالنا غير الذي تعرف لكنتُ عزّيتك ، ولكن كيف أعزّيك في «غزوة باريس» وبلادي لم تجفف نفسها من «غزوة السّماء» بعد؟! ساعة مطر أحالتْ مدننا إلى بحيرات ، من بيروت إلى جدّة ، ومن عمّان إلى الإسكندريّة ، ولا سفينة نركبُ فيها ، ولا جبل يعصمنا من الماء!

كنتُ لأعزّيك في القتلى الذين يفطرون الكرواسون والكورن

فليكس لو حدث أنّك عزّيتني في أطفال غزّة الذين ماتوا جوعى في الحرب الأخيرة بسبب حصار الخَصيّ الذي نصّبتموه في القاهرة!

كنتُ لأعزّيك في قتلى مسرح باتاكلان لو أنّك عزّيتني في قتلى المساجد التي دُكّتْ فوق رؤوس المصلين في حماة وحلب!

كنتُ لأصرخَ ملء حنجرتي أنّي ضدّ الرصاص الذي أخاف أطفالكم لو أنكم لم تسكتوا عن البراميل المتفجّرة التي بعثرتْ أطفالنا!

ولكن لأنّ ذاك لم يحدث ، فلن يحدث هذا ، فلا عزاء!

فخامة الرّئيس :

لا تنتظر منّي أن أقول لكَ : إنّي أبرأ إليكَ مما فعل هؤلاء!

فهؤلاء ليسوا منا لأبرأ لكَ منهم! لقد قتلونا قبل أن يقتلوكم ، وما فعلوه في باريس في ليلة يفعلونه في سوريا كلّ ليلة ، وإن كانوا قد قتلوكم بالرّصاص فقد نحرونا من قبل بالسكاكين كالخراف! وإن قتلوا روّاد المسارح عندكم فلم يسلم منهم روّاد المساجد عندنا! وإن قتلوكم على عجالة من أمرهم فقد قتلونا على مهل ، وصنعوا أفلاما هوليودية يعجز عنها هيتشكوك وأرسلوها إليكم! وإنّ الذي لم يُراعِ في ابن عمّه إلاً ولا ذمة وهو يقول له : «تكفى يا سعد» ، فليس لكم أن تحمّلونا وزر دمكم إن لم يرقب فيكم إلاً ولا ذمة!

فخامة الرّئيس :

أنتم أوقدتم هذه النّار التي أحرقتنا قبلكم ، لهذا ليس لكم أن تغضبوا إن أصابكم بعض شررها ، طبّاخ السّم يذوقه ، وهذه ليست

إلا جرعة مما نتجرّعه كل يوم! خمسة عشر عاماً من طائفية المالكي الذي أحضرتموه على صهوات دباباتكم إلى بغداد ، وتركتموه يُطلق كلاب الحشد تنهش هناك وهناك ، هو الذي أنتج هذا! وأربع سنوات وجزّار الشام يسلخ لحومنا كالأغنام وأنتم تتفرجون هو الذي أنتج هذا!

فخامة الرّئيس :

عليكم أن تكونوا ممتنين لنا لأننا رغم صمتكم وتخاذلكم ومشاركتكم لم نصبح جميعاً مثل قتَلَتِكم ، رغم أنّكم هيّأتم لنا الأسباب لنكون ، فرفضنا! ما زلنا نرى شعوبكم ضحايا مثلنا! أمّا أنتم قادة الدّول العظمى بمقدّراتها ، الصُّغرى بأخلاقها ، فقد جررتم هذا علينا وعليكم ، لهذا يا فخامة الرّئيس يصحّ فيك قول قائلنا : يداكَ أوكتا وفوك نفخ! ولا عزاء!

الوطن

٢١/ ١١ / ٢٠١٥

لهذا نُهزم يا سادة!

الذين يُعلموننا حقوق الحيوان، لا يعلمون أننا أمة رائدة في هذا المجال، فالحمار في بلادنا قد يصبحُ رئيساً للدولة! . . أما المثقف، الجامعيّ، الواعي، فكثيره سائق تُكتُك!

وما زلنا نتساءل لماذا نُهزم!

وعلى سيرة الهزائم، يقول ابن القيّم: تالله ما عدا علينا العدوّ إلا بعد أن تخلى عنّا الوليّ، فلا تحسبوا أنَّ العدوّ غلب ولكن النّاصر أعرض!

وأقولُ متّكئاً على قول ابن القيّم: أن الأوائل الذين أوصلوا الإسلام إلى عقر أوروبا، ومجاهل أفريقيا، وعمق آسيا، كانوا في الظّاهر يُحاربون لله ولكنهم في الحقيقة كانوا يُحاربون بالله!

يا لحروف الجرّ إذا تناوبت كيف تقلبُ الدّلالة رأساً على عقب!

وقبل أن تنقلبوا عليّ آتيكم بمن ترضون دليلاً، فإنّه لما جاء رسول سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب يبشّره بالنّصر في القادسيّة، سأله عمر: كم استمرّ القتال؟

فقال له الرّسول: من الصبح حتى العصر

فقال عمر: سبحان الله، لا يصمدُ الباطل أمام الحقّ مثل هذا، ولعلّه بذنبٍ أذنبتموه أنتم أو أنا!

لم يسأل عمرٌ الرّسول عن عدد جيش الفُرس وتجهيزاته، ولا عن سيوفهم وأفيالهم، هذه مجرّد تفاصيل صغيرة لا علاقة لها بنتائج المعركة! إنّ معادلة النّصر التي كانوا يفهمونها تقول: كُنْ لله

كما يُحب ، يكن لكَ فوقَ ما تُحبّ!

وعندما رأى حمزة بن عبد المطلب جموع قريش يوم بدر ، التفتَ إلى حُذيفة بن اليمان وقال له : إنّ كل ما أمامي لا يخيفني ، هم أكثر منا عدداً ولكننا بالإيمان أكثر قوّة!

لننتصر ليس لدينا سوى خيارين ، أن نحارب بالله أو أن نحارب بأسلحتنا ، وهذه الأمّة لم تربح يوماً معركة ركنتْ فيها إلى أسلحتها ، حتى يوم حُنين وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هُزموا أول الأمر لأنهم أُعجبوا بكثرتهم ، وقالوا : لن نُهزم اليوم من قلّة ، فأدّبهم ربُّهم!

نظرة واحدة على معارك الأولين تُريك إلى أيّ مدى كانتْ موازين القوى متفاوتة :

في بدر كان عدد المسلمين ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً ، وعدد جيش قريش ألفاً .

في مُؤتة ثلاثة آلاف مقابل ثلاثمئة ألف ، فدبّر خالد أعقد عملية انسحاب في تاريخ الحروب ، صحيح أنهم لم ينتصروا ، ولكن مجرد نجاة ثلاثة آلاف من ثلاثمئة ألف هو نصر!

في اليرموك ستة وثلاثون ألفاً مقابل مئتين وأربعين ألفاً من الروم .

في القادسية ثلاثون ألفاً مقابل مئتي ألف من الفُرس .

في النهاوند ثلاثون ألفاً مقابل مئة وخمسين ألفاً .

في ملاذ كُرد أربعون ألفاً مقابل مئتي ألف .

في حطين خمسة وعشرون ألفاً مقابل ثلاثة وستين ألفاً .

في وادي لكة كان جيش طارق بن زياد اثنا عشر ألفاً مقابل مئة ألف .

في بلاط الشهداء كان جيش عبد الرحمن الغافقي ثلاثون ألفاً مقابل ثلاثمئة ألف .

يوم كانت الأُمّة تقوم بأمر الله كان الله يقوم بأمرها ، ولكننا اليوم تركنا أمر الله حكاماً ومحكومين فتركَنَا! . . يقبلُ دعاءَنا أفراداً ، ويكرمنا في أنفسنا وأولادنا بصلاحنا ، ولكن أمر الأُمة لا يصلح إلا عندما تصلح الأمة!

كانوا ينتصرون لأنه إذا أهينت امرأة واحدة جهّز الخليفة جيشاً لأجلها! ويُذبحُ المسلمون اليوم على مرمى حجر من حكامنا!

كانوا ينتصرون لأنّ الرّشيد كان يقول لنقفور : يا كلب الروم ، الجواب ما ترى لا ما تسمع! واليوم لا شيء لنريه إياهم ، يكفي أن نخطب في نيويورك ، ونشجب ونُدين ونستنكر!

كانوا ينتصرون لأن الأولاد لم يعقوا آباءهم . . ولأنّ الأزواج لم يظلموا زوجاتهم . .

ولأنّ أرباب العمل لم يأكلوا حقوق مستخدميهم . . ولأن الجيران لم ينهشوا لحم جيرانهم . . ولأنّ الآباء لم يهملوا أولادهم . . ولأنّ الإخوة لم يقاطعوا أخواتهم . .

ولأنّ محاكمهم لم تكن تُفرّق بين زوجين متحابين لعدم تكافؤ النسب . . ولأن قوانينهم كانت تسري على القويّ قبل الضعيف . . ولأنّ علماءهم كانوا يدخلون على السلاطين لا يريدون شيئاً من دنياهم ، فلا يبيعونهم الفتاوى ، وإنما يأمرون بمعروف وينهون عن منكر ، ويخرجون ودينهم معهم! كانوا ينتصرون لأنّ قرآنهم دستورهم ، فلم يستوردوا دساتيرهم من الثورة الفرنسية ، ولم يكتبها لهم مستعمروهم!

نحن اليوم -حكاماً ومحكومين- ظلمة! هذا هو التشخيص

الصحيح لحالتنا ، والتشخيص الصحيح أوّل خطوات العلاج ، وإنّ الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة على الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة ، كما يقول ابن تيمية!

انظروا إلى حال حكوماتهم مع شعوبهم ، وإلى حال حكوماتنا معنا! وإلى حالهم مع بعض ، وحالنا مع بعض!

خلاصة القول :

لن يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أوّلها ، كتاب الله وسنة رسوله ، وأنّ جهاد الأفراد والجماعات لن يُثمر نصراً حتى يتحوّل إلى جهاد أُمّة ، وأنّه إذا أردنا مستقبلاً مشرقاً علينا أن نرجع بأخلاقنا ألفاً وأربعمئة سنة إلى الوراء!

مدوّنات الجزيرة

٢٣ / ١٠ / ٢٠١٦

أخربُ من جوفِ حِمارٍ!

القول : أخربُ من جوفِ حمار

القائل : مجهول ، والمثل من أقدم أمثال العرب

أما القصة ، فإنّ رجلاً من قوم عاد يُدعى حمارَ بن مُويلع ، والتسمية هذه كانت معروفة في العرب ، وليس القصد الإساءة للوليد الجديد حين يُسمّى كذلك ، وإنما المُراد التيمن بالاسم على فهمهم وقتذاك ، فمن صفات الحمار الجَلد والصبر على المشقة والجدّ في العمل!

والعربُ حين تُسمِّي باسم الحيوان أو تُشبِّه به ، فإنما تقصد صفة فيه ، وكل يستخدمها حسب فهمه وفقهه ، لهذا لما دخل عليّ بن الجهم على المتوكل وأراد أن يمدحه قال له :

أنتَ كالكلبِ في حفاظك للود

وكالتيس في قراع الخطوب

وطبعاً هذا مدح أقبح من الذّم ، ولكن هذا ما انعقدت عليه الأفهام ، والناس في اللغة كما في الأرزاق منهم الغني ومنهم الفقير!

وسُئل أعرابيّ : ما بال العرب سمّتْ أولادها نمراً وأسداً وفهداً ، وسمّتْ عبيدها سالماً ومباركاً؟

فقال : العربُ تُسمّي عبيدها لأنفسها ، وتُسمي أولادها لأعدائها!

وعوداً على ذي بدء ، فإنّ حماراً الذي بدأنا الحديث عنه ، كان

له واد ذو ماءٍ وشجرٍ وزرع يُقال له الجوف ، لأنه داخل بين جبلين ، وكان له أولادٌ فرسانٌ كأحسن ما يكون الأولاد ، فخرجوا ذات مرةٍ يتصيدون ، فأصابتهم صاعقة فأهلكتهم جميعاً ، وكان حمار أبوهم من قبل على الملة الصحيحة عابداً لله ، فلما رأى ما حلّ بأولاده قال : لا أعبدُ رباً فعل هذا ببنيّ!

وكان سيداً في قومه ، فحملَ الناس على الكفر ، ومن أطاعه تركه ، ومن عصاه قتله ، وتقول العرب في أخبارها ، إن الله أرسل صاعقة أخرى خرّبت له بستانه وأحرقته فصار خالياً خراباً ، فقالوا : أخربُ من جوف حمار!

وقد وردت القصة في أشعار الجاهلية كثيراً ، وعلى لسان أكثر من شاعر ، ومن ذلك قول الشاعر :

ويشؤم البغيُ والغشم قديماً
ما خلا جوفٌ ولم يبقَ حمارُ

الدرس الأوّل:

الدنيا دار امتحان وبلاء ، والله سبحانه وتعالى يبتلي بالخير والشر ، وقد قال في محكم التنزيل : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ .

ومخطئ من يظن أن الابتلاء بالخير أيسر من الابتلاء في الشرِّ ، لأن النفس عندما تُبلى بالشر والفقد والفقر تنكسر ، وطبيعة النفس البشرية إذا انكسرت لجأت إلى خالقها ، أما الابتلاء بالخير فغالباً يقودُ إلى التجبر والبغي ، لأن النفس البشرية تطغى متى ما رأت خيرها كثيراً وحاجة الآخرين إليها أكثر .

الدرس الثاني:

الابتلاء بالشرّ لا ينفع معه إلا الصبر ، لأن عدم الصبر لا يرفع البلاء ولكنه يحطُّ الأجر ، فيجتمع على الإنسان معصية الشر ومعصية السخط على قدر الله ، وإن السخط على قدر الله إذا قضى الموت على حبيب أو قريب لن يرجع هذا الحبيب أو القريب ، وبهذا نكون قد خسرنا الحبيب وخسرنا أنفسنا أيضا ، وما جعل الله الدنيا دار مقامة وإنما دار امتحان ، لا يعرف أحدنا متى تُسحب منه ورقته!

الدرس الثالث:

الابتلاء بالخير لا ينفع معه إلا الشكر ، لأن الشكر هو ضامن استمرار الخير وقد قال ربنا ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ . وإنّ كل الطغاة الذين انتقم الله منهم كان قد ابتلاهم بالخير لا بالشر ، فرعون كان ملكاً فطغى ، والنمرود ملك الأرض من مشرقها إلى مغربها فتجبر ، وقارون ملك الأموال والكنوز فنسي أنها من عند الله وظنّ أنه أوتيها على علم من عنده! وعاد كانوا قوماً أشداء وبدل شكر الله على ما وهبهم من قوة ، تجبّروا في الأرض وقالوا : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾! فإياك أن ينسيك الخير الذي عندك رباً قادراً على نزعه كما وهبه ، وشكر القوة مساعدة الضعيف ، وشكر المال صدقة على فقير ، وشكر العلم تعليم جاهل والأخذ بيد إنسان بسيط .

الدرس الرابع:

إنّ الله إذا أعطى فإنما لحكمة ، وإذا منع فإنما لحكمة ، وما منع عن فقر ، وما خلق قبيحاً عن عجز ، تعالى سبحانه ، ولكنه يعلم ولا نعلم!

عندما ننظر إلى أنفسنا على أننا عباد في ملك الله ولله ، يسهل أمر الفقد والفقر ، ويستقيم أمر الحمد والشكر ، وعندما نعتقد أننا أرباب نسخط في الشر ونطغى في الخير ، ننحط! فإذا أوجعكَ الفقر تعزّ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان يُؤثر الحصير في جلده وكسرى يتقلب في الحرير ، وإذا أطغاك الغنى تذكر سليمان عليه السلام له ملك الإنس والجن والطير والريح وعاش في ملك الله كما أراد الله!

الوطن

٢١- ٥ - ٢٠١٧

رسالة إلى المسجد الأقصى!

أقصانا الحبيب :

السّلام عليكَ يوم بُنيتَ لتكون ثاني مسجدٍ في الأرض وأوّل قِبلة!

السّلام عليكَ يوم جُمع فيك النبيّون ليؤمهم سيّدهم!

السّلام عليكَ يوم كنتَ آخر الإسراء وأوّل المعراج!

السّلام عليكَ يوم جاءكَ ابنُ الخطاب فاتحاً!

السّلام عليكَ يوم جاءكَ صلاح الدّين مُحرراً!

السّلام عليكَ يوم أضعناكَ ، فبكيناكَ كالنّساء مسجداً لم نحافظ عليه كالرّجال!

السّلام عليكَ فيما مضى وما سيأتي . . .

السّلام عليكَ يوم ينطقُ الحجرُ والشّجرُ في أرجائك : يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي ورائي تعال فاقتله!

السّلام عليكَ يوم يأتيك عيسى ابن مريم وهو في طريقه إلى باب لُد لقتل الدّجال!

السّلام عليكَ وعلى كلّ ما حولك ، على نخل بيسان يوشك أن لا يُثمر ، وعلى بحيرة طبريا يوشك أن لا يكون فيها ماء ، كُتبَ لكَ منذ البداية أن تشهد أحداث النهاية!

والسّلام علينا . . . .

السّلام على المقدسيين الذين يحرسونك بأهداب العيون ، السلام عليهم طفلاً طفلاً ، امرأةً امرأةً ، رجلاً رجلاً!

السّلام على إعلامنا الذي لا يذكركَ خشية أن يُتّهم بالإرهاب!
السّلام على مثقفينا الذين يتحاشوك كي لا يُتهموا بمعاداة السّامية!
السّلام على جامعتنا العربيّة التي تبرّأتْ منكَ!
السّلام على جيوشنا الجرارة التي لا تسير إليكَ!
السّلام على صفقات الأسلحة التي لا نراها إلا في العروض العسكرية وعلينا!
السّلام على حكامنا أسدٌ عليّ ومع اليهود نعامة!
أقصانا الحبيب :
لا تحزن إنّ الله معكَ ، وكما قال عبد المطلب لأبرهة : للبيت ربٌّ يحميه!
سترجعُ إلينا عندما نستحقك!
سترجعُ إلينا عندما تصبح مدافعنا أطول من ألسنتنا!
سترجعُ إلينا عندما نحاسب أولادنا على ترك الصلوات كما نحاسبهم على تدني العلامات!
سترجعُ إلينا عندما يصبح عدد أطفالنا في حلقات تحفيظ القرآن أكثر من عددهم في حلقات تحفيظ آرب آيدول!
سترجعُ إلينا عندما نكون لزوجاتنا كما نحب أن يكون الأزواج لبناتنا!
سترجعُ إلينا عندما نكون مع والدينا كما نحب أن يكون أبناؤنا معنا!
سترجعُ إلينا عندما لا نبيع بناتنا لمن يدفع مهراً أكثر!
سترجعُ إلينا عندما لا نأكل حقوق أخواتنا في الميراث!
سترجعُ إلينا عندما نعرف عن رجال البخاريّ أكثر مما نعرف

عن لاعبي ريال مدريد وبرشلونة!

ستـرجعُ إلينا عندمـا تزدحمُ المسـاجد في صـلاة الفـجر كـما تزدحم المقاهي بعد العشاء!

سـتـرجعُ إلينا عندمـا تصـبح الوظيـفـة أمـانة لا مـجرد وسـيلة للرغيف!

سترجعُ إلينا عندما يأمن الجار جاره على نفسه وعرضه وماله!

سـتـرجعُ إلينا عندمـا لا نتكبـر على عـامل النظافـة ونُطأطئ الرقاب للوزير!

سترجعُ إلينا عندما تنهانا صلاتنا عن الحرام ، ويجعلنا رمضان أتقى ، ويصبح الحج أكثر من لقب!

سـترجعُ إلينا عندما تصـبح الوظائف للأكـفأ لا للذي جاء من طرف فلان!

سترجعُ إلينا عندما نأخذ حقوقنا بالقوانين لا بالمكرمات!

سترجعُ إلينا عندما لا يخاف الضعيف ضياع حقه أمام القوي ، ولا يأمن القوي إذا فكر أن يظلم الضعيف!

سـتـرجعُ إلـينا عنـدمـا نكون جـديرين بكَ ، أمـا الآن فنحن لا نستحقك!

الوطن

٢٣- ٧ - ٢٠١٧

«القرآنيّون» الجُدد!

الدّعوة إلى الاكتفاء بالقرآن الكريم دون السُّنّة النبوية الشريفة شارحة له، ومتممة لدين الإسلام بصفتها المصدر الثاني من مصادر التّشريع في الإسلام، ليست وليدة اليوم، وإن كان قد ظهر في الآونة الأخيرة فئة يُسمون أنفسهم «القرآنيين»، وهم في الحقيقة دعاة نبذ السُّنّة! وكنتُ أحسبُ أنّ هؤلاء المارقين الخارجين على إجماع الأمة تقتصر دعواهم على الكلام، ولكني تفاجأتُ منذ أيام بمقال في مدونات الجزيرة لـ «قرآنيّة» تقول إنها خلعت الحجابَ لأنها لم تجد في القرآن دليلاً على فرضيّته، واعتبرتْ «حبرة الأمّة» أنّ كلّ ما غير القرآن «حواشي» علينا أن لا نتقيّد! بها إحدى مشاكل ثورة الاتصالات أنها فتحت المجال أمام كلّ مترديةٍ ونطيحة لتلبس زي المفكرين!

لم تخبرنا أختنا «القرآنيّة» عن معنى «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»، ولا عن معنى «من يطع الرسول فقد أطاع الله»، ولا عن معنى «فلا وربك لا يُؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم»! وهي آيات محكمة، قطعيّة الدلالة، ظاهرة المعنى، لا كناية فيها ولا تشبيه ولا استعارة ليدّعي أحد يفهم لغة العرب أنّها حمالة أوجه!

دعونا نناقش هؤلاء «القرآنيين» بعقل وروية، ونُسلّم معهم جدلاً أنّه يمكن الاستغناء عن السُّنّة النبوية الشّريفة، التي نصّ القرآن على الأخذ بها، ولنطرح عليهم بعض الأسئلة، ونرى، هل

يمكن ديناً وعقلاً ومنطقاً واستدلالاً الاستغناء عن السُّنة :

١ . عشرات الآيات في القرآن تتحدث عن وجوب إقامة الصلاة ، فأخبرونا أيها «القرآنيون» كيف نصلي؟! هل يوجد في القرآن آية تخبرنا عن عدد ركعات صلاة الظهر؟! أو آية تخبرنا ماذا نقرأ إذا قمنا ، وماذا نقول إذا ركعنا ، وماذا نقول إذا سجدنا ، وماذا نقول في جلوس التشهد؟ هل يوجد في القرآن آية تخبرنا كم مرة نصلي في اليوم؟ حتماً لا يوجد ، ولكن يوجد كلّ هذا في السُّنة ، فهل نأخذ بها ، أو من شاء صلى الفجر ركعة ، ومن شاء صلى العشاء عشر ركعات ، ومن شاء صلى العصر فقط ، وترك بقية الصلوات التي لم يُذكر عددها في القرآن؟!

٢ . فرض الله الحجّ في القرآن ، فكيف نحج؟ وماذا نفعل إذا جئنا إلى مكة ، ثم لم يقل القرآن أن الحجّ في مكة ، فهل يصح الحج في بيروت أو الرياض أو أنقرة؟! كم شوطاً نطوف بالكعبة؟ ثم لماذا نطوف بالكعبة ولم يطلب منا القرآن أن نفعل ، ولماذا نقف في عرفة أساساً والوقوف بها لم يذكره القرآن ، لماذا نتبع النّبي صلى الله عليه وسلم ما دام بإمكان كل واحد منا أن يخترع حجاً على مزاجه؟!

٣ . فرض الله تعالى الصيام في القرآن ، فهل تصوم الحائض والنفساء لأن القرآن لم ينهاهنّ؟!

٤ . لحم الحمير الأهلية حرام بالإجماع ، ولم يرد هذا في القرآن ، فهل تأكلون لحوم الحمير؟!

٥ . يحرم على الرّجل أن يجمع بين البنت وعمتها ، أو بين البنت وخالتها ، فهل هذا جائز بشرعكم باعتبار أنكم تؤمنون بالتعدد لوروده صراحة في سورة النساء؟!

٦ . نحن نقول أن السُّنة تُقيّد القرآن ، فنص القرآن في تحريم الميتة مطلق ، قيدته السُّنة بـ «أُحلّ لكم ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال» ، فهل تقومون بذبح الأسماك قبل أكلها باعتبارها ميتة إذا لم تُذبح!

٧ . أمرنا الله في القرآن أن نؤدي الزّكاة ، فكم مقدار الزكاة ، وعلى من تجب ، وعلى ماذا تجب ، هل على المزروعات زكاة ، فكم زكاتها ، وهل مقدار الزكاة على الزرع الذي يُسقى بماء المطر هو نفسه على الزرع الذي يسقيه صاحبه؟ أجيبونا إنّا لا نجد في القرآن شيئاً من هذا!

٨ . أين تجدون في القرآن أنّ الذهب والحرير حرام على الرّجال دون النساء؟ أم أنه لا بأس أن يلبسهما الرجال؟

من أرادت أن تخلع حجابها رغم ثبوت النّص في القرآن فهذا شأنها ، ولكن لا تخبرنا أنها تفعل هذا قربى لله ، ومن أراد أن يتبرأ من رسول الله فهذا شأنه ولكن لا يخبرنا أن القرآن طلب منه هذا ، لأن القرآن أمر بالعكس!

إنّ أحدهم لا يعرف معنى غاسق ، ولا معنى الصمد ، ولا معنى وقب ، ولا معنى مسد ، ولا معنى جِيد ، ولا الفرق بين الهمزة واللمزة ، ولا العاديات ولا الموريات ، ولا نقعاً ولا كنود ، ثم يقول لنا : تعالوا نترك السُّنة ونكتفي بالقرآن!

الوطن

٣٠- ٧ - ٢٠١٧

القانون والأخلاق!

يقولُ الرّائعُ علي عزّت بيغوفيتش في تحفته الفكريّة «الإسلام بين الشّرق والغرب» : إنّ كثرةَ القوانين في مجتمع ما وتشعّبها ، علامة مؤكدة على وجود شيءٍ فاسدٍ في هذا المجتمع ، وفي هذا دعوة إلى التّوقف عن إصدار مزيدٍ من القوانين والبدء في تعليم النّاس وتربيتهم!

بيغوفيتش ، الرّجلُ الذي أكل السّجن ثلث عمره ظُلماً ، ثمّ خرج من بين براثنه عصيّاً على الكسر ، وقاد شعبه في أجمل حركة تحرر من نير الاستعمار في العصر الحديث ، ثمّ وصل إلى سُدّة الرّئاسة فحكمَ وعدلَ ثمّ استقال قائلاً : أخافُ أن أموت وأنا رئيس! هذا الرّجل خير من يُقتبس عنه إذا كان الحديث عن ثنائيّة القانون والأخلاق!

وعوداً على ذي بدء ، بيغوفيتش ليس ضدّ أن يكون في المجتمعٍ قوانين تُنظّم علاقة الفرد بالدّولة ، وعلاقة الأفراد ببعضهم ، أصلاً يستحيل قيام مجتمع إنسانيّ دون هذا ، ولستُ بحاجة لأقتبسَ كلام ابن خلدون حول ضرورة القانون للمجتمعات الإنسانيًّة ، فهذا من البديهيّات التي لا ينتطحُ فيها عنزان ، ولكن الرّجل يُنادي بتربية أخلاقيّة تجعلنا لا نرتكبُ الخطأ لأنّه ضدّ القانون ، ولكن لأنه ضدّ الأخلاق!

والحديثُ عن ثُنائيّة القانون والأخلاق قديمٌ قِدمَ المُجتمعات الإنسانيّة ، وإن كانت أقدم وثيقة إنسانيّة تُعالج هذا الأمر هو كتاب

أرسطو ، إلا أنّي على يقين أنّ الإنسان تلقى تربية أخلاقيّة إلى جانب الضابط القانوني منذ اللحظات الأولى من عُمْرِ استخلافه للأرض ، فهذا دأب الأنبياء ، ولكيلا يكون كلامي جُزَافاً أستشهدُ بابني آدم عليه السّلام ، فالخلافُ بينهما نشأ قانونياً أوّل الأمر ، حيث كان يحق لهابيل الزّواج من المرأة محطّ النّزاع ولا يحق لقابيل! ولكن الأخلاق ظهرتْ عندما أراد قابيل قتل هابيل ، رأينا هابيل يتنازل عن حقّه القانوني وهو الدّفاع عن النّفس مقابل الالتزام الأخلاقي : ﴿لئن بسطّتَ إليّ يدكَ لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليكَ لأقتلكَ﴾!

الهدفُ من القانون هو استقرار النّظام في المجتمع ، فغايته من هذا المفهوم نفعيّة ، أما الأخلاق فغايتها مثاليّة ، تنزعُ بالفرد نحو الكمال! وإن كان لا غِنى عن القانون حُكماً ، إلا أنّه لا غنى عن الأخلاق لزاماً ، والإسلام حين سنّ القوانين ، ووضع الحدود ، سعى قبل هذه الضرورة الاجتماعيّة إلى تربية النّاس تربية أخلاقيّة!

فالقانون لم يكن يُلزم عثمان رضي الله عنه أن يتبرّع بالقافلة عام الرّمادة ، فليس للدّولة حقّ في ماله إلا ما يتوجّبُ عليه من زكاة ، ولكن عثمان تنازل عن حقّه القانوني والتزمَ بواجبه الأخلاقي!

وعندما نام عليٌّ رضي الله عنه في فراش النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يكن في الإسلام خدمة عسكريّة إجباريّة ، ولا قانون محاسبة الفارّ من الجُنديّة ، ولكن هذه الفدائيّة هي التزام أخلاقي لا شأن للقانون فيه!

ولم يكن القانون ليُعاقب أبا بكر إن لم يشترِ بلالاً ويُعتقه ، ولكن أخلاق أبي بكرٍ لم تكن لتسمحَ له أن يرى أخاً له في الله

يُعذّبُ فوق رمال مكة الملتهبة ويتوسّدُ هو دراهمه!

وحين وقفتْ أمّ عمارة رضي الله عنها بشراسة كاللبؤة تذود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، كانت تعلم أنّ القانون أسقط عنها مثل هذا ، ولكن الأخلاق تجعلنا لا نسأل عن حقوقنا بقدر ما نسأل عن واجباتنا!

وحين تركتْ خديجة رضي الله عنها مالها كلّه لزوجها ينفقه كيف شاء ، لم يكن قانون قريش يُبيح مال الزوجة للزوج ، وما كان قانون الإسلام ليبيح هذا أيضاً ، ولكنّ خديجة علمت أنّ مثل زوجها لا يُمنعُ شيئاً ، وأنّه من العيب أن يجتمع زوجان تحت سقف واحد ، وفي سرير واحد ، ثم يفترقان في حفنة دراهم!

وحين وقفتْ الشّفاءُ بنتُ عبد الله رضي الله عنها لعمرَ بن الخطاب رضي الله عنه يوم أراد أن يُحدد مهور النساء بعدما شهد مغالاة النّاس فيه ، وقالت له : لا يحقُّ لكَ هذا! وتلت عليه قول الله تعالى ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا﴾ . لم تكن موظّفة في المحكمة الدستورية العليا ، ولا في مصلحة تشخيص النّظام ، وإنما كانت على مستوى عالٍ من الأخلاق بحيث تقفُ لأحد أشهر العادلين في التّاريخ وتقول له : لا يحق لك!

والإسلام الذي حرص على تحرير العبيد ، لم يسنّ قانوناً يقضي بنزع العبيد من أسيادهم عنوةً ، ولكنّه جعل الأمر عبادة ، وكفاراتٍ ، سعى إليها النّاس برضاهم بعد أن تلقوا تربية أخلاقيّة!

خلاصة القول :

إنْ كُنّا لا نسرق إلا لأنّ السّرقة تؤدي إلى السّجن فنحنُ عبيد!
الأحرار يُحافظون على أموال الآخرين وأعراضهم ودمائهم لأنهم إن لم يفعلوا أساؤوا لأنفسهم قبل أن يُسيئوا إلى الآخرين وإلى المجتمع ، عندما يقصدنا قريبٌ أو صديق طلباً للعون والمساعدة ونرفض ، فإننا في مأمن من المحاكم ولكننا لسنا في مأمن من ضمائرنا! والمجتمعات التي يُولي فيها النّاس اهتماماً للقانون أكثر مما يولون لضمائرهم ستضطرُّ أن تسنّ كل يوم قانوناً ، ولا ينقذُ المجتمعات إلا الأخلاق ، وما نام عمر رضيَ الله عنه آمناً مطمئناً دون حُرّاسٍ حتى أدهش رسول كسرى إلا لأنه كان نبيلاً وخلوقاً لا لأن القوانينَ بيده!

مدوّنات الجزيرة

١٦ / ١٠ / ٢٠١٦

تغريدة الاستقالة!

منذ أيام قدّم وزير الصّحة السويدي «غابريل ويكستورم» استقالته إلى رئيس الحكومة، ثمّ بعد ذلك كتب تغريدة في تويتر معلناً قرار استقالته على الملأ . . . إلى هنا الحدث عادي جداً ولا يستحق تعليقاً فضلاً أن أفرد له مقالاً! فلا يمرّ يوم في هذا العالم إلا ويستقيل فيه وزير أو تنفضّ فيه حكومة! ولكن التغريدة لم تكن عادية أبداً، قام الوزير بوضع صورة لستّة أقلام حبر، وكتب: أعدتُ أقلام الدولة، شكراً لثلاث سنوات حافلة بالأحداث وخدمة الناس!

تعرفون أني لستُ من دعاة التغريب، وأزيدكم من الشعر بيتاً، أني لم أنظر يوماً إلى الحضارة الرأسمالية الغربيّة نظرة إجلال، ولا أشعر بعقدة نقص وأنا أنظر إليهم وإلينا وإن كنت أشعر بالأسى! ذلك أني أعرف كما تعرفون جميعاً أنه ما من فضيلة اتفق عليها النّاس إلا ولها في ديننا أصل، فدين بُعث نبيّه ليتمم مكارم الأخلاق لا ينفك يخبرنا أن الإسلام ليس صلاةً وصياماً وحجاً وزكاةً فقط، وإن كان لا جدال أنّ العبادات حقّ الله على الناس! ولكن الإسلام وهو يُشرّع العبادات يُخبرنا أن الصلاة ليست حركات تؤدى مفرغة من معاني الروحانية، ألم يقل ربنا «إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر»؟! ، وأنّ الغاية من الصيام ليست تجويع الناس وإنما تحقيق التقوى «لعلكم تتقون»! إذا مشكلتنا ليست في منظومتنا الدينية والأخلاقية، وإنما في فساد تطبيقنا لهذه

المنظومة! وكما يقول علماء الاجتماع والسياسة : إن الخلل في التطبيق لا يعني فساد النظرية!

بالمقابل إن اختلافنا الفكريّ مع مبادئ الحضارة الغربية لا يعني أن ننكر أي تصرف نبيل يصدر عنها ؛ نحن قوم أُمرنا بالعدل «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا»! ولكن الذي يدمي القلب أن تجد وزيراً هناك يعيد ستة أقلام للدولة لأنها ليست من حقه بينما تجد وزيراً هنا يأكل البيضة والتقشيرة! والذي يحزّ في النّفس أن تُعزل رئيسة وزراء كوريا الجنوبية لأنها وظفت صديقتها متحايلة بذلك على بروتوكولات النزاهة وتكافؤ الفرص في التوظيف ، بينما الباب السحري للحصول على الوظائف عندنا هو : أنا من طرف فلان!

لا يعتقدنّ أحدكم أنّ القصة قصة أقلام لا تتعدى قيمتها الدولارين ، إن القصة هي الباعث على هذا التّصرف ، والمبدأ الذي خلفه ، والقيمة الأخلاقية التي دعت إليه ، وهذا ما ينقصنا نحن ، أن نقارن بين تصرفاتنا أفراداً وحكومات وبين القيم والمبادئ التي نحملها! عاقّ أمه عندنا لو أعطيته ورقة وقلماً ليكتب موضوع تعبير عن الأم ، لاستشهد بآيات وأحاديث وأبيات شعر في البرّ لا يأتي بمثلها خطيب الجمعة! والوزير الفاسد يحفظ عشرات القصص عن عدل عمر بن الخطاب حتى لتحسبه العقاد في العبقريات! والزوج والزوجة اللذان لا يكفّان عن التناحر لو سمعتهما يتحدثان عن أصول وأخلاق المعاشرة الزوجية لاعتقدتَ أنهما مرشدان أُسريّان! للأسف تصرفاتنا لا تشبه قِيمنا!

الوطن

٨- ٨ - ٢٠١٧

لدينا ما يحتاجه العالم!

الجوع الذي يسدُّه رغيفٌ وتدفعُه لقمة ليس جوعاً ، الجوع الحقيقيّ هو جوع الرّوح الذي لا يسدّه خبز الأرض كلها! والظمأ الذي يرويه كوب ماء ليس ظمأً ، الظمأ الحقيقيّ هو ظمأ الرّوح الذي لا يرويه أنهار الأرض كلها! وضياع الأَقدام الذي يزيله سؤالٌ لعابرٍ يرشدك إلى الطريق ليس ضياعاً ، الضّياع الحقيقيّ هو ضياع الرّوح الذي لا تزيله خرائط الأرض كلها! والمتأمل في حال البشريّة اليوم لا يحتاج إلى كثير ذكاء ليعرف أن روحها تتضوّرُ جوعاً ، وتتشققُ عطشاً ، وتضيعُ تِيهاً!

إنّ مرض البشريّة الأشدّ فتكاً ليس السّرطان وإن كان داءً عُضالاً ، وليست الحُروب وإن كانت ضارية ، وإنما مرضها الأشرس الذي ينخرها هو الخِواء الرّوحيّ الذي تحسبُ أنّها كلما اخترعتْ وتقدّمتْ وجعلت الحياة أكثر رفاهية ستتغلبُ عليه فإذا هو أفتكُ من ذي قبل! في العام الماضي انتحر ثمانمائة ألف شخص حول العالم بحسب قوائم منظمة الصحة العالمية ، أي بمعدل إنسان كل أربعين ثانية! والغريب أن دُولاً كالسويد وأميركا واليابان في قائمة العشر الأوائل ، وفرنسا وبريطانيا وكوريا الجنوبية في العشر التي بعدها ، وهذه دول تتمتع بمستوى من الرّفاهية يصل حدّ الخرافة! في حين لا يوجد دولة عربية واحدة ضمن المائة دولة الأولى في معدلات الانتحار! فبرغم الفقر والاستبداد والبطالة والظلم الاجتماعيّ ما زال فينا بقية من روح وهذا هو الشيء الوحيد الذي

نملكه ويفتقده العالم! نحن رغم كلّ شيء نعرف من أين جئنا ، وإلى أين سنذهب ، وأن هذه الحياة ليست إلا مرحلة عمرية من عمرنا الحقيقي ، ولولا هذا لانقرضنا منذ سنوات!

يقولُ ابن القيّم : في القلب شَعثٌ لا يلمُّه إلا الإقبال على الله ، وفي القلب وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله ، وفي القلب حزن لا يذهبه إلا الرّضا بالله! ما زلنا نرى بائعاً متجوّلاً إذا حان وقت الصلاة وضع بضاعته جانباً ، وانتصبَ على الرّصيف مُكبّراً بطمأنينة من يملك الأرض كلها! ما زلنا نرى الشيخ المتهالك على عكّازه في الطريق إلى صلاة الفجر يخبرك دون أن يتكلم أنه ليس ألذّ من السّير إلى الله! ما زلنا نرى الأم تفقد ابناً فترفعُ يديها وتقول : اللهم لك الحمد أنتَ أعطيتَ وأنتَ أخذتَ ، ما زلنا نرى الشباب والصبايا في الجامعات ينتهزون الوقت بين المحاضرتين ليهرعوا إلى المصليات أو القاعات الفارغة ليقولوا : الله أكبر!

نحن رغم الفقر الأكثر ثراءً ، ورغم الحروب الأكثر أمناً ، ورغم البطالة الأكثر شغلاً! مدينون لهذا الإسلام العظيم الذي سدّ جوع أرواحنا حين جاعتْ أرواح ، وعلّمنا أن نصنع من أيسر المقومات حياة!

الوطن

٢٢- ٨ - ٢٠١٧

اربطوا الحمير!

قرأتُ البارحة قصة خرافية طريفة تقول :

كان الحمارُ مربوطاً بالشّجرة ، فجاء الشيطان وفكّ له الحبل . . . فدخل الحمار حقل الجيران وأكل الأخضر واليابس . . . رأتْ زوجة الفلاح ما فعل الحمار بزرعهم ، فأخذتْ بندقية زوجها وقتلت الحمار! سمع صاحب الحمار صوت إطلاق النار ، فنظر من النافذة ورأى حماره غارقاً بدمه ، فأخذ بندقيته وأطلق النار على زوجة الفلاح! وعندما رجع الفلاح رأى زوجته والحمار قتلى ففهم ما حدث ، فأخذ بندقيته وقتل جاره صاحب الحمار!

بعد ذلك سُئل الشيطان : ما الذي فعلته؟

فقال : لا شيء سوى أني أطلقتُ الحمار!

لا يخفى على شريف علمكم أن الحمورية ليست حكراً على هذا المخلوق اللطيف ذي القوائم الأربع ، وإنما هي صفة يحملها كثيرون ممن لهم ملامح بشريّة! وما دام هؤلاء مربوطين فإنّ الدّنيا بخير . . . ولكن متى فُكّت الحبال عن أعناقهم تسببوا في خراب الزرع ، وهلاك الحرث والنسل! وكلّ من يفكُّ حماراً من قيده وهو يعلم أنه حمار فهو شيطان وعليه وزر ما يفعله هذا الطليق بحموريته!

الأزمات التي نشاهدها اليوم مستعرة بين دولنا العربية رأبَ الله صدع خلافاتها ، ما كان لها لتكون بهذا الحجم من العدائية والنفور لو أنّ الحمير بقيت مربوطة في حظائرها! ولكن أُرخيَ لها العنان ،

فانطلقت بحوافرها تجوب أصقاع الأرض ، نهيق على شكل تغريدة في تويتر ، ونهيق على هيئة مقال في صحيفة ، ونهيق على شكل فيديو في سنابشات! ثمّ إنّ مائة حكيم يعجزون عن إصلاح ما أفسده حمار واحد!

الحرية مسؤولية وليست تحرراً من المسؤولية! والإنسان يكون حراً بقدر ما يعي مسؤولياته وحقوقه وواجباته ، ومنح الحرية لحمار كمنح مسدس لمجنون! فإذا أردتم أن تنتهي الأزمات فاربطوا حميركم يرحمكم الله!

الوطن

٢٤- ٨ - ٢٠١٧

المجد للكراسي!

من طريف ما قرأتُ :

ماتتْ خادمة كبير القضاة ، فجاء التّجارُ والأعيانُ ووجهاءُ البلد يعزّونه بها . . وعندما ماتَ كبيرُ القضاة ، لم يحضرْ جنازته من هؤلاء أحد ، فقد كانوا يُباركون لكبير القضاة الجديد منصبه! ثمّ إنّ المجد للكراسي!

وفي سياقٍ متّصل ، كتبَ الوزيرُ الأديبُ غازي القصيبي رحمه الله في مذكراته يقول :

زارني أحدُ رجال الأعمال البارزين في مكتبي ، وطلبَ منّي تحديد موعد للغداء أو العشاء ليدعوني إليه . . . وكنتُ وما زلتُ أكره هذه المجاملات الفارغة ، فقلتُ له : أنتَ تعرفني مذ كنت أستاذاً في الجامعة ، ولم تفكر بدعوتي إلا عندما صرتُ وزيراً!

فقال لي : هذه الدّعوة ليست لكَ ، إنها للكرسيّ الذي تجلسُ عليه!

فقلتُ له : تقديراً لصراحتك هذه سوف أقبل الدعوة!

فقال لي بفرح غامر : ومتى الموعد؟

فقلتُ له وأنا أشيرُ إلى كرسيي : ضيف الشرف أمامك متى أحببتَ أن تطعمه فافعل ، أما أنا فليس عندي وقت!

ثمّ إنّه مرّة ثانية : المجد للكراسي!

والنّاس في هذا ، شرقهم وغربهم سواء! ففي سياق متّصل آخر ، عندما كان الممثل الشّهير آرنولد شوارزينغر حاكماً لولاية

كاليفورنيا ، استدعاه أحد الفنادق يوم الافتتاح ليضع بركاته! ثم إنهم صنعوا له تمثالا من البرونز ووضعوه في باحة الفندق ، وحضر مرة إلى هذا الفندق دون حجز مسبق يريد غرفة ، فأعطوه جناحاً كاملاً مجاناً! وعندما صار آرنولد الحاكم السابق للولاية ، حضر يريد غرفة دون حجز مسبق أيضاً ، فاعتذروا منه! فما كان منه إلا أن أحضر فرشة التخييم من سيارته وفرشها في باحة الفندق عند تمثاله ونام ، ووثق المشهد بصورة قال تحتها : لقد تغيّرت الظروف! ثمّ إنه للمرة الثالثة : المجد للكراسي!

القصص التي سُقتها تتحدّثُ عن نفسها ، أجد أنّ أي تعليق قد أكتبه لن يضيف إليها شيئاً ، هذا إن لم يكن زائداً وممجوجا! ولكن إن كان ثمة درس وحيد يُستخلص مما سبق فهو أنّ هذا العالم مليء بمنافقي السّلطة والمنصب ، وأن أصحاب المناصب سيعرفون عندما تزول مناصبهم أن هذا التوقير والتبجيل لم يكن لهم وإنما كان للكراسي التي يجلسون عليها! القضية باختصار : لا مجد للنّاس ، المجد للكراسي!

الوطن

١٧- ٩ - ٢٠١٧

الاستبداد المقدس!

خرجَ هارون الرّشيد حاجاً ، وكان من عادته أن يحجّ عاماً ويغزو عـامـاً ، ولمّا أتمّ المناسك ، زار المدينة المنوّرة ، وكـان مُـحـبّـاً للعلم والعلماء ، فأرسلَ في طلب الإمام مالك ليأتي إليه ويُعلّمه ، فامتنع مالكٌ عن المجيء ، وقال قولته الشّهيرة : العِلمُ لا يأتي وإنما يُؤتى إليه! فما كان من الرّشيد إلا أن حضر إلى مجلس مالك في المسجد النّبويّ ، ولكنّه طلب أن يقتصر المجلس عليه وعلى من معه . . فقال مالك قولته الشّهيرة الأخرى : لا خير في علم يُوضعُ للخاصة وتُحرمُ منه العامة! فامتثل الرّشيد وجلسَ بين النّاس!

وإنك لا تدري لأي الرّجلين منهما تعجب ، للإمام الزّاهد في الخليفة ، أم للخليفة المتمسّك بالإمام؟ وهو الذي كان يخاطب السّحابة في كبد السّماء قائلا : أمطري حيث شئتِ فسيعود إليّ خَراجُكِ!

مُذ وُجدت السّلطة على الأرض وهي تحاول عقد قرانٍ مع فئة من فئات المجتمع من أجل تطويع بقية المجتمع! ولطالما وجدت السّلطة ضالّتها المنشودة في رجال الدّين ، ففي مصر الفرعونيّة عقدَ القصرُ قراناً مع المعبد فأنجبَ هذا الزّواج الاستبداد المُقدّس الذي يجعل أي معارض للسلطة عدواً لله لا عدوّاً للقصر ، وإن نادى في المجتمع بأوامر الله ، ففرعون قال عن موسى عليه السّلام : «إنّي أخافُ أن يُبدّل دينكم أو أن يُظهر في الأرض الفساد»! وفي أوروبا الرّومانيّة قديماً عقدَ القصر قرانه مع طبقة الإكليروس ، أي طبقة

رجال الدّين ، فاقتسما النفوذ على المجتمعٍ ، فيحصل الإمبراطور على بركة الكنيسة ، وتصبح تصرّفاته وحياً ، «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» ولو قرر أن يُحرق روما! وفي المقابل يغضّ الامبراطور الطرف عن الكنيسة ، لتفعل ما شاءت باسم الله ، حتى إن باعت عقاراتٍ في الجنّة ، بمرسوم كهنوتيّ أسموه صكّ الغفران!

نحن اليوم نعيشُ شيئاً مما عاشته مصر وروما قديماً ، ففقهاء السّلطة يحتاجونها لأجل الدّنيا التي معها ، والسلطة تحتاجهم لأجل الدّين الذي معهم! والشّريعة رحبة ، والنصوص حمّالة أوجه! ويكفي أن يطلب الحاكم فتوى حتى يصبح بعض رجال الدين خيّاطين يحيكون من النصوص الشرعية لباساً على مقاس الحاكم!

إذا قرر أن يُحارب لأيّ سبب كان جاؤونا بآيات الجهاد!

وإذا قرر أن يُسالم جاؤونا بآيات السّلم والتعايش! بغضّ النّظر لمطابقة الواقع لظروف تحكيم آيات الجهاد ، أو التعايش!

إذا قُلّصت الرّواتب حدّثونا عن صبر النّاس عام الرّمادة ، وعدم تذمّرهم على عمر بن الخطاب ، ولا يحدّثوننا أن عمر نفسه جاع كما جاع النّاس ، وقال لبطنه يوم قرقرتْ : قرقري أو لا تُقرقري فلن تشبعي حتى يشبع فقراء المسلمين!

إذا فُرضت الضّرائب قالوا : اسمعوا وأطيعوا!

وويل لمستبدّي الخارج من فقهاء الدّاخل ، أما مستبد الدّاخل يُسكت عنه لجلب المصالح ، ودرء المفاسد ، والمصالح المُرسلة ، وفقه الواقع ، والأخطار المُحدقة بالأمة!

شخصيّاً أتفهّم أنّ الدنيا فتّانة ، ولقمة العيش عزيزة ، وأنّ بعض الطرق التي يمشي فيها الإنسان يصعب عليه أن يرجع منها ، ولكن ما لا أتفهمه ، ولن أتفهمه ، أنّ إنساناً عاديا في أحسن

الحالات ، لم يحدث أن أخطأ مرة بحقّ الله أو النّاس ، ليُنتقد مرّةً ويُوقف عند حدّه! وأنّ من محاسن الصُّدف أن أحكامه تأتي دوماً مطابقة لحكم الله!

الوطن

٢٤- ٩ - ٢٠١٧

تكون المرأة رجلا؟!

تقولُ عليّة بنت المهديّ : نحنُ نساءٌ مع رجالنا ، رجالٌ مع غيرهم!

عليّة بنت المهديّ واحدةٌ من أعرق النّساء نسباً في المُلك والخلافة ، أبوها الخليفة المهديّ ، وجدّها الخليفة المنصور ، وأخوها هارون الرّشيد ، وابنا أخيها الخليفتين الأمين والمأمون ، ولا يسبقها نسباً في السّلاطين إلا فاطمة بنت عبد الملك ، التي يقول فيها الشّاعر :

بنتُ الخليفة والخليفة جدّها

أختُ الخلائف والخليفة زوجها!

فجدّها مروان بن الحكم خليفة ، ووالدها عبد الملك بن مروان خليفة ، وأخوتها الأربعة الوليد وسليمان ويزيد وهشام خلفاء ، وزوجها درّة بني أميّة الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز .

وعليّة كانتْ تُلقّب بالعبّاسة ، أحبّها أبوها حُبّاً جماً ، وكذلك أخوها الرّشيد ، وكانت مسموعة الكلمة عند المأمون ، وقال عنها الصُّوليّ : لا أعرفُ لخلفاء بني العباس بنتاً مثلها ، كانت أكثر أيامها مشغولة بالصلاة والقرآن ، وكانت عالمة باللغة والأنساب ، مولعة بأخبار العرب ، ولها ديوان شعريّ!

سرّني جداً أنّ هذه المقولة لامرأةٍ حِيزتْ لها الدّنيا!

لو قالتها امرأة من العامة لقلنا لربما هو ورع من يخشى النّاس أو السُّلطان

ولو قالتها امرأة فقيرة لقلنا يزهدُ الإنسان بما لا يقدر عليه ، كثعلب ابن المقفّع الذي اجتهد للوصول إلى العنب ، فلما تعب دون جدوى ، قال معزّياً نفسه : ما ليَ وللعنب الحامض!

أمّا أن تُحدّثنا عن العفّة امرأة جمعتْ مصدري النّفوذ «المال والسّلطان» فهذا يستدعي وقفة وإشادة!

«المرأة نصف المجتمع ، وهي التي تلد وتربّي النّصف الآخر» ، هذه قناعة متجذّرة عندي ، وليست كلاماً للاستهلاك الكتابي ، ولا مطيّة لحشد التأييد النسائي! بل وأزيدُ في الطّنبور نغمة ، أني ما ناقشتُ أحداً يعتبر المرأة مشكلة ، إلا أني لم أكتفِ بالقول أنها ليست مشكلة ، بل أزيد أنها الحل لكثير من مشاكلنا! وإنّ الإسلام حين ميّز بين المرأة والرّجل في بعض الحقوق والواجبات فهذا ناتج عن الطبيعة المختلفة لكلّ منهما ، ولكنه ساوى بينهما في الكرامة الإنسانيّة ، وعصمة الدم والمال والعرض ، ذاك أنهما من نفس واحدة! وللمرأة أن تتعلم ، وتتوظف ، وتبيع ، وتشتري ، وتناقش ، وتحاضر ، وتُعبّر عن رأيها ، فتوافق وتُخالف ، هذه حقوق لا ينتطح فيها عنزان عاقلان!

ولكن من قال أنه من شروط الثقافة أن تتغنج المرأة لزيدٍ وعمرو ، من قال أنه من شروط الوظيفة أن تكون مع زملائها في العمل كأنهم إخوتها من الرّضاعة ، من قال أنه من شروط أن تبيع وتشتري أن تكون مع البائع في السوق كأنهما عقدا قرانهما منذ ساعة!

نحن إذ نستميتُ في الدّفاع عن إنسانيّة المرأة ، فإننا ندافع عن أنفسنا حقيقة ، لأنها الأم والأخت والزوجة والبنت والعمة والخالة والجارة ، ولكن بالمقابل على المرأة أن تُميّز بين طبيعتها الإنسانيّة

وبين طبيعتها الأنثوية! فهي إنسان في كلّ مكان تحلّ فيه أو ترتحل عنه ، ولكن أنوثتها ودلالها وغنجها ليست مشاعاً!

تَعلّمنَ ، تثقّفنَ ، توظّفنَ ، ألِّفنَ كُتباً ، اطرحنَ رأياً ، حاضرنَ ، وافقنَ وخالفنَ ، اشترينَ وبعنَ ، هذا حقّكن دون منة من أحد ، ولكن مارسنَ حقوقكنّ هذه بصفتكنّ الإنسانيّة لا بطبيعتكنّ الأنثويّة ، ولكن حيث يقتضي الموقف أن تكُنّ إناثاً إفعلنَ هذا بجنون وتطرّف! أحبوا أزواجكنّ ، اعشقوهنّ ، تفننَ في إغوائهم ، وأفرطنَ بالغنج والدلال ، وحيث يقتضي الأمر أن تمسكوا بزمام أنوثتكنّ ، كُنّ رجالاً فهذا من تمام الأنوثة!

الوطن

١٤ - ١ - ٢٠١٧

«إذا عزّ أخوكَ فهُنْ»!

القول : إذا عزّ أخوكَ فهُنْ

القائل : هذيل بن هبيرة التغلبي

أما القصة : فإن هذيل بن هبيرة التغلبي كان سيد قومه ، فأغار على بني ضبة لأجل الغزو والسّلب كحال العرب في الجاهلية ، إذ كانوا يغزو بعضهم بعضًا ، فانتصر ، وغنِم ، فقال له أصحابه : اقسمْ الغنائم بيننا ، فقال : إني أخاف إن تشاغلتم بالغنائم أن يدرككم القوم للثأر قبل أن تبلغوا دياركم ، فرفضوا ، وأصروا أن يقسم بينهم من ساعته ، فنزل عن فرسه ، وقسم الغنائم بينهم وقال : إذا عزّ أخوكَ فهُن! فأجراها في العرب مثلًا .

الدرس الأول:

قالوا قديمًا : خطأ الجماعة خير من صواب الفرد! شخصيًا أنا ضد هذا القول ، فالخطأ خطأ ولو فعله كل الناس ، والصواب صواب ولو لم يفعله أحد ، والأنبياء إنما بُعثوا أفرادًا صائبين في جماعات خاطئة ، ولكن إذا كان رأي الجماعة صوابًا ورأي الفرد كذلك ، فالأولى اتباع الجماعة فلا يأكل الذئب من الغنم إلا القاصية!

الدرس الثاني:

القائد الفذّ لا يضع نفسه في موضع أن يكسر من معه أو يكسروه ، فإنه إن كسرهم تبعوه بعد ذلك على بغض ، وإن كسروه

ضاعت هيبته ، حاولوا دومًا ألا توصلوا الأمور إلى مفترق طرق ، أغلب مشاكلنا الاجتماعية لا تتعلق بالمبادئ وإلا لقلتُ لينكسر من شاء ولينجبر من شاء ، لا تتنازلوا عن مبادئكم ، ولكن مشاكلنا هي خيار بين خيارين ورأي بين رأيين ، ولو تأملنا في الحياة لوجدنا أن الرأي الأصوب في الغالب يكون من توفيق بين رأيين!

الدرس الثالث:

الحق أحقُّ أن يُتَّبع ، ومطالبة الناس إياك بحقهم الذي عندك ليس من المفترض أن يكون موضع سخط لديك ، النبيل إذا رأى تصرفًا سليمًا عززه ولو على نفسه ، وعندما أرسل عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص وابنه ليقتص من الابن للقبطيِّ في حادثة السباق الشهيرة وقال للقبطيّ : اضرب ابن الأكرمين كما ضربك ، ثم قال لعمرو قولته الأشهر في التاريخ : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا! قال له عمرو بعدما خلا به : أخشى أن يجترئ الناس على الولاة يا أمير المؤمنين ، فقال له عمر : نِعم جرأة الرعية في الحقِّ!

الدرس الرابع:

إذا عاسرك صديقكَ فياسره ، إنك تجد موقفًا تكسبه كل يوم ولكنك لا تجد صديقًا كل يوم ، سأل أعرابي رجلًا عن سبب مفارقته صديقه ، فقال : عذرته سبعين مرة ثم فارقته! فقال له الأعرابي : بئس الصاحب أنتَ ، إذ ضاق صدرك على صاحبك فلم تجد له متسعًا بعد السبعين!

الوطن ١١- ٣ - ٢٠١٧

أكلت يوم أكل الثور الأبيض!

القول : أُكلتُ يوم أُكلَ الثورُ الأبيض
القائل : علي بن أبي طالب رضي الله عنه
أما القصة : عندما رأى علي بن أبي طالب رضي الله عنه كيف أصبحت الخلافة تُطلب بالسيوف بعد أن كانت تُعقد بالبيعة ، قال : إنما مثلي ومثل عثمان مثل ثيران ثلاثة كانوا في غابة ، أحدهم أبيض ، والثاني أسود ، والثالث أحمر ، وكان معهم أسد ، فكان لا يقدر عليهم مجتمعين ، فقال للثور الأسود والأحمر إنه لا يدل علينا في موضعنا هذا إلا الثور الأبيض ، فإن لونه مشهور ولوني على لونكما ، فلو تركتماني آكله لصفا لنا العيش بعد ذلك ، وكُتم أمرنا ، فقالا : دونك فكله! ثم قال للثور الأحمر : لوني على لونك فدعني آكل الأسود ، فيصفو لنا العيش بعد ذلك ، فقال له : دونك فكله! فأكله ، ثم بعد أيام قال للثور الأحمر : إني آكلك لا محالة ، فقال : دعني أنادي أولًا ، فأذن له ، فنادى بأعلى صوته : ألا إني أُكلتُ يوم أُكل الثور الأبيض! ألا وإني وهنت يوم قُتل عثمان!

الدرس الأول:

لا تسمح للباطل أن يبدأ بغيرك ، لأنه حتمًا سيصلك ، كل معتقل ظلمًا لا تقف معه ، أنت في الحقيقة تحجز لك مكانًا في الزنزانة المجاورة ، كل وظيفة لا يمكن الوصول إليها إلا بالواسطة فتسكت لأن الأمر لا يعنيك ، سيأتي يوم تصبح فيه الواسطة في

أمر يعنيك ، كل ضريبة جائرة تنأى بنفسك عنها لأنها اليوم لا تطالك لن يطول الأمر حتى يطالك مثلها ، بعض السياسات جس نبض ، وقد كثر الصفع على خدودنا لأننا سكتنا عند الكف الأول!

الدرس الثاني:

النبيل إذا اشتعل بيت جاره هبَّ ليساعد في إطفائه ، لأنه لا يستطيع أن يرى الشر يطال غيره وينأى بنفسه ، أما العاقل إذا رأى النار اشتعلت في بيت جاره هبَّ ليساعد في إطفائها لأنه يعرف أنه من الممكن أن تلتهم بيته بعد بيت جاره ، فإن لم يكن فينا نُبل فليكن فينا على الأقل عقل!

الدرس الثالث:

أخبث الأعداء من مشي في أعدائه بسياسة فرِّق تَسُدْ ، أو لعله أعقلهم ، فإذا كانت مصلحة أعدائنا أن يفرقونا ليسهل عليهم أكلنا واحدًا واحداً فما هي مصلحتنا أن نتفرق ، إنَّ الذئب لا يأكل من الغنم إلا القاصية ، والأسود إذا أرادت افتراس ثور عزلته عن القطيع أولًا ، الضعفاء إذا اجتمعوا صاروا أقوياء ، والأقوياء إذا تفرقوا صاروا ضعفاء!

الدرس الرابع:

سقطت القدس يوم سقطت الأندلس ، وسقطت بغداد يوم سقطت القدس ، وسقطت صنعاء يوم سقطت بغداد! هذه سُنة اللهِ في الأمة التي أرادها أن تجتمع فاختارت أن تتفرق ، عندما حكمنا العالم من مشرقه إلى مغربه كنا قد انتقلنا من منطق القبيلة التي لا

يعنيها إلا شأنها إلى منطق الأمة التي إذا اشتكى منها عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسَّهر والحمى ، واليوم عدنا سيرتنا الأولى ، قبائل! وأخذت القبيلة شكلًا حديثًا على هيئة دولة لا يعنيها إلا شأنها ، وما أن تسقط قبيلة حتى يبدأوا يفكرون أي القبائل ستكون بعدها ، متى سنفهم أننا حين ندافع عن الآخرين فنحن في الحقيقة ندافع عن أنفسنا؟!

الوطن

١٨- ٣ - ٢٠١٧

ماذا لو حاسبناهم؟!

في مشهد مهيب ، انحنى وزير الطاقة اليابانيّ عشرين دقيقة أمام الشّعب علًى التلفاز مباشرة ، وهي المدة التي قُطعت فيها الكهرباء عن بعض مناطق البلاد!

وفي خلفيات الخبر وكواليسه ، تبيّن أن أحداً لم يطلب من الوزير أن ينحني تكفيراً عن جريمته النكراء تلك! لا رئيس الوزراء ، ولا الإمبراطور! لقد قام الوزير بهذا العمل من تلقاء نفسه ، إحساساً منه بالمسؤولية الملقاة على عاتقه ، وهذا عمل عظيم يفوق في عظمته فعل الإنحناء ذاك! ثمّ إنها لم تكن منقصة ولا سُبّة لو طلب منه رئيس الوزراء أو الشعب ذلك قبل أن يُبادر هو بنفسه ، على العكس تماماً ، فإنّ الوزارات وخصوصاً الخدماتية منها وُجدت لخدمة الشّعب ولم يُوجد الشّعب لخدمتها!

تخيلوا لو أننا طبقنا نظام العين بالعين في بلادنا!

لو كان على وزراء الطاقة أن ينحنوا مقابل كلّ دقيقة نجلس فيها دون كهرباء لقضى عشرات الوزراء أعمارهم رُكّعاً سُجّداً على شاشات التلفزة ، هذا إن كانت أعمارهم تكفي ، شخصياً قضيتُ أكثر من نصف عمري دون كهرباء!

لو كان على وزراء الأشغال والمواصلات أن ينزلوا في كلّ حفرة ننزل فيها في الطرقات ، أو أن ترتج أدمغتهم وتختلط عظامهم مقابل كلّ مطبّ رجّ أدمغتنا وخلط عظامنا ، لكانوا اليوم على كراسي مدولبة يعانون من شلل رباعيّ!

لو كان على وزراء الصحة أن يناموا على بلاط أقسام الطوارئ في المستشفيات يعتصرون ألماً ريثما يتم تأمين أسرّة لهم كما يحصل معنا ، لقضوا أعمارهم على البلاط كالزواحف!

لو كان على وزراء الداخلية أن يُهانوا من أصغر شرطي حتى أكبر ضابط ، كما يحصل معنا في كثير من بلادنا ، ما أمضى أحدهم يومه دون أن يسمع شتيمة في أمه وزوجته ، أو يُصفع على وجهه ، أو يُلقى في السجن دون أن يعرف ما السبب!

لو كان على وزراء العدل أن يُمضوا في السجون المدة التي يقضيها المواطنون ظلماً وجوراً ، ما كفى عمر أحدهم ولو عاش مقدار ما عاش نوح عليه السلام!

عموماً أمر الله من سَعة ، والكفار ليسوا قدوة لنا لنحذوا حذوهم ، فنحاسب أولئك الذين من المفترض أنهم يعملون لدينا ، ويتقاضون مرتباتهم من ضرائبنا ، وثرواتنا ، وقوت أولادنا ، وخيرات بلادنا! دعونا منهم ، فمن فات قديمه تاه ، دعونا كما نحن ، نُودّع حفرة ونستقبل مطباً ، ونوقد الشموع ففيها رومانسية لا تعرفها بلاد الكهرباء ، ونتمرغ على بلاط المستشفيات فالصابر جزاؤه الجنّة ، ونُسجن ظلماً ولنا في يوسف عليه السّلام أسوة حسنة!

الوطن

٦- ٨ - ٢٠١٧

عَرَفة وحجّة الوداع!

لم يكن البشرُ قد اخترعوا الساعات بعد ، ولكنّ بلال الحبشيّ كان يعرف بدقّة متى يحين أذان الظهر ، فاعتلى صخرةً مُشرِفة ، ونادى في النّاس أن «الله أكبر»! فأخذوا أماكنهم في الصلاة جميعاً . . . أبو بكر القرشيّ ، وصهيب الروميّ ، وسلمان الفارسيّ ، وأبو ذر الغفاريّ ، ومحمد بن مسلمة الأوسيّ ، وسعد بن عبادة الخزرجيّ! هكذا جمعهم الإسلام من كل حدبٍ وصوب كما لم يفعل أحد من قبل ، وكما لن يفعل أحد من بعد!

ثمّ صعدَ على جبل الرحمة الرّجلُ الذي نزل قبل ثلاث وعشرين سنة من غار مظلم في مكة ليضيء العالم ليلقي خطبة! الأميّ الذي أذهل المتعلمين ، اليتيم الذي ربّى الآباء والأمهات ، الفقير الذي جاء بالزكاة والصدقة والعدل الاجتماعيّ ، السياسيّ الفذّ الذي طوّع جزيرة العرب دون أن يحمل شهادة في القانون الدوليّ ، المحارب الشّهم الذي أشهرَ قلبه قبل سيفه فعلّم العالم أخلاق الحرب دون أن يتخرج من كليّة عسكرية! الجميع الآن على موعد معه ، فقد أخبرهم أنه ربما لن يلقاهم بعد عامه هذا فكانوا يريدون أن يعرفوا ما الذي سيقوله!

لم يمنح يومذاك امتيازات لأقاربه ، بل إن أول ربا وضعه كان ربا عمه ، وأول دم وضعه كان دم ابن عمه ، فالثأر والربا في دينه حرام ولو كان لبني هاشم ، أراد أن يخبرنا أنه لا أحد فوق القانون ولو كان قريبا للرجل الأول في الدولة!

وأوصى الرجال أن يستوصوا بالنساء خيراً ، فجعل المرأة إحدى مسؤوليات الرجل لا إحدى ممتلكاته!

وقال للناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب! أعلنها صريحة مدوية أن الناس بأعمالهم لا بأنسابهم ، فقد أخبر من قبل أن عمه القرشي في النار ، وأنه سمع دف نعل صاحبه الذي كان عبداً حبشيا في الجنة!

ثم قال أيها الناس إن دماءكم ، وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت اللهم فاشهد! كأنه كان يعرف ما الذي سنفعله ببعضنا فأشهد ربه علينا أنه قد بلّغ!

ثم ها نحن اليوم ، الدين الذي بدأ برجل ، صار أمة! وهذه عرفة ، سوق العتق من النار ، هنيئاً لمن كان هناك ، يباهي الله بهم الملائكة! أما نحن يا الله ففاتنا الوقوف بعرفة ولكن لم يفتنا الوقوف ببابك! جئناك بذنوب كثيرة ، لم نفعلها استخفافا بمراقبتك ، ولكن جرّأنا على اقترافها حلمك الذي عهدناه ، وسترك المُرخى علينا ، فلا تردّنا إلا وقد غفرتَ لنا!

الوطن

٣١- ٨ - ٢٠١٧

الفاضي يعمل قاضي!

عندما شاهدتُ جنازة شيمعون بيريز ، تذكّرتُ مثَل جدّتي : «الجنازة حامية والميّتُ كلب»!

رحمها الله من حكيمةٍ فاتها أن تُضيف بعده : ولا يُشيّع الكلاب إلا الكلاب!

المهمّ ، لا تخدعنّكم هذه المقدّمة ، فليست إلا رِدّة فكريّة! إذ أنني قررتُ أن أُصبحَ إنساناً جديداً والعياذ بالله!

أوّل قرار اتخذته أن أُلقي أطروحة الدكتوراة جانباً وأقرأَ لأشخاص لا أقرأ لهم عادة!فقرأتُ كتاب «أرني الله» لتوفيق الحكيم ؛ فوجدتُ أنه لم يكن فيه موفّقاً ولا حكيماً!

ثُم إنّي قررتُ أن لا أتعاطى شأناً سياسيّاً! وأكذبُ عليكم إن قلتُ أنّي أتعاطى السّياسة لأنّي أفهمُ فيها! نحن أساساً نعيشُ في بلاد من شروط تعاطي الأشياء أن لا تفهم فيها! .

فنوال السّعداوي تتحدّثُ عن الحِجاب ، وشيخ الأزهر يتحدّثُ عن السّياسة الشّرعية ؛ وكلاهما يعرفان بما يتحدّثان كما تعرف هيفا وهبي عن صحيح البخاري!

وإنّما أُتابع السّياسة لأسباب :

أوّلها : أنّي لا أُؤمن بفصل الدين عن الدّولة!

والدّين الذي أعنيه هو دين الإسلام لا ما تعتقد الأحزاب الإسلاميّة أنّه الإسلام!

وثانيها : أنّه من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم!

وبما أننا أكبر مفعولٍ به في تاريخ البشرية ؛ فإنّ كل ما يدور في أروقة السياسة يقع على رؤوسنا .

وثالثها : أنّه يُعجبني قول نجم الدّين أربكان : المسلمون الذين لا يهتمّون بالسّياسة يحكمهم ساسة لا يهتمّون بالمسلمين!

ثُمّ إنّي بعد إقلاعي عمّا سبق ، صار عندي وقت ، ولأنّ «الفاضي يعمل قاضي» قررتُ أن أُصلحَ بين صديقي وزوجته .

نصحته أن يُهديها «سامسونغ نوت ٧» فقد سمعتُ أنّه أشبه بعبوّة موقوتة ، واحتمال انفجاره كبير جداً!

ولكنه لم يأخذ بنصيحتي ، وقال لي : حظّي وأعرفه ، سأخسر مالي ، ولن ينفجر!

والشّيءُ بالشّيء يُذكر ، فرحتُ بنزول آيفون ٧ إلى الأسواق ؛ فقد صار بالإمكان الحصول على آيفون ٦ مستعمل بسعر جيّد!

وبالمناسبة لا أعرف لماذا يحرصُ النّاس على شراء آخر إصدار من سامسونغ وآيفون ، فشخصيّاً لو اشتريتُ آيفون ٢٠ مُستعمل طبعاً بعد نزول آيفون ٢١ إلى الأسواق ، فإني لن أستخدم منه إلا البرامج التي كنت أستخدمها في آيفون ٣!

وأعتقد أن كثر مثلي ، ولكن المظاهر الاجتماعيّة ، وفنّ الدعاية ، يجعلانك تشتري أشياء لا تحتاجها بأموال تحتاجها لشراء أشياء أخرى!

عموماً يبقى هذا أمر مباح! ، وهذه فتوى إن أخطأتُ فيها فلن تكون كارثيّة كفتوى إرضاع الكبير!

ومن الفضاوة أيضاً شاهدتُ فيلم طروادة للمرة الثالثة!

وتمنّيتُ أن تتغير الأحداث هذه المرّة ويقوم هيكتور بطعن هيركيليز الذي هو براد بيت ؛ لأنه تسبب في دموع أنجلينا جولي!

وأنجلينا أحترمها لأنها إنسانة فعلاً ، وليس لأنها فاتنة ، فأنا أعقل من أن أرتبط بعلاقة حُب من طرف واحد!

في هذا الزّمن صار من العسير أن تعثر على إنسان في دينك لتعثر عليه في دين آخر!

ولكن أنجلينا الّنّصرانيّة ونعوم تشومسكي اليهوديّ إنسانان مع مرتبة الشّرف!

ولأنّ الفضاوة لا تأتي بخير ، فقد تابعتُ قصّة الفأر المقليّ الذي عثروا عليه في وجبة كنتاكي!

وأعجبني جداً تصريح مدير كنتاكي حيث قال : سنحقق في الأمر!

وطبعاً تعرفون ماذا يحصل في أمر يُحقق فيه الأمريكان!

من المحتمل جداً أن يخرج علينا المدير ويقول للزبون : تهانينا يا صاح ، هذا أوّل فأر تحصل عليه ، اجمعْ ثلاثة فئران ، واحصلْ على وجبة مجانية! ومن المحتمل أيضاً أن يتبيّن لهم أنّ الفأر من تنظيم القاعدةً ؛ فتغزو أمريكا بلداً عربيّاً!

المهمُّ من كل هذا أني اكتشفتُ أنّه من الجميل أن يفعل الإنسان أشياء جديدة! وأن لا يأخذ الحياة دوماً على محمل الجِدّ!

مدوّنات الجزيرة

١ /١٠/ ٢٠١٦

ماذا تفعلُ الكلماتُ في وجه الدّبابات؟

الأسبوع الماضي كنتُ في مقابلةٍ مع فريق «قبس» الثقافي في غزّة، وسألني أحدُهم: ماذا تفعلُ الكَلماتُ في وجه الدّبابات؟ لا أذكرُ تحديداً بما أجبته وقتها.. انتهت المقابلة، وذهب الجميع في حال سبيلهم، أما أنا فبقي هذا السؤال جاثماً على صدري كأنه الصخرة التي وضعها أميّة بن خلف على صدر بلال بن رباح وهو يراوده عن دينه!

أجلسُ الآن محاولاً إزاحة تلك الصخرة التي تكتم أنفاسي، ترنُّ في أذنيّ كلمات شهيرة: اليوم تخلصنا من لواءٍ فكريّ مسلّح، فـ غسّان كان يُشكّل خطراً على إسرائيل أكثر مما يشكّله ألف فدائيّ مسلح! هذا ما قالته غولدا مائيير تعليقاً على اغتيال الموساد لغسّان كنفاني!

غسّان لم يكن فيه شيء يُشبه المُدرجين على قائمة الإرهاب اليوم، كان يسارياً حتى العظم، وسيماً كزيتونات باحة المسجد الأقصى، مريضاً يحقن نفسه بإبر الأنسولين ليعيش! عاش علاقة حُبّ صاحبة وهو متزوّج، كان يُدخّن بشراسة، ويقرأ بنهم، ويكتب كأنه في سباق مع الموت! ثماني روايات، وزهاء ألف مقال صحفيّ، رغم أنه ترجّلَ في السّادسة والثلاثين من العمر! ولكن الدولة التي هزمت سبعة جيوش عربية في ست ساعات، كانت هشّة من الداخل، ففعل فيها قلم غسّان ما لم تفعله مدافع الآخرين، فقتلته!

يبدو أنّ الكلمات تُثخنُ في الدّبابات!

الإسلام الذي لاذ بسيف خالد بن الوليد ، لم يستغنِ عن قصائد حسّان بن ثابت!

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف أن الكلمة قاطعة كنصل السيف ، وحادة كرأس الرّمح ، لهذا كان يقول له : اهجُهمْ وروح القُدس معك!

يبدو أنّ الكلمات كانتْ دوماً تأخذ مكانها في المعركة!

يعتقدُ كثير من النّاس أن الصراعات التي استعرتْ منذ فجر التاريخ إلى اليوم هي صراعات سيوف ، ورماح ، وأقواسٍ ونشّاب ، ومنجنيق ، وقاذفات صواريخ ، وطائرات أف ١٦, . في الحقيقة هذا هو سلاح الصراع ، أما الصراع الحقيقي فكان صراع كلمات وأفكار! كلّ سيف سُلّ ، وكلّ صاروخ رُمي ، كانت وراءه فكرة وكلمة!

لا يهم إن كانت تلك الفكرة نبيلة ، أو تلك الكلمة صادقة ، المهم أنها كانت وقود الصراع وباعثه!

عندما عزم الخوارج على قتال عليّ بن أبي طالب ، ذهبَ إليهم عبد الله بن عبّاس ليناظرهم ، وكان يومها يلبس أجمل ثيابه ، فسألوه باستغراب : ما هذا يا ابن عبّاس؟

فقال لهم : «قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطّيبات من الرّزق»!

ثمّ سألهم ابن عباس : ما تنقمون على عليّ؟

قالوا : ثلاثاً

. . فقال ابن عباس : ما هن؟

قالوا : أمَّا إحداهن ، فإنه حكَّم الرجال في أمر الله ، وقال الله : ﴿إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ للهِ﴾ ما شأن الرجال والحكم

فقال ابن عباس : هذه واحد

قالوا : وأمَّا الثانية ، فإنه قاتَل ولم يَسْبِ ولم يغنم ، فإن كانوا كفَّارًا فقد حلَّ سبيهم ، ولئن كانوا مؤمنين ما حلَّ أساساً قتالهم

قال ابن عباس : هذه ثِنتان ، فما الثالثة؟

قالوا : ومَحَا نفسه من إمارة المؤمنين ، عندما اشترط عليه معاوية أن يراسله بـ«هذا من عليّ بن أبي طالب» ، فإن لم يكن أميرَ المؤمنين فهو أمير الكافرين!

قال ابن عباس : هل عندكم شيء غير هذا؟

قالوا : حسبنا هذا

قال ابن عباس : أرأيتم إن جئتكم من كتاب الله وسنَّة نبيِّه - ما يردُّ قولكم ، أترجعون؟

قالوا : نعم

فقال : أمَّا قولكم : حكَّم الرجال في أمر الله ، فإن الله قد قبل حكم الرجال ، أرأيتم قول الله - تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ . . أنشدكم بالله : أحكم الرجال في صَلاح ذات البين وحقن دمائهم أفضل ، أو في أرنب؟ قالوا : بلى ؛ بل هذا أفضل . وقال في المرأة وزوجها : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ . . فنشدتكم بالله أليس حكم الرجال في صلاح ذات بينهم وحقن دمائهم أفضل من حكمهم في بضع امرأة؟ قالوا : اللهم بل في حقن دمائهم وإصلاح ذات بينهم . فقال ابن عباس : خرجتُ من هذه؟ قالوا : نعم .

ثم قال : وأمَّا قولكم : قاتَل ولم يَسْبِ ولم يَغْنَم ، أفتسْبُون

أمَّكم عائشة؟! تستحلُّون منها ما تستَحلُّون من غيرها وهي أمُّكم؟ فإن قلتم : إنَّا نستَحِلُّ منها ما نستَحِلُّ من غيرها فقد كفرتم ، وإن قلتم : ليست بأمِّنا فقد كفرتم ؛ ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ فأنتم بين ضلالتين فأتوا منها بمخرج؟ فنظر بعضهم إلى بعض . فقال : أفخرجت من هذه؟ قالوا : نعم .

وأمَّا قولكم : محا نفسَه من إمارة المؤمنين ، فأنا آتيكم بما ترضون ، قد سمعتم أن نبي الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - يوم الحديبية صالَح المشركين ، فقال لعلي : (اكتب يا علي : هذا ما صالَح عليه محمد رسول الله) ، قالوا : لو نعلم أنك رسول الله ما قاتَلناك ، فقال رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم : (امحُ يا علي ، اللهمَّ إنك تعلم أني رسول الله ، امحُ يا علي ، واكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله) ، فوالله لَرَسُولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - خيرٌ من علي ، وما أخرَجَه من النبوَّة حين محا نفسه ، أخرجت من هذه؟ قالوا : نعم . فرجع منهم ألفان ، وخرج سائِرُهم فقُتِلُوا على ضلالتهم ، في النهراوان!

يبدو أن الكلمات كانتْ دوماً تُغيّر مسارات الجيوش!

مدوّنات الجزيرة

١٢ / ٣ / ٢٠١٧

المثقّف «الكيوت»!

تُقصَفُ غزّة بالفسفور الأبيض ، وتُهدمُ منازلها على رؤوس ساكنيها على الهواء مباشرة ، فلا يتحرّكُ فيه شعرة!

تُدكُّ حلب فلا يكترث!

يُفضُّ اعتصام رابعة على طريقة المغول ، فلا يهتم!

يُحوّلون بغداد من حاضرة الدنيا إلى حظيرة طائفية فلا يغتم!

يقفُ المقدسيّون كالشّوكة في حلق نتانياهو أسبوعاً كاملاً ، فيسكت كأنّ الأمر يجري في فيلم هوليوودي ، لا في مسرى نبيّه!

يُذبحُ الرُّوهينغا كالخراف يوم العيد فلا يُعلّقُ على الحدث!

أمّا أن يضربَ إعصار أميركا ، فهذا يستدعي تغريدة تضامن على جناح السّرعة! إنّه المثقّف «الكيوت»!

لو أنّ دابة تعثّرت في نيويورك لتضامن معها خشية أن يسأله الله عنها : لمَ لمْ تتضامن معها يا «كيوت»؟! أما أن يُذبح المسلمون جهاراً نهاراً فهو إنسان محايد ، والحياد بالمناسبة أعهر موقف عرفه البشر!

كتبَ أحد هؤلاء المثقفين «الكيوت» منذ يومين يقول : لو كان الله غاضباً على أميركا ، ما أعطاها هذا العلم لتتنبأ فيه بحدوث الكوارث!

لم يبقَ إلا أن يخبرنا أن ترامب من الخلفاء الرّاشدين!

نحن أيضاً نكره أن يتأذى المدنيون المسالمون لأي جنسية أو دين

انتموا ، ولكن من أخبرك يا سيادة «الكيوت» أنّ الله إذا أعطى الدنيا لأحد فإنه راض عنه؟!

إنّ النمرود ملكَ الأرض من مشرقها إلى مغربها ، وفرعون كان ينادي في النّاس : «أليس لي ملك مصر»؟! وثمود «كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين»! وعاد كانوا يقولون : «من أشدّ منا قوة»؟! فهل كان الله راضياً عن هؤلاء؟! بهذا المنطق المريض ، والمعايير السقيمة ، يكون قارون أفضل من موسى عليه السلام ، لأنه ملكَ الكنوز ، وموسى كان يرعى الغنم!

جميل أن تتعاطف مع كل البشر أيها المثقف الكيوت ، ولكن أن يهزك إجلاء أهل فلوريدا بسبب إعصار ولا يهزك إجلاء أهل حلب بسبب البراميل المتفجرة فهذه وضاعة ثقافية! وأن يبكيك منزل اقتلعته الريح ولا يبكيك منزل دكته طائرات الأف ١٦ ، فشهاداتك ومقالاتك وتغريداتك لا تساوي حذاء أُميٍّ لا يقرأ ولا يكتب ، يتكدّرُ ويحزن ، وما فيه من شيء غير أنّ بعض بني دينه ليسوا بخير!

الوطن

١٤- ٩ - ٢٠١٧

التجديد في الأدب

أما قبل :

اللغة كائن حيٌّ ، وعندما أقول كائناً حيّاً ، فإني أقولها على سبيل الحقيقة لا المجاز! فكما للكائنات الحيَّة أطوار ثلاثة تمر بها ، هي الميلاد والحياة والموت ، هكذا هي اللغات تولد وتعيش وتموت! على أن فترة حياتها مرهونة بمدى رعاية الناطقين بها لها ، وكما الكائنات الحية تتأثر بمحيطها ، كذلك اللغات ، فالتلاقح بين اللغات أمر حتميّ ، لم تنجُ منه لغة ، ولو نجت منه لغة لكانت العربيَّة ، ولكن هذا لم يحصل أبداً ، حتى في عصر الجاهليين العرب الفصّاح الأقحاح ، فقد عرَّبوا كثيراً من المفردات الأعجمية وكذلك أخذت اللغات الأخرى منهم ، وبما أنَّ اللغة هي المادة الخام للأدب ، وهي القماش الذي يُحاك منه النصوص والقصائد ، كان لزاماً إذا تغير القماش أن تتغير الأثواب المُحاكة منه!

أما بعد :

لو أخذنا معلقة عمرو بن كلثوم ، وجدارية محمود درويش وأردنا أن ندرس الفوارق بين القصيدتين ، لبدا لنا أول الأمر أن القصيدة الحديثة ليست بنت القصيدة القديمة ، فعناصر الاختلاف لا توحي بعلاقة الأمومة تلك ، فالقصيدة الحديثة البنت اللقيطة بالنسبة للقصيدة القديمة الأم ، وهذا عائد إلى أننا نتجاهل كل ما لحق بالقصيدة العربية من تغييرات طوال الزمن الممتد بين ميلاد

القصيدتين ، ولكننا لو تتبعنا التغيير الذي كان يحدث بطيئاً في هيكلة القصيدة العربيَّة في كل عصر ، لعرفنا أن القصيدة الحديثة كانت محكومة أن تصل إلى الشكل الذي وصلت إليه اليوم ، فكما لا يمكن المقارنة بين عربيٍّ الجاهلية وعربيٍّ اليوم دون اعتبار الزمن الفاصل بينهما ، كذلك لا يمكن تجاهل عامل الزمن في المقارنة بين النتاج الأدبي القديم والحديث!

التجديد في الأدب العربيَّ لم يحصل دفعة واحدة ، وإنما تغيَّر بطيئاً عبر الزمن ، وهذا التغير البطيء جعل عوامل الاختلاف اليوم بين القصيدة القديمة والحديثة أكثر من عوامل الالتقاء!

كانت القصيدة الجاهلية موسوعية المضمون ، نجد فيها الغزل والفخر والهجاء والخمر والصيد والحرب والرثاء ، وأول تغيير طرأ على القصيدة العربية هو أنها تخلصت من هذه الموسوعية في المضمون ، فالقصيدة في صدر الإسلام وبداية العصر الأموي ، عرفت المضمون الواحد ، فلم تعد متشعبة في المضامين والمواضيع التي تتناولها ، إضافة إلى تأثير الإسلام على تلك المضامين ، حيث خبا ذكر الخمر ، وقلَّ الهجاء خصوصاً في عصر الراشدين ، وقد سجن عمر الحطيئة بهجائه للزبرقان ، بالإضافة لترسيخ مفهوم أن الناس سواسية ومعيار التمايز بين الناس التقوى ، فقلَّ منسوب الفخر بالأنساب والقبائل ، لأنها بعرف الدين الجديد من دعوى الجاهلية ، أما في العصر الأموي ، فصرنا نشهد تخصصات شعريَّة ، فعُرف الشعراء بلون شعري واحد طغى على قصائدهم ، عمر بن أبي ربيعة في الغزل الإباحي ، وجميل بن معمر في الغزل العذري ، وهذا التصنيف لم يكن معروفاً في الجاهلية ، فلا يمكن رد شاعر إلى غرض شعري واحد! ولكن القصيدة في عصر صدر

الإسلام والعصر الأموي رغم هذا التجديد حافظت على استقلالية البيت الشعري ، وعلى وحدتي الوزن والقافية .

في العصر العباسيّ شهدنا ثورة على هيكلية القصيدة الجاهلية ، فقد كان الوقوف على الأطلال لازمة في القصيدة الجاهلية ، ولكن الشعراء العباسيين وصل بهم الأمر حدَّ السخرية من هذه اللازمة ، وقد قال أبونواس ساخراً من امرئ القيس إذ دعا صديقه أن يقفا باكيين على ذكرى حبيب ومنزل ، وقال :

قل لمن يبكي على رسم درس
واقفاً من ضرَّ لو كان جلس .

وإن كانت القصيدة الأموية حافظت كأختها العباسية على مقومات القصيدة الجاهلية الملتزمة وزناً وقافية ورويا واحداً ، إلا أنها كانت ثورة في المضامين ، متأثرة بصراعات الفرق السياسية ، والسجالات الفكرية ، دون أن ننسى أثر حركة الترجمة والتعريب التي بلغت ذروتها زمن المأمون ، الذي كان يعطي وزن الكتاب المترجم ذهباً ، فظهرت مفردات جديدة إضافة إلى المضامين الشعرية الجديدة!

أما التجديد الأول في الوزن الذي كان المساس به من محرمات العصور السالفة ، فكان في الأندلس ، وإن سار الأندلسيون يقرضون شعرهم على بحور القدماء ، إلا أنهم استحدثوا الموشحات ، وجعلوا لها مفاتيح وأقفالاً وهذا لم تعرفه القصيدة العربيَّة من قبل ، ويمكنني أن أدعي بجرأة أن الموشح الأندلسي هو الأب الشرعي للقصيدة الحديثة!

وفي العصور اللاحقة استمرت السنوات تدور واستمر تغيّر القصيدة معها شكلاً ومضموناً إلى أن وصلنا إلى ما وصلنا إليه

اليوم ، فإذا قارنا بين جدارية درويش ومعلقة ابن كلثوم ، فسنعتقد أننا أمام ردَّة أدبيَّة ، أما إذا تفهمنا التغيرات البطيئة التي لحقت بالقصيدة العربية على مر السنين فسنعرف أن القصيدة الحديثة وصلت مجبرة إلى الشكل الذي هي عليه اليوم!

الوطن

٢٣- ٤- ٢٠١٦

ثقافة التّيس الغريب!

يقول المثل العامي : «عنز الشعيب ما يحب إلا التّيس الغريب!» والأمثال عاميها وفصيحها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ولو تأملنا في المثل لوجدناه أعمق مما يبدو عليه ، فالقصة أكبر من مجرد أزمة عاطفية لعنز سببها تيس وسيم جاء من بعيد ، إنه يتحدث عن عقدة النقص التي يشعر بها البعض تجاه الغرباء أو الغربيين ، لا فرق!

معرفة تاريخ الآخرين وعلومهم ونظرياتهم وأدبهم ثقافة ، أما تقليدهم الأعمى فهو تبعية .

تتحدث سوزان برنار في باريس عن قصيدة النثر فيخلع شعراؤنا عباءة المتنبي ويلبسون فستان سوزان ويقررون أن يجعلوا للنثر قصيدة! مع أنك لو تأملت التسمية «قصيدة النثر» لوجدتها تجمع المتناقضات التي يستحيل أن تجتمع ، كأنك تقول بيضة الديك ، ولكن كرمى لعيون الغرب لا بأس أن نجعل الديك يبيض!

نظرية تشومسكي اللغوية في أغلب أجزائها هي إعادة صياغة لنظرية السياق لعبد القاهر الجرجاني ، ولكنهم في الجامعة درسونا تشومسكي وأزاحوا الجرجاني!

وما قاله إميل دوركايم في علم الاجتماع في معظمه اجترار لما قاله ابن خلدون قبله بمئات السنوات ، ولكن إميل أشقر وعيونه زرق ويلبس ربطة عنق وابن خلدون أسمر يلبس عباءة وعمامة ، فكيف تحدثنا الجامعات عن ابن المغرب العربيّ وتترك ابن باريس!

إذا كان المغلوب مولع بتقليد الغالب كما قال الأسمر الذي يلبس عباءة وعمامة ، فإن المغلوبين على أمرهم ، المستسلمين بملء إرادتهم ، قد انتقلوا من حالة التقليد إلى حالة التقديس .

لا أحد في نيويورك يحتفل برأس السنة الهجرية ولكننا نزين الأشجار ونعلق عليها الأجراس ونستأجر بابا نويل مزيف ليعطي أولادنا الهدايا في يوم الميلاد ورأس السنة .

لا أحد في لندن يحتفل بعيد الفطر ولكننا نحتفل بالهالوين ونشتري فيه من اليقطين أكثر مما نشتري من التمر في رمضان .

طلاب المدارس في ستوكهولم لا يعرفون شيئًا عن غزوة بدر ولكن على طلابنا أن يعرفوا تفاصيل إنزال النورماندي! طلاب الجامعات في سيدني لا يعرفون شيئًا عن عمر بن الخطاب ولكن على طلاب جامعاتنا أن يعرفوا كل شيء عن نابليون وهتلر!

لا أحد في مطاعم طوكيو يقول للنادل «شكرًا» ولكن لتبدو مثقفًا عليك أن تقول لبائع الفلافل على الطريق «ميرسي» .

حتى العشق لا نعرف من أبطاله إلا روميو وجولييت مع أنهم شخصيتان لا وجود لهما إلا على صفحات الرواية ، وننسى قيس وليلى وكُثير وعزة وعنترة وعبلة مع أنهم شخصيات عاشت على صفحات الحياة!

الأسوأ من هذا أننا نقدم شخصيات الآخرين لأبنائنا على أنهم قدوات . . .

مارغريت تاتشر امرأة حديدية فماذا عن خديجة بنت خويلد!

الإسكندر فاتح عظيم فماذا عن عمر هادم إمبراطوريتي الروم والفرس في عامين!

الخنساء أهم من أغاثا كريستي .

وخالد بن الوليد أهم من نابليون .
عثمان بن عفان أهم من بيل غيتس .
الشافعي أهم من مارتن لوثر .
وعبد الرحمن الداخل أهم من لويس السادس عشر .
وعمر بن عبد العزيز أهم من ريكاردوس قلب الأسد .
قصة أصحاب الأخدود أجمل من قصة ليلى والذئب .
وقصة ماشطة ابنة فرعون أجمل من قصة رابونزيل .
وقصة موسى مع فرعون أجمل من قصة روبن هود .
وقصة الثلاثة أصحاب الغار أجمل من قصة بياض الثلج .
وقصة الإسراء والمعراج أجمل من ملحمة الإلياذة .

ولكن رغم هذا لا بأس أن يعرف أولادنا عن نابليون ولوثر وريكاردوس ولويس وأغاثا وجيفارا ، ولكن البأس أن يعرفوهم أكثر مما يعرفون خالد وخديجة وفاطمة وعمر وعثمان . لا بأس أن نعرف فرويد وتشومسكي ودوركايم وشكسبير وسوزان ولكن البأس أن نترك كل ما لدينا ونلهث وراء كل ما لديهم ، البأس في عقدة النقص هذه ، وفي إحساس عنزة الشعيب تجاه التيس الغريب .

مدوّنات الجزيرة

١٩ / ٢ / ٢٠١٧

من نبض إلى أسماء:
لا يوجد أحد!

الآن يا نبض أجدُ اللحظة مؤاتية لأرتكب خيانتي الأولى لك! قررتُ أخيرًا أن أكتبكِ، بعض النساء نخونهن إذ نكتبهن. فتحويل امرأة مثلكِ إلى لغة يعتبر خيانة من زاوية ما. أُنوثتكِ الطاغية أكبر من أن تُحشر في سطرٍ، أو تعتقل بنقطة. أعرف يا نبض أني إذ أكتبكِ أحمّل اللغة فوقَ ما تستطيع.. الليل في عينكِ أكبر من قدرة اللغة، وهذا السواد كله يعاش ولا يحكى. والغمازة التي ترسم على خدك الأيمن حين تبتسمين، تصيب اللغة بارتباك تام، ولكنها فكرة تستحق العناء. فكان الله في عون لغة أريد منها أن تصير أنتِ.

بهذه الكلمات بدأتُ روايتي «نبض»، ومنذُ عامين إلى اليوم سُئلت أكثر من ألف مرة من هي نبض؟!

في معرض جدة للكتاب العام الماضي سُئلتُ عنها، في مقابلتين تلفزيونيتين سُئلتُ عنها، في تويتر والفيس بوك سُئلت عنها...

وفي كل مرة كنتُ أجيب: نبض شخصية ولدتها على الورق، وأحببتها على الورق، وتغزلتُ بها على الورق، وقتلتها على الورق لمآرب روائية بحتة، فقد أردتُ أن أظهر فداحة الحرب.

وما كدتُ أجففُ يديَّ من دم نبض التي قتلتها، وأنفض عن ثيابي تراب قبرها الذي دفنتها فيه، حتى كتبتُ روايتي الثانية

«نُطفة» لأكتشف أنه صار عليّ الآن أن أجيب: من هي أسماء؟!

سئلتُ هذا السؤال في معرض الشارقة منذ شهرين أكثر من مرة في غضون يومين!

أسماء هي أخت نبض، خرجتا من رحم قلم واحد، أفتخر بأبوتي لهما، ولا أجد حرجًا أن أعترف أني ضمنتهما صفات أنثوية أحبها، فقد اكتشفتُ أننا ونحن نصنع شخصياتنا الروائية نضعُ فيها شيئًا منا! ولكني أعترف أني بالمقابل لم ألتقِ بأي منهما في دروب الحياة!

قدرة كاتب على صنع شخصية أو حدث ما، لا يعني أبدًا أنه التقى تلك الشخصية أو عاش ذلك الحدث، شاهدتُ مرة في مقابلة مع الراحل عمر الفرا، يتحدثُ فيها عن أمسية شعرية ألقى فيها قصيدته الشهيرة «تسعة أشهر» التي تقمص فيها دور أم، قال: جاءتني في نهاية الأمسية امرأة وسألتني: هل سبقَ لك الحمل؟!

برأيي براعة الكاتب أن يصنع شخصيات يشعر معها القارئ، أنها من لحم ودم وليس من حبر وورق، ويصنع أحداثًا يشعر معها القارئ أنها وقعت فعلًا وليس مقطعًا جامدًا في رواية، والفرق بين أديب وآخر هو الفرق بين قدرتيهما على إعمال مخيلتهما!

صنع شكسبير روميو وجوليت على الورق، وقتل دوستويفسكي أبطال الجريمة والعقاب على الورق، صنع هينغراي فريدريك على ورق بطل روايته وداعًا للسلاح وقتله على ورق أيضًا، وقتل ألكسندر دوما أبطاله في غادة الكاميليا على الورق، وقتل نجيب محفوظ عمر الحمزاوي في روايته الشحاذ على الورق بعد أن اختار له فاجعة، وقتل سعيد مهران في اللص والكلاب على الورق

بعد أن دبر مقتله على أيدي رجال الشرطة ليرينا أن الشر يخسر المعركة نهاية المطاف ، وقتل غسان كنفاني أبطال روايته «رجال في الشمس» ضربة واحدة لأنهم جبناء لم يجرؤ أحدهم أن يدق جدران الخزان .

لم يكن شكسبير قاتلًا وإنما أراد أن يرينا أن الناس يحاربون الحبّ أكثر مما يحاربون البغض ، ولم يكن دوستويفسكي قاتلًا وإنما أراد أن يرينا أن لكل جريمة عقابًا مهما طال الزمن .

هذا لا يعني أن كل ما يكتبه الروائيون مختلق ، أم سعد كانت شخصية حقيقية عرفها غسان كنفاني لهذا لها نكهة خاصة لا توجد في بقية شخصياته ، ولكن لا يمكن لأحد أن ينكر أنه لم يُبدع في شخصياته التي اختلقها وما منا أحد إلا ويعرف شخصية أبي الخيزران ، وإذا كانت العرب قد قالت : النائحة الثكلى ليست كالنائحة المستأجرة ، إلا أني أؤمن أنّ النائحة المستأجرة يمكن أن تتقن نواحها حتى لتبدو كأنها ثكلى ، ونحن كذلك ، نائحات مستأجرات نعرف جيدًا كيف نبدو ثكلاوات!

مدوّنات الجزيرة

١٢ / ٢ / ٢٠١٧

موضة الإلحاد والتكفير!

أمّا قبل :

التكفير : ظاهرة دينيّة متطرّفة ناتجة عن غياب التفكير!

الإلحاد : إعاقة فكريّة ناتجة عن تأليه الإنسان لنفسه!

أمّا بعد :

لعلّكم عندما قرأتم عنوان المقال «موضة الإلحاد والتكفير» قد تساءلتم : هل يمكن الحديث عن الموضة خارج عالم الأزياء؟! ولكنكم لو تأملتم قليلاً لوجدتم أنّكم مثلي تعتقدون أنّ الأفكار زيّ! فأنتم ترون أنّ الأكثر أناقة هو الأجمل أفكاراً لا الأجمل ثياباً! ومع أنّ الأناقة في التفكير لا تتناقض مع الأناقة في الثّياب ، ولكن لو كان أحدكم مجبراً على أن يختار شريكاً لحياته بحيث يكون إمّا أنيقاً في تفكيره أو أنيقاً في ثيابه ، لاختار أناقة التّفكير بلا تردد ، ذلك أنّ التفكير المهترئ لا تغطّيه الثياب الأنيقة ، في حين أنّ الأفكار الأنيقة تجعل صاحبها أميراً ولو كان زيّه متواضعاً!

ومن أكثر الأمور التي تتميز بها أمّتنا «الأمة الوسط» اليوم هو التطرف! والتطرف هو كل ما جانب الوسطية تزمّتاً أو انحلالاً! لهذا بُلينا بفئتين ، فئة النّاس «الكول» التي تدّعي العقلانيّة إلى الحدّ الذي قادها عقلها لإنكار فكرة وجود إله لهذا الكون! والفئة الثانية هي الفئة «المؤمنة» التي ترى نفسها الفرقة النّاجية وكل ما عداها حطب جهنم ، وأنّ الجنّة سلعة قابلة للاحتكار ، يمنحونها لمن رضوا ، ويُحرّمونها عمّن سخطوا!

فالتكفيريون ضيّقوا ثوب الدّين ، ونصّبوا أنفسهم أرباباً ، وكأنّ بيدهم صكوك الغفران! وكأنّ الجنّة بيت أحدهم يُدخل إليه من شاء ويطرد منه من شاء! يحاكمون الناس على نواياهم ، ويجعلون من صغار الذنوب ذريعة لإخراج الناس من دينهم ، ولا يفرقون بين من عصى الله ومن كفر به ، ناسين أن الذنب والخطيئة أمران ملازمان للإنسان قبل أن يهبط الأرض ويستخلف فيها! وأننا فئة من النّاس نتساوى معهم في البشرية ونفتقر كما هم للعصمة ، وناسين أيضاً أنّ الأوائل كانوا يبحثون عن شبهة لإبقاء المخالف في الإسلام ، بينما هم يبحثون عن شبهة لإخراجه منه!

أما الملحدون فنقضوا غزل ثوب الدّين من بعد قوة أنكاثاً ، كما فعلت ربطة الحمقاء! ظانين أن الله تعالى فكرة اختلقتها البشرية لتنال من عقولهم ، وأن إنكاره نوع من أنواع الانتصار على التخلف ، والتميز عن سياسية القطيع ، قافزين عن الكثير من الأدلة العقليّة التي تتعطل عقولهم عندها ، وإن أكثرهم ليلحدون مكابرة ، وهم داخلون في قول الله تعالى «جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم» .

العلم الذي لا يصاحبه فهم صائب هو جهل متنكر! والعبرة ليست في الكتب وإنما في فهمها ، فما فائدة أن أحفظ الصحاح الستة دون أن أفهمها لأُنصّب بعدها نفسي إلها! وأمسك مقاليد الجنّة والنّار! وما فائدة أن أحفظ نظريات آينشتاين ، وأجادل في النسبيّة ، واتساع الكون ، ثم أعتقد أن هذا الكون قد خلق نفسه؟! لا بد قبل حمل الكتب من فهمها ، وقد أخبرنا الله تعالى أن الحمار يبقى حماراً ولو حمل أسفاراً!

الوطن

٦- ٢- ٢٠١٦

لقاءٌ عند الكعبة!

روى الأبشيهي في كتابه «المستطرف في كلّ فنّ مستظرف» قال:

قال الأصمعي: بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة إذ رأيت شابًا متعلقا بأستار الكعبة وهو يقول:

يا من يجيب المضطر في الظلم
يا كاشف الضر والبلوى مع السقمِ
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا
وأنت يا حي يا قيوم لم تنمِ
أدعوك ربي حزينًا هائماً قلقاً
فارحم بكائي بحق البيت والحرمِ
إن كان جودك لا يرجوه ذو سفه
فمن يجود على العاصين بالكرمِ

ثم بكى بكاءً شديدًا وأنشد يقول:

ألا أيها المقصود في كل حاجتي
شكوت إليك الضّر فارحم شكايتي
ألا يا رجائي أنت تكشف كربتي
فهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي
أتيت بأعمال قباح رديئة
وما في الورى عبد جنى كجنايتي

أتحــرقني بالنــــار يا غـــاية المنى
فـــأين رجـــائي ثم أين مــخــافــتي

يقول الأصمعي : فدنوت منه ، فإذا هو زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب سلام الله عليهم أجمعين ، فقلت له : سيدي ما هذا البكاء والجزع؟ وأنت من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة؟ أليس الله تعالى يقول : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا﴾؟

فقال رضي الله عنه : هيهات هيهات يا أصمعي ، إن الله خلق الجنة لمن أطاعه ، ولو كان عبدًا حبشيًا ، وخلق النار لمن عصاه ولو كان حرًا قرشيًا ، أليس الله تعالى يقول : ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ .

هذه القصة الجميلة تؤكد بالدليل القاطع أن تراثنا الرّوائيّ والوعظيّ يحتاج إلى تدقيق ، فالقصّة مُختلقة ، ولا أحتاج إلى كثير أدلة أسوقها لإقناعكم ، يكفي أن أخبركم أن عليّ بن الحسين رضي الله عنه ولد عام ٣٨ للهجرة وتوفي عام ٩٥ منه ، بينما وُلد الأصمعيّ عام ١٢١ للهجرة وتُوفي عام ٢١٦ منه ، أي أنّ زين العابدين تُوفي قبل ميلاد الأصمعيّ بـ ٢٦ سنة ، فمتى التقى الرّجلان؟!

طبعاً الأبشيهي ليس إلا ناقل ، والظنّ به أنها انطلتْ عليه ، وما أعتقد أنه من اختلقها ، والأصمعيّ ، بغض النّظر عن بعض ما جاء عنه ، إلا أنه أعقل من أن يدّعي لقاء شخص مات قبل مولده بستة وعشرين سنة! ولكن الذين يختلقون القصص يجدون في بعض الأسماء ثوباً فضفاضاً يلبسونه ما اختلقوا! ففي قصتنا هذه ليس مستغرباً أن يروي الأصمعيّ خبراً كهذا ، فهو راوية العرب

الأشهر ، وعليّ بن الحسين سليل بيت النّبوة ، فليس غريباً عنه هذا الزهد والورع والخشية .

والحقُّ أقول ، أني كنتُ حتى البارحة في صفّ من ظلموا الأصمعيّ ، واعتقدوا أنه اختلق كثيراً مما رواه ، لأنه غاب عني أمر مهم سآتي عليه لاحقاً ، ولكن قبل هذا أقول : السبب الذي دعاني وكثر معي لنقف هذا الموقف من الأخبار التي رواها الأصمعيّ أن كثيراً منها تحمل في طياتها مبالغات خيالية ، وأشياء ليس من المنطق أن تقع ، فلماذا قالها الأصمعيّ إذاً؟

الحقيقة أنّ الأصمعيّ لم يقلها! ولا يوجد بين أيدينا كتاب ألّفه الأصمعيّ يوجد فيه خبر يمكن بسهولة تكذيبه ، ولكن الرجل ثوب فضفاض فلا تكاد تجد كتاب تراث وأخبار وقصص إلا وله ذكر فيه! لهذا كثُر اللغط حوله ، لغط وصل للأسف إلى مرتبة الاتهام!

الأمر الذي انتبهتُ إليه هو أنّ الأصمعيّ روى كثيراً ، وكل من اختلق قصة وأراد لها أن تشتهر ألصقها به! هل يمكنني الجزم بهذا؟ الجواب : لِمَ لا! وهذا شيء معروف في العرب منذ القدم!

كلّ من كان له طرفة عن الجشع ألحقها بأشعب!

وكل من كان لديه طرفة في الحمق ألحقها بجحا!

وكل من كان لديه قصة في البخل ألحقها بأهل مرو!

حتى غدا هؤلاء «أيقونات» أكثر منهم أشخاصاً!

بل إنّ الأمر أقدم من أشعب وجحا وأهل مرو ، ففي الجاهلية مارس العرب هذا ، وفي الحديث الشّريف الذي رواه أحمد في المسند ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : حدث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نساءه ذات ليلة حديثا فقالت امرأة منهن

يا رسول الله كأن الحديث حديث خرافة فقال - صلى الله عليه وسلم- «أتدرون ما خرافة؟ إن خرافة كان رجلا صالحا من عذرة أسرته الجن في الجاهلية فمكث فيهن طويلا ثم ردوه إلى الإنس فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من أعاجيب فقال الناس حديث خرافة»!

وهكذا صار النّاس كلما سمعوا خبراً لا يُصدقه العقل، قالوا: حديث خرافة! فكما كلّ غريب أُلحق بخرافة، أُلحقت كلّ رواية عجيبة بالأصمعيّ، وكلّ جشع بأشعب، وكل بخل بأهل مرو!

مدوّنات الجزيرة

٢٢ / ١ / ٢٠١٧

دع القلق وابدأْ الحياة!

يُحكى أنّه في إحدى الحظائر تمّ فصلُ الأبقار عن الثيران بسياج من الأسلاك الشّائكة بغرض التلقيح في وقتٍ معيّن!

فَجاء أحدُ الثّيران وقد هاجتْ غريزته يسأل عن كيفية عبور السّياج الشّائك للوصول إلى المحبوبات!

فدلّوه على ثورٍ كبيرٍ يجلسُ بعيداً اسمه الاستشاريّ، فذهبَ إليه مستنصحاً!

فقال له الاستشاريّ: ابتعدْ عن السّياج مسافةً لا تقلّ عن مئة متر، واركضْ بسرعةٍ لا تقلّ عن سبعين كلم/س، واقفزْ بزاويةٍ لا تقلّ عن ستين درجةً! ثم اقضِ حاجتك وارجعْ بنفس الطريقة!

فقال له الثور الهائج: ماذا إن أخطأتُ في الحسابات، كالمسافة أو السّرعة أو القفز؟

قال له الاستشاري: سوف تخسر أعضاءك التناسلية في السّياج الشائك!

فقال له صاحبنا: وماذا أفعلُ بالحياة بعد ذلك؟!

فقال له: تصبحُ استشارياً!

تُذكّرني هذه الحكاية بمنظّري التنمية البشريّة!

والحكايا، كالأمثال بعموم اللفظ لا بخصوص السبب!

والمُراد منها مغزاها لا ألفاظها، والنّاس أكرم من أن يُنعتوا بما ورد!

المهمُّ أنّي لستُ على وئامٍ مع التّنظير والمنظّرين، لا لأني لا

أؤمن بسطوة الكلمة ، على العكس تماماً فالإسلام احتاج شعر حسّان بن ثابت كما احتاج سيف خالد بن الوليد رضي الله عن الجميع! ولا لأنّي لا أُقدّر النصح والإبلاغ ، على العكس تماماً أيضاً ، فرُبّ مبلّغ أوعى من سامع كما قال سيّدنا صلى الله عليه وسلّم في حجّة الوَداع! ولكنّي إنسانٌ واقعيّ لا أحبُّ بناء قصورٍ في الهواء!

التّنظير سهل ولكنّ الحياة ليست كذلك!

واجتياز البحر على الخارطة ليس كاجتيازه في مركب!

ومنظرو التنمية البشريّة يريدونك أن تعبر البحر وكأنّك من الحواريين بإمكانك أن تمشي على الماء!

في حين أننا في الواقع البحر أمامنا ، وفرعون وراءنا ، ولا موسى ليشقّ البحر بعصاه!

منذ سنواتٍ شاهدتُ حلقةً بعنوان برّاق «كيف تُكوّن ثروة ضخمة!» . .

يقدّمها خبير عرفتُ فيما بعد أنه منتوف مثلي وليس لديه ثروة ضخمة! . .

الأمرُ يشبه إلى حدّ بعيد صاحب عطارة أعرفه ، يُركّب خلطات للتنحيف وكرشه متر أمامه! . .

وكطبيب المحافظة على الشّعر الذي قصده صديق لي أرّقه تساقط شعره فوجده أصلع!

طبعاً مساعدة الآخرين على تخطي مشاكلهم المالية والصّلاعية والزوجية أمرٌ نبيل ، ولكن عندما تحدثني كيف أحافظ على زوجتي ثمّ أعرف أنك طلقتَ مرتين يتحوّل الأمر من نُبل إلى نكتة! وينطبق عليك قول شاعرنا :

كالعيس في البيداء يقتلها الظما
والماءُ فوق ظهورها محمولُ!

تماماً كما ألّف ديل كارنجي كتابه الشهير «دع القلق وابدأ الحياة» ثمّ بعد ذلك شنقَ نفسه! الطريفُ أنّ الكتاب ما زال من أكثر الكتب مبيعاً!

بالمناسبة أنا لا أسخر من أحد، وأعرف أن كلمة بإمكانها أن تُغيّر حياة إنسان، وأعرف أنه من الممكن أن يملك المرء نصيحة حلوة لا يمكنه هو تطبيقها، لأنّ الحياة قد تضعنا في ظروف زفت أحياناً! فلا تكفوا عن منح النّاس البهجة!

كما حدث في قصة المضحك الباكي التي درسناها ونحن صغار، والقصة باختصار أنّ مريضاً جاء إلى طبيب يشكو إليه وهناً في جسده، وبعد فحوصات مخبرية وتحاليل، قال له الطبيب: من المؤكد عندي أنك لا تعاني شيئاً عضوياً، وعلى الأرجح أن مشكلتك نفسيّة، جرّب أن تخرج للحياة وتفعل أشياء جديدة، سمعتُ أنّ في المدينة مهرجاً يقفزُ المتفرجون من مقاعدهم لخفة دمه، ما رأيك أن تذهب وتتفرج عليه؟! . . فقال له المريض بعينين دامعتين: أنا ذاك المهرّج يا سيدي!

اسدوا النصائح للنّاس
أخبروهم كيف يُحافظون على زوجاتهم ولو طلقتكم زوجاتكم!
وساعدوهم على أن ينحفوا ولو تدلّت كروشكم أمامكم!
أخبروهم كيف يصبحون أغنياء ولو كنتم تستحقون الزكاة!
ولكن بالله عليكم كونوا واقعيين!

مدوّنات الجزيرة

١٨ / ٩ / ٢٠١٦

فقه الاختلاف!

أورد الذهبيّ في رائعته سير أعلام النبلاء ، أنَّ يونس الصدفيّ قال :

ما رأيتُ أعقل من الشافعيّ ، ناظرته يومًا في مسألة فلم نتفق فلقيني بعدها وأخذ بيدي ، وقال :

يا أبا موسى أما يستقيم أن نكون إخوانًا وإن اختلفنا في مسألة!

من الواضح أن نقاش الشافعيّ ويونس الصدفيّ لم يكن حول صحة النصِّ الذي تناقشا فيه من عدمها ، وإنما حول فهم الحكم من النص ، فالشاك في صحة النص لا يُعمل عقله في استنباط الحكم منه أساسًا ، ولكن بما أن الرجلين اختلفا في فهمه فهذا يعني بالضرورة أنهما اتفقا في إثباته!

إذًا الاتفاق حول إثبات نص لا يعني بالضرورة الاتفاق في فهمه ، فاستنباط الحكم من النص هو ثمرة إعمال العقل فيه ، وبما أن عقول الرجال تتفاوت ، وطرقهم في الاستدلال تختلف كان من الطبيعيّ أن تختلف الأحكام المستنبطة منه ، وليس أدلّ على هذا من اختلاف الأحكام المستنبطة من آي القرآن ، فالقرآن قطعي الثبوت ، ولا يقول بخلاف هذا مسلم ، ومع هذا نجد اختلافًا واضحًا في الأحكام الفقهية المستقاة منه .

ومخطئ من يعتقد أن الاختلاف في فهم النص الديني جاء في مرحلة متأخرة ، فالحقيقة أن الصحابة عرفوا هذا مبكرًا ،

وتفاوتت أحكامهم تفاوتًا ملحوظًا ، وليس أدلّ على هذا من حديث الإمام مالك حول سبب تسمية كتابه بالموطأ ، فهو يذكر أن سبب تسميته لكتابه بهذا الاسم : أن أبا جعفر المنصور لقيه في الحج ، فقال له : يا مالك وطّئ للناس كتابًا تتجنّب فيه شدائد ابن عمر ، ورخص ابن عباس ، وشواذ ابن مسعود . . . فكان الموطأ!

إذًا الاختلاف ينقسمُ إلى قسمين :

اختلاف في الدين واختلاف في الدنيا

والاختلاف في الدين أعني به الاختلاف في الفقه

وأي تعامل معه يخرج عن سماحة الشافعيّ مع يونس الصدفي هو تشدد مذموم في غير موضعه ، لأن اختلاف الأفهام في استنباط الأحكام أوجد سعة للناس ، وكفاهم مؤونة أن تتشابه طرقهم وقد اختلفت ظروفهم!

وقد قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : ما سرّني لو أن الصحابة اتفقوا فيما اختلفوا فيه ، فقد كان في خلافهم في الفقه رحمة للناس ، ناهيك أنّ خلافات كثيرة يشتد فيها الصراع وهي حول مسائل لا طائل منها فلا يترتب عليها عمل ، ولا ترتبط بعقيدة .

وقد شهدتُ بنفسي نقاشًا حادًا بين صديقين حول ما إذا كانت الأرض كلها قد غرقت في طوفان نوح ، أم المنطقة التي سكنها قومه فقط ، ولا أدري حتى اللحظة ما الذي يزيد أو ينقص في إيمان المرء من معرفة هذه الجزئيّة ، أو ما الذي يزيد في المغزى الذي من أجله أُوردت هذه القصة!

ذكرني هذا النقاش بالرجل الذي جاء إلى الشعبيّ

يسأله : ما اسم زوجة إبليس؟

فقال له الشعبيّ : ذاك زواج ما شهدناه!

أما النوع الثاني من الاختلاف فهو اختلاف في الدنيا ، وقد خلقنا الله شعوبًا وقبائل ، لكل شعب وقبيلة منظومة قيم ومبادئ وعادات وتقاليد ، ليس المطلوب منا أن نتبع الآخرين في قيمهم ومبادئهم وعاداتهم وتقاليدهم ، على العكس تمامًا ، على الإنسان أن يتمسك بهويته الثقافية ما دام يراها صحيحة ولكن عليه بالمقابل أن لا يتصرف مع الناس صانعًا من نفسه مقياس ريختر ، ما وافقه كان صحيحًا وما خالفه كان خاطئًا ، فسمة هذا الكون التنوع ، ولو تشابه الناس في كل شيء لصار هذا الكوكب مملاً ، فأحيانًا الاختلاف هو ما يعطي للأشياء قيمتها ، فلا يكن أحدنا مثل «بروكوست»!

وبروكوست هذا بطل أسطورة إغريقية طريفة حول الاختلاف . تقول الأسطورة إن بروكوست كان حدادًا يدعو الزوار للمبيت عنده ، وكان من كرمه ينزل للضيف عن سريره ، ثم بعد هذا إذا وجد أن الضيف أطول من السرير قصّ ما زاد من قدميه ليجعله على مقاس سريره . وإذا وجد أنّ الضيف أقصر من سريره بدأ يشدّه محاولاً جعله على مقاس السرير وهكذا حتى تنخلع قدما! ولو تأملنا في الحياة من حولنا لوجدنا بيننا الكثيرين من أمثال بروكوست ، لن يرضيه إلا أن تكون نسخة عنه ، عليك أن تقرأ ما يقرأ ، وتحب ما يأكل ، وتستعذب ما يشرب ، وتستمتع بما يفعل .

هذا الكوكب فندق كبير لسنا نزلاءه الوحيدين ، هناك آخرون يقطنون معنا فيه ، ومن حقهم أن يعيشوا حياتهم بالطريقة التي يريدون ، ما داموا لا يسببون لنا أذية ، وتذكروا دومًا أن الجميع في الوفاق نبلاء ، ولكن النبلاء الحقيقيين يظهرون في الخصومات! وأنّ الذين لا يعرفون كيف يختلفون لا يعرفون كيف يتّفقون!

مدوّنات الجزيرة ٢١ / ٨ / ٢٠١٦

إلى سيّدة أمريكيّة!

المكان : بقعة ما من هذا الكوكب المُخزي تُسمّى «أمريكا»!

الزّمان : لا يهمُّ فبعضُ الأشياءِ عارٌ بغض النّظر عن زمن ارتكابها!

أمّا الحدث : شرطيٌ أبيض يقتلُ رجلاً أسودَ أعزلَ بدم بارد ، تبيَّن فيما بعد أن ذنب القتيل كان لونه! فثارت حفيظة السُّود ، وسُفك دم ، وشهدَ العالمُ أن أمريكا تبعدُ عن الحضارة بُعد الأرض عن الشَّمس! وأكثر ما آلمني بعد مشهد قتل إنسان بلا جريرة هو مشهد في اليوم التالي ، حيث انتشرتْ صورة لامرأة سوداء أمام رجال الشرطة الذين احتشدوا لقمع المتظاهرين مكتوب فيها : لسنا عرباً لتقتلونا ونسكت!

وكالعادة أجدني من فرط العجز إذا أغضبني مشهدٌ كتبتُ عنه! ثمّ تبيّن فيما بعد أنها فوتوشوب! وفي الحقيقة هذه ليست أول مرّة أُصدّق أمراً يتبيّن لي لاحقاً أنه فوتوشوب ، صدّقت مرةً أن بلاد العُرب أوطاني ، ثمّ اكتشفتُ أن أوطاني لا تعطيني فيزا لزيارة معرض كتاب! وصدّقتُ اتفاقية الدّفاع العربيّ ، ثم شاهدتُ العراق يُحتل والعرب يتفرّجون! وصدّقتُ أن فلسطين هي القضيّة المركزية ، ثمّ اكتشفتُ أن انتقال بوغبا إلى مانشستر يونايتيد أكثر مركزّية منها! وأكثر شيء مضحك صدّقته هو أننا بشر ، ثمّ لما رأيتُنا نُسحل في رابعة ، وسوريا ، اكتشفُ أنّ حياتي ليست إلا مسلسل

فوتوشوب ، وأنّ هذه الصورة لم تكن الخديعة الوحيدة ، المهم أنني كتبتُ ذات فوتوشوب رسالة إلى تلك المرأة أقول لها :

تحية طيبة وبعد :

اعلمي أن وقوفكِ كالجبل مطالبة بحقك هو محط تبجيل وتقدير عندي ، فأنا أَحترم أولئك الذين يستميتون للدفاع عن حقوقهم ، لأي دين أو ملّة أو عرق أو لون انتموا ، وأمقتُ الخانعين ولو كانوا ذوي قربى!

ولكن لعلكِ لا تعلمين أنه منذ ألفٍ وأربعمئة سنة ، أي قبل اكتشاف أمريكا بقرون ، كان بيننا رجلٌ له نفس لون بشرتكِ ، اسمه بلال بن رباح ، اتخذه نبيّنا مؤذناً ، وفي العرب ناس أشرف منه نسباً ، وكان خليفتنا يقول عنه أمام الناس : بلال سيّدنا ، وأعتقه سيّدنا .

فلم نكن أيتها الموقرة أول أمة حررت عبيدها فقط

وإنما أول أمة جعلتهم سادة!

ولم نكن كما نحن اليوم ، كان عندنا دولة تفوق دولتكِ قوةً ، وحكمنا بلاداً ما كان لكم أن تحكموها إلا بشقّ الأنفس ، وكنا بالناس رحماء على عكس دولتكِ إذ حكمتْ ، ولم نكن أذلاء نُقتل فنسكت ، وحدث في التاريخ مرتين أن جهزنا الجيوش لأجل امرأة واحدة أُهينت ، مرة في عهد نبينا ، ومرة إذ خرجت امرأة تستنجد خليفتنا قائلة : وامعتصماه . . فقال لها : لبيكِ ، لأبعثنّ لكِ جيشاً أوله عندكِ ، وآخره عندي ، واقرئي إن شئتِ عن فتح عموريّة!

أيتها الموقرة :

كنا قوماً أولي بأس شديد ، وإذا مرت سفننا في البحر الأبيض المتوسط باتجاه الأندلس كفّتْ كنائسكم في إيطاليا عن قرع أجراسها كي لا نغضب ونفتحها!

وعندما كتب خالد بن الوليد إلى كسرى يتوعده ، وخالد بالمناسبة كان رجلاً أخبر بالحرب من كل جنرالات البنتاغون

أرسل كسرى إلى ملك الصين يطلب المدد

فرد عليه ملك الصين : لا قِبل لي برجال لو أرادوا خلع الجبال لخلعوها!

وعندما كان قادتكم يسيئون الأدب في رسائلهم كنا نرفض أن نكون أهل كلام كما نحن اليوم ، فقد كتب هارون الرشيد إلى نقفور يقول :

من هارون الرشيد إلى نقفور كلب الروم ، الجواب ما ترى لا ما تسمع ، والسلام!

وهارون أيتها الموقرة هو الذي كان يخاطب السحابة في كبد السماء ، ويقول لها : أمطري حيثُ شئتِ فسيرجع إليّ خراجكِ!

ولا تحسبي أننا لم نكن إلا أهل حرب ، وإنما كتبتُ إليكِ بناءً على ما كان منكِ ، كنا أهل عدل أيضاً ، لا نقبل أن تُهان الأقليات أو تظلم ، وعندما ضرب ابن عمرو بن العاص قبطياً لأنه فاز عليه بالسباق ، وجاء القبطيّ شاكياً إلى عمر ، أرسل عمر في طلب عمرو وابنه ، ولما حضروا بين يديه قال للقبطيّ : اضرب ابن الأكرمين كما ضربك ، وقال قولته المشهورة التي تفتقدونها اليوم في بلدكِ : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

وإذا كنتم اليوم تعلموننا حقوق الإنسان ، فقد علمناكم حقوق

الحيوان منذ ألف وأربعمئة سنة ، وكان خليفتنا يغضب إذا رأى ناقة تحمل فوق ما تستطيع فيزجر سيدها ، وكان حفيده يقول لأعوانه : انثروا القمح على رؤوس الجبال كي لا يُقال : جاع طير في بلاد المسلمين!

كنا أيتها الموقرة أهل علم أيضاً ، عندما كنا نأسر لم نكن نُعري أسرانا كما فعلتم في أبي غريب ، وإنما كنا نطلب من أحدهم أن يعلّم عشرة منا القراءة والكتابة نظير حريته!

وكان خليفتنا يعطي وزن الكتاب المترجم ذهباً ، وفي عام ١٣١٣هـ ؛ أمر ملككم فيليب بإحراق المصابين بالجذام لأنكم كنتم تعتقدون أن هذا المرض لعنة من السماء ، كنا قبل هذا بستمئة عام قد أقمنا مستشفى متخصصاً لعلاجه!

وعندما حكمت كنيستكم على جاليليو جاليلي بالحرق لأنه قال أن الأرض تدور ، كان البيروني قد سبقه لحساب قطر كوكب الأرض بدقة!

وعندما كانت أوروبا عمياء كان ابن الهيثم يؤسس علم البصريات

وعندما كنتم تعدون أغنامكم على أصابعكم كان الخوارزمي منشغلاً بتأسيس معادلات الرياضيات

وعندما كنتم تمشون على الأرض كان ابن فرناس يحاول أن يطير!

لو بقيتُ أعدُّ لكِ ما انتهينا ، ولكني أكتفي!

السيّدة الموقرة :

كما رأيتِ ؛ لم نكن كما نحن اليوم ، ولكن إذا أردتِ أن

تعرفي لماذا نحن هكذا فاسألي دولتكِ عنا ، سليها عن قواعدكم العسكرية في بلادنا ، سلي حكومتكِ كم حاكماً نصّبت وكم حاكماً عزلت ، ثم من قال لكِ أننا نُقتل ونسكت؟ إسرائيل تقصفنا بأسلحتكم في غزة ، فهل سكتنا؟ وبصمتكم وتخاذلكم نُقتل في سوريا فهل ركعنا؟

أيتها الموقرة :

إن كنا ضعفاء اليوم فبما اقترفت أيدينا ، ولكنكم لستم أبرياء بما وصلنا إليه ، وإن كان مقتل رجل واحد بدم بارد قد أثار حفيظتكِ ، فنحن نُقتل كل يوم ، إما بأيدي جنودكم أو بأمر حكومتكم .

من حقكِ أن تغضبي لأنهم لم يعاملوكم كبشر ، لكن هل سألتِ نفسكِ كيف تعاملوننا؟!

مدوّنات الجزيرة

١٤ / ٨ / ٢٠١٦

الفهرس